سيرة السيدة

عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها

تأليف

العلامة السيد سليمان الندوي

عرّبه وحققه وخرّج أحاديثه

محمد رحمة الله حافظ الندوي

دار القلم

دمشق

سيرة السيدة

عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها

تأليف

العلامة السيد سليمان الندوي

عربه وحققه وخرج أحاديثه

محمد رحمة الله حافظ الندوي

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة السيدة

عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها

طبعة دار القلم الأولى
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم ـ دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية ـ بيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير ـ جدة : ٢١٤٦١ ـ ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

تقديم

بقلم

الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين: محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإنني لا أكاد أنسى ذلك اليوم السعيد، الذي يرجع تاريخه إلى عام ١٩٨٦م، يوم حظيت بزيارة الأخ المفضال سعادة الأستاذ محمد علي دولة في مقره العلمي في جدَّة، بعد عودتي من أداء فريضة الحج من مكة المكرمة، وكانت معي زوجتي العزيزة (حفظها الله تعالى)، فرحَّب بنا الأستاذ الكريم، وأكرمنا بضيافة كريمة لم تكن تخلو من مبرَّة علمية، وهي أنه خلال هذا اللقاء وتبادل الآراء حول إحياء بعض المآثر العلمية التاريخية في الهند التي ألفت باللغة الأردية، وترجمتها إلى اللغة العربية، سألني عن كتاب «سيرة السيدة عائشة رضي الله عنها» للعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله، وترجمته إلى اللغة العربية. وقد كان وَعْدٌ مني بالقيام بهذا العمل، وفعلاً بدأت ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، ولكنني واجهت مشكلة تخريج الأحاديث التي تتضمنها هذه السيرة الطيبة من مصادرها الأصلية، ذلك أنني لم أرَ من المناسب أن أترجم هذه الأحاديث التي شملت الكتاب بمفاهيمها الأردية دون إشارة إلى نصوصها العربية، فأسندت هذا العمل إلى أخي العزيز الأستاذ محمد رحمة الله الندوي، الذي كان طالباً في جامعة ندوة العلماء يوم ذاك، وطلبتُ منه تخريج الأحاديث من مصادرها، وقد وُفِّق إلى ذلك بشكل جزئي لم يسعفني في تقديم عملية الترجمة، حتى توقفت عن الترجمة لبرهة من الوقت ريثما يتيسر لي عمل التخريج في فرصة مواتية.

ولكن شغلني أداء المسؤوليات العديدة والأعمال الرتيبة التي كنت مسؤولاً عنها بحكم وظيفتي في جامعة ندوة العلماء ومجلة البَعْث الإسلامي.

وسافر الأخ العزيز محمد رحمة الله الندوي إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لتلقي المزيد من العلم وتقوية اللغة العربية التي كان قد تعلَّمها في ندوة العلماء، وكان مبرّزاً فيها بين زملائه، وهنالك بدا لي أن يتولَّى الأخ العزيز ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، نظراً إلى أشغالي وأعمالي، وما حصل فيها من التأخير، ونحمد الله على ما وفقه لهذا العمل، واستكمال ترجمة الكتاب، وإعداده للطباعة ولو بشيء من التأخير، فقلت في نفسي: إنْ لم أتمكن من القيام بهذا العمل العلمي العظيم فقد وُفق إليه أخ عزيز عليّ أثق فيه وأعتبره جديراً بأن يتحمّل هذا العبء الثقيل، الذي لم أستطع أن أتحمله، فجزاه الله تعالى أحسن ما يجزي به عباده العاملين المخلِصين، ويتقبل عمله، ويعم نفعه في الأوساط العلمية والدينية.

❁ ❁ ❁

أمّا الكتاب ـ وهو من تأليف العلّامة السيد سليمان الندوي رحمه الله أحد كبار علماء ندوة العلماء وأستاذ سماحة العلَّامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله ـ فإنّه يتميّز بالتحقيق العلمي والدراسة التاريخية لحياة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، التي كانت مدرسة علمية عظيمة لكبار الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا يستفيدون منها في جميع المسائل العلمية والقضايا الدينية، وكانوا يراجعونها في كثير من الأحكام الفقهية الدينية لأنها كانت ذات رسوخ وتفقه فيها.

ومن هنا كانت شخصية أم المؤمنين مصدراً كبيراً للعلم والدين وعلوم الكتاب والسّنة، وكانت تتميز بالورع في بيان الآراء الذاتية، فكانت أمينة سر النبي ﷺ في جميع جوانب الحياة، وحافظة لأحاديثه ﷺ التي سمعتها وروتها.

لقد تحدَّث المؤلف الكريم رحمه الله عن حياة أم المؤمنين ومكانتها العلمية

والحديثية والفقهية، وبصيرتها الدينية، وتوجيهاتها في المسائل والقضايا الحيوية، ولم يترك شيئاً من تميزاتها وخصائصها، وما كانت تتمتع به من الرؤى الصالحة والنظرة العميقة في الشريعة الإسلامية، فَضْلاً عما أودع الله فيها من البراعة العلمية والذكاء الخارق، والحب العميق الخالص لسنة رسول الله ﷺ، والحرص الشديد على اتباعها، وعلى تطبيق الشريعة الإسلامية على حياة المسلمين فردية وجماعية، في جميع المجالات والمناحي.

وهناك مؤلفات عديدة حول حياة أم المؤمنين لا تنقصها الموضوعية والأصالة الدراسية، إلا أن لكلٍّ مؤلف منهجاً خاصاً في عرض الصور الحيَّة، وأسلوباً متميزاً للبيان الواضح، ولعل هذا الكتاب يفوق في بعض جوانبه كثيراً من الكتب التي صدرت وتصدر في المستقبل في هذا الموضوع.

وإنني إذ أهنئ المترجمَ العزيز والناشرَ الكريم على طبع هذا الكتاب الجليل في ثوب قشيب وأنيق؛ أرجو أن يتقبل الله من الجميع مجهوداتهم في إعداد هذا الكتاب وإصداره، ويجعله من الذخائر العلمية والدينية التي لها قيمة كبيرة في الدنيا والآخرة، والتي تعتبر زيادة قيِّمة في المكتبة الإسلامية.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه وبارك وسلم.

لكنو ١٢ / ٤ / ١٤٢٣هـ
٢٤ / ٦ / ٢٠٠٢م

كتبه بيمينه
سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي
ومدير جامعة ندوة العلماء بلكنو الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وبمنّه وكرمه تكمل الأهداف والغايات، والصلاة والسلام على المبعوث بالهدى ودين الحق من فوق سبع سماوات، وعلى الأنبياء والمرسلين كافة، وعلى الأصحاب الغرِّ المحجَّلين، وآل نبينا وأزواجه المطهّرات.

وبعد: فإنَّ أخصّ ما يبهر طالب العلم في سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو علم زاخر كالبحر بُعْدَ غَوْر، وتلاطم أمواج، وَسَعة آفاق، واختلاف ألوان، فما شاء امرؤٌ من تمكن في فقه أو حديث أو تفسير، أو علم بشريعة، أو آداب، أو شعر، أو أخبار، أو أنساب، أو مفاخر، أو طب، أو تاريخ، إلا هو واجد منه ما يدهشه عند هذه العبقرية الفذَّة، ولن يقضي عجباً من اضطلاعها بكل ذلك وهي لم تتجاوز بعدُ الثامنة عشرة من عمرها.

ومن هنا نوقن أن حياة أم المؤمنين بَنَتْ مجداً باذخاً لتاريخ المرأة العلمي في الإسلام، بل إن عبقريتها وحدها كفيلة بملء تاريخ كامل، فلا نجد في عبقريات الرجال والنساء في تواريخ الأمم ما يداني مكانة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فمن هذا شأنها وهذه مكانتها وتلك درجتها وعظمتها كانت أحق وأجدر بأن تُدرس حياتها، ويُهتم بإبراز أهم خصائص شخصيتها، وذكر مناقبها وفضلها على الأمة الإسلامية جمعاء، بل هو دَيْن في عنق الأمة يجب أن تقوم بأدائه.

وفي اعتقادي إن كتاب كبير علماء الهند في عصره وشيخ الندويين العلامة السيد سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ أُولى المحاولات من نوعها لأداء هذا الدَّيْن، وكشف الستار عن مكانة هذه العبقرية الفذة والشخصية العظيمة التي صنعت العظائم، كيف لا! وقد ظفرت بالرعاية التي هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة.

وقد تبع الشيخَ الندويَّ رَحِمَهُ اللهُ علماءُ[1] كتبوا عن سيرة وشخصية أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلا أن كتاباتهم تأتي في إطار خاص، وتتناول جوانب معينة، ومعظمها لا يتجاوز سرد الوقائع والأحداث الواقعة في حياتها.

أما كتاب الشيخ الندوي فهو في رأيي بمثابة موسوعة علمية وحضارية وثقافية لعصر أم المؤمنين وحياتها، يبرز كل جانب من جوانب حياتها من العلم والفقه والاجتهاد والتوجيه والإرشاد، والاجتماع والسياسة، بالإضافة إلى تقديم نموذج مثالي للعشرة الزوجية المتكاملة، التي من حقها أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة، لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها، أو كانت أرضى من أم المؤمنين عن حياتها.

ولما طلع هذا السِّفر العظيم (كتاب سيرة عائشة) على مِنَصَّة العلم والأدب، الذي فاض به القلم السيّال من صاحب القدم الراسخ والعقل الثاقب والفكر الناقد نَسِيجُ وَحْدِهِ الشيخ الندوي، كان ذلك منًّاً منه على سائر الأوساط العلمية، وإضافة جديدة لذخائر المكتبة الأردية، وفضلاً عظيماً على

---

(١) ومن هؤلاء العلماء: الكاتب المشهور والأديب النقّاد عباس محمود العقّاد الذي ألف كتابه «الصديقة بنت الصديق» وقد طبع في دار المعارف بمصر عام ١٩٥٧م، والأستاذ سعيد الأفغاني الذي ألّف كتابه «عائشة والسياسة»، ثم جاء بعده الأستاذ عبد الحميد طهماز وألف كتابه «السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام» وطبع ضمن سلسلة «أعلام المسلمين» تحت إشراف ورعاية صاحب السعادة الأستاذ محمد علي دولة الموقر حفظه الله تعالى، وذلك في دار القلم دمشق، الطبعة الخامسة عام ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

كل النساء المؤمنات اللاتي كن يتطلعن إلى سيرة عظيمة ترشدهن إلى الأسوة الفاضلة والقدوة المثالية.

وهل تجد المرأة المسلمة قدوة أعلى وأمثل وأفضل من قدوة أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها عبر التاريخ الإسلامي بأسره؟؟.

ظهر هذا الكتاب لكي ينفخ روحاً جديدة في النساء المسلماتِ، فيجدن بغيتهن في سائر مجالات الحياة، ويقوم بإحياء تلك السنن الشريفة التي تناساها الناس على مرّ الأيام والعصور، ويذكّر شقائق الرجال بتلك الدروس والعبر والسير التي ينبغي للمرأة المسلمة الاحتفاظ بها والعضّ عليها بالنواجذ. وفعلاً كان هذا محاولة ناجحة، وخير اختيار من مؤلف قدير، كتب فأدى حق الكتابة، وأجاد وأفاد.

إلا أن هذه الدُرّة النادرة الثمينة والخدمة العلمية القيّمة ظلّت حبيسة اللغة الأردية، واقتصر نفعها على الناطقين بالأردية فحسب، وكانت الحاجة ماسة إلى نقل هذا التراث العلمي والكنز الثمين إلى لغات العالم كلها، وعلى رأسها اللغة العربية، لغة الكتاب والسنة، وذلك لكي يعم نفعه، ويشيع خيره في الجميع.

وبحمد الله وعونه وفضله علينا أننا اليوم نتشرف بنقل هذا السفر المبارك إلى اللغة العربية وخدمته الخدمة العلمية اللائقة، وبالتالي تقديمه إلى إخواننا العرب، علماً أن فن الترجمة والتعريب من الفنون الصعبة التي قلّما يتكلل فيه المترجم بالنجاح، إلا إذا كان عنده إلمامٌ بروح الكتاب الذي يترجمه وبمقاصدِه، وإدراكٌ بما له وما عليه، ودراية كاملة بالموضوع الذي يعالجه الكتاب.

وعلى هذا فهذه محاولة متواضعة وجهد علمي من طالب علم لا يملك الشيء الكثير من المران والممارسة في هذا الفن، إلا أنه قام به وشمّر عن ساعد الجد متوكلاً على الله الموفق والمعين، ومستجيباً لدعوة من لا ترد دعوته.

هذا وقد كان منهجي في ترجمة الكتاب وتحقيقه وتخريج أحاديثه حسب الخطة الآتية:

١ ـ الترجمة الحرفية لكل ما تناوله المؤلف رحمه الله دون زيادة أو نقصان، إلا إذا مسّت الحاجة إلى شيء من ذلك.

٢ ـ عزو الآيات القرآنية إلى السّور وأرقام الآيات.

٣ ـ نقل نصوص الحديث الشريف حرفياً من المصادر الأصلية.

٤ ـ تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب تخريجاً علمياً دقيقاً بمراجعة الكتب الأصول في الحديث، والتزمت بذكر المصدر والكتاب الذي ورد فيه الحديث ورقم الحديث، وذلك إذا كان الحديث في الكتب التسعة أو أحدها، أما إذا كان الحديث في كتب السنن الأخرى والمسانيد والمعاجم والمجامع والمستدركات وغيرها فأعزوه إلى جزء الكتاب وصفحته وكذلك رقم الحديث، والباب الذي ورد فيه الحديث.

٥ ـ الحكم على الحديث بالصحة أو الضعف في بعض الأماكن حيث تبين لي ذلك من خلال أقوال المحدثين وفي ضوء آراء علماء الفن.

٦ ـ عدم الاقتصار على المصدر الذي أحال إليه المؤلف في الهامش أو استفاد منه، وإنما حاولت أن أراجع أغلب مظان الحديث، والمراجع المتوفرة.

٧ ـ هناك مراجع أحال إليها المؤلف بصدد رواية أو حديث، لكن تلك الرواية ضعيفة بسند ذلك المرجع، فأشرت إلى من رواه بسند صحيح وذكرته إن اقتضت الحاجة، ثم أتبعته بما ذكره المؤلف.

٨ ـ نقل الروايات التاريخية بنصوصها من مصادرها الأصلية، دون الاقتصار على مرجع واحد، إن وجد غيره.

٩ ـ ذكر نصوص الأحاديث التي لم يتناولها المؤلف في صلب الكتاب وإنما أشار إليها فقط للاستدلال على شيء معين أو إثبات حكم خاص.

١٠ ـ التعليق على بعض المواضع من الكتاب مما دعت الحاجة إليه لتوضيح رأي أو إبداء وجهة خاصة.

١١ ـ ذكر لمحة موجزة عن حياة المؤلف وآثاره العلمية ومآثره الخالدة، وكلمة عن كتاب «سيرة عائشة».

١٢ ـ عمل فهرس لموضوعات الكتاب.

١٣ ـ عمل فهرس للمصادر والمراجع التي استقيت منها في ترجمة وتحقيق هذا الكتاب.

وأخيراً أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل مني هذا الجهد العلمي المتواضع، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم وينفع به، وأصلّي وأسلّم على رسولنا وحبيبنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى صحابته أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه
العبد الفقير إلى الله
محمد رحمة الله الندوي

الدوحة ٢٦ / ١ / ١٤٢٣هـ
١٥ / ٣ / ٢٠٠٢م

لمحة موجزة عن حياة العلامة

سليمان الندوي رحمه الله

اسمه ونسبه:

هو العلامة الكبير، المفسّر الشهير، الفقيه المحدث، المتكلم المؤرخ، الكاتب القدير، والنابغة في الإنشاء والأدب، سليمان بن أبي الحسن بن محمد شير المعروف بالحكيم محمدي بن عظمت علي بن وجيه الدين المعروف بالأميرجكن. . . . . ، ويصل نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(١)].

وأمه هي السيدة قطب النساء بنت السيد حيدر حسين بن كاظم حسين بن خادم حسين. . . . ، ويصل نسبها كذلك إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(٢)].

أسرته:

يتحدر السيد الندوي من أسرة حسينية النسب، مشهورة بالتقوى والعلم، وينتهي إلى بيت كريم من بيوت الأشراف كثير المآثر والمفاخر، معروف بالعلم والأدب والفضل والإحسان.

مولده:

ولد العلامة الندوي في قرية ديسنة من ولاية بيهار في الهند يوم الجمعة لسبع بقين من شهر صفر سنة اثنتين وثلاثمئة وألف من الهجرة، الموافق الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني نوفمبر سنة أربع وثمانين وثمانمئة وألف.

---

(١) نسب سادات وملوك ديسنة ص٢.

(٢) نفس المصدر.

نشأته:

نشأ رَحِمَهُ اللهُ في بيئة علمية وأدبية، وجوّ من الصلاح والتقوى، كان أخوه أبو حبيب أحد كبار العاملين في مجال إصلاح المجتمع والدعوة إلى التوحيد والسنة، فكان العلامة الندوي يقرأ كتاب «تقوية الإيمان» على أخيه، وهو يشرحه، فنشأ السيد الندوي على عقيدة صافية لا تشوبها بدع أو خرافات، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «كان هذا أول كتاب علّمني طريق الحق تعليماً ثبتت جذوره في قلبي»[(١)].

طلبه للعلم:

بدأ دراسته الابتدائية على علماء قريته، وقرأ على شقيقه الأكبر السيد أبي حبيب النقشبندي المتوفى عام ١٩٢٧م اللغة الفارسية وآدابها واللغة العربية وقواعد النحو والصرف، كما قرأ أشياء على والده، ثم سافر في عام ١٨٩٨م إلى قرية فلواري شريف بولاية بيهار، ومكث بها عاماً، قرأ هناك على الشيخ محيي الدين المحبي الفلواروي، حيث نشأ فيه التذوق للأدب والشعر، وأخذ دروس المنطق من العلامة سليمان الفلواروي.

ثم رحل إلى المدرسة الإمدادية في دربنجه بولاية بيهار، قرأ هناك كتاب «الهداية» للمرغيناني في الفقه الحنفي على الشيخ مرتضى حسين الديوبندي، و«شرح التهذيب» في المنطق على الشيخ فدا حسين الآروي.

التحاقه بدار العلوم لندوة العلماء لكنو الهند:

رحل العلامة الندوي إلى لكنو، والتحق بدار العلوم لندوة العلماء في عام ١٩٠١م وبقي هناك خمس سنوات، حتى نال الشهادة سنة ١٩٠٧م، وكان من أهم مشايخه في ندوة العلماء:

١ ـ المفتي الكبير العلامة الشهير الشيخ الفاضل عبد اللطيف بن إسحاق الحنفي السنبهلي، المتوفى عام ١٣٧٩هـ، وقد قرأ عليه الشيخ الندوي كتبَ الفقه.

---

(١) الكتب التي لها منة على العلماء الأعلام، ص١٥.

٢ ـ الشيخ العالم الكبير المحدث حفيظ الله البندوي، المتوفى عام ١٣٦٢هـ، وقد أخذ السيد الندوي عنه الحديث الشريف، وشيئاً في علم الهيئة.

٣ ـ الشيخ العلامة محمد فاروق بن علي أكبر العباسي الجرياكوتي المتوفى عام ١٣٢٧هـ وقد أخذ عنه السيد الندوي المنطق والفلسفة والأدب العربي.

٤ ـ العالم الصالح الشيخ الفاضل شبلي بن محمد علي الجيراجفوري، المتوفى سنة ١٣٦٤هـ.

٥ ـ العلامة الكبير مؤرخ الهند الشهير المحدث الطبيب السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني المتوفى عام ١٣٤١هـ، وقد قرأ عليه الشيخ الندوي مقامات الحريري.

٦ ـ العلامة الجليل المؤرخ العظيم شبلي النعماني المتوفى سنة ١٣٣٢هـ، وأخذ عنه السيد الندوي الأدب العربي، وقرأ عليه دلائل الإعجاز، كما أخذ عنه علم الكلام، وتدرب عليه في الكتابة والتأليف والإنشاء والعناية بالسيرة النبوية.

أهم العلماء الذين أثّروا في تكوينه العلمي والفكري:

يدين السيد الندوي رحمه الله في تكوينه العلمي والفكري ودراساته الواسعة المتعمقة لعديد من الأئمة الأعلام الذين عُرفوا بفكرهم الإسلامي الأصيل، ومذهبهم الفقهي الوسط وتبحرهم في علوم الكتاب والسنة والرجوع إليهما الرجوع المباشر، وكان من أبرزهم تأثيراً في عقل السيد الندوي وفكره ومنهجه في البحث والتحقيق ومذهبه في العقيدة والفقه:

١ ـ الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الإمام الحافظ فقيه الأمة أبو عبد الله الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة (٩٣ ـ ١٧٩هـ)، وقد كانت للسيد الندوي محبة خاصة بإمام دار الهجرة، وكان يفضّل موطأه على الصحيحين، وقد حصلت له رواية الموطأ عن طريق يحيى بن يحيى الليثي مسلسلاً بالمالكية.

٢ ـ الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني شيخ الإسلام، العلّامة المحدث الفقيه المجتهد نادرة عصره (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ).

٣ ـ الإمام المحقق الأصولي الحافظ الفقيه صاحب الذهن الوقاد والقلم السيّال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ).

وقد نشأ السيد الندوي على الإعجاب بهذين العبقريين، واضطلع بدراسة كتبهما، وأخذ منهما كثيراً من آرائهما في كتابه «سيرة النبي ﷺ» وغيره من المؤلفات.

٤ ـ الإمام المحدث الفقيه الرحالة كوكب الديار الهندية شيخ الإسلام العالم المجتهد أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ).

٥ ـ العلامة شبلي النعماني المتوفى ١٣٣٢هـ.

مكانته العلمية:

أولاً ـ القرآن الكريم:

كان العلامة الندوي دائم التدبر لكتاب الله تعالى إيماناً منه بأن ثمرة التلاوة التدبر والتذكر، وكان له اهتمام كبير باستنباط المسائل العقدية والفقهية والخلقية والسياسية، من آي القرآن الكريم، وشرح لطائفه الأدبية، وتحقيق مباحثه التاريخية، ويشهد على ذوقه هذا كتاب «أرض القرآن»، والمجلدات الضخمة لكتاب «سيرة النبي ﷺ» وخاصة المجلد الرابع والخامس منه، اللذين يُعالجان منصب النبوة والعقائد والعبادات والأخلاق، من زاوية جديدة، ودراسة مقارنة، وسبب ذلك أن دراسته للّغة العربية وآدابها، والبلاغة والمعاني وإعجاز القرآن كانت واسعة عميقة.

وإن الآيات القرآنية الشريفة التي استشهد بها في بحوثه ودراساته

الإسلامية إنما جاء بها مراعياً لموافقة مضمونها المناسبة والمحل، طبق الأصل لما استعمله العرب قديماً، وموافقة معاني كلماتها لما يستعمله العرب، وكان قد بذل جهداً لا يُستهان به في معرفة مواضع استعمال الكلمات الواردة في القرآن الكريم، في العهد الذي نزل فيه، وفهمها وفق هذه الموضوعات المحدّدة.

هذا وقد كانت له دروس منتظمة في التفسير في دار المصنفين، كما كانت لديه خطة لتدوين المسائل القرآنية، وترتيبها وفق الأسلوب العصري، وكان يرغب في دراسة الآيات القرآنية والنظر فيها مع تطبيق المبادئ والتديُّن وسلامة العقل والفكر، وأن تُفرد الآيات القرآنية المتعلقة بالقضايا والشؤون العقائدية والفقهية والاقتصادية.

ثانياً ـ الحديث الشريف:

كان كثير الاشتغال بكتب الحديث والسنن والآثار، ومن حبه لها أنه كان دائم الحرص على اقتنائها في دار المصنفين، حتى أصبحت خزانة دار المصنفين حافلة بكتب الحديث ورجاله.

وقد ظهر امتياز العلامة الندوي في شرح أحاديث الرسول ﷺ كذلك، فقد كان معنياً بأن يكون فَهْمُ الحديث الشريف في إطار العمل النبوي الشريف المشتمل على إدراك الجوّ الذي جاء فيه، ليكون تطبيقه على الحياة أوفق وأجدر.

وقد تصدى العلامة الندوي لمنكري السنة وفنّد شبهاتهم في مقالات، ومنها رسالته المشهورة «تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها».

كان رحمه الله متبعاً لمذهب السلف في أن المصدر الأساسي للشريعة الإسلامية هو الكتاب والسنة، وأن رأي الناس يردّ عليهم إذا عارض نصاً من القرآن أو الحديث، فلم يسلك مسلك التأويل للنصوص، بل كان منهجه هو اتباع الدليل أنّى وجد، وحيثما صار.

ثالثاً ـ الفقه:

كانت للسيد الندوي بصيرة فقهية تامة، وقد توفرت له وسائل تحقيق المذاهب والاجتهاد، لما آتاه الله من الملكة في معرفة اللغة العربية وآدابها، والعلم الواسع الدقيق بالقرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي الشريف، والناسخ والمنسوخ، والإلمام القوي الكامل بمصادر الفقه وأصوله وقواعده، ومذاهب الأئمة وآراء الفقهاء، ولذلك نرى أنه نشأ على مذهب أبي حنيفة رحمه الله، ولكن ظل ملازماً لما اختط لنفسه من التحرر الفكري في الفقه من ربقة التمذهب والتقليد والتعصب لقول عالم بعينه.

إنه رحمه الله لم ينطلق في فقهه من رأيٍ محض أو هوى متبع أو تقليدٍ أعمى وإنما انطلق من حجج وبراهين يعتمد عليها، وأصول يستند إليها، وأهمها الاعتصام بالكتاب والسنة، كما أنه رحمه الله يرى أن باب الاجتهاد مفتوح إلى قيام الساعة لمن تأهل له، يقول في مقدمة كتاب «تراجم علماء أهل الحديث»: «إني ملتزم للسنة ومتبع للتوحيد الخالص، أرى السنة دليلي، وبابَ الاجتهاد مفتوحاً دائماً للعلماء، ولا أرى الحق منحصراً في أحد من أئمة السلف».

ويقول في إحدى خطبه: «من مفاسد هذا العصر الجمود المشين على آراء الفقهاء المتأخرين وفتاواهم، كأنهم معصومون عن الخطأ والمزلّات، وعدم الرجوع إلى المَرجعين الأصيلين القرآن والسنة، واجتهادات أئمة السلف في البحث عن الحلول للمشاكل المدنية والقضايا الدينية، والقول بإغلاق باب الاجتهاد للأبد». وكان رحمه الله يرى أن الحاجة ماسة إلى تدوين جديد للفقه الإسلامي، نظراً إلى تطور الأوضاع وتجدد القضايا والمستجدّات.

رابعاً ـ التاريخ:

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله: «إن السيد سليمان الندوي يستحق بدون مراء أن يُعدّ أكبر مؤرخ وباحث في عصره، وإن كتبه «خيام» و«الصلات بن الهند والعرب» و«الملاحة عند العرب» و«حياة الإمام مالك» و«سيرة عائشة» خير نموذج للكتابة في التاريخ، والبحث العلمي، وكتابه

«أرض القرآن» لا يزال كتاباً فريداً لم يُنسج على منواله في موضوعه، وهو ثروة غنية في المواد العلمية»(١).

كان رَحِمَهُ اللَّهُ مرجعاً لأساتذة التاريخ والمهتمين به في الهند، يزورونه ويراسلونه ويرجعون إلى آرائه وتحقيقاته، وكان يُوْلي عناية تامة للصدق والأمانة التاريخية، فقلما تراه يتبع الأسلوب الشعري في مؤلفاته، وكان يحذّر من إثارة مشاعر القارئ واللعب بعواطفه، مثلما كان يبذل من الجهد في البحث والتحقيق والنقد.

كما كان له اهتمام كبير بإخراج مصادر كتب التاريخ والتراجم إلى الناس، والواقع أن كل كتابة من كتابات السيّد الندوي تحمل بحوثاً وتحقيقات تاريخية نادرة وقيمة، اعترف بها العلماء والمتخصّصون في علم التاريخ، وسلّموا بإمامته وتقدمه في هذا الشأن.

خامساً ـ الفلسفة وعلم الكلام:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ ضليعاً بالفلسفة وعلم الكلام، وخير دليل على ذلك كتاب «سيرة النبي»؛ يقول العلامة أبو الحسن علي الندوي: «وكان من منجزاته أيضاً أنه حقق بالسيرة والتاريخ أهدافاً لا تحقق إلا بعلم الكلام، فأسس علمَ كلام جديد يفوق علم الكلام القديم في التأثير على الذهن الجديد وإقناعه، وفي توثيق الثقة بالشخصية النبوية والشريعة الإسلامية، وهو أكثر سَداداً للحياة العلمية المعاصرة»(٢).

سادساً ـ اللغة والأدب:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ متضلعاً باللغات الأردية والعربية والفارسية، وتعلّم اللغة الإنكليزية لكي يتسنى له الاستفادة من المصادر الأجنبية، وكذلك تعلّم اللغة العبرية وشيئاً من اللغة التركية والفرنسية.

---

(١) شخصيات وكتب، للعلامة السيد أبي الحسن علي الندوي، ص ٧١ ـ ٧٠.

(٢) شخصيات وكتب، للعلامة أبي الحسن الندوي، ص٦٩.

يقول الأستاذ عبد الماجد الدريابادي: «يعتقد الناس أن السيد الندوي عالم فريد، وبحاثة منقطع النظير، ويخضع العالم لإمامته في التاريخ، وتفرده في كتابة السيرة، ولكن قلما عرف الناس مكانته في الأدب والشعر والنقد، قلما علمه الناس كأديب منشئ وشاعر قدير»[1] وها هو العلامة الندوي يحكي لنا قصة نشوء صلته باللغة العربية بقوله: «تعلّمت الأدب العربي على العلامة فاروق الجرياكوتي، والعلامة السيد عبد الحي الحسني، وكانا متبعين لأساليب المتأخرين، وكان من فضل العلامة شبلي أن قرأت عليه «دلائل الإعجاز» للجرجاني، فاطلعت على الكتابات الأدبية للمتقدمين، وقرأته بكل رغبة وشوق، وقلدته، واتجهت إلى الكتابة والخطابة بالعربية، وألهب كتابا «ديوان الحماسة» و«نقد الشعر» هذا الذوق عندي، وبدأت أقرض الشعر»[2].

كان السيد الندوي مقدِّساً لدور اللغة العربية في توحيد المسلمين، يقول بمناسبة افتتاح مجلة الضياء: «وبعد فللإسلام مزايا تَفُوت الإحصاءَ دررُها، وتستغني عن الإنباء غُرَرُها، إحداها أنه دين وَحدة الشعوب والأمم، ودين مواخاة البشر، والنصيحة لعامة المسلمين، ومن الوسائل التي اتخذها لتحقيق بغيته هذه، أن جعل للمؤمنين بقرآنه والخاضعين لسلطانه، على اختلاف ألسنتهم وبلدانهم، وجنسياتهم وألوانهم لغة خاصة، وهي لغة كتابه المنزّل من السماء، يتفاهمون بها معاني القلوب، ويتعارفون هواجس الأفكار، ويخطب بعضهم بها مودة بعض، فهي على تقلب من الأحوال لغة عصبة الأمم الإسلامية، منذ قرون وأجيال»[3].

هذا وللسيد الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ شعر رائع في اللغة العربية، وقد نظم الشعر في موضوعات مختلفة، ويدلّ هذا الشعر على إرهاف حسّه وحُسن خياله، وحبه للفضائل والحكمة، وقد تجلت في شعره القوة والإجادة والتعبير الطبيعي

---

(١) مجلة «المعارف» العدد الخاص بالسيد سليمان الندوي، ص٢٣٠.
(٢) الكتب التي لها منة على العلماء، ص١٨.
(٣) مجلة الضياء عدد المحرم سنة ١٣٥١هـ، ص٤ ـ ٣.

الجميل، مع أن نظم الشعر العربي بأسلوب يتصف بالتعبير الطبيعي الجميل قلما يتأتى لرجل لم ينشأ في جو عربي، ولم يطل أو يتكرر اختلاطه برجال اللغة الأقحاح»[1].

ومن شعره الرقيق الرائع وهو يصف الشمس عند غروبها:

كأنما الشَّفَقُ المُمْتَدُّ في الأُفُقِ   خَمْرٌ مُعَتَّقَةٌ شَجَّتْ لِمُغْتَبِقِ
خَمْرٌ يَعْتِقُهَا فِي أَعْلَىٰ هَمَالِيَة   شُجَّتْ بماءِ غَمَامٍ هامرٍ غَدِقِ
كَفُّ الطبيعةِ تسقي الناسَ أكؤسَها   ويلٌ لِمَنْ هذه الصهباءَ لَمْ يَذُقِ[2]

أهم مؤلفاته:

لقد أنتج قلم العلامة الندوي السيّال كتابات ومؤلفات قيّمة نافعة تتسم بأقصى درجة من البحث والتحقيق والنظر والتدقيق، وتنوء بالعصبة من العلماء والباحثين، وكما قال الشيخ أبو الحسن علي الندوي: «وبالنظر إلى هذه المؤلفات القيمة يمكن أن يصدر الحكم بأن شخصاً واحداً في بعض الظروف يُنجز من أعمال علمية هائلة ما لا تستطيع الأكاديميات الكبيرة إنجازها»[3] وفيما يأتي نسرد بعض أهم مؤلفات العلامة الندوي:

١ ـ «أرض القرآن» هذا الكتاب بمثابة مقدمة لكتاب «سيرة النبي» وهو في جزئين، وقد طبع في دار المصنفين، وهو كتاب فريد من نوعه، من أهم مزاياه دراسته لأوضاع العرب السياسية والتاريخية والحضارية في ضوء القرآن الكريم، مع الاستفادة من المصادر العبرية والإنكليزية، والمراجع الإسلامية والرومية واليونانية والاكتشافات الأثرية»[4].

٢ ـ حواشيه على المصحف الشريف: «وهذه الحواشي تتعلق بذكر أعمدة السور وموضوعاتها الأساسية وربط الآيات بعضها ببعض». ويشتغل

(١) ملحق الرائد للأدب الإسلامي، ص ٣٣ ـ ٣٢.
(٢) مجلة الضياء عدد صفر ١٣٥١هـ، ص٣٠.
(٣) شخصيات وكتب للشيخ أبي الحسن علي الندوي، ص٧١.
(٤) تاريخ ندوة العلماء ٢/ ٢٨٤.

نجل العلامة الندوي في ترتيب هذه الحواشي وطباعتها وإخراجها في كتاب خاص. جزاه الله خيراً.

٣ ـ «سيرة النبي»: وهو في سبع مجلدات كبار، والمجلدان الأولان منها لشيخه العلامة شبلي النعماني، ثم أكمله العلامة الندوي بخمس مجلدات كبار، ومن مزايا هذا الكتاب العظيم أن العلامة الندوي وسع نطاق السيرة من سرد الأحداث وبيان الشمائل ووصف العادات إلى الرسالة المحمدية، والتعليمات النبوية والشريعة الإسلامية، وبحث شُعَبها المختلفة، وفعلاً هو دائرة معارف الإسلام، وأكبر ميزة له أنه يعتمد على كنوز الكتاب والسنة، والكتاب شهادة على ما آتاه الله من فهم دقيق لمعاني كتاب الله، كأن آيات القرآن الكريم ودواوين السنة منشورة أمام عينيه»[1].

٤ ـ «محاضرات مدراس»: مجموعة من محاضرات ألقاها العلامة الندوي في مدراس عام ١٩٢٥م، وتتناول دراسة تلك الجوانب من السيرة النبوية التي لم تلق عناية كبيرة، وهي مكانة النبي ﷺ التاريخية، وشموله وكماله، وقد ترجمت إلى العربية ونشرت بعنوان: (الرسالة المحمدية).

٥ ـ «سيرة عائشة رضي الله عنها» وسنتحدّث عنه بالتفصيل في مبحث خاص.

٦ ـ «حياة الإمام مالك رحمه الله» وهو عرض لحياة إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله وصفاته وأخلاقه، ومكانته العالية في الفقه والحديث، ودراسة لكتابه الموطّأ.

٧ ـ «رسالة الكون والتكليف» في الفلسفة.

٨ ـ «حياة العلامة شبلي» وهو عرض علمي شامل ودقيق لحياة شيخه العلامة شبلي النعماني، ومآثره وخدماته العلمية والدعوية.

٩ ـ «الصلات بين الهند والعرب»: مجموعة محاضرات ألقاها العلامة الندوي بدعوة من الأكاديمية الهندية بمدينة إله آباد، قام فيها بتذكير المسلمين

(١) انظر: شخصيات وكتب ص٦٩ وتاريخ ندوة العلماء ٢/ ٤٨٥.

والهندوس بالعهود الذهبية التي كانت تربطهم فيها أواصر مختلفة وعلاقات متنوعة.

١٠ ـ «الملاحة عند العرب»: مجموعة محاضرات عالج فيها موضوع الملاحة عند العرب في الجاهلية والإسلام، ومعرفة العرب لبحار العالم ومؤلفاتهم فيها واكتشافاتهم البحرية.

١١ ـ «رسالة أهل السنة والجماعة»، مجموعة مقالات في تحقيق معنى أهل السنة والجماعة.

وفاته:

بعد عمر حافل بأعمال علمية ودعوية ودينية، ومآثر خالدة وخدمات جليلة وافاه الأجل بباكستان في غرة ربيع الآخر عام ١٣٧٣هـ الموافق ٢٢ من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٥٣م، وحضر جنازته كبار العلماء وأعيان البلاد وسفراء الحكومات الإسلامية والعربية ودفن بجوار الشيخ شبير أحمد العثماني، رحمهما الله تعالى، وأمطر عليهما شآبيب رحمته[١].

❁ ❁ ❁

(١) قمت بتلخيص ترجمة العلامة السيد سليمان الندوي من كتاب الأستاذ الدكتور محمد أكرم الندوي «السيد سليمان الندوي أمير علماء الهند في عصره وشيخ الندويين» المطبوع في دار القلم بدمشق ضمن سلسلة أعلام المسلمين، وذلك بشيء من التعديل، فجزى الله تعالى مؤلفه وطابعه أحسن الجزاء.

كلمة عن كتاب

سيرة أم المؤمنين عائشة

رضي الله عنها

لقد بدأ العلامة الندوي في تأليف هذا الكتاب وكان طالباً في دار العلوم لندوة العلماء لكنو، ومديراً لتحرير صحيفة «الندوة»، وقصة تأليفه ترجع إلى عام ١٩٠٦م حيث كتب العلامة الندوي إلى شيخه العلامة شبلي النعماني يطلعه على ما حدثته به نفسه، وخطر في باله من فكرة تأليف كتاب في سيرة عائشة رضي الله عنها، فشجّعه الشيخ الجليل والمربّي العظيم على التقدم في هذه الخطوة المباركة، وزوّده ببعض المراجع والمصادر المتوفّرة التي يمكن الاستفادة منها في تحقيق هذا الغرض العلمي الشريف، ثم فتح الله تعالى عليه، ونوّر له الطريق إلى البدء في هذا المشروع المبارك إلى أن نشر قطعة من هذا الكتاب في عام ١٩٠٨م في صحيفة «الندوة»، ثم تأجل هذا المشروع لفترة غير يسيرة، ثم استهلّ تأليفه من جديد في عام ١٩١٤م، حتى بلغ إلى نهاية مطافه في عام ١٩١٧م.

كما أن أميرة بوفال (سلطان جهان بيكم) عنيت بهذا الكتاب عناية كبيرة، وألحت على العلامة الندوي أن يُسرع في إتمامه، فلبّى العلامة الندوي نداءها، وأخرج هذا التراث العلمي الثمين، والكنز الحضاري القديم بأسلوب رشيق جذاب وبمنهج علمي رصين ومتين.

أهمية هذا الكتاب:

كانت ذخائر المكتبات الأردية حافلة وغنية بالكتب التي تتحدث عن عباقرة الرجال، والشخصيات العظام، الذين لعبوا دوراً بارزاً وملموساً في التاريخ الإسلامي وسجّلتهم كتب التاريخ والسير بأحرف من الذهب، وكانوا من عداد الأحياء حتى بعد وفاتهم، وذلك نظراً إلى مآثرهم الخالدة،

وخدماتهم الجليلة والعظيمة التي قاموا بها لصالح الإسلام والمسلمين، إلا أن هذه الخزائن ودور الكتب كان ينقصها كتاب يتحدث عن عبقرية فذة وشخصية رائدة من عبقريات الإسلام، تدين لها الأمة الإسلامية جمعاء، ولها منٌّ كبير وفضل عظيم على الصنفين معاً صنف الرجال وصنف النساء، وصنف النساء بالذات، فإنهن كن يتطلعن بغاية من اللهفة وشدة الشوق إلى من تكون قدوة وأسوة للبنات والزوجات والأمهات والجَدّات في جميع مجالات الحياة، والتي يكون لها تأثير عظيم ودور مجيد في إرشادهن وتوجيههن والقضاء على الطقوس والتقاليد والعادات غير الإسلامية التي تطرقت إلى مجتمعاتهن، فلما قام العلامة الندوي بتأليف هذا الكتاب في سيرة سيدة عظيمة وعبقرية فذة من التاريخ الإسلامي ألا وهي «أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها»، سدّ هذا الكتاب ذلك الفراغ الذي كان بحاجة إلى من يسدّه، وظهرت هذه السيرة المباركة للعبقرية المباركة كالمرآة الحقيقية التي يمكن لكل امرأة مسلمة أن ترى صورتها الواقعية أمامها، ثم تطلع على أحوالها وبالتالي تفكّر في إصلاحها وصبغ حياتها بالصبغة الإسلامية المتمثلة في حياة أم المؤمنين رضي الله عنها.

مصادر الكتاب:

يقول العلّامة الندوي في مقدمة كتابه: «إن عامة كتب التاريخ يمكن الاستفادة منها في كتابة تراجم عامة الناس، وتاريخهم، لكن الفترة التي نريد الكتابة عنها وعن وقائعها لا يتوفر تاريخها إلا في كتب الأحاديث، وكل ما تذخر به مكتباتنا الإسلامية من ذخائر كتب الحديث الشريف، إنها تاريخ عملي لحياة نبينا محمد ﷺ ولأمهات المؤمنين والصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، وعلى هذا فجميع المصادر التي نستقي منها، وسائر المراجع التي نستند إليها في كتابة «سيرة أم المؤمنين رضي الله عنها»، هي كتب الأحاديث لا غير، وقد استفدنا من كتب الجوامع والمسانيد والسنن عموماً، وأحياناً احتجنا إلى كتب أسماء الرجال والطبقات، مثل (الطبقات الكبرى) لابن سعد، و(تذكرة الحفاظ) للذهبي، و(تهذيب التهذيب) للحافظ ابن حجر العسقلاني، وكذلك بعض كتب شروح الحديث مثل (فتح الباري)، و(إرشاد الساري) للقسطلاني على

البخاري، وشرح النووي لصحيح مسلم، ولم أعتمد على شيء من عامة كتب التواريخ إلا فيما يتعلق بحادثة الجَمَل، فقد اعتمدت فيها على تاريخ الطبري، وذلك لتعذّر وجود تفاصيل الحادث في كتب الأحاديث.

وأكثر الكتب الحديثية فائدة في إنجاز هذا العمل هو (صحيح البخاري) و(صحيح مسلم) و(سنن أبي داود) و(مسند الإمام أحمد بن حنبل)، ولقد درست هذه الكتب كلها حرفاً حرفاً واستقرأتها استقراءً، ومعظم المعلومات القيمة عن أم المؤمنين ﵂ استفدته من (مسند الإمام أحمد بن حنبل).

ومن نوادر مصادر هذا الكتاب كتاب الحاكم «المستدرك على الصحيحين»[1] وكتاب السيوطي «عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة»[2].

❁ ❁ ❁

(١) كتاب الحاكم «المستدرك على الصحيحين» كان مخطوطاً عندما بدأ العلامة الندوي في تأليف كتابه، وقد طبع الآن، والطبعة الموجودة عندنا هي طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، المصورة عن طبعة حيدر أباد الدكن.

(٢) وقد طبعه العلامة الندوي بعد التحقيق كملحق مع كتابه «سيرة عائشة».

قلت: وهو مختصر لكتاب الإمام بدر الدين الزركشي (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) وقد طبع هذا في المطبعة الهاشمية عام ١٩٣٩ بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني ﵀ (الناشر).

كلمة شكر وتقدير

امتثالاً لقول الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧] وتصديقاً لقول الصادق المصدوق الحبيب المصطفى ﷺ: «مَنْ لا يَشْكُر النَّاسَ لا يَشْكُر اللهَ»(١) أرى من الواجب علي أن أتقدم بخالص شكري وتقديري إلى كل من ساعدني في النهوض بهذا العمل، وإنجازه وإبلاغه إلى نهاية المطاف، وعلى رأسهم سعادة الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم حفظه الله تعالى ورعاه، الذي تقدم مشكوراً ومأجوراً بتبنّي مشروع ترجمة كتاب «سيرة عائشة» فجزاه الله أحسن الجزاء وشكر مساعيه وتقبل منه خدماته، وجعلها في ميزان حسناته، فقد وجدته خلال اتصالاتي به أستاذاً كريماً، ومربياً جليلاً مُحباً للعلم وطلابه، مهتماً بأمورهم.

كما لا يفوتني بهذه المناسبة أن أشكر الأستاذين الكريمين المشفقين سعادة الدكتور سعيد الأعظمي مدير دار العلوم لندوة العلماء لكنو الهند، وسعادة الشيخ محمد قاسم المظفر فوري رئيس قسم الحديث بالمدرسة الرحمانية سوفول دربنجه بيهار الهند اللذين شرفاني دائماً بتوجيهاتهما القيمة وإرشاداتهما الغالية التي نوّرت أمامي طريق التقدم والازدهار، فجزاهما الله تعالى أحسن الجزاء، وأحسن مثوبتهما في الدنيا والآخرة.

ثم أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من وجّهني وقدّم لي عوناً أيّاً كان من الأساتذة والأصدقاء والزملاء، وأخصّ بالذكر منهم الأخ الفاضل محمد

(١) الترمذي برقم ١٩٥٤ في كتاب البر والصلة، وأبو داود برقم ٤٨١١ كتاب الأدب.

عبد الحي الندوي ونسيم أحمد عبد الوهاب المدني فجزاهما الله تعالى على حسن تعاونهما وشكر مساعيهما.

وأخيراً أختم هذه الكلمات بتقديم أسمى معاني الشكر والثناء وأخلص الحب والوفاء إلى أبويّ الكريمين المحبّين، وإلى زوجتي أم عائشة الّذين حظيت من حبهم وعنايتهم دائماً، وكان لهم فضل كبير في إنجاز هذا العمل، فجزاهم الله تعالى أحسن الجزاء، وبارك في أعمارهم، وأسبغ عليهم نعمة الصحة والعافية. إنه تعالى هو القريب المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه وأهل بيته أجمعين.

الدّوحة ٢٦ / ١ / ١٤٢٣هـ

١٥ / ٣ / ٢٠٠٢م

كتبه

العبد الفقير إلى الله

محمد رحمة الله النّدوي

سيرة السيدة

عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها

تأليف

العلامة السيد سليمان الندوي

عربه وحققه وخرج أحاديثه

محمد رحمة الله حافظ الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين[١].

❁ ❁ ❁

(١) تقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول وبحوث من صنع الناشر.

الباب الأول

سيرة السيدة
عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها

* تمهيد
* الفصل الأول: الزواج الميمون
* الفصل الثاني: عائشة في مدرسة النبوة
* الفصل الثالث: معاملتها للضرائر والأقارب
* الفصل الرابع: حديث الإفك، ومشروعية التيمم
* الفصل الخامس: وقائع التحريم والإيلاء والتخيير
* الفصل السادس: وداع الحبيب ﷺ في السنة الحادية عشرة للهجرة
* الفصل السابع: عائشة رضي الله عنها بعد رحيل الحبيب ﷺ
* الفصل الثامن: نشوء الفتن ومعركة الجمل
* الفصل التاسع: أم المؤمنين رضي الله عنها في عهد معاوية رضي الله عنه
* الفصل العاشر: وفاتها رضي الله عنها

تمهيد

الاسم والكنية والنسب:

كان اسمها الذي عرفت به عائشة، ولقبها الصِّدِّيقة، كانت تخاطَب بأم المؤمنين وتكنى بأم عبد الله، وأحياناً كانت تلقب بالحميراء[1]، وكثيراً ما ناداها النبي ﷺ بـ «بنت الصِّدِّيق»[2].

---

(١) الحميراء لغة: البيضاء الجميلة كما قاله الذهبي في السير، ينظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤٠. هذا ولم يثبت في لقبها بالحميراء شيء عند المحدثين، كما نصّ عليه علماء الحديث في كتب الموضوعات عند كلامهم على قوله ﷺ: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء» وزعم البعض وجود هذا اللقب في سنن النسائي بسند صحيح، ولم أجده بعد البحث والتحقيق، حتى قال الإمام ابن قيم الجوزية: «كل حديث فيه يا حميراء، أو ذكر الحميراء، فهو كذب مختلق، مثل «يا حميراء لا تأكلي الطين فإنه يورث كذا وكذا» يراجع: المنار المنيف ١/ ٦٠ لابن القيم، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ت الشيخ عبد الفتاح، ١٤٠٣هـ.

قلت: حديث «خذوا شطر دينكم...» أورده المُلّا علي القاري في «المصنوع في معرفة الموضوع» برقم ١٢١، ١/ ٩٨ بتحقيق الشيخ أبي غدة، ط: مكتبة الرشد الرياض ١٤٠٤هـ، والعجلوني في كشف الخفاء برقم ١١٩٨، ١/ ٤٤٩، وابن كثير في تحفة الطالب ١/ ١٦٥، ط: دار حراء مكة المكرمة ١٤٠٦هـ.

وحديث «يا حميراء لا تأكلي الطين...» أورده العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٥٠ط: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ، وابن قيم الجوزية في المنار المنيف ١/ ٦٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب التوقي على العمل برقم ٤١٩٨، والترمذي في سننه كتاب التفسير برقم ٣١٧٥، وأحمد في مسنده ٦/ ١٥٩ برقم ٢٥٣٠٢ و٦/ ٢٠٥ برقم ٢٥٧٤٦، وأبو بكر الحميدي في مسنده ١/ ١٣٢ برقم ٢٧٤ط: دار الكتب العلمية بيروت بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، وأبو يعلى في مسنده ٨/ ٦ برقم=

وكما هو معروف فإن العرب يعدّون التكني من علامات الشرف، ورمزاً للفضل والافتخار، وعائشة ﵂ لم تحمل قط فلم تكن لها ذرية، ولذلك لم تكتن بكنية، وقد ظهر ألمها هذا حين قالت للنبي ﷺ وهي حزينة كاسفة: يا رسول الله كل صواحبي لهن كنى، فقال لها الرسول ﷺ: «فاكتني بابنك عبد الله، يعني ابن أختها»[1].

كان اسم والدها عبد الله، وكنيته أبو بكر، وقد اشتهر بلقب الصديق، وأمها أم رومان.

وهي قرشية تيميّة من أبيها، وكنانيّة من أمها.

نسبها من أبيها: عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهر بن مالك.

نسبها من أمها: عائشة بنت أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن وهبان بن حارث بن غنم بن مالك بن كنانة.

ويلتقي نسبها مع نسب رسول الله ﷺ في الجدّ السابع، ومن قِبل الأم في الجد الحادي عشر أو الثاني عشر.

وقد توفّي أبوها أبو بكر الصدّيق ﵁ في سنة ١٣هـ، واختلفوا في سنة وفاة أم رومان فقيل: إنها توفيت في السنة الخامسة أو السادسة من الهجرة[2]، في حياة النبي ﷺ.

= ٤٥٠٧ط: دار المأمون للتراث دمشق ١٤٠٤هـ ت: حسين سليم أسد، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٧٧ برقم ٧٦٢ ط: دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١٠هـ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه باب في المرأة تكنى برقم ٤٩٧٠، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٦٠ برقم ٢٦٢٨٥.

(٢) انظر: أسد الغابة للإمام ابن الأثير الجزري ٥/ ٥٨٣ط: المطبعة الإسلامية بطهران مصوّرة من طبعة مصر ١٢٨٥هـ. وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى: «وتوفيت في عهد النبي ﷺ بالمدينة في ذي الحجة سنة ست من الهجرة» (٨/ ٢٧٦، ط: دار صادر بيروت).

وهذا لا يصح، وأثبتت الروايات الصحيحة أنها كانت على قيد الحياة في خلافة أبي بكر ﷺ، حيث قد ذكر اسمها في جملة الأحاديث الواردة في قصة الإفك؛ كما صحّ أنها كانت حية تُرزق في السنة التاسعة من الهجرة، العام الذي وقع فيه حادث التخيير[١].

وأورد الإمام البخاري في صحيحه رواية مسروق عنها بإسناد متصل[٢]، كما ذكرها في التاريخ الصغير ممن تُوفُّوا في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، واعترض على القول[٣] الأول، وأيّده الحافظ ابن حجر العسقلاني ﷺ وأثبت ذلك بدلائل مقنعة ودراسة وافية تحقيقية في كتابه «تهذيب التهذيب»[٤] وقال بأن الصواب هو ما قاله البخاري.

---

(١) انظر واقعة التخيير في صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب برقم ٢٤٦٨ وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٨٦، وصحيح الإمام مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٥، وسنن الترمذي كتاب التفسير برقم ٣٢٠٤.

(٢) أخرج الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن مسروق عن أم رومان أمّ عائشة أنها قالت: «لما رميت عائشة خرَّتْ مغشيّاً عليها» كتاب تفسير (سورة النور) برقم ٤٧٥١ وفي كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٨٨، وكتاب المغازي برقم ٤١٤٣، والإمام أحمد في مسنده ٦/٣٦٧ برقم ٢٧١١٥، وابن حِبّان في صحيحه ١٦/٢٢ برقم ٧١٠٣، والطبراني في الكبير ٢٣/١٢٢ ذكر حديث الإفك.

(٣) قال البخاري: وروى علي بن زيد عن القاسم: ماتت أم رومان زمن النبي ﷺ، وفيه نظر، وحديث مسروق أسند، (انظر: التاريخ الصغير ١/٣٨).

(٤) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني بعد ذكر اسم أم رومان ونسبها: قيل: إنها ماتت سنة أربع أو خمس... وقال الواقدي والزبير بن بكار: توفيت في ذي الحجة سنة ست، روى البخاري في صحيحه عن مسروق حدثتني أم رومان فذكر طرفاً من الحديث، قال الخطيب: هذا حديث غريب... ومسروق لم يدرك أم رومان، لأنها توفيت على عهد النبي ﷺ، وكان مسروق يرسل رواية هذا الحديث عنها، قال: وأخرج البخاري هذا الحديث لما رأى فيه عن مسروق... ولم يظهر له علة، قلت: (القائل هو الحافظ ابن حجر): قد صرّح البخاري بأن قول من قال إنها توفيت في حياة النبي ﷺ وهمٌ، وإن قول مسروق «حدثتني أم رومان» هو الصحيح. كما صرّح بذلك في تاريخه الأوسط والصغير، وقال: حديث مسروق أسند، كما يدل على ذلك حديث التخيير، والتخيير كان في سنة تسع..، انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر باختصار وتلخيص ١٢/٩٥ ـ ٤٩٤، ط: دار الفكر بيروت ١٤٠٤هـ.

الولادة:

كانت أم رومان قبل بناء الصديق رضي الله عنهما بها زوجاً لصاحبه في الجاهلية عبد الله بن الحارث الأزدي، فلما توفي عبد الله تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وولدت له اثنين: عبد الرحمن وعائشة رضي الله عنهما. هذا ولم ترو لنا كتب السير والتراجم تاريخ ولادة عائشة رضي الله عنها بالضبط، إلا أن بعض مؤلفي السير والتاريخ نقلوا عن ابن سعد قوله في الطبقات: إن ولادتها كانت في بداية السنة الرابعة من النبوّة، وتزوّجها رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من النبوّة وهي بنت ست سنين، وهذا لا يصحّ. لأنه لو قُدّر مولدها في بداية السنة الرابعة من النبوة للزم أن يكون عمرها في السنة العاشرة سبع سنوات وليس ست سنوات.

والواقع أن هناك عدة أمور ثابتة في موضوع سنّها رضي الله عنها، وهي:

١ ـ أنها تزوجت قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهي بنت ست سنين.

٢ ـ أعرس بها رسول الله ﷺ في شوّال، السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين.

٣ ـ توفّي عنها الرسول ﷺ في ربيع الأول، السنة الحادية عشرة، وهي بنت ثماني عشرة سنة.

وعلى هذا وفي ضوء هذه الحقائق فيكون أصح تاريخ لولادتها هو شهر شوّال السنة التاسعة قبل الهجرة، الموافق يوليو (تموز) عام ٦١٤م، وهو نهاية السنة الخامسة من البعثة.

ملاحظة: ينبغي لنا قبل أن ندخل في الوقائع التاريخية القادمة أن نَعلم أن النبي ﷺ قد قضى في مكة ثلاثة عشر عاماً، وفي المدينة المنوّرة عشرة أعوام من حياته النبوية، ولما وُلدت عائشة رضي الله عنها تكون قد مضت على البعثة أربعة أعوام، ودخلت في السنة الخامسة. هذا ولم تبلغ أسرة من الأسر المسلمة ما بلغته أسرة أبي بكر الصديق في جهادها وتضحيتها في سبيل نشر دعوة الإسلام.

فكان منزله هو ذلك المكان المبارك الذي يحمل في طيّاته أسمى معاني الشرف والسعادة والعزة والوقار، حيث طلعت من هناك أولى أشعة الشمس البارقة، وبالتالي فعائشة رضي الله عنها من أولئك الناس الخيّرين سعيدي الحظ، الذين لم يقرع آذانهم صوت من الشرك أو الكفر.

تقول رضي الله عنها: «لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين»(١). وقد أرضعتها زوجة وائل أبي القعيس، فكان أخو وائل أفلح ـ عمُّها من الرضاعة ـ يأتي أحياناً لزيارتها فتأذن له عائشة بإذن من الرسول ﷺ، تقول رضي الله عنها: «إن أفلح أخا أبي القعيس جاء يستأذن عليها، وهو عمها من الرضاعة، بعد أن أُنزل الحجاب، قالت: فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرتُه بالذي صنعتُ، فأمرني أن آذن له»(٢) كما أن أخاها من الرضاعة أيضاً كان يزورها في بعض الأحيان(٣).

الطفولة:

إن العباقرة تبدو معالم عبقريتهم منذ نعومة أظفارهم في كل ما يصدر منهم من الأقوال والأفعال، وتتلمع آثار رفعتهم وعلامات سعادتهم على نواصيهم، تُنبئ عن المستقبل الباهر والرائع لهم، وتوحي بأنهم يصنعون العظائم.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت من هؤلاء العباقرة، فسيما الرفعة وعلوّ الدرجة والسعادة كان يلوح منذ صباها في سائر أعمالها وحركاتها، لكن كما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٤٧٦ وكتاب الحوالة برقم ٢٢٩٨ وكتاب المناقب برقم ٣٩٠٦ وكتاب الأدب برقم ٦٠٧٩، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٩٨ برقم ٢٥٦٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥١٠٣، ومسلم في صحيحه كتاب الرضاع برقم ١٤٤٥، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٧٧ برقم ٢٥٤٨٢، والإمام مالك في الموطأ كتاب الرضاع برقم ١٢٧٩، والدارمي في سننه كتاب النكاح برقم ٢٢٤٨.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الحيض برقم ٣٢٠، والبخاري في صحيحه كتاب الغسل برقم ٢٥١، والنسائي في سننه كتاب الطهارة برقم ٢٢٧.

هو معروف فإن الطفل هو الطفل في فطرته وطبيعته، مهما بلغ أوج السعادة وقمة الشرف، فهو يحب اللعب نظراً لسنّ طفولته. وعائشة رضي الله عنها كذلك كانت تحب اللعب كثيراً، فكانت جواري الحيّ تجتمع عندها وتلعب معها، إلا أنها رغم هذه الطفولة وصغر السن لا يفوتها أن تراعي أدب النبي ﷺ في كل لحظة، وغالباً ما يحدث أن تكون ملهوفة على لُعَبها ومعها صواحبها إذ يأتيها النبي ﷺ فجأة، فتسرع في إخفاء اللعبة عنه، وتنقمع صواحبها، لكن الرسول الحبيب ﷺ الذي كان حنوناً على الأطفال، مُحباً لهم، رؤوفاً بهم، وشفيقاً عليهم، يأمرهن أن يلعبن معها.

تقول عائشة إنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ، قالت: «وكانت تأتيني صواحبي، فكن ينقمعن من رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يُسَرِّبُهُنّ إليّ يلعبن معي»(١) وكان أحب اللعب إليها هو اللعب بالبنات والعرائس والأراجيح.

وذات مرة كانت تلعب بالبنات إذ جاءها الرسول ﷺ، ورأى بين البنات فرساً له جناحان من يمين وشمال، فسألها: ما هذا يا عائشة؟ فقالت: فرس، فقال: وهل يكون للفرس جناحان؟ فردت عليه مرتجلة: أما كانت لخيل سليمان عليه السلام أجنحة؟ فضحك الرسول ﷺ(٢) على هذا الرد الارتجالي المقنع، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على قوتها الفائقة الطبيعية في الإسراع في

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب في فضل عائشة برقم ٢٤٤٠، وابن حبان في صحيحه ١٣/١٧٣ برقم ٥٨٦٣ ط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤هـ، والبيهقي في السنن الكبرى باب ما جاء في اللُّعَب ١٠/٢١٩، كما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الأدب برقم ٦١٣٠ وفيه «يتقمّعن» بدل «ينقمعن».

(٢) مشكاة المصابيح باب عشرة النساء من كتاب النكاح برقم ٣٢٦٥، ٢/٩٧٤ تحقيق ناصر الدين الألباني، وقد رواه أبو داود في سننه باب في اللعب بالبنات برقم ٤٩٣٢ وفيه أن هذه الواقعة كانت عند رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وتبوك كانت في السنة التاسعة وخيبر كانت في السابعة من الهجرة، وعلى هذا فيكون سنها في ذاك الوقت ثلاث عشرة سنة أو خمس عشرة سنة. كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢١٩.

الجواب، والثقافة العالية التي كانت تتمتع بها، وسعة اطلاعها على الأمور الدينية، والذكاء المتوقد، وسرعة إدراك الأمور.

إن طبيعة الأطفال في كل عصر تكون واحدة حيث إنهم لا يبالون بشيء، ولا يُهمُّهم أمر، ولا تلفت نظرهم قضية حتى السن السابعة والثامنة، ويكونون بعيدين كل البعد عن الأمور الفكرية. إلا أن السيدة عائشة ﵂ قد اختلفت طبيعتها عن الآخرين في هذا الشأن، فنرى أنها كانت تحفظ كل ما حدث أيام طفولتها، وتُخَزّنه في ذاكرتها، وتفقه من أحاديثه ﷺ ما تيسّر لها أن تفقه، ثم ترويه، وتستخرج منه الأحكام، وتستنبط منه الجزئيات الفقهية، كما أنها كانت تشرح الحِكَم والمصالح من واقعات الطفولة الجزئية، حتى لو قرعت أذنيها آية من كتاب الله أثناء لعبتها فإنها كانت تذكرها.

تقول ﵂: لقد أُنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦][1].

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة لم تكن عائشة تجاوزت الثامنة من عمرها لكنها كانت تفهم وتعي وتُحسن الحفظ لأسرار وقائع الهجرة النبوية والجزئيات المتعلقة بها، ولم يدانها أحد من الصحابة في حفظ هذه الوقائع بالترتيب المسلسل كما حفظته هي[2].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تفسير سورة القمر برقم ٤٨٧٦، وبرقم ٤٩٩٣ باب تأليف القرآن.

(٢) يراجع أبواب الهجرة في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الزّواج الميمونُ

كانت السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ﵂ أُولى زوجات النبي ﷺ وأحبَّهن إليه، وقد بنى بها الرسول ﷺ في نحو الخامسة والعشرين، وهي في نحو الأربعين، وقد سعدت بالبقاء معه ﷺ زهاء خمس وعشرين سنة إلى أن أوفت على الخامسة والستين فاستأثرت بها رحمة الله تعالى في شهر رمضان السنة العاشرة بعد البعثة، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات، وكان سن رسول الله ﷺ يومئذٍ خمسين سنة.

كانت أول من آمن به وأول إنسان أسلم على وجه الأرض، وكانت نعم القرين له في السّراء والضرّاء، وقد أغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته في بواكير الطفولة، وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورةً مقيمة مقعِدة في سريرة النفس، لا تزال بين الجلاء والغموض وبين الإقدام والإحجام، ولا تزال في هذه الحالة على حاجته القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع. ولما توفيت ﵂، لم يُعرَف عنه ﷺ أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها، حتى إنه قد صعبت عليه الحياة من شدة ما أصابته من هموم الوَحدة والتفرد، فشق ذلك على صحابته المخلصين ﵃ وآلمهم ما لحظوه من حزن النبي ﷺ على زوجه العزيزة عليه، فجاءت السيدة خولة بنت حكيم ـ امرأة عثمان بن مظعون من أجلّاء الصحابة توفي سنة ٢هـ ـ إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله ألا تتزوج؟ قال: مَن؟ قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: «ومَن البكر ومَن الثيب؟» قالت: أما الثيب فهي سودة بنت زمعة، وأما البكر فهي بنت أحب الخلق إليك، عائشة بنت أبي(١) بكر الصديق ﵁.

---

(١) من أشنع الجهالات وأقبح الضلالات التي وقع فريستها المحققون والباحثون=

قال: «فاذكريها لي» فأتت بيت أبي بكر وذكرت ذلك له، ـ وكان الناس في الجاهلية لا يتزوجون بنات إخوانهم بالتآخي، ويظنون أن المؤاخاة تمنع قرابة المصاهرة مثل بنات الأشقّاء ـ فقال لها أبو بكر: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه؟ فرجعت خولة إلى رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال: «ارجعي فقولي له: إنه أخي في الدين، وهي لي حلال»[1] فلما علم ذلك أبو بكر قَبِل به.

هذا وكانت عائشة مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم بن عدي، فتحرَّج أبو بكر من نقض خِطبته قبل مراجعته فيما ينويه، فلقي أبا الفتى، فأقبل الأب على امرأته يسألها ما تقولين؟ ـ وكانت أسرة جبير لم تعتنق الإسلام ذاك الحين ـ فقالت: يا ابن أبي قحافة لعلك مُصْبِ صاحبنا ـ مدخله في دينك الذي أنت عليه ـ إن تزوج إليك؟![2].

= المستشرقون والنصارى في تكني الصديق بأبي بكر، قولهم: «إن كلمة البكر تطلق على العذراء في اللغة العربية، وكانت عائشة هي البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول ﷺ، ولذلك تكنّى والدها بأبي بكر» ولا غرابة إذا لم يطّلع الأعداء على هذه الحقيقة، ولكن مما يبعث على القلق والأسف الشديدين أن إخواننا المسلمين كذلك جهلوا هذا الواقع، فهذا السيد أمير علي الكاتب المعروف وقع في الخطأ نفسه في كتابه حياة محمد (Life of Mohammad - S.W.) الباب الرابع عشر، وقلّد المستشرقين في ذكر سبب تكني الصديق بأبي بكر، مع أن التكني هو من علامات الشرف ورمز الافتخار لدى العرب، ومخاطبتهم بالكنى تدل على توقيرهم والاحترام لهم، وأشراف القبائل وساداتهم لا يُعرفون إلا بالكنى، فهذا أبو سفيان، وأبو جهل، وأبو لهب، كل منا يعرفهم بكناهم لكن كم منا يعرف أسماءهم الحقيقية؟ وهكذا كان شأن أبي بكر رضي الله عنه، ثم إنه لم يتكن بهذه الكنية بعد ولادة عائشة، بل هذه كنيته حتى قبل مجيء الإسلام.

ثم كلمة «البَكر» (بفتح الباء) لا تطلق على العذراء، وإنما «البِكر» (بكسر الباء) هي التي تطلق على العذراء، و«بَكر» عَلم من أشهر الأعلام العربية أمثال زيد وعمرو، وكانت بنو بكر بن وائل من القبائل المشهورة في العرب، وبالتالي فلا علاقة له بكلمة «بِكر».

(١) أخرجه الإمام البخاري مختصراً في كتاب النكاح ٥٠٨١ باب تزويج الصغار من الكبار، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» باب تزويج عائشة ٩/ ٢٢٥ ط: دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ. والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٢٩ برقم ١٣٥٢٦ط: مكتبة دار الباز مكة المكرمة ١٤١٤هـ، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢١٠ برقم ٢٥٨١٠، ط: مؤسسة قرطبة مصر.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢١٠ برقم ٢٥٨١٠.

وعائشة رضي الله عنها كانت صبية في سنها الباكر، وقد تصدر منها بعض الأعمال والحركات التي لا ترضى بها أمها، فتعاقبها عليها، ويرى ذلك النبيُّ ﷺ فيُحزنه، فيقول لأمها: «يا أم رومان استوصي بعائشة خيراً واحفظيني فيها»[١] وذات مرة دخل النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، فوجد عائشة متسترة بباب أبي بكر تبكي بكاءً حزيناً، فسألها، فشكت أمَّها، وذكرت أنها تولع، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فدخل على أم رومان فقال: «يا أم رومان ألم أوصك بعائشة أن تحفظيني فيها؟» فقالت: يا رسول الله ﷺ إنها بلّغت الصديق عنّا، وأغضبته علينا، فقال النبي ﷺ: «وإنْ فعلت»[٢].

وقد ثبت في الأحاديث أن النبي ﷺ رأى في المنام أن ملكاً يقدّم إليه شيئاً في سَرَقَةٍ حرير، فسأله الرسول الله ﷺ: ما هذا؟ فقال: هذه امرأتك، فكشفها رسول الله ﷺ فإذا هي عائشة، روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُكِ قبل أن أتزوجك مرتين، رأيت الملك يحملك في سَرَقَةٍ من حرير، فقلت له: اكشف، فكشف فإذا هي أنت، فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمْضِه، ثم رأيتك يحملك في سرقة من حرير فقلت: اكشف، فكشف، فإذا هي أنت، فقلت: إن يك هذا من عند الله يُمْضه»[٣].

ونكح ﷺ عائشة وهي بنت ست سنين[٤]، وكان الهدف الأصلي من هذا الزواج المبكّر هو إحكام العلاقة وتوطيد الصلة وتوثيقها بين الخلافة والنبوة، وإذا كان الجوّ الحار الذي يعيشه العرب في البلاد العربية يمهّد الطريق إلى النموّ غير العادي ويساعد في النشأة السريعة في النساء في جانب، فهناك

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٦ برقم ٦٧١٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٦ برقم ٦٧١٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التعبير برقم ٧٠١٢، وكتاب المناقب برقم ٣٨٩٥، وكتاب النكاح برقم ٥٠٧٨، والإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٨، وأحمد في مسنده ٦/٤١ برقم ٢٤١٨٨ و٦/١٢٨ برقم ٢٥٠١٥.

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب رقم الحديث ٣٨٩٤، صحيح الإمام مسلم كتاب النكاح برقم ١٤٢٢، سنن النسائي كتاب النكاح برقم ٣٣٧٨.

جانب آخر وهو أن الشخصيات البارزة ذات الأهمية والمكانة العالية كما توجد لديهم مواهب خاصة واستعدادات غير عادية لتطوير وتنمية القوى الذهنية والفكرية، كذلك يتوافر فيهنَّ استعداد كامل للنشأة والنضج المبكر من حيث الجسم، وذلك ما يعبَّر عنه في الإنجليزية بـ «Precocious» (يعني النشوء المبكر أو النضج المبكر) وعلى كلٍّ فإن موافقته ﷺ على زواجه منها في هذه السن المبكرة فيها دليل صريح وقاطع على ما كانت تتمتع به عائشة منذ صباها من غاية الذكاء المتوقد وجودة القريحة وقوة التفكير العالية والبديهة الواعية، وبراعة في الاستنتاج والاستنباط.

وها هي الصحابية أم عطية رضي الله عنها تحكي لنا قصة زواجها من الرسول ﷺ بكل بساطة وتواضع، تقول: «خطب رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر، وهي صبية، فأتتها حاضنتها وهي تلعب، فأخذت بيدها، فانطلقت بها إلى البيت، فأصلحتها، وأخذت معها حجاباً فزوجها أبو بكر[1] إياه» هكذا تم حفل زفاف سيدة نساء العالمين بكل تواضع وبأقصى درجات البساطة، ومما لا شك فيه أن فيه أسوة حسنة وقدوة طيبة لسائر البنات المسلمات، وفيه عبرة وعظة لأولئك الذين جعلوا الزواج في عصرنا الراهن من المشكلات، وأصبح رمزاً للإسراف والتبذير، والإنفاق في اتباع الهوى وإرضاء الرغبات والشهوات، ومَعْلماً للطقوس والتقاليد والعادات التي تعارض مبادئ الإسلام وديننا الحنيف.

أفلم يكن زواج الرسول ﷺ تكذيباً عملياً لما اختلقه الناس وابتدعوه في حفلات زواجهم؟ واسمعوا إلى قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «فما دريت أن رسول الله ﷺ تزوجني، حتى أخذتني أمي فحبستني في البيت عن الخروج، فوقع في نفسي أني تزوجت، فما سألتها حتى كانت أمي هي التي أخبرتني»[2].

مهر عائشة رضي الله عنها:

ويتبين من روايتي الإمام ابن سعد أن رسول الله ﷺ قد دفع إلى عائشة رضي الله عنها

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ٨/ ٥٩.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٥٨، المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ٢٥.

من المهر بيتاً قيمته خمسون أو نحو خمسين[1]، وهو يعدل عشر روبيات[2]. وهذا لا يصح درايةً، لأن مبلغ عشر روبيات لا يمكن أن يُشترى به حتى بيت صغير، وجاء في رواية ابن إسحاق أن المهر كان أربعمئة درهم[3].

وهناك رواية أخرى عند ابن سعد نفسه عن عائشة تقول: «كان صداق رسول الله ﷺ اثنتي عشرة أوقية ونشاً، فذلك خمسمئة درهم قالت عائشة: «الأوقية أربعون، والنش عشرون»[4].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً، قالت: أتدري ما النش؟ قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمئة درهم، فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه»[5] كذا ثبت في مسند الإمام أحمد بن حنبل[6]. هذا ولو قورن صداق عائشة بالمغالاة التي عمت في المهور في مجتمعنا اليوم لتبين لنا الفرق الشاسع بينهما، والأخطر من ذلك أن التقليل في المهور أصبح الآن رمزاً لإذلال وإهانة الأسر وتحقيرها، والحطّ من مكانتها الاجتماعية، ومن ثَمَّ فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل توجد اليوم أسرة تفوق أسرة الصديق بل تدانيها في الفضل والشرف والسعادة والمكانة؟ وهل شهد العالم الإنساني اليوم بنتاً هي أرفع مكانة وأعلى شرفاً وأسمى منزلة من بنت الصديق؟ سيكون الجواب بالتأكيد النفي.

التاريخ الذي تزوجت فيه عائشة رضي الله عنها:

اختلفت الأقوال في تعيين التاريخ الذي نكح فيه رسول الله ﷺ عائشة، فقال

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٥٩.
(٢) هذا سعر الروبية مقابل الدرهم قبل ثمانين سنة.
(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٦/ ٥٧ط: دار الجيل بيروت ١٤١١هـ، ت: طه عبد الرؤوف سعد.
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٦١ ط دار صادر بيروت.
(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب الصداق برقم ١٤٢٦، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ٥ برقم ٦٧١٦ ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ، والدارمي في سننه باب كم كانت مهور أزواج النبي ﷺ برقم ٢١٩٩، وأبو داود في سننه باب الصداق برقم ٢١٠٥، والنسائي في سننه باب القسط في الأصدقة برقم ٣٣٤٧.
(٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩٣ برقم ٢٤٦٧٠، ط: مؤسسة قرطبة، مصر.

العلامة بدر الدين العيني: «تزوجها رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وقيل: بسنة ونصف أو نحوها في شوال، وهي بنت ست سنين، وقيل: سبع، وبنى بها في شوال أيضاً بعد وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة...»[1].

بينما تقول بعض الروايات: إن رسول الله ﷺ تزوجها بعد وفاة خديجة ﵂ بثلاث سنوات، ويقول أهل السير والتراجم: إنها تزوجت في نفس العام الذي توفيت فيه خديجة ﵂.

وكان بإمكاننا أن نحدّد تاريخ زواجها بتاريخ وفاة أم المؤمنين خديجة ﵂، لكن تاريخ وفاتها أيضاً مختلف فيه بين العلماء، فمن قائل: إنها توفيت قبل الهجرة بخمس سنوات، ومن قائل: قبل الهجرة بأربع سنوات، ومن قائل: قبل الهجرة بثلاث سنوات، حتى عائشة ﵂ نفسها روت لنا روايتين مختلفتين في هذ الصدد كما في صحيح الإمام البخاري ومسند الإمام أحمد بن حنبل، فرواية تقول: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها»، قالت: «وتزوجني بعدها بثلاث سنين»[2]، وأخرى تقول: «إنه تزوجها في نفس السنة»[3]. وهو ما اختاره جمهور المحققين، ويؤيده معظم الروايات الصحيحة، وذلك أن خديجة ﵂ توفيت في رمضان السنة العاشرة من البعثة، قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً، وبعدها بشهر في شوّال تزوّجها النبي ﷺ. وكانت عائشة بنت ست سنين، وعلى هذا يكون تاريخ زواجها شهر شوال السنة الثالثة قبل الهجرة، الموافق مايو (أيار) ٦٢٠م.

وقد وثق الإمام ابن عبد البر[4] هذا القول في كتابه

(١) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للعلّامة بدر الدين العيني ١/ ٤٥.

(٢) البخاري كتاب المناقب برقم ٣٨١٧، مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٥.

(٣) صحيح البخاري باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها برقم ٣٨٩٦.

(٤) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر أبو عمر، الحافظ، القرطبي، أحد الأعلام في الأندلس وكبير محدثيها، كان ثقة نزيهاً متبحراً في الفقه والعربية والحديث والتاريخ، له كتب كثيرة نافعة ومفيدة منها: التمهيد، والاستذكار، والاستيعاب، وجامع بيان العلم وفضله، توفي سنة ٤٦٣هـ وقيل ٤٥٨هـ، انظر: وفيات الأعيان ٦/ ٦٤، الديباج المذهب ٢/ ٣٦٧، شذرات الذهب ٤/ ٣١٤، شجرة النور الزكية ص١١٩.

«الاستيعاب»[1]، أما الروايتان اللتان ترويهما عائشة ﵂، فيمكن أن الراوي أخطأ في إحداهما، حيث إنه قد تم الزواج في نفس السنة التي ماتت فيها خديجة، وبنى بها النبي ﷺ بعد ثلاث سنوات، وكانت في التاسعة من عمرها.

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة:

مكثت عائشة ﵂ في بيت أمها بعد نكاحها حوالي ثلاث سنين، سنتان وثلاثة أشهر في مكة، وسبعة أشهر في المدينة المنورة بعد الهجرة.

ومعلوم تاريخياً أن المسلمين هاجروا من مكة مرتين، الهجرة الأولى كانت إلى بلاد الحبشة، والهجرة الثانية كانت إلى المدينة، وإن عائشة ﵂ تابعت موضوع الهجرة وقصتها بكل دقة وبراعة، وها هي تحكي لنا قصة هجرة أبي بكر ﵁ وما أصابه من الأذى في سبيل دينه، حتى خرج من مكة مهاجراً قِبَل الحبشة؛ تقول ﵂: «حتى إذا بلغ بَرْكَ الغِماد لقيه ابن الدَّغِنّة، وهو سيّد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربّي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخْرُج ولا يُخْرَج، فإنك تكسِب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضّيف، وتُعين على نوائب الحق، وأنا لك جار فارجع. . . . فرجع مع أبي بكر فطاف في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج. . . الحديث»[2] ويحتمل أن تكون عائشة وأهلها كلهم كانوا مع أبي بكر في هذه الرحلة.

وأما الهجرة الثانية: فإنه لمّا اشتد الظلم على المسلمين في مكة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظلت المصائب والمشاق تزداد عليهم يوماً بعد يوم من قِبَل المشركين، وتعرّضوا لأقسى أنواع الأذى والاضطهاد نوى الرسول ﷺ الهجرة إلى المدينة.

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٨٨١/٤ رقم الترجمة ٤٠٢٩، ط: دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ، ت: علي محمد البجاوي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحوالة برقم ٢٢٩٨ وكتاب المناقب برقم ٣٩٠٦.

ولنسمع قصة هذه الهجرة من فم عائشة رضي الله عنها تقول: لم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَيْ النهار بُكرة وعَشِيَة، فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمّي، ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر... فقال النبي ﷺ: أخرج مَن عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أُذن لي في الخروج، قالت عائشة: فجهّزناهما (الراحلتين) أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفرة في جِراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب...»[1].

وهكذا هاجر النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، وتركوا أهاليهم بين هؤلاء الأعداء، وعندما حلّ الركاب النبوي المبارك بالمدينة كان الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الرابع عشر من البعثة.

ولما استقر ﷺ بالمدينة أرسل كُلّاً من زيد بن حارثة وأبي رافع إلى مكة لكي يأتيا بأهله، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أُرَيْقط الليثي، وكتب إلى ابنه عبد الله يأمره أن يحمل أهله أم رومان وعائشة وأسماء، فخرج بهم عبد الله، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة، فاصطحبوا جميعاً، حتى إذا كانوا في طريقهم إلى المدينة نفر بعير عائشة رضي الله عنها، فجعلت أمها تقول: وابنتاه، واعروساه، حتى أُدرك البعير وقد هبط، فقدموا المدينة، فنزلت عائشة مع عيال أبي بكر، ونزل آل رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ يبني المسجد وأبياتاً حول المسجد فأنزل فيها أهله»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٩٠٦.

(٢) انظر تفاصيل هذه القصة في: المستدرك على الصحيحين ٤/٦ ـ ٥ برقم ٦٧١٦، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٦٣، المعجم الكبير للطبراني ٢٣/٢٥ برقم ٦٠، ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/٢٢٧ ط: دار الريان للتراث القاهرة ١٤٠٧هـ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢/١٥٢، الاستيعاب ٤/١٩٣٦ ط: دار الجيل بيروت.

بناؤه ﷺ بعائشة:

نزلت عائشة رضي الله عنها مع أهلها في حي بني الحارث بن الخزرج[(١)]، وأقامت هناك مع أمها ما يقارب سبعة أو ثمانية أشهر، وكانت المدينة المنورة أرضاً وَبِئة، فتأثر المهاجرون بمناخها هذا لما سكنوا فيها، فمرض بعضهم، وأصابتهم الحمّى والسقم حتى أجهدهم ذلك، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه أصابته الحمّى الشديدة فكانت عائشة تعوده وتستخبر حاله، تقول رضي الله عنها: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلتُ عليهما، فقلت: يا أبي كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

«كُلُّ امْـرِئٍ مُـصَـبَّـحٌ فِـيْ أَهْـلِـهِ وَالـمَـوْتُ أَدْنَىٰ مِـنْ شِـرَاكِ نَعْلِـهِ»

قالت: فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرتُه فقال: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبّنا مكة، أو أشدّ، اللهم وصحّحها، وبارك لنا في مُدّها وصاعها، انقل حُماها، فاجعلها بالجحفة»[(٢)].

ثم تأثرت عائشة رضي الله عنها نفسها بهذا المناخ الذي لم تألفه من قبلُ فمرضت، فكان أبو بكر رضي الله عنه يأتيها ويقبّلها ويقول: كيف أنت يا بنية؟ وكان المرض شديداً حتى تمرّق شعرها، تقول رضي الله عنها وهي تحكي لنا هذا القصة: «فقدمنا المدينة فوعكت شهراً فوفى شعري جميمة»[(٣)].

ولما شُفيتْ أخذت أمها تهيّئها للزواج وتعالجها، ثم قال أبو بكر:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها برقم ٣٨٩٤، وأبو عَوَانة في مسنده ٣/٧٨ برقم ٤٢٦٠، والدارمي في سننه باب في تزويج الصغار إذا زوّجهن آباؤهن برقم ٢٢٦١، ٢/ ٢١٢، والبيهقي في السنن الكبرى باب ما تقول النسوة للعروس برقم ١٣٦٢١، ٧/ ١٤٨، وأبو داود في السنن باب في الأرجوحة برقم ٤٩٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٩٢٦، وكتاب المرض برقم ٥٦٥٤ وبرقم ٥٦٧٧، والإمام مسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١٣٧٦، ومالك في الموطأ كتاب الجامع برقم ١٦٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٨٩٤، ومسلم في صحيحه كتاب النكاح برقم ١٤٢٢ واللفظ له، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٨٧٦.

يا رسول الله ما يمنعك أن تبني بأهلك؟ فقال رسول الله ﷺ: الصداق، فأعطاه أبو بكر اثنتي عشرة أوقية ونشاً، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى عائشة»[1]. وفي هذا عبرة وعظة للذين يتساهلون في أداء المهور، مع أنه حق ثابت للمرأة، وألزم الله ﷻ الزوج أن يقدمه لزوجته تعبيراً عن تقديره لها.

كانت علاقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالمدينة المنورة علاقة المصاهرة، وها هي تصف لنا بنفسها قصة زفافها وبناء الرسول ﷺ بها، فتقول: «تزوجني رسول الله ﷺ لست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين، قالت: فقدمنا المدينة...... فأتتني أم رومان وأنا على أرجوحة، ومعي صواحبي، فصرخَتْ بي فأتيتها، وما أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي، فأوقفتني على الباب، فقلت: هه، هه، حتى ذهب نَفَسي، فأدخلتني بيتاً، فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فغسلن رأسي، وأصلحنني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمنني إليه»[2].

وهذه أسماء بنت يزيد إحدى صديقات عائشة رضي الله عنها تحكي لنا عمّا قُدّم إلى رسول الله ﷺ من أنواع القِرى عند حفل الزفاف، تقول: كنت صاحبة عائشة التي هيّأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ، قالت: فوالله ما وجدنا عنده قِرًى إلا قدحاً من لبن، قالت: فشرب منه، ثم ناوله عائشة، فاستحيت الجارية، فقلنا: لا تردّي يد رسول الله ﷺ، خذي منه، فأخذته على حياء، فشربت منه، ثم قال: ناولي صواحبك، فقلنا: لا نشتهيه، فقال: لا تجمَعْنَ جوعاً وكذباً، قالت: فقلت: يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه: لا أشتهيه، يعد ذلك

(١) أخرجه مفصلاً الطبراني في الكبير ٢٣/ ٢٥ برقم ٦٠، ط: مكتبة العلوم والحكم، والإمام ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ١٩٣٧، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٦٣.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٨٩٤، والإمام مسلم في صحيحه كتاب النكاح برقم ١٤٢٢، وأبو داود في سننه كتاب الأدب برقم ٤٩٣٣، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٨٧٦، والدارمي في سننه كتاب النكاح برقم ٢٢٦١.

كذباً؟ قال: إن الكذب يكتب كذباً، حتى تكتب الكذيبة كذيبة»[1].

هذا وقد كان بناؤه ﷺ بها نهاراً في شوّال السنة الأولى من الهجرة على أصح الأقوال، بينما قال العلامة بدر الدين العيني في عمدة القاري: «وبنى بها في شوال أيضاً بعد وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة....»[2].

وهذا لا يصح، لأنه يقتضي أن يكون عمرها عند بنائه ﷺ بها عشر سنين، مع أن كتب الأحاديث والتاريخ والسير مُجمعةٌ على أنها كانت بنت تسع سنين عند البناء.

أهم مميزات نكاحه ﷺ بعائشة وبنائه بها:

هكذا اتضحت لنا صورة واقعية لحفل زفاف عائشة رضي الله عنها، وكيفية أداء صداقها وبنائه ﷺ بها، كيف تمّ ذلك كله في غاية من السذاجة والتواضع دون أيِّ تكلّف أو تنعّم ولا إسراف ولا تبذير. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

ومن أهم المميزات التي تميز بها زواجها أنه قضى على كثير من الطقوس والتقاليد غير الإسلامية والعادات غير الشرعية، التي قد رسخت جذورها في المجتمع العربي، كما أنه استأصل تلك الجذور وأبدل بها خيرَ طريقة وأحسن منهاج يتمتع بالسهولة والسماحة واليسر.

١ ـ إن العرب ما كانوا يستبيحون الزواج مع ابنة الصديق الأخ، ويظنون أن الصحبة والمؤاخاة تبلغ مبلغ القرابة التي تمنع المصاهرة، وتلك خولة بنت حكيم لما أخبرت أبا بكر رضي الله عنه عن رغبة النبي ﷺ في زواجه من ابنته سألها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٤٣٨ برقم ٢٧٥١١ وفيه أسماء بنت عميس، و٦/٤٥٨ برقم ٢٧٦٣٢ و٦/٤٥٩ برقم ٢٧٦٣٩، وابن ماجه في سننه باب عرض الطعام برقم ٣٢٩٨، وأبو بكر القرشي في مكارم الأخلاق ١/٥٤ برقم ١٤٩، ط: مكتبة القرآن القاهرة. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٤٢ باب في ذم الكذب، و٤/٥٠ والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٣٦٩ برقم ٤٤٦٥.

(٢) عمدة القاري ١/٤٥.

أبو بكر مستغرباً: وهل تصلح له؟ لأنها بنت أخيه، فقضى النبي ﷺ على هذه النظرية، وقال: «هي حلال لي، وأنت أخ في الإسلام».

٢ ـ إن العرب ما كانوا يتزوجون في شهر شوّال، ويكرهون أن يدخلوا بالنساء في شوال، لاعتقادهم أن طاعوناً وقع في شوّال في الزمن الأول، فقصد النبي ﷺ رفع هذا الوهم والتوهم عند الناس في كراهية الدخول بالنساء في شوال[١].

ولذلك كانت عائشة رضي الله عنها تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبتها في شوال، وتقول: «تزوجني رسول الله ﷺ في شوّال، وبنى بي في شوّال، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني» وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساؤها في شوال»[٢].

٣ ـ ومن العادات الشائعة في العرب إشعال النار أمام العروس، وأن الزوج لا يدخل على امرأته لأول مرة إلا في المحمل أو المحفة، وقد صرّح البخاري والقسطلاني بأنه قد تمّ القضاء على هذه العادة كذلك.

❁ ❁ ❁

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٦١ ـ ٦٠ ط: دار صادر بيروت.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، برقم ١٤٢٣، والترمذي في سننه باب ما جاء في الأوقات التي يستحب فيها النكاح برقم ١٠٩٣، والدارمي في سننه باب بناء الرجل بأهله في شوال برقم ٢٢١١، والبيهقي في السنن الكبرى باب التزويج والبناء بالمرأة في شوال برقم ١٤٤٧٨، وابن ماجه في سننه باب متى يستحب البناء بالنساء برقم ١٩٩٠.

الفصل الثاني

عائشة في مدرسة النبوة

الدراسة وطلب العلم:

كانت البيئة العربية خالية من التعلم والدراسة، ولم يكن هناك أيُّ رواج لطلب العلم في صنف الرجال، فما بالك بالنساء؟

ولما جاء الإسلام كان في قريش بضعة عشر شخصاً يعرفون القراءة والكتابة، من بينهم امرأة واحدة، وهي الشفاء بنت عبد الله العدوية[1].

إن تطوير فنّ القراءة والكتابة وترويجهما وإشاعتهما، وإيلاءهما اهتماماً كبيراً مع نشر دعوة الإسلام إنما يعتبر من أهم البركات الدنيوية التي أفاض بها الإسلام على الناس جميعاً، وهو الجميل العظيم والمنّ الكبير الذي أسداه الإسلام إلى البشرية جمعاء. وخير دليل على ذلك ما حدث يوم بدر، حيث أمر الرسول ﷺ للأسرى الذين لم يجدوا ما يفتدون به أنفسهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة[2]، كما أن أصحاب الصُفّة الذين بلغ عددهم حوالي مئة شخص كانوا يركّزون على جانب القراءة والكتابة ويتعلمونها، وكانوا يتعلّمون الدين والأحكام الشرعية.

أما بالنسبة لأزواج النبي ﷺ فكانت حفصة وأم سلمة هما اللتان تعرفان

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ١/٤٥٨ أمر الخط، ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ ت: رضوان محمد رضوان.

(٢) أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان ناس من قريش يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة» ٢/ ١٥٢ برقم ٢٦٢١، وأورده البيهقي في السنن الكبرى ٦/١٢٤ برقم ١١٤٦٠ و٦/٣٢٢ برقم ١٢٦٢، وأحمد في مسنده ١/٢٤٧ برقم ٢٢١٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٩٦ باب الأجر على تعليم القرآن.

القراءة والكتابة، وكانت حفصة قد تعلّمت ذلك من الشفاء العدوية[1]. وهناك بعض الصحابيات[2] الأُخر اللواتي كن تعلّمن القراءة والكتابة.

من حِكم تعدد أزواج النبي ﷺ:

وقد اقتضَتْ إرادة الله تعالى، والمصالح الدينية والدعوية أن تتعدد زوجاته ﷺ وتتعدد صِلات المصاهرات بينه وبين مختلف القبائل في الجزيرة العربية، ولعلّ أكبر مصلحة دينية ودعوية في تعدد أزواجه ﷺ، وزواجه من عائشة في السن المبكّر هو أن مئات من الرجال قد سنحت لهم الفرصة لنيل شرف صحبة الرسول ﷺ، فاقتبسوا من أنوار فيوضه، وارتووا من منهله العذب الفياض، واستضاؤوا من أنواره، وبلغوا قمة العز والسعادة والشرف.

أما النساء فلم يتيسّر لهن ذلك، ولم تتوافر لديهن هذه الفرصة، نظراً إلى الفرق في الفطرة والجبلّة، وبالتالي فكان حظهن أقل بكثير من حظ الرجال ونصيبهم، إلا الزوجات المطهّرات، فقد متّعهن الله تعالى بهذه النعمة الكبيرة، وأكرمهن بهذه السعادة العظيمة، وكان بإمكانهن أن يشاركْنَ الرجال في هذه السعادة، ثم يقمن ببث هذه السعادة ونشرها وإبلاغها إلى صنف النساء، ويكنّ سفراءه ﷺ إلى سائر نساء العالم، ويقمن بإعادة سيرته المطهّرة، ينشرن تفاصيلها للناس، كأن الوحي لم ينقطع، وكأنهن من أنواره في شمس لا يُلِمّ بها أفول.

هذا وقد كانت الأزواج المطهّرات اللاتي تزوجَهُنّ الرسول ﷺ

(١) روى الإمام أبو داود في كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى برقم ٣٨٨٧، عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ، وأنا عند حفصة، فقال لي: ألا تعلّمين هذه رقية النملة كما علّمتيها الكتابة. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٤٩، وابن أبي شيبة في المصنّف باب من رخّص في رقية النملة ٥/ ٤٣ برقم ٢٣٥٤٢، والإمام الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٣٢٦، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٣٧٢ برقم ٢٧١٤٠، وإسحاق بن راهويه في مسنده ١/ ٧٨ ت د. عبد الغفور البلوشي ط: مكتبة الإيمان المدينة المنورة.

(٢) قد ذكر الإمام البلاذري من هؤلاء النساء: أم كلثوم بنت عقبة، كريمة بنت المقداد، وغيرهما، انظر: فتوح البلدان للبلاذري، أمر الخط ١/ ٤٥٨.

وأكرمهن الله تعالى به ثيبات تجاوزن سن الصبا إلا عائشة ﵂، فكانت هي الوحيدة في الاستفادة الخالصة من فيوض النبوّة، ولما دخلت في سن طلب العلم والدراسة غشيتها أنوار السعادة، وأخذت بها إلى دار مباركة، ألا وهي دار النبوّة والرسالة، ولم يكن كل ذلك إلا لكي تبرز شخصيتها، وتصبح منارة نور وهداية، ومنبع خير وبركة تستقي منها النساء، ويرجعن إليها في كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شؤون عامة وخاصة.

وكان أبوها أبو بكر الصديق ﵁ أعلم قريش بأنسابها وبالشعر[(١)]، بل كل ما كان ينشده شعراء الإسلام من القصائد القيّمة البالغة أعلى قمة من الأدب والبلاغة للرد على شعراء قريش الذين ينالون من الإسلام، لم يكن ليتم ذلك إلا باستشارة أبي بكر[(٢)]، فترعرعت عائشة في حضن هذا الوالد العظيم، وكانت بنتَ أبيها في أكثر من خصلة، ولكنها كانت أشبه ما تكون به في صفة الذكاء المتوقد، والبديهة الواعية، ولم تقصر فيها عن شأوه، بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها من الرجال والنساء على السواء في سرعة الفهم، وقدرة التحصيل، والإحاطة بكل ما يقع في متناول ذهنها، فكانت تقتدي بأبيها في حفظ الأخبار والأنساب، وكانت توّاقة إلى معرفة تواريخ الأمم. وغزارة العلم بيّنةٌ في لغة السيدة عائشة، فقد كان لها أسلوب في اللغة لا يتهيّأ بغير محصول كبير من أخبار العربية التي تستقى من أعرق مصادرها، وذلك لأنها كانت قد قبست من ميراث طباع ومَلَكات أبيها الأدبية والشعرية[(٣)]، وذوقه الرفيع وجودة القريحة.

---

(١) يراجع: صحيح الإمام مسلم باب مناقب حسان ﵁ برقم ٢٤٩٠، وسنن البيهقي الكبرى ١٠/٢٣٨، والمعجم الكبير للطبراني ٤/٣٨ برقم ٣٥٨٢.

(٢) حيث قال ﷺ لحسان: ائتِ أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك، فكان يمضي إلى أبي بكر ليقف على أنسابهم، فكان يقول له: كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة، فجعل حسان يهجوهم، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة، أو من شعر ابن أبي قحافة (الاستيعاب لابن عبد البر ١/٣٤٢).

(٣) أحال المؤلف ﵀ إلى مستدرك الحاكم، وقد ورد في المستدرك عدة أحاديث في هذا المعنى:

منها: عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام والعلم=

حزم أبي بكر في تربية أولاده:

كان أبو بكر رضي الله عنه حازماً في تربية أولاده، ومن حزمه في التربية أنه كان يغضب على أولاده من أجل أمور عادية وبسيطة[1]. وعائشة رضي الله عنها كانت تخاف أباها من أخطائها حتى بعد الزواج[2]، وقد عاتبها أبو بكر رضي الله عنه في عدة مواضع[3]، وقد حدث ذلك مرة أمام النبي ﷺ، فأنقذها ﷺ[4].

= والشعر والطب من عائشة أم المؤمنين.

ومنها: عن أبي مليكة قال: قلت لعائشة: تقولين الشعر وأنتِ ابنة الصديق ولا تبالين... (١٢/٤ بأرقام ٦٧٣٣، ٦٧٣٧).

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى غضب أبي بكر رضي الله عنه على ابنه عبد الرحمن، حيث أوصاه أن يهتم بالضيوف ويطعمهم قبل أن يرجع، والحديث أخرجه البخاري ونصه: إن أبا بكر تضيف رهطاً، فقال لعبد الرحمن: دونك أضيافك، فإني منطلق إلى رسول الله ﷺ، فافرغ من قراهم قبل أن أجيء، فانطلق عبد الرحمن، فأتاهم بما عنده فقال: اطعموا، فقالوا: أين ربّ منزلنا؟ قال: اطعموا، قالوا: ما نحن بآكلين حتى يجيء رب منزلنا، قال: اقبلوا عنا قراكم، فإنه إن جاء ولم تطعموا لنَلقينّ منه، فأبوا، فعرفت أنه يجد عليّ، فلما جاء تنحيت عنه، فقال: ما صنعتم فأخبروه، فقال: يا عبد الرحمن، فسكتُّ، ثم قال: يا عبد الرحمن، فسكتُّ، فقال: يا غُنثَر، أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي لما جئت، فخرجت».... الحديث.

أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب برقم ٦١٤٠، ومسلم في صحيحه كتاب الأشربة برقم ٢٠٥٧، وأبو داود كتاب الأيمان والنذور برقم ٣٢٧٠.

(٢) أشار المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسعٍ فكن يجتمعن في كل ليلة في بيت التي يأتيها، فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب، فمدّ يده إليها. فقالت: هذه زينب، فكفّ النبي ﷺ يده، فتقاولتا حتى استخبتا، وأقيمت الصلاة فمرّ أبو بكر على ذلك، فسمع أصواتهما، فقال: اخرج يا رسول الله إلى الصلاة واحث في أفواههن التراب، فخرج النبي ﷺ، فقالت عائشة: الآن يقضي النبي ﷺ صلاته، فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أتاها أبو بكر فقال لها قولاً شديداً وقال: أتصنعين هذا، (صحيح مسلم كتاب الرضاع برقم ١٤٦٢).

(٣) من تلك المواضع ما رواه البخاري في صحيحه كتاب التيمّم برقم ٣٣٤ وفيه: فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرّك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي... الحديث.

(٤) وذلك ما رواه أبو داود عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: استأذن أبو بكر رضي الله عنه على =

هذا وتبدأ الفترة الحقيقية لتعلم عائشة رضي الله عنها ونشأتها التربوية بعد بناء الرسول ﷺ بها، حيث إنها تعلمت في هذه الفترة القراءة والكتابة، وكانت تقرأ القرآن الكريم بالنظر(١)، وفي رواية أنها لم تكن تعرف الكتابة(٢)، وورد في الأحاديث أن مولاها ذكوان هو الذي كان يكتب لها المصحف(٣)، وهذا يدل على عدم معرفتها بالكتابة، لكن ورد في بعض الروايات أنها كانت تردّ على بعض الرسائل التي تَرِدُ إليها(٤)، ويمكن أن الرواة عبروا بالكتابة والمقصود: أنها أمرت غيرها بالكتابة، كما هو المعتاد في مثل هذه المناسبات.

وعلى كلٍّ فإن القراءة والكتابة من قبيل التعليم الظاهري، ولا شك أن مكانة التعليم الحقيقي ودرجته أعلى وأرفع منه بكثير، وكمال الإنسانية، وتزكية الأخلاق، والاطلاع على مبادئ الدين، ومعرفة أسرار الشريعة والتعمق في حِكمها ومصالحها، وعلم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، كل هذا من التعليم الحقيقي الذي يُطلب من الإنسان أن يبرع فيه ويبذل قصارى جهوده في نيله وابتغائه.

= النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ، فجعل النبي ﷺ يحجزه، وخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «كيف رأيتني قد أنقذتك من الرجل...» الحديث، أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب برقم ٤٩٩٩، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ١٣٩ برقم ٨٤٩٥، و٥/ ٣٦٥ برقم ٩١٥٥، ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن برقم ٤٩٩٣.

(٢) ذكر البلاذري عن عائشة أنها كانت تقرأ المصحف ولا تكتب (فتوح البلدان ١/ ٤٥٨).

(٣) أخرج مسلم في صحيحه عن أبي يونس مولى عائشة أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها، فأملت عليّ ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ـ وصلاة العصر ـ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم ٦٢٩، وأخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن برقم ٢٩٨٢، والنسائي في سننه كتاب الصلاة برقم ٤٧٢، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ٤١٠.

(٤) كما كتبت إلى معاوية كتاباً تذكر فيه الحديث الذي ورد في عثمان بن عفان رضي الله عنه: «يا عثمان إن الله عز وجل عسى أن يلبسك قميصاً...» الحديث. أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٨٦ برقم ٢٤٦١٠ وأصل الحديث أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٧٠٥، وابن ماجه في سننه المقدمة برقم ١١٢.

وعائشة رضي الله عنها قد نالت من هذا العلم الحقيقي حظاً وافراً ونصيباً كاملاً، ولم يقتصر مجال تعلمها ونطاق دراستها على حصول العلوم الدينية فحسبُ، بل كانت بارعة حتى في علوم التاريخ والطب[1] والأدب، وقد ورثته من[2] أبيها.

أما الطب فقد تعلمته من وفود العرب التي كانت تفد على الرسول ﷺ وتنعت له الأنعات، ولما سألها عروة فقال: أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ ومن أين هو؟ فقالت: أي عُرَيّة إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له فمن ثَمّ»[3].

مراجعة عائشة النبيَّ ﷺ في كل ما يُشكل عليها:

هذا ولم يكن هناك ساعات محدّدة أو حصص خاصة لتحصيل العلم، لأن معلّم الشريعة ﷺ كان بنفسه موجوداً في البيت، وكانت رضي الله عنها تنال شرف صحبته ليل نهار، [redacted] تقام في المسجد النبوي يومياً، وحجرتها رضي الله عنها كانت ملاصقة للمسجد، ولذا فإنه كانت تتوافر لها فرص الاستفادة من تلك الدروس التي يلقيها الرسول الكريم ﷺ أمام الجماهير خارج البيت، وحين يُشكِل عليها أمر من الأمور ولا تفهمه أو لا تسمعه جيداً فإنها كانت تستفسر النبي ﷺ عنه عندما يأتي البيت[4]، وأحياناً تقترب من المسجد حتى تسمع من قريب، كما أنه ﷺ كان قد خصص يوماً في الأسبوع لتعليم النساء ووعظهن[5]، فكانت رضي الله عنها تعي من سنن

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك عن عروة قوله: «ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام والعلم والشعر والطب من عائشة أم المؤمنين»، (٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٣).

(٢) يدل عليه قول عروة فيما أخرجه الإمام أحمد: كان عروة يقول لعائشة رضي الله عنها: «يا أمتاه لا أعجب من فهمك؛ أقول زوجة رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر. ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس؛ أقول ابنة أبي بكر، وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس. . .» ٦/ ٦٧ برقم ٢٤٤٢٥.

(٣) نفس المصدر.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧٥ برقم ٢٤٥١١ وكذلك ٢٤٥٠٧ وكذلك ٢٤٥١٤.

(٥) أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبي ﷺ =

النبي ﷺ في مختلف القضايا وشتى العلوم والمعارف، في اليوم والليلة.

وكان من عادتها أنها كانت طُلَّعة، كثيرة السؤال، لا يهدأ لها بال حتى تُرضي طمأنينتها، وتجلو لنفسها كل خفي حتى تحيط به، فكانت ذات مرة قد سمعت قول الرسول ﷺ: «مَن حوسبَ عُذِّب» فقالت له: إن الله تعالى يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨] فقال لها الرسول ﷺ: «إنَّما ذلك العرضُ، ولكنْ مَن نُوقِشَ الحسابَ هلك»(١).

وذات مرة تلت قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨] ـ وفي رواية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وسألت: أين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «على الصراط»(٢).

ولمَّا سمعت الرسول ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النّاسُ يومَ القيامةِ عُراةً»،

= غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهنّ يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: «ما منكن امرأة تقدّم...» (باب هل يُجعَل للنساء يوم على حدة؟ برقم ١٠٢).

(١) أشار به المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم برقم ١٠٣، ومسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم ٢٨٧٦، والترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق برقم ٢٤٢٦ وأبو داود كتاب الجنائز برقم ٣٠٩٣.

(٢) الرواية التي فيها قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ...﴾ أخرجها الإمام أحمد في مسنده عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ ....﴾ قالت: فقلت: أين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: على الصراط. أحمد في المسند ٦/ ٣٥ (٢٤١١٥) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٧٩١، والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٣١٢١، وابن ماجه في سننه كتاب الزهد برقم ٤٢٧٩، والدارمي في سننه كتاب الرقاق برقم ٢٨٠٩.

أما الرواية التي فيها قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ...﴾ فقد أخرجها الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٣٢٤١ وفيها: قالت عائشة: فقلت: فأين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: على جسر جهنم. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجها الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١١٦ برقم ٢٤٩٠٠، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٤٧ برقم ١١٤٥٣.

سألت: هل ينظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض؟ فقال الرسول ﷺ: «الأمرُ أشدُّ من أن يهمَّهم ذاك»[(١)] وفي رواية مسلم: «يا عائشةُ! الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ».

وسألت مرة رسول الله ﷺ فقالت: هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ فقال: «يا عائشةُ أما عند ثلاث فلا، أما عندَ الميزان حتى يثقلَ أو يخفَّ، وأمَّا عندَ تطايُرِ الكتبِ فإما أن يُعطى بيمينِه أو يُعطى بشمالهِ فلا، وحين يخرجُ عنقٌ من النارِ فينطوي عليهم، ويتغيّظُ عليهم، ويقول ذلك العنق: وُكّلت بثلاثة. . . .»[(٢)].

وسألتْه يوماً عن الكفار والمشركين إذا عملوا عملاً صالحاً في الدنيا فهل يثابون عليه أم لا؟ وذكرت عبد الله بن جدعان من مشركي مكة، الذي كان رجلاً صالحاً رفيقاً بالناس، وقد أنشأ مجلساً للتصالح، (حلف الفضول) جمع فيه كل رؤساء قريش لإيقاف الحرب الناشبة والمستمرة فيما بين قريش وكنانة، قبل مجيء الإسلام، حيث كان الرسول ﷺ أحد أعضاء هذا المجلس، فسألت الرسول ﷺ: يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المساكين، ويحسن الجوار، ويقري الضيف، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا يا عائشة! إنّه لَمْ يَقُلْ يوماً ربِّ اغفرْ لي خَطِيْئَتي يومَ الدِّيْن»[(٣)].

وكما هو معلوم فإن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وركيزة أساسية من

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الرقاق برقم ٦٥٢٧، ومسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم ٢٨٥٩، والنسائي كتاب الجنائز برقم ٢٠٨٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١١٠ برقم ٢٤٨٣٧، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٨ باب ما جاء في الميزان والصراط والورود، وقال: عند أبي داود طرف منه، ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.
قلت: أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة برقم ٤٧٥٥.

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان برقم ٢١٤، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٢٩ برقم ٣٣٠ والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٩ برقم ٣٥٢٤، وأحمد في مسنده ٦/ ٩٣ برقم ٢٤٦٦٥.

قلت: وسبب إقامة حلف الفضول هو حبس العاص بن وائل السهمي حقّ رجل من زبيد، انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص(١١٢) ط دار القلم بدمشق (الناشر).

ركائز ديننا الإسلامي الحنيف وأهم فرائضه، فكانت عائشة ترى أنَّ الجهاد فرض على النساء مثل الرجال، لعدم التفريق بين الصنفين في الفرائض الأخرى، فاستفسرت قائلة: هل عليهن جهاد؟ فقال ﷺ: «جهادهن الحج»[(١)].

كما سألت الرسول ﷺ عن الجارية يُنْكِحُها أهلها هل تُسْتَأْمَرُ أم لا؟ فقال لها الرسول ﷺ: «نعم تستأمر»، قالت عائشة: فقلت له: فإنها تستحيي، فقال ﷺ: «فذلك إذنها إذا هي سكتت»[(٢)].

إنّ الإسلام قد أولى حقوق الجيران اهتماماً بالغاً وعناية كبيرة، والنساء أحظى الناس في أداء هذه الحقوق، وتتاح لهنّ الفرص لأداء هذه الحقوق أكثر من الرجال، فأشكلت على عائشة قضية الترجيح بين الجارين فسألته ﷺ قائلة: إنَّ لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»[(٣)].

وذات مرة جاءها عمها من الرضاعة يستأذن عليها، فأبت أن تأذن له، فجاء الرسول ﷺ فسألته عن ذلك، فقال: إنه عمك فأذني له، قالت: فقلت: يا رسول الله إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل، قالت: فقال الرسول ﷺ: «إنَّه عَمُّك فَلْيلجْ عَلَيْكِ»[(٤)].

---

(١) أشار به المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكُنّ أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور، فقالت: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ، (البخاري باب حج النساء برقم ١٨٦١، وأخرجه النسائي في كتاب الحج برقم ٢٦٢٨ وابن ماجه في سننه كتاب المناسك برقم ٢٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥١٣٧، ومسلم في صحيحه كتاب النكاح برقم ١٤٢٠ وكذلك البخاري في صحيحه كتاب الإكراه برقم ٦٩٤٦، والنسائي في كتاب النكاح برقم ٣٢٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الشفعة برقم ٢٢٥٩، وكتاب الهبة برقم ٢٥٩٥ وكتاب الأدب برقم ٦٠٢٠، وأبو داود في سننه كتاب الأدب برقم ٥١٥٥، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٧٥ برقم ٢٥٤٦٢، و٦/ ٢٣٩ برقم ٢٦٠٦٨، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٨٥ برقم ٧٣٠٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٩٦ وكتاب النكاح برقم ٥٢٣٩ ومسلم في صحيحه كتاب الرضاع برقم ١٤٤٥ والترمذي في سننه كتاب الرضاع برقم ١١٤٨.

وأشكل عليها مفهوم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠] فسألتْ رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله؟ قال: «لا، يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلّي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله ﷻ»[١].

ولمّا سمعتْ قول الرسول ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت: فقلت: يا رسول الله كلّنا نكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكنّ المؤمن إذا بُشّر برحمة الله ورضوانه وجنّته أحبّ لقاء الله، وأحبّ الله لقاءه، وإنَّ الكافر إذ بُشّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[٢].

وهكذا لدينا عدد كبير من أمثال هذه الاستفسارات والإشكالات التي نجدها في ذخائر السنن النبوية وخزائن الأحاديث الشريفة، التي عرضتها عائشة رضي الله عنها على الحبيب المصطفى ﷺ للكشف عن حقائقها، وإزاحة الستار عن واقعيتها، وإنها في واقع الأمر عدد من الدروس التي تلقتها عائشة رضي الله عنها من لسان الرسول ﷺ في تعليمها اليومي حتى إنّها رضي الله عنها لم يَفُتْها أن توجّه السؤال إلى الرسول الكريم ﷺ في بعض المناسبات التي يُخاف فيها أن يجد الرسول ﷺ عليها، لكن من رحمته ﷺ بها وحبه لها وشفقته عليها أنه لم يكن يتضايق من مناقشاتها وتوجيهها الأسئلة إليه، بل كان يُسَرّ بذلك.

أقسم النبي ﷺ مرة أن لا يدخل على نسائه شهراً، وأقام في مشربة له تسعة وعشرين يوماً، وهجرهن خلال هذه الفترة، فشق ذلك عليهن كثيراً، ولما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها، ومما لا شك فيه أنها كانت

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٣١٧٥، وابن ماجه في سننه كتاب الزهد برقم ٤١٩٨، والإمام أحمد في مسنده ٦/١٥٩ برقم ٢٥٣٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق برقم ٦٥٠٧، ومسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم ١٥٧ وبرقم ٢٦٨٥، والترمذي في سننه كتاب الجنائز برقم ١٠٦٧.

مناسبة مباركة تبعث على الفرح والسرور بالنسبة لعائشة ﵂، وكان المفروض أن تسرّ بها عائشة وتنسى كل ما مضى، ولا تتفوه بكلمة تكاد تُغضب النبي ﷺ، ولكنها آثرت فهم الشريعة وحلّ عقدتها على هذه الفرحة، فماذا سمع منها الرسول ﷺ أول ما سمع؟ قالت: إنك أقسمتَ أن لا تدخلَ علينا شهراً، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أَعُدُّها عداً؟ فقال النبي ﷺ: «الشهر تسع وعشرون، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين...»[1].

استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام، فتعجبتْ عائشة من ذلك، فلمّا نهض قالت: يا رسول الله! قلتَ الذي قلتَ، ثم ألنتَ له الكلام؟ فقال ﷺ: «أيْ عائشةُ! إنَّ شرّ النّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ، أو وَدَعَهُ النّاسُ اتّقاءَ فُحْشِه»[2].

كان النبيُّ ﷺ لا يقبل هدايا الأعراب وأصحاب البادية، لِما كان يعلم أنهم لا يتحرَّوْن في أطعمتهم وأشربتهم، ولا يحتاطون فيها، كما أنهم ليس لديهم علم كاف بشرائع الإسلام ومبادئ الدين، وذات يوم جاءت أم سُنبلة، وأهدت إلى رسول الله ﷺ لبناً، فلم تجده، فقالت لها عائشة: إن رسول الله ﷺ قد نهى أن يؤكل طعام الأعراب، فدخل رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: ما معك يا أم سُنبلة؟ قالت: لبناً أهديت لك يا رسول لله، قال: اسكُبي أمَّ سنبلة، فسكبت، فقال: ناولي أبا بكر، ففعلت، فقال: اسكُبي أمَّ سنبلة، فسكبت، فناولت رسول الله ﷺ فشرب، قالت عائشة: يا رسول الله كُنتُ حُدِّثتُ أنك قد نَهَيْتَ عن طعام الأعراب؟ فقال: «يا عائشة! إنهم ليسوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المظالم والغصب برقم ٢٤٦٨ في حديث طويل، وكتاب النكاح برقم ٥١٩١، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٥، والترمذي في سننه كتاب التفسير برقم ٣٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب برقم ٦٠٥٤ ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب برقم ٢٥٩١، والترمذي في سننه كتاب البر والصلة برقم ١٩٩٦، وأبو داود كتاب الأدب برقم ٤٧٩١.

بالأعراب، هم أهل باديتنا ونحن أهل حاضرتهم، وإذا دُعوا أجابوا، فليسوا الأعراب»[1] قصد النبي ﷺ بذلك أنهم يعرفون أحكام الشريعة، وإذا دعوناهم إلى نصرةِ الدين فإنهم يجيبون ولا يترددون، إذن هم ليسوا من الأعراب.

ولما سمعتْ قول الرَّسولِ ﷺ: «سَدِّدوا وقارِبوا وأَبْشِروا، فإنَّه لا يُدْخِلُ أحداً الجنةَ عملُه» فاستغربت من قوله: «فإنَّه لا يُدْخِلُ أحداً الجَنَّةَ عملُه» لظنّها أنَّ المعصومين يُستثنَوْن من هذه القاعدة العامة، فسألت: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلّا أن يتغمَّدنيَ اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»[2].

ورأت مرة رسول الله ﷺ يريد أن ينام قبل أن يوتر، فقالت: يا رسول لله أتنام قبل أن توتر؟ قال: «يا عائشةُ إنَّ عينيّ تنامان، ولا ينامُ قلبي»[3].

قد تبدو هذه الأسئلة من قبيل سوء الأدب لأولئك الذين لا يدركون حقيقة الأمور، ولا يتعمقون في التفكير، لكن الواقع الذي لا ينازع فيه اثنان أنه لو لم تكن هذه الجرأة النسائية لتوجيه الأسئلة إلى النبي ﷺ والاستفسارات عن الإشكالات، لما أمكن اليوم لأبناء الأمة المحمدية أن يطّلعوا على حقيقة النبوة، وبغض النظر عن هذه الأسئلة والمناقشات العلمية والمباحث الدراسية فهناك جانب آخر مهم ألا وهو مراقبة النبي ﷺ لكل أعمال وحركات عائشة رضي الله عنها وإيلاؤه إياها اهتماماً بالغاً، فكان ﷺ ينبّهها على زلّاتها، ويربّيها ويعلّمها بعناية فائقة، ولم يفتأ رويداً رويداً يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٤٢ برقم ٧١٦٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٤٩ باب ثواب الهدية والثناء والمكافأة، وأحمد في المسند ٦/ ١٣٣ برقم ٢٥٠٥٤، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٢٩٤، وأورده ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ١٩٤٢، وابن حجر في الإصابة ٨/ ٢٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق برقم ٦٤٦٧، ومسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٨١٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب صلاة التراويح برقم ٢٠١٣، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ٧٣٨.

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكَ ـ بدل السلام عليك ـ فقال ﷺ: «وعليكم»، وكانت عائشة ﵂ تسمع ذلك فقالت: وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة! إنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّه»(١).

سُرق لعائشة ﵂ شيء، فجعلت تدعو على من سرقه ـ كما هي عادة النساء ـ فقال لها النبي ﷺ: «لا تسبّخي عنه»(٢).

ذات مرة كانت عائشة مع النبي ﷺ في سفر فلعنت بعيراً لها ـ كعادة النساء في هذه المناسبات ـ فأمر به النبي ﷺ أن يُردّ، وقال: «لا يصحبني شيء ملعون»(٣). فكان ذلك تعليماً لها عدم توجيه اللعن إلى البهائم.

من الواقع الملموس أن الناس عامة وبخاصة النساء لا يبالون بمحقَّرات الذنوب، ويتساهلون في هذا الجانب تساهلاً كبيراً، وقد أحسّ بذلك النبي ﷺ وأدرك هذه الخطورة، فقال مخاطباً عائشة ﵂: «يا عائشة! إياكِ ومحقراتِ الذنوب، فإن لها من الله ﷻ طالباً»(٤).

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الأدب بأرقام ٦٠٢٤ ـ ٦٢٥٦ ـ ٦٣٩٥ ـ ٦٤١٠، ومسلم في صحيحه كتاب السلام برقم ٢١٦٥، والترمذي في سننه كتاب الاستئذان والآداب برقم ٢٧٠١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٥ برقم ٢٤٢٢٩ وفي رواية أخرى له «سُرق لي ثوب» ٦/ ١٣٦ برقم ٢٥٠٩٥، وفي رواية أخرى «سرقت مخنقتي» ٦/ ٢٥١ برقم ٢٥٨٤٠، كما أخرجه الإمام أبو داود في سننه باب فيمن دعا على من ظلم برقم ٤٩٠٩، وفي رواية أخرى له «سرقت ملحفة لها» برقم ١٤٩٧ كتاب الصلاة. وأخرجه النسائي في السنن الكبرى باب لعن السارق برقم ٧٣٥٩، ٤/ ٣٢٧ والطبراني في الأوسط بلفظ «سرق لها متاع» ٤/ ١٨٤ برقم ٣٩٢٥. وقوله: (لا تسبخي) لا تخففي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٧٢برقم ٢٤٤٧٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٧٧ باب ما نهي عن سبه من الدواب وما يفعل بالدابة إذا أجيب في لعنها.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٧٠ برقم ٢٤٤٦٠، و٦/ ١٥١ برقم ٢٥٢١٨، والدارمي في سننه باب في المحقرات برقم ٢٧٢٦، وذكره أبو المحاسن يوسف الحنفي في معتصر المختصر ٢/ ٣٣٩ باب في محقرات الذنوب، ط: عالم الكتب بيروت، والطبراني في الأوسط ٣/ ٣١ برقم ٢٣٧٧ و٤/ ١٢٥ برقم ٣٧٧٦، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٢/ ٥٣٨ برقم ١١٢٠.

وذات مرة كانت تحكي للنبي ﷺ عن امرأة فوصفتها بالقصيرة فقال لها النبي ﷺ: «اغتبتِها»(١).

كانت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها قصيرة القامة، فذكرتها عائشةُ رضي الله عنها ذات يوم وقالت بيدها هكذا، كأنها تعني قصيرة، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد قُلْتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماءِ البَحْرِ لَعَكّرتْ صَفْوَ الماءِ كُلِّه» فقالت: يا رسول الله إني حكيتُ لك رجلاً، فقال ﷺ: ما يسرّني أني حكيتُ رجلاً وأنّ لي كذا وكذا»(٢).

جاء مسكين إلى عائشة فتصدقت عليه بشيء، فأمرت بَريرة أن تأتيها فتنظر إليه، فقال لها النبيُّ ﷺ: «لا تحصي فيُحصَى عليك»(٣). وقال لها في مناسبة أخرى: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسدّ من الجائع مسدّها من الشبعان»(٤).

سمعتْ النبيَّ ﷺ يدعو «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة» فقالت: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنةَ قبلَ أغنيائهم بأربعينَ خريفاً، يا عائشة! لا تردّي المسكينَ ولو بشقِّ تمرةٍ، يا عائشةُ! أحبِّي المساكينَ وقرّبيهم، فإنَّ الله يقرّبك يوم القيامة»(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/١٣٦ برقم ٢٥٠٩٣، و٦/٢٠٦ برقم ٢٥٧٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٣٠٣ برقم ٦٧٣٠، وهنّاد في الزهد ٢/٥٦٨ برقم ١١٩٠ ط: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي الكويت ١٤٠٦.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع برقم ٢٥٠٢ والإمام أبو داود في كتاب الأدب برقم ٤٨٧٥، والإمام أحمد في مسنده ٦/١٨٩ برقم ٢٥٦٠١.

(٣) أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه ذكر الزجر عن إحصاء المرء صدقته إذا تصدق بها ٨/١٥١ برقم ٣٣٦٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد باب اللهم أعط منفقاً خلفاً ٣/١٢٢ والإمام النسائي في السنن الكبرى باب الإحصاء في الصدقة ٢/٣٨ برقم ٢٣٣٠، والإمام أحمد في مسنده ٦/٧٠ برقم ٢٤٤٦٣ و٦/١٠٨ برقم ٢٤٨١٠.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٧٩ برقم ٢٤٥٤٥، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٢/٦ برقم ١٢٧٨، وأصل الحديث موجود في الكتب الستة وغيرها بلفظ «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

(٥) أخرجه الإمام الترمذي في سننه كتاب الزهد برقم ٢٣٥٢، والبيهقي في شعب الإيمان=

فكان النبي ﷺ يعلّمها الأحكام الدينية والمسائل الشرعية المنوطة بمختلف المجالات من الصلاة والذكر والدعاء، والحياة الاجتماعية، وهي تتعلمها بكل شوق ورغبة، وتستمع إليها بآذان صاغية وقلوب واعية، وتعمل بها بكل مواظبة ومداومة(١).

الشؤون المنزلية:

والبيت الذي بنى فيه النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها لم يكن قصراً عالياً رفيعاً مفخَّماً، وإنما كان عبارة عن حُجَر وغرف صغيرة في حي بني النجار، مبنية حول المسجد النبوي الشريف، بناها النبيُّ ﷺ لتكون مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء، ومن بينها كانت حجرة عائشة رضي الله عنها بناها النبي ﷺ شرقي المسجد(٢)، وكان بابه من هذه الحجرة واقعاً داخل المسجد النبوي على جهة الغرب، وكأن المسجد النبوي صار فِناءً لها.

وكان النبيّ ﷺ يصغي إلى عائشة رأسه وهو معتكف في المسجد، فترجّله(٣)، وأحياناً يطلب شيئاً فيمد يده من المسجد إليها فتناوله إياه، وكان

= ١٦٧/٢ برقم ١٤٥٣، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٦٦/٤ برقم ٤٨٢٥ ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧ هـ ت إبراهيم شمس الدين.

(١) من أمثلة شدة مواظبتها على العمل بتعليم النبي ﷺ ما رواه أحمد في مسنده عن عائشة قالت: صليت صلاة كنت أصليها على عهد النبي ﷺ لو أن أبي نُشِر فنهاني عنها ما تركتها ١٣٨/٦ برقم ٢٥١٢٢، وهناك أحاديث تدل على تعلمها أمور دينها من النبي ﷺ.
يراجع: مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٣٨/٦ و١٤٧/٦ و١٥١/٦.

(٢) يراجع للتفصيل: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للإمام السمهودي الباب الرابع فصل٤.

(٣) أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يصغي إليّ رأسه وهو مجاور في المسجد، فأرجّله وأنا حائض. وفي لفظ للبخاري: «ليدخل عليّ رأسه وهو في المسجد فأرجّله» وفي لفظ لمسلم «كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يدني إليّ رأسه فأرجّله».
انظر صحيح البخاري كتاب الاعتكاف برقم ١٩٢٤/١٩٢٥، صحيح مسلم كتاب الحيض برقم ٦٨٢/ ٦٨٣، سنن أبي داود كتاب الصيام برقم ٢٤٦٧، ٢٤٦٩، سنن الترمذي كتاب الصوم برقم ٨٠٤.

عرض الحجرة ست أو سبع أذرع، جدارها من الطين، وسقفها من جريد النخل، قصير حيث يناله كل من يقف، مغشاة من خارج بمسوح الشعر، لكي تكون وقاية من المطر، ولم يكن للباب مصراعان وإنما مصراع واحد من عرعر أو ساج[١]، إلا أنه لم يُغلَق على أحد ليوم واحد طوال الحياة.

وكان في جنب الحجرة مشربة أقام فيها الرسول ﷺ شهراً كاملاً زمن الإيلاء[٢]، وكان جهاز بيت النبي ﷺ وأثاث حجرته محتوياً على سرير وحصير، ووسادة من أدم حشوها ليف، وأُهُب معلقة، وقِرْبة، وإداوة للماء والتمر، وقصعةٍ لشُرْب الماء[٣].

ومما لا شك فيه أن مسكن النبي ﷺ كان منبعاً للأنوار الربانية، ومنهلاً للفيوض النبوية إلا أنه كان خالياً من المصابيح الدنيوية، فلم يكن هناك سراج ولا مصباح يضيئ البيت وينوّره بالنور والضياء الظاهري[٤]، تقول عائشة رضي الله عنها: «كان يأتي علينا على عهد رسول الله ﷺ أربعون ليلةً ما يُوْقَدُ في بيت رسول الله ﷺ مصباحٌ ولا غيره»[٥].

هذا ولم يكن في البيت أحد غير رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها، وبعد فترة جاءت جارية (بريرة رضي الله عنها) اشترتها عائشة رضي الله عنها واشترطت أن يكون ولاؤها

---

(١) يراجع: الأدب المفرد للبخاري باب البناء ١/٢٧٢ برقم ٧٧٦، والطبقات الكبرى لابن سعد، وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي الباب للرابع الفصل الرابع، ووفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ١/٤٥٨.

(٢) سبق تخريج حديث الإيلاء، انظر: صحيح البخاري برقم ٢٤٦٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري بأرقام ٤٩١٣، ٢٤٦٨، ٥٣٨٨، ٩٠٥.

(٤) تقول عائشة رضي الله عنها: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجليّ، فإذا قام بسطتهما، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٥١٣، ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٥١٢، والنسائي في سننه كتاب الطهارة برقم ١٦٨، ومالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة برقم ٢٥٨.

(٥) أخرجه الطيالسي في مسنده ص٢٠٧ برقم ١٤٧٢، كما أخرجه إسحاق بن راهويه ٢/ ٣٣٥ برقم ٨٩١.

لها[1]. وفي بداية الأمر حينما لم تكن من أزواج النبي ﷺ إلا سودة وعائشة، كان ﷺ يبيت عند عائشة ليلة بعد ليلة، ولما تشرفت الأزواج المطهرات الأخريات بهذا الشرف، وأكرمهن الله تعالى به، وكَبِرت سودة رضي الله عنها جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين من تسعة أيام، يومها ويوم سودة[2].

ولم يكن هناك اهتمام كبير بأمور البيت، ولم تعد لديهم حاجة إلى ذلك، وقلّما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، تحكي لنا عائشة رضي الله عنها حياتها اليومية ومعيشتها فتقول: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بُرّ مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله ﷻ»[3]، وكانت تقول: «لَيَأتي على آل محمد ﷺ الشهر ما يختبزون خبزاً ولا يطبخون قِدْراً»، وفي رواية: «لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ الشهر، ما يُرى في بيت من بيوته الدخان»[4]، «كانوا يعيشون على التمر والماء»[5].

---

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب الصلاة برقم ٤٥٦، كتاب البيوع بأرقام ٢١٥٥، ٢١٥٦، ٢١٦٨، كتاب الهبة برقم ٢٥٧٨، كتاب العتق برقم ٢٥٦٣، كتاب الشهادات برقم ٢٦٣٧، ٢٦٦١، كتاب الشروط برقم ٢٧١٧، وصحيح الإمام مسلم كتاب العتق برقم ١٥٠٤.

(٢) تُنظر الأحاديث الواردة في هذا السياق في:
صحيح البخاري كتاب الهبة برقم ٢٥٩٤ و٢٦٨٨، كتاب الشهادات، كتاب النكاح برقم ٥٢١٢، وصحيح مسلم كتاب الرضاع برقم ١٦٦٣، وسنن أبي داود كتاب النكاح برقم ٢١٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأطعمة برقم ٥٤٢٣، ومسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق برقم ٢٩٧٠، وسنن النسائي كتاب الضحايا برقم ٤٤٣٢، وابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة برقم ٣٣٤٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٢١٧ برقم ٢٥٨٦٧ و٦/٢٣٧ برقم ٢٦٠٤٦، والطيالسي في مسنده ص٢٠٧، وقد ورد في صحيح البخاري كلمة «الشهر» كتاب الرقاق برقم ٦٤٥٨.

(٥) تقول عائشة رضي الله عنها: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، إنما هو التمر والماء... الحديث. كتاب الرقاق من صحيح البخاري برقم ٦٤٥٨، وفي رواية: قالت رداً على سؤال عروة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء. (كتاب الرقاق برقم=

فَرْض النبي ﷺ العطية لأزواجه بعد فتح خيبر:

هذا وقد كان فَرَضَ النبي ﷺ لنسائه بعد فتح خيبر عطية لتغطية المصاريف السنوية، كان مقدارها ثمانين وَسْقاً من تمر وعشرين وَسْقاً من شعير(١)، إلا أن هذه العطية سرعان ما تنتهي لكثرة بذلهن وإنفاقهن، وما مُنحن من الله تعالى من طبيعة فيّاضة، وما جُبلنَ عليه من السخاء والكرم والإحسان إلى مستحقيه، فلا تكفيهن هذه العطية للسنة الكاملة.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يبعثون بالهدايا والتحف إلى الرسول ﷺ، وكانوا يتحرَّوْن بهداياهم ـ خاصة ـ يوم عائشة ﵂ لما كانوا يعرفون من حبه ﷺ إياها(٢).

وأحياناً يدخل عليها النبي ﷺ وهو يأتي من الخارج فيسألها: «هل أصبح عندكم شيء تُطْعِمُونيه»؟ فتقول: «لا، ما أصبح عندنا شيء»، فيقول: «إني صائم»(٣)، وفي بعض الأحيان: «كان لهم جيران من الأنصار وكانت لهم ربائب فكانوا يبعثون إليه من ألبانها»(٤).

= ٦٤٥٩، وانظر مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٣٧ برقم ٢٦٠٤٦.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١١/ ٦٠٩ برقم ٥١٩٩، والإمام مسلم في صحيحه باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع برقم ١٥٥١، وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ١/ ٤١٣ برقم ١٦٩٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١١٥ برقم ١١٤١١ باب المعاملة على زرع البياض... إلخ، وأبو داود في سننه باب ما جاء في حكم أرض خيبر برقم ٣٠٠٦، والطبراني في المعجم الصغير ١/ ٥٦ برقم ٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٧٧٥، كتاب الهبة برقم ٢٥٧٤، ٢٥٨٠، ٢٥٨١، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤١، والترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٧٩، والنسائي في سننه كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٥٠.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٨/ ٣٩٣ برقم ٣٦٣٠، والنسائي في سننه برقم ٢٣٢٦، وأبو يعلى في مسنده ٨/ ٧٢ برقم ٤٥٩٦، وأحمد في مسنده ٦/ ٤٩ برقم ٢٤٢٦٦.

(٤) تقول عائشة ﵂ فيما رواه أصحاب السنن والمسانيد: «كان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيراً كان لهم لبن يُهْدون منه إلى رسول الله ﷺ» أخرجه ابن حبان في =

وبالرغم من هذه المكانة العالية والدرجة السامية التي كانت تحتلها عائشة ﵂ في كل مجال من العلم والثقافة والفهم والإدراك وقدرة التحصيل والإحاطة والبديهة الواعية والذكاء المتوقد، رغم ذلك كله فإنها لم تكن مبرّأة معصومة عن الأخطاء التي تعتري البشر، لا سيما في صغر السنّ، فكانت جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله[(١)]. وذات مرة طحنت شيئاً من شعير فجعلت له قرصاً، فأقبلت شاة لجارها داجنة، فدخلت ثم عمدت إلى القرص، فأخذته ثم أدبرت به[(٢)].

كما أنها لم تكن معروفة بجَوْدة الطهي، ولا تحسن الطبخ مثل غيرها من الأزواج المطهّرات[(٣)]. وكان بلال ﵁ هو الذي يتولى مسؤولية الأمور المنزلية ونفقات أهل النبي ﷺ، فهو الذي كان يوزّع الغلة عليهن، ويستقرض إذا دعت الحاجة إلى الاستقراض لتغطية المصاريف[(٤)].

عمر ﵁ زاد في أعطيات أزواج النبي ﷺ في عهده:

ولما توفّي النبي ﷺ اتسعت رقعة الدولة المسلمة، وكانت الفتوحات،

= صحيحه ١٤/ ٢٧٨ برقم ٦٣٧٢، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٤٤ برقم ٢٦١١٩ و٦/ ٢٣٧ برقم ٢٦٠٤٦.

(١) يراجع حديث الإفك في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد ١/ ٥٥ برقم ١٢٠.

(٣) أخرج الإمام أبو داود في سننه عن عائشة قالت: ما رأيت صانعاً طعاماً مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فبعثت به... الحديث كتاب البيوع برقم ٣٥٦٨، والنسائي في سننه كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٥٧.

(٤) أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالاً مؤذن رسول الله ﷺ بحلب، فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله، إلى أن توفّي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه... الحديث (أبو داود كتاب الخراج والإمارة والفيء برقم ٣٠٥٥، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١٤/ ٢٦٢ برقم ٦٣٥١ وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ١/ ٦٢٩ برقم ٢٥٣٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨١ برقم ١١٢١٧ والطبراني في المعجم الأوسط ١/ ١٤٧ برقم ٤٦٦).

وبدأت تَرِد الأموال الهائلة من مشارق الأرض ومغاربها إلى بيت مال المسلمين، وتدفقت الخيرات والثروات على خزانة الدولة بالألوف التي يحار فيها الإحصاء، إلا أن بيت عائشة رضي الله عنها لم يكن فيه طعام يومَ قُبض الرسول ﷺ[1].

وما زالت أمهات المؤمنين يُصرف لهن ما فُرض لهن من حصاد خيبر إلى زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم فرض عمر رضي الله عنه في عهده لكل واحدة منهن عشرة آلاف، وزاد عائشة رضي الله عنها ألفين[2]، وفي رواية: خيّر عمر رضي الله عنه أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الماء والأرض أو يمضي لهن، فمنهن من اختار الأرض، ومنهن من اختار الوسق، واختارت عائشة رضي الله عنها الأرض[3]، إلا أن معظم ما كانت تستلمه أم المؤمنين من العطاء كان وقفاً لصالح الفقراء والمساكين.

وجرى الأمر على هذا المنوال حتى زمن الخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما، وكذلك في زمن معاوية رضي الله عنه. فلما تولى عبد الله بن الزبير ـ ابن أخت عائشة رضي الله عنها ـ خلافة الحجاز بعد معاوية رضي الله عنه، كان هو المسؤول عن مصاريف خالته، فكانت لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله إلا تصدقت به[4].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: توفّي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رَفّ لي، فأكلت منه حتى طال عليّ، فكِلْته ففني. (كتاب فرض الخمس برقم ٣٠٩٧، كتاب الرقاق برقم ٦٤٥١، صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق برقم ٢٩٧٣، وابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة برقم ٣٣٤٥).

(٢) أخرج الحاكم عن مصعب بن سعد قال: فرض عمر لأمهات المؤمنين عشرة آلاف وزاد عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ. المستدرك ٤/ ٩ برقم ٦٧٢٣. كما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٦١٤ برقم ٣، ١٣، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٧، و٢/ ١٩٧، وكذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المزارعة باب المزارعة بالشطر، حديث رقم ٢٣٢٨، ومسلم في صحيحه كتاب المساقاة برقم ١٥٥١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب مناقب قريش، برقم ٣٥٠٥.

العشرة الزوجيَّة ونظر الإسلام إلى المرأة مقارنة بنظر الشرق والغرب:

يتباين تفكير الغرب والشرق تجاه المرأة تبايناً واضحاً، فأهل الشرق يعتقدون أن حبها وصمة عار على جبين القداسة، ووظيفتها هي التقيد بحدود البيت وعدم التجاوز عنه. بينما يرى الغرب أنها الإلٰه أو مثل الإلٰه، ويعتبرون رضا المرأة رضا الله تعالى، ويقولون: إن أي مذهب أو دين إذا أعطى للمرأة كامل حقوقها ومكانتها الحقيقية فذلك أكبر دليل وأسطع برهان على كونه معقولاً ملائماً للعقل البشري السليم.

وتختلف وجهة نظر الإسلام تجاه المرأة عن النظرتين السابقتين حيث يسلك فيها طريقاً وسطاً عدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، فكما أنه لا ينزّلها منزلة الإله، فهو لا يعتبرها من سقط المتاع، أو حاجزاً وعائقاً في طريق الحياة، وقد أحسن الإسلام إذ عرّفها «أنها وسيلة للسكون، وذريعة لاطمئنان الإنسان في هذا العالم».

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ولسنا في هذه العجالة بصدد الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام وحقوقها، وإنما الذي نقصد إليه هو إبراز جوانب العلاقات الزوجية، والعشرة الزوجية العملية في حياة عائشة رضي الله عنها.

ويقول الحبيب المصطفى ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لِأَهْلِه، وأنا خيرُكم لأهلي»(١) وخير تصديق عملي لهذا الحديث الشريف هو أن عائشة رضي الله عنها دامت حياتها الزوجية النادرة زهاء تسع سنين، ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة، ولا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٩/ ٤٨٤ برقم ٤١٧٧ و٩/ ٤٩١ برقم ٤١٨٦، والترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٩٥، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٩٧٧ والدارمي في سننه باب في حسن معاشرة النساء برقم ٢٢٦٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣٠٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٦٨.

كانت أرضى من عائشة رضي الله عنها عن حياتها، فنرى أنّه في طَوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة، ولم يعكّر صفاء علاقتها بالنبي ﷺ طيلة حياتها في كنفه سوى واقعة الإيلاء، فكانت الحياة يسودها أسمى معاني الحب، وجوّ المودة واللطف والمؤانسة والوفاء العالي، ولا سيما إذا تصوّرنا ما كانت عليه الأسرة النبوية من عسر وشدة وشظف في العيش، والصبر على ضروراته، والقناعة، ومغالبة الهوى، والبعد عن الترف ونَعمة العيش، فتزداد قيمة هذا الإخلاص والمودة وتسمو مكانة الحب والوفاء.

الزوجة الحبيبة:

كانت عائشة رضي الله عنها من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكان الصحابة رضي الله عنهم أجمعين قد علموا حبه إياها وأقروا لها بذلك، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يُهْدِيَها إلى رسول الله ﷺ كانوا يتحرَّوْن يوم عائشة رضي الله عنها[(١)]، وقد أثار ذلك غيرة أمهات المؤمنين، ووقعت الغيرة التي لا محيص منها بين الزوجات، فدعَوْن فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلنها إلى رسول الله ﷺ فقالت له: إن نساءك يَنْشُدْنَك العدل في بنت أبي بكر، فكلَّمَتْه، فقال: «يا بنية ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى، فرجَعَتْ إليهن فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه فأبت أن ترجع»[(٢)]. ثم توسلن بأم سلمة رضي الله عنها أن تكلّم النبي ﷺ، فلما دار عليها كلَّمَتْه، فقال: «لا تؤذيني في عائشة، فإنه لم ينزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن إلا في لحاف عائشة»[(٣)].

أهديت للنبي ﷺ ذات مرة هدية فيها قلادة من جزع، فقال: «لأدفعنّها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الهبة برقم ٢٥٨١، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤١، والترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٧٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب الهبة برقم ٢٥٨١.

(٣) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٧٧٥، سنن النسائي كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٥٠، سنن الترمذي كتاب المناقب ٣٨٧٩.

إلى أحبِّ أهلي إليَّ»، فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، لكن حُبّ النبي ﷺ الزكي الطاهر الخالص لم يظهر قط في لمعان الزينة الظاهرية وروعة المجوهرات الغالية، فدعا أمامة بنت زينب فعلّقها في عنقها[1].

وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه قد بعثه النبي ﷺ على جيش ذات السلاسل، فلما أتى سأل: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقال: من الرجال؟ فقال: أبوها[2].

دخل مرة عمر رضي الله عنه على حفصة فقال: «يا بنية لا يغرّنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها، يريد عائشة»[3]. ومرة شرد بها الجمل أثناء الطريق، فقلق النبي ﷺ وهو يقول: «واعروساه»[4].

ودخل النبي ﷺ في بيتها فقالت: وارأساه! فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا وارأساه»، ومنذ ذلك الحين بدأ مرض النبي ﷺ الذي توفي فيه[5].

وكان ﷺ يتفقّد في مرض موته ـ وفي رواية «ليتعذر» ـ أين أنا اليوم، أين أنا غداً، استبطاءً ليوم عائشة[6]، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠١ برقم ٢٤٧٤٨ و٦/ ٢٦١ برقم ٢٦٢٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب برقم ٣٦٦٢ وكتاب المغازي برقم ٤٣٥٨، ومسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٣٨٤، والترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب حبّ الرجل بعض نسائه برقم ٥٢١٨، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٩، والترمذي كتاب تفسير القرآن برقم ٣٣١٨.

(٤) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع النبي ﷺ، فلما كنّا بالحرّة، انصرفنا وأنا على جمل، وكان آخر العهد منهم، وأنا أسمع صوت النبي ﷺ وهو بين ظهري ذلك السّمر، وهو يقول: واعروساه... الحديث، ٦/٢٤٨ برقم ٢٦١٥٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المرضى برقم ٥٦٦٦، وابن حبان في صحيحه باب مرض النبي ﷺ ١٤/ ٥٥١ برقم ٦٥٨٦، والدارمي في سننه باب وفاة النبي ﷺ برقم ٨٠.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز برقم ١٣٨٩، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٣.

في بيت عائشة حتى مات عندها، قالت عائشة: «فمات في اليوم الذي كان يدور عليّ في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نحري وسَحَري»[1].

كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[2] (يعني به حب عائشة).

سبب حُبّه ﷺ لعائشة:

ويظن عامة الناس أن حُبّ النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها كان لحسنها وجمالها وهذا مرفوض إطلاقاً، لأن غيرها من الأزواج المطهّرات أمثال زينب وجويرية وصفية رضي الله عنهن، أيضاً كُنَّ ذوات حُسن وجمال، وكتب الأحاديث والآثار والسير والتاريخ غنية بذكر محاسنهن وجمالهن، ولكن لا يوجد فيها شيء عن حُسن عائشة رضي الله عنها وجمالها، إلا ما ذُكر في موضع أو موضعين، ويستثنى من ذلك ما قاله عمر رضي الله عنه لحفصة رضي الله عنها: «لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها»[3] فلما سمع النبي ﷺ ذلك تبسّم، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على أن عائشة رضي الله عنها قد احتلّت في قلب النبي ﷺ منزلة في المحبة لم يصل إليها غيرها من أمهات المؤمنين.

غير أن الأصل في هذا الباب هو ما روته عائشة رضي الله عنها نفسها[4]، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه كما في صحيح مسلم وسنن أبي داود أن الرسول ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي برقم ٤٤٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب النكاح برقم ١١٤٠، وأبو داود في سننه كتاب النكاح برقم ٢١٣٤، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٩٧١، والنسائي في سننه كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٤٣، والدارمي في سننه كتاب النكاح برقم ٢٢٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥٢١٨، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٩، والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٣٣١٨.

(٤) رواية عائشة رضي الله عنها أخرجها الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٥٢ برقم ٢٥٢٣٢، وفيه: «تزوج المرأة لثلاث، لمالها وجمالها ودينها، فعليك بذات الدين تربت يداك».

«تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(١). وبالتالي فأحب نساء النبي ﷺ هي: مَن تكون أنفع لخدمة الدين ونشر الإسلام من غيرها.

والشيء الذي يميّز أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على غيرها من أمهات المؤمنين هو بلوغ علمها ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وتفسير وحديث وفقه، والنضج في الاجتهاد، والنظر في دقائق المسائل، واستنباط الأحكام للوقائع الجديدة، والاضطلاع فيه، فكان من الطبيعي أن تكون هي أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من غيرها.

وقد فصّل القول في هذا الموضوع العلّامة ابن حزم رحمه الله في كتابه «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»(٢) وأثبت ذلك بالدلائل القاطعة.

روى أصحاب الكتب الستة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيْرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غيرُ مَرْيَمَ بنتِ عِمْران وآسِيَةَ امرأةِ فرعون، وإنَّ فَضْلَ عائشةَ على النِّساءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاع برقم ١٤٦٦، والبخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥٠٩٠، والترمذي في كتاب النكاح برقم ١٠٨٦، وأبو داود في سننه كتاب النكاح برقم ٢٠٤٧.

(٢) قال الإمام ابن حزم رحمه الله بعدما فصّل القول في تفضيل أزواج النبي ﷺ جميعهن على جميع الصحابة الآخرين، وأثبت ذلك بأدلة من الكتاب والسنة ثم قال: فإذ قد ثبت كل ذلك على رغم الآبي فقد وجب ضرورة أن يشهد لهن كلهن بأنهن أفضل من جميع الخلق كلهن بعد الملائكة والنبيين عليهم السلام، وكيف ومعنا نصُّ النبي ﷺ عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة، قال: من الرجال؟ قال: أبوها... وقد قال الله ﷻ عنه عليه السلام: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فصح أن كلامه عليه السلام أنها أحب الناس إليه، وحيٌ أوحاه الله تعالى إليه ليكون كذلك، ويخبر بذلك لا عن هوى له، ومن ظن ذلك فقد كذب الله تعالى، لكن لاستحقاقها لذلك الفضل في الدين، والتقدم فيه على جميع الناس الموجب لأن يحبها رسول الله ﷺ أكثر من محبته لجميع الناس، فقد فضّلها على أبيها وعلى عمر وعلي وفاطمة تفضيلاً ظاهراً بلا شك. (انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣/١١٩ ـ ١١٨).

على سَائِرِ الطَّعَامِ»[١]. وهذا الحديث خير دليل على الباعث الحقيقي والسبب الواقعي الذي من أجله كان النبي ﷺ يحب عائشة ﵂ ويكرمها، ويرفع من مكانتها، هل كان ذلك من أجل الحُسن والجمال الظاهري، أو بسبب الفضل والكمال الباطني، والتي تلي عائشة ﵂ في الكمالات الداخلية والفضائل والمناقب هي أم سلمة ﵂، ولهذا فإنها كانت محبوبة لدى الرسول ﷺ رغم كِبَر سِنّها، وها هي خديجة ﵂ قد توفيت وهي بنت ستين سنة، لكنها شغلت قلب النبي ﷺ بعد وفاتها، فلم يزل يذكرها، وهو شديد الكَلَف بها والتطلُّع إليها، حتى أثار ذلك غيرة عائشة ﵂[٢]، وكان رسول الله ﷺ ـ على حِلْمه ـ ربما يغضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة[٣].

الزوج الحبيب ﷺ:

لم تكن عائشة ﵂ ممن تحب النبي ﷺ فحسب، وإنما كانت تعشقه وتعجبُ به إلى أقصى درجة، لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها وحب الزوجة لزوجها، والمرأة لرجلها، معجبة بجماله، كما كانت معجبة بأدبه وعظمة قدره، بحيث لو ادعى أحد غيرها مثل حبها له كانت تأسى عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٤١١، ٣٤٣٤، وكتاب المناقب برقم ٣٧٦٩، وكتاب الأطعمة برقم ٥٤١٨، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣١، والترمذي في سننه كتاب الأطعمة برقم ١٨٣٤، وابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة برقم ٣٢٨٠.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂ قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، ولقد هلكَتْ قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعه يذكرها... الحديث كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٥، والبخاري في صحيحه كتاب المناقب ٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٨، والترمذي في سننه كتاب البرّ والصلة برقم ٢٠١٧ و٣٨٧٥، و٣٨٧٦، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٩٩٧.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٥ وفيه قول عائشة ﵂: فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة، فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبَّها. وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١٥/٤٦٧ برقم ٧٠٠٦، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/١٤٧ برقم ٢١٩ ط: جدة، المملكة العربية السعودية.

هذا وقد اعترفت أمهات المؤمنين لعائشة رضي الله عنها بهذه المكانة العالية رغم مشاعر الغيرة، لأن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لأسرار النبي أعمق وأقوى، فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها، ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها، ومن عاشرته في روحه وطويته، كما عاشرته بروحها وطويتها. ومن شدة حبها له ﷺ أنها لو استيقظت من النوم ولم تجده جنبها يصيبها القلق والاضطراب، تقول: كنت نائمة إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته من الليل ـ والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح ـ فلمسته بيدي، فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١). كما تحكي لنا قصة أخرى من نفس النوعية فتقول: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتجسّسته فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، فقالت: بأبي أنت وأمّي، إني لفي شأن وإنك لفي آخر»(٢).

نماذج من غَيْرة عائشة على ضرائرها:

كذلك فقدته ذات ليلة وقد مضى من الليل نصفه، فبدأت تبحث عنه، حتى وجدته في البقيع، وهو رافع يديه يدعو ربه، فانحرفت، فلما أصبحت

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة برقم ٤٩٧، كما أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٤٨٦، والترمذي في سننه كتاب الدعوات برقم ٣٤٩٣، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ٨٧٩، وابن ماجه في سننه كتاب الدعاء برقم ٣٨٤١، قوله: «والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح» أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٥١٣، ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٥١٢، والنسائي في سننه كتاب الطهارة برقم ١٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٤٨٥، والنسائي في سننه كتاب التطبيق برقم ١١٣١.

أخبرته بما حدث، فقال ﷺ: «فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟ فقالت: نعم»[1].

وكان النبي ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه، فمرة طارت القرعة لعائشة وحفصة. وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت لها حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري؟ وأركب بعيرك؟ تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى، فركبت، فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلّم عليها ثم سار، حتى نزلوا، وافتقدته عائشة، فلما نزلوا جعلت رجلها بين الإذخر، وتقول: «يا رب سلّط عليّ عقرباً، أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً»[2].

وإذا تأملنا في الفقرة الأخيرة من الحديث تبيّنَ لنا مدى غيرتها الشديدة، والأنوثة التي فيها، والمنافسة القوية التي كانت فيما بين الضرائر.

ولما آلى النبي ﷺ من نسائه لمدة شهر وأقام في مشربة له عند حجرة عائشة، واعتزلهن، كان لهذا أثر عميق على أمهات المؤمنين، وإذا هن يبكين

---

(١) تعددت الألفاظ لهذا الحديث إلّا أن فحواها واحد، وقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي التي هو عندي ـ تعني النبي ﷺ ـ انقلب فوضع نعليه عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه، فلم يلبث إلا ريثما ظنّ أني قد رقدت، ثم انتعل رويداً، وأخذ رداءه رُويداً، ثم فتح الباب رويداً، وخرج رويداً، وجعلت درعي في رأسي واختمرت، وتقنّعت إزاري، وانطلقت في إثره، حتى جاء البقيع فرفع يديه ثلاث مرات، فأطال، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت وسبقته، فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت، فدخل فقال: مالك يا عائشة حشياً رابية، قالت: لا، قال: لتُخبِرينني أو ليُخْبِرَنّي اللطيف الخبير، قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي فأخبرتُه الخبر، قال: فَأَنتِ السّواد الذي رأيت أمامي؟ قالت: نعم... الحديث.

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز برقم ٩٧٤، والنسائي في سننه كتاب الجنائز برقم ٢٠٣٧ وفي كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٦٣/ ٣٩٦٤، وأخرجه ابن ماجه مختصراً في سننه كتاب ما جاء في الجنائز برقم ١٥٤٦، وكتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم ٣٨٩، والترمذي في سننه كتاب الصوم برقم ٧٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥٢١١، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٥، وابن ماجه في سننه الجزء الأول من الحديث كتاب النكاح برقم ١٩٧٠.

من شدة ما أصابهن من حزن وقلق، حتى لم تستطع إحداهن أن تدخل عليه من دون إذن، وعائشة رضي الله عنها كانت تعدّ الشهر عداً تنتظر انتهاءه، فلما كمل الشهر أول ما بدأ النبي ﷺ بدأ بعائشة رضي الله عنها[1].

هذا وقد كانت أمهات المؤمنين على درجات متفاوتة من الناحية الاقتصادية في بيوت آبائهن، فبعضهن كُنّ من الأسر الثرية ذات الأموال والخيرات، وكنّ تربَّيْن في الترف ونعمة العيش، فنازعن النبيَّ ﷺ، وألحفن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة، فنزلت آية التخيير[2]، فخيّرهن النبي ﷺ بين التسريح والصبر على نصيبهن، فاخترن أجمل النصيبين بهن، وهو الصبر على سنّة الأنبياء وأمهات المؤمنين، ورضين بهذه الحياة النبوية بكل فرح وسرور وسعادة، فبدأ النبي ﷺ بعائشة أول امرأة من نسائه كلهن[3]، فاختارته وقالت: «يا رسول الله لا تخبر أزواجك أني أخترتك»[4]، وهنا تظهر غيرتها واستئثارها به ﷺ دون غيرها، وذلك لكي تنال فضل التقدم في الاختيار، وفي كلامها هذا إيحاء إلى الطبيعة النسائية وفطرة المرأة التي جبلَت عليه. وفي نهاية أيام هذا الحادث نزلت آية الإرجاء[5]، حيث خُيّر النبي ﷺ بإبقاء مَن أراد من أزواجه في كنفه، ومفارقة الأخريات، إلا أنه ﷺ لم يرضَ بمفارقة أيِّ واحدة منهن، نظراً لما كان يحمل ﷺ بين جنبيه من الرحمة والشفقة

(١) يراجع: صحيح البخاري كتاب النكاح برقم ٥١٩١، وكتاب المظالم والغصب برقم ٢٤٦٨، ومسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٩.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

(٣) انظر: صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب برقم ٢٤٦٨ وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٨٦.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٥ بلفظ «لا تخبر نساءك»، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٣٣٨.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥١].

والحب والوفاء للأزواج المطهّرات. وكانت عائشة ﵂ تقول: «إن كان ذاك إليّ فإنّي لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً»[1].

ولما أتى النبيَّ ﷺ نعيُ جعفرِ الطيّار ﵁ في غزوة مؤتة حزن حُزناً شديداً، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر... وذكر بكاءهن، فأمره بأن ينهاهن، فذهب الرجل ثم أتى فقال: قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب ثم أتى فقال: والله لقد غلبنني أو غلبننا، فقال النبي ﷺ: «فاحثُ في أفواههن التراب، وعائشة ﵂ كانت تطّلع عليه من شق الباب، فقالت: أرغم الله أنفك فوالله ما أنت بفاعل، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء»[2].

وغالباً ما ينام النبي ﷺ ويضع رأسه على فخذ عائشة، وذات مرة جاءها أبو بكر ﵁ ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذها قد نام، فعاتبها وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنها بيده في خاصرتها، تقول عائشة: «فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي»[3].

مداراة الزوجة:

لقد جعل الله ﷻ من حياة النبي ﷺ أسوة حسنة للمجتمع الإنساني بأكمله، وكان ﷺ خير الأزواج وألطفهم بأهله، لم يعهد عنه ﷺ أنه عنفهن أو اشتد عليهن، بل كان بهن رفيقاً رحيماً، يترضاهن إذا غضبن، ويعاملهن معاملة كريمة بأقصى غاية من المودة والمحبة، ولم يكن ذلك كلّه إلا لكي يعلّم أمته كيف يتعامل الأزواج مع زوجاتهم.

سبق أن ذكرنا أنه ﷺ كان يتعهد عائشة بما يسرّها، ويفرح حتى بلعبتها،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٨٩، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٦ وأبو داود في سننه كتاب النكاح برقم ٢١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز برقم ١٢٩٩، ١٣٠٥، ومسلم في صحيحه كتاب الجنائز برقم ٩٣٥، والنسائي في سننه كتاب الجنائز برقم ١٨٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التيّمم برقم ٣٣٤، ومسلم في صحيحه كتاب الحيض برقم ٣٦٧، والنسائي في سننه كتاب الطهارة برقم ٣١٠.

كانت عائشة قد ربّت في حضنها جارية من الأنصار، فلما حان عرسها زوّجتها عائشة رضي الله عنها بكل بساطة دون أي غناء أو لهو، فلما رأى النبي ﷺ ذلك قال: «يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[1].

وكان الأحباش يلعبون بحرابهم بمناسبة أفراح العيد، فأرادت عائشة رضي الله عنها أن تنظر إلى لعبهم، فسترَها النبي ﷺ بردائه وهي تشاهد لعبهم، تقول رضي الله عنها: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم»[2].

وربما مرّ أبوها رضي الله عنه بالبيت فيسمع صوتها عالياً في حضرة النبي ﷺ، فيدخل غاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلاً: لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ، فجعل النبي ﷺ يحجزه، وخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «كيف رأيتني أنقذتك من الرجل»[3]؟!

وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة تعرفين هذه؟ قالت: لا، يا نبي الله، قال: هذه قَيْنة بني فلان، تحبين أن تغنّيك؟ قالت: نعم، فأعطتها طبقاً، فغنّتها، فقال النبي ﷺ: قد نفخ الشيطان في مِنْخريها»[4] ومعنى ذلك أن النبي ﷺ كره مثل هذه الأغاني.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥١٦٣، وأخرجه أحمد في مسنده بلفظ: «كانت في حِجْري جارية من الأنصار فزوجتها، قالت: فدخل عليّ رسول الله ﷺ يوم عرسها، فلم يسمع لعباً، فقال: يا عائشة إن هذا الحيّ من الأنصار يحبّون كذا وكذا» رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٢٦٩ برقم ٢٦٣٥٦، كما أخرجه ابن حبان في صحيحه ٣/ ١٨٥ برقم ٥٨٧٥، وهو في موارد الظمآن للهيثمي ١/ ٤٩٣ برقم ٢٠١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥١٩٠/ ٥٢٣٦، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة العيدين برقم ٨٩٢، والنسائي في سننه كتاب صلاة العيدين برقم ١٥٩٤ و١٥٩٥.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب برقم ٤٩٩٩، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ١٣٩ برقم ٨٤٩٥ و٩١٥٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤٤٩ حديث السائب بن يزيد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٣٠: ورواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧/ ١٥٨ برقم ٦٦٨٦.

الملاطفة والمؤانسة:

من لطفه ﷺ بعائشة رضي الله عنها وعطفه عليها أنه كان يمازحها ويضاحكها ويسْمَر معها مستمعاً إلى أحاديثها ملاطفة لقلبها، وإرضاءً لخاطرها، وذات مرة ذكر «خُرافة» أثناء الحديث، فسألها النبي ﷺ: «أتدرين ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من أهل عذرة، أَسَرَتْه الجن في الجاهلية، فمكث فيهم دهراً طويلاً، ثم ردوه إلى الإنس، فكان يحدِّث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة»[1]. تستخدم صيغة الجمع «الخرافات» في اللغة الأردية بنفس المعنى.

سمره ﷺ معها:

وكان ﷺ يسمر معها مستمعاً إلى أحاديثها، وذات مرة حدثته عائشة رضي الله عنها حديث أم زرع قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، قالت الأولى: زوجي لحمُ جملٍ غثّ على رأس جبل، لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فيُنتقل، قالت الثانية: زوجي لا أبثّ خبره، إنّي أخاف أن لا أذَرَه، إنْ أذكُرْه أذكر عُجَره وبُجَره، قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّق، إن أنطِقْ أُطلّق، وإن أسكُتْ أُعلّق، قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة لا حَرّ ولا قرّ، ولا مخافة ولا سآمة، قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يُسأل عمّا عهد، قالت السادسة: زوجي إن أكل لفّ، وإن شرب اشتفّ، وإن اضطجع التفّ، ولا يُولج الكفّ ليعلم البثّ، قالت السابعة: زوجي غياياء أو عياياء طباقاء، كلّ داء له داء، شجّك أو فلّك أو جمع كُلّاً لك، قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرنب، والريحُ ريح زرنب، قالت التاسعة: زوجي رفيع العِماد، طويل النِّجاد، عظيم الرماد، قريب البيت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٥٧ برقم ٢٥٢٨٣، وهو في مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٣١٥، والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٥٦ ـ ١٥٥ برقم ٦٠٦٩، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣/ ٨٠١ برقم ١٤٣٦، وأبو يعلى الموصلي في مسنده ٧/ ٤١٩ برقم ٤٤٤٢.

من النّاد، قالت العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر أيقنّ أنّهن هوالك، قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع، وما أبو زرع؟ أناسَ من حليّ أذنيّ، وملأ من شحم عَضُديّ، وبجّحني فبجَحَتْ إليّ نفسي، وجدني في أهل غنيمة بشقٍّ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومُنقّ، فعنده أقول فلا أقبّح، وأرقد فأتصبّح، وأشرب فأتقنّح، أمُّ أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح، ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسلّ شطبة، ويُشبعه ذراع الجفرة، بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمّها، وملء كسائها وغيظ جارتها، جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع؟ لا تبثّ حديثنا تبثيثاً، ولا تنقّث ميرتنا تنقيثاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً، قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تُمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها بُرمّانتين، فطلقني ونكحها، فنكحتُ بعده رجلاً سرياً، ركب شرياً وأخذ خطيّاً، وأراح علي نعماً ثريّاً، وأعطاني من كل رائحة زوجاً، وقال: كُلي أمَّ زرع وميري أهلك، قالت: فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع، قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»(١).

هذا وفي الوقت الذي يكون ﷺ مشغولاً في السمر مع أهله إذا سمع النداء كان يسرع إلى الصلاة، تقول عائشة رضي الله عنها: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج»(٢) وفي رواية: قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥١٨٩، والإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٨، وقد عزا النسائي هذه القصة إلى النبي ﷺ قائلاً: ثم أنشأ رسول الله ﷺ يحدث أن إحدى عشرة امرأة.. الحديث، السنن الكبرى للنسائي ٥/ ٣٥٩ برقم ٩١٣٩، وكذلك أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣١٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب النفقات برقم ٥٣٦٣، وكتاب الأدب برقم ٥٠٣٩.

(٣) أخرجه الأزدي في الضعفاء، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ١/ ١٤٥ كتاب أسرار الصلاة.

المُؤاكلة:

كان النبيّ ﷺ وعائشة ﵂ يتناولان الطعام على مائدة واحدة بل من قصعة واحدة، تحكي لنا عائشة ذلك قائلة: «كنت آكل مع النبيّ ﷺ حَيْساً، فمرّ عمر فدعاه فأكل، فأصابت يده إصبعي... الحديث»[(١)]، وكان ذلك قبل نزول الحجاب. والحديث الآتي يوضّح لنا مدى حبه ﷺ لعائشة حتى في الأكل، تقول ﵂: «كنت أتعرق العظم وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي فيه وضعته، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه»[(٢)].

وذات ليلة كان النبي ﷺ يتعشى مع عائشة ﵂ في حجرتها إذ دخلت عليه أم المؤمنين سودة بنت زمعة ﵂ وهي تشكو عمر، أنه يمنعها من الخروج حتى لقضاء الحوائج[(٣)]. وكانا يُمسكان معاً قطعة واحدة من اللحم، لأنه لم يكن مصباح في البيوت يومئذٍ[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٦٢ برقم ١٠٥٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٣، والطبراني في المعجم الصغير ١/ ١٤٩ برقم ٢٢٧ وفي الأوسط ٣/ ٢١٢ برقم: ٢٩٤٧، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٣٥ برقم ١١٤١٩.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود في السنن، كتاب الطهارة باب مؤاكلة الحائض برقم ٢٥٩. كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الحيض برقم ٣٠٠، والنسائي في سننه معضلاً كتاب الطهارة برقم ٢٧٩ وكتاب الحيض برقم ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٠، وابن ماجه في سننه كتاب الطهارة برقم ٦٤٣.

(٣) أصل الحديث في صحيح البخاري عن عائشة ﵂ قالت: خرجت سودة بنت زمعة ليلاً فرآها عمر فعرفها فقال: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا، فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له وهو في حجرتي يتعشى وإن في يده لعِرْق، فأنزل الله عليه فرفع عنه وهو يقول: قد أذن الله لكنّ أن تخرجن لحوائجن. (كتاب النكاح باب خروج النساء لحوائجهن برقم ٥٢٣٧، وأخرج جزءاً منه مسلم في صحيحه كتاب السلام برقم ٢١٧٠).

(٤) أشار به المؤلف إلى الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن حميد بن هلال قال: قالت عائشة: بعث إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسك رسول الله ﷺ =

كان لرسول الله ﷺ جار فارسي وكان طيّب المَرَق فصنع لرسول الله ﷺ ثم جاء يدعوه، فقال: وهذه ـ لعائشة ـ؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: لا فعاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: وهذه؟ قال: لا، قال رسول الله ﷺ: لا، ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: وهذه؟ قال: نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله(١).

الصحبة في السفر:

كان من الصعب أن تصحب جميعُ أمهاتِ المؤمنين النبيَّ ﷺ في السفر، كما أن ترجيح بعضهن على بعض أيضاً يكون خلاف العدل الذي أمر به الله تعالى، ولذا فإن النبي ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه، فأيتهن يخرج سهمها خرج بها النبي ﷺ(٢). وعلى هذا نالت عائشة رضي الله عنها شرف صحبة النبي ﷺ في عدد من أسفاره، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنها تشرفت بصحبة النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق(٣)، ومن الأسفار كذلك السفر الذي حدث فيه قصة ركوب حفصة على بعير عائشة وركوب عائشة على بعير حفصة.

= وقطعت أو أمسكت وقطع... الحديث ٦/٢١٧ برقم ٢٥٨٦٧، كما أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده ٣/٩٦٦ برقم ١٦٨٢، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/٤٠٤.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم ٢٠٣٧، والنسائي في سننه كتاب الطلاق برقم ٣٤٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الهبة برقم ٢٥٩٤، وكتاب الشهادات برقم ٢٦٦١، ٢٦٨٨، وكتاب الجهاد والسير برقم ٢٨٧٩، وكتاب النكاح ٥٢١١، صحيح مسلم كتاب التوبة برقم ٢٧٧٠.

(٣) غزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السنة السادسة، وقيل: كانت في شعبان من السنة الخامسة، والأول أصح، وهو قول ابن إسحاق وغيره، غزا فيها النبي ﷺ بني المصطلق من خزاعة، واستعمل على المدينة أبا ذر رضي الله عنه، وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي، وكان شعار المسلمين يومئذٍ أمت أمت، كان من السبي جويرية بنت الحارث، وقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فأدى عنها النبيُّ ﷺ وتزوجها، فصارت أم المؤمنين، وكان في هذه الغزوة من الحوادث قصة الإفك (يراجع: تاريخ الطبري، البداية والنهاية، زاد المعاد في هدي خير العباد).

كما ثبت في الحديث السفرُ الذي سابقت فيه عائشةُ رسولَ الله ﷺ[1].

وكان في غزوة بني المصطلق من الحوادث قصتان عجيبتان، وكلتاهما كانت شرفاً سرمدياً وسعادة أبدية، أكرم الله تعالى بهما عائشة ﵂، فالأولى منهما كانت سبباً لنزول حكم التيمّم، والأخرى فيها قانون براءة المحصنات الغافلات من النساء ـ كما سيأتي في الفصل الرابع ـ. وتدل رواية الإمام أحمد في (المسند) أن عائشة ﵂ كانت خرجت مع النبي ﷺ في سفر الحديبية، أما حجة الوداع فمعظم أمهات المؤمنين كن مع النبي ﷺ فيها، ومنهنّ عائشة ﵂.

المسابقة:

كان النبي ﷺ يحب الرّمي وسباق الخيل، ويحضّ الصحابة عليه ويعلّمهم ذلك، وأحياناً يسابق زوجته الحبيبة عائشة ﵂، تقول عائشة: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم، فقال للناس: تقدموا، ثم قال لي: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، وخرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس: تقدموا، ثم قال لي: تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: «هذه بتلك»[2].

الدلال:

إن خصائص المرأة ومميزاتها النسوية تحمل في طياتها بحراً زاخراً تتبلور فيه موجات الحب والمودة والوفاء والملاطفة بأسمى معانيها وأحلى

---

(١) أشار المؤلف إلى الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن والمسانيد عن عائشة ﵂ أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابَقْتُه فسَبَقْتُه على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك. أخرجه أبو داود في سننه برقم ٢٥٧٨، وابن حبان في صحيحه ١٠/٥٤٥ برقم ٤٦٩١، والإمام أحمد في مسنده ٦/٢٦٤ برقم ٢٦٣٢٠، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٧ و١٠/١٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٢٦٤ برقم ٢٦٣٢٠، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢١٧، وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ١/٣١٨ برقم ١٣١٠، ويراجع تخريج الحديث مفصلاً في الحاشية السابقة.

أشكالها، ومما لا شك فيه أن من الأنثويات الخالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها، وهي أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة، وقد يُشكل ذلك على عامة الناس حيث إنهم ينظرون إلى ما ورد في كتب الأحاديث مما يدل على الدلال والمغاضبة، ويرون في مخاطبة الرسول أزواجه بهذا الأسلوب أنه خطاب من الرسول لأمته، وينسون أن زوجة تخاطب زوجها، أو زوجاً يخاطب زوجته، ولذا فينبغي بل يجب أن تدرس أمثال هذه الوقائع التي سجّلتْها كتب الأحاديث في بطونها، بالطريقة الصحيحة، وتحمل على محملها الصحيح.

ومن هذا النوع قول عائشة رضي الله عنها: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها، فلما أنزل الله تعالى ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلت: ما أرى ربّك إلا يسارع في هواك[(١)]. فلم يكن قصدُ عائشة رضي الله عنها من ذلك الاعتراضَ أو الإشكال، وإنما كان ذلك نوعاً من التدلل والدعابة والانبساط من الزوجة لزوجها.

والخواصّ يعرفون معنى كلام عائشة رضي الله عنها، وهو أن الله جل جلاله يحقّق كل ما يتمناه حبيبه ويشتهيه، ويكون الهدف من وراء ذلك هو تثبيت قلبه وإحكامه على عمل الدعوة.

إلا أننا رأينا أن النبي ﷺ لم تتغير عادته حتى بعد آية التخيير، فكان ﷺ يستأذن أزواجه كلهن في نوبتهن ودورهن، تقول عائشة: «إن الرسول ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أُنزلت هذه الآية ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ . . .﴾»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٨٨، ومسلم في صحيحه كتاب الرضاع برقم ١٤٦٤، والنسائي في سننه كتاب النكاح برقم ٣١٩٩، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ٢٠٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٨٩، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٦، وأبو داود في سننه كتاب النكاح برقم ٢١٣٦.

غيرتها على خديجة ونماذج من تدللها:

كان النبي ﷺ يذكر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كثيراً، نظراً للمقام الرفيع الذي كانت تحتله في قلب الرسول ﷺ، ولم يُعرف أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكرها، وسمّى عام وفاتها عام الحزن، لأن الحزن لم يفارقه طَوال أيامه وإنْ سكنت سَورته مع الأيام كما تسكن كل سَورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور.

وذات مرة كان النبيّ ﷺ يذكرها فقالت عائشة: «كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[(١)].

وفي رواية عند أحمد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها، قال: ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها، إذ حرمني أولاد النساء»[(٢)].

وأصيبت عائشة رضي الله عنها مرة بالصداع في رأسها فقالت: وارأساه، فقال النبي ﷺ: بل أنا وارأساه ـ فكان ذلك ابتداء الوجع الذي توفّي فيه ـ ثم قال النبي ﷺ: ما ضركِ لو متِّ قبلي فغسّلتُكِ وكفّنتكِ وصليتُ عليك ودفنتك، قالت: لكني أو لكأني والله لو فعلتَ ذلك لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسّم النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٨١٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١١٧ برقم ٢٤٩٠٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٤، والطبراني في الكبير ٢٣/ ١٣ برقم ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المرضى برقم (٥٦٦٦) جُزءاً من الحديث، وأحمد واللفظ له ٦/ ٢٢٨ برقم ٢٥٩٥٠، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٥٥١ برقم ٦٥٨٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٩٦ برقم ٥٤٥١، والنسائي في السنن الكبرى ٤/ ٢٥٢ برقم ٧٠٧٩.

وجيء مرة بأسير فحجزه النبي ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها وعندها نسوة فلهينها عنه، فذهب الأسير، فجاء النبي ﷺ فقال: يا عائشة ما فعل الأسير؟ فقالت: لهوت عنه مع النسوة، فخرج، فقال: مالك قطع الله يدكِ أو يديكِ، فخرج فآذن به الناس فطلبوه فجاؤوا به، فدخل عليّ وأنا أقلّب يدَيّ، فقال: مالك أجُننتِ؟ قلت: دعوت علي فأنا أقلّب يدي أنظر أيهما يقطعان، فحمد الله وأثنى عليه ورفع يديه مداً وقال: «اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعله له زكاة وطهوراً»[1].

وكانت رضي الله عنها تفتخر بكونها البكر الوحيدة بين سائر أزواج النبي ﷺ وتدل أحياناً ـ إدلال الحبيب ـ أمام النبي ﷺ فتقول: يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أُكل منها ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في الذي لم يرتع منها»[2]. تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها.

وفي واقعة الإفك ـ التي سيأتي ذكرها لاحقاً ـ لما أنزل الله تعالى براءتها بالوحي قالت لها أمها: قومي إليه (تقصد النبي ﷺ)، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل الذي أنزل في براءتي وحياً يُتلى إلى يوم القيامة[3].

وذات مرة قال لها الرسول ﷺ: إني لأعلم إذا كنتِ عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى، قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إذا كنت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٥٢ برقم ٢٤٣٠٤، وهو في مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٦ وفيه أنه دفع الأسير إلى حفصة بدل عائشة، وأخرجه الضياء المقدسي الحنبلي في الأحاديث المختارة ٥/ ٢٠، وفيه: أنه دفع الأسير إلى إنسان ولم يسمّه، كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه باب نكاح الأبكار برقم ٥٠٧٧، وابن حبان في صحيحه ١٠/ ١٧٤ برقم ٤٣٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي برقم ٤١٤، ومسلم في صحيحه كتاب التوبة برقم ٢٧٧٠، وأحمد في مسنده ٦/ ٥٩ برقم ٢٤٣٦٢.

عني راضية فإنك تقولين: لا وربّ محمد، وإذا كنت عليّ غضبى، قلتِ: لا ورب إبراهيم، قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك[١].

وفيما يأتي نرى كيف يعبر المؤلّف الغربي «مارغوليوث» عن هذه الواقعة، يقول:

«فإذا أغضب محمد زوجته عائشة، فإنها كانت ترفض أن تقول له رسول الله، وتعترض على الوحي الذي ينزل عليه، اعتراضاً شديداً»[٢].

وهذا نموذج حي ومدهش لمعرفة الأوربيين باللغة العربية، وصدق مقالهم وعدم التعصب المذهبي!![٣].

القيام بالأعمال المنزلية:

رغم وجود الخادم في البيت فإن عائشة ﵂ كانت تقوم بنفسها بخدمة الدار كلها وسائر حاجات النبي ﷺ فكانت تطحن الدقيق[٤] بيدها، وتطبخ بنفسها[٥]، وتفرّش[٦] المفارش، وتحضِّر له[٧] الوَضوء، وتَفْتِلُ[٨] قلائد هَدْي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب غيرة النساء ووَجْدهن برقم ٥٢٢٨، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٩، وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٤٩ برقم ٧١١٢، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٣٦٥ باب غضب المرأة على زوجها برقم ٩١٥٦، وأبو يعلى في مسنده ٨/ ٢٩١ برقم ٤٨٩٣.

(٢) انظر: كتابه Life Of Muhammad ص٤١٥.

(٣) هذا استهزاء وتهكم من المؤلف على المستشرقين وخاصة الحاقدين منهم على الإسلام وعلى رأسهم مرغوليوث هذا (الناشر).

(٤) انظر الأدب المفرد للإمام البخاري ١/ ٥٥ برقم ١٢٠، ط: دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٠٩هـ.

(٥) انظر: حديث الإفك في صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤١٤١، وصحيح مسلم كتاب التوبة برقم ٢٧٧٠.

(٦) انظر: الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية للإمام الترمذي ١/ ٢٧٠ برقم ٣٣٠ وفيه ذكر حفصة ﵂، ط: مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤١٢هـ.

(٧) أورده الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٦٨ برقم ٢٤٤٣٢.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج برقم ١٦٩٦، ١٦٩٩، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١٣٢١، والنسائي في سننه كتاب مناسك الحج برقم ٢٧٧٦، ٢٧٧٧ =

النبي ﷺ بيديها، وترجّله[1] بيدها، وتطيّبه[2]، وتغسل ثيابه[3]، وتُعدّ له السّواك[4] عند المبيت، وتغسل سواكه اهتماماً بنظافته[5].

كما أنها كانت تقري الضيوف القادمين عليه ﷺ في البيت، وتقوم بواجبهم، يقول الصحابي الجليل قيس الغفاري رضي الله عنه - وكان من أصحاب الصفة - قال رسول الله ﷺ: انطلقوا بنا إلى بيت عائشة رضي الله عنها فانطلقنا، فقال: يا عائشة أطعمينا، فجاءت بحشيشة، فأكلنا، ثم قال: يا عائشة أطعمينا، فجاءت بحيسة مثل القطاة فأكلنا، ثم قال: يا عائشة اسقينا، فجاءت بعسّ من لبن فشربنا، ثم قال: يا عائشة اسقينا، فجاءت بقدح صغير فشربنا[6].

= وأبو داود في سننه كتاب المناسك برقم ١٧٥٧، وابن ماجه في سننه كتاب المناسك برقم ٣٠٩٥.

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب الاعتكاف برقم ٢٠٢٨ - ٢٠٢٩، وصحيح الإمام مسلم كتاب الحيض برقم ٢٩٧، وسنن الترمذي كتاب الصوم برقم ٨٠٤، وأبو داود كتاب الصوم برقم ٢٤٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج برقم ١٥٣٩، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١١٨٩، والترمذي في سننه كتاب الحج برقم ٩١٧، والنسائي في سننه كتاب الغسل والتيمم برقم ٤١٧، ٤٣١، وفي كتاب مناسك الحج برقم ٢٦٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء بأرقام ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، والإمام أبو داود في كتاب الطهارة برقم ٣٨٨.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٥٣ برقم ٢٤٣١٤ في حديث طويل، كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم ٧٤٦، وابن خزيمة في صحيحه باب إباحة الوتر بسبع ركعات. . . ٢/ ١٤١ برقم ١٠٧٨، ط: المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٠هـ، وابن حبان في صحيحه ٦/ ١٩٥ برقم ٢٤٤١ ذكر وصف وتر المرء. . . والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٩ باب من أوتر بسبع أو بتسع. . . برقم ٤٥٨٨، والنسائي في السنن الكبرى ١/ ١٧٣ برقم ٤٤٨، وابن ماجه في سننه باب ما جاء في الوتر. . . برقم ١١٩١.

(٥) أخرجه الإمام أبو داود في سننه باب غسل السواك برقم ٥٢، والإمام البيهقي في السنن الكبرى باب غسل السواك ١/ ٣٩ برقم ١٦٨.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب برقم ٥٠٤٠، والإمام أحمد في مسنده ٥/ ٤٢٦ برقم ٣٦٦٦، وابن حبان في صحيحه ١٢/ ٣٥٨ برقم ٥٥٥٠، والنسائي في السنن الكبرى ٤/ ١٦١ برقم ٦٦٩٥، وانظر: الأحاديث المختارة للمقدسي ٨/ ١٣٥ - ١٣٤.

الطاعة واتباع الأحكام:

مما لا شك فيه أن طاعة الزوج واتباع أوامره من أهم وآكد الواجبات على الزوجة، وحياة عائشة رضي الله عنها خير أسوة وأحسن قدوة لذلك، فإنه لم تعهد منها أية مخالفة لأي حكم من أحكام النبيّ ﷺ طوال الفترة التي عاشتها في كنف النبي ﷺ التي امتدت إلى تسع سنين، لدرجة أنه لو خطر على بالها أو عرفت ولو بالتلميح أن الشيء الفلاني يُغضب الرسول ﷺ لتوقفت عنه فوراً وامتنعت منه كُلياً، تقول عائشة رضي الله عنها: «استترت نَمْرُقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب، فلم يدخل، فعرفت في وجهه الكراهة، قالت: يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله ماذا أذنبت؟ قال: ما بال هذه النمرقة؟ فقالت: اشتريتها لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: إن أصحاب هذه الصور يعذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أَحْيُوا ما خلقتم، وقال: إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»[1].

وها هو الصحابي الجليل ربيعة الأسلمي رضي الله عنه قد تزوج، ولم يجد ما يولم به فجاء رسولَ الله ﷺ حزيناً، فقال: يا ربيعة مالك حزين؟ فقلت: يا رسول الله ما رأيت قوماً... حديث طويل وفيه... فقال لي رسول الله ﷺ: اذهب إلى عائشة فقل لها: فلتبعث بالمِكْتل الذي فيه الطعام، قال: فأتيتها فقلت لها ما أمرني به رسول الله ﷺ، فقالت: هذا المكتل فيه تسع آصع شعير، لا والله إنْ أصبح لنا طعام غيره، خذه، فأخذته... الحديث[2].

هذا وقد كانت جميع أمهات المؤمنين يقمن بهذه الطاعة وتنفيذ أوامره ﷺ مثل ما كانت تقوم به عائشة رضي الله عنها في حياته ﷺ، إلا أن الطاعة الحقيقية والانقياد التام الأصلي هو القيام بهذا الواجب بعد وفاة النبيّ ﷺ، فيجب أن تنفذ كل أوامره وسائر أحكامه ﷺ بعد وفاته مثلها في حياته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب اللباس باب التصاوير برقم ٥٩٦١، ومسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة برقم ٢١٠٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٨٨ برقم ٢٧١٨، والإمام أحمد في مسنده ٤/٥٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٢٥٦.

النبي ﷺ ربّاها على السخاء والكرم:

وقد سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ قد علّمها الجود، وربّاها على السخاء والكرم، فكان من فضل هذه التربية العظيمة والتعليم النبوي المبارك أنها عضّت بنواجذها على هذا الواجب الكبير ولم تتخلَّ عنه حتى أتاها اليقين.

كما مرّ بنا أنها استأذنت من الرسول ﷺ في الجهاد فقال لها الرسول ﷺ: «جهاد النساء الحج»، فلما سمعت بهذا التعليم النبوي قلما مضى عام ولم تحج فيه[1].

بعث إليها عبد الله بن عامر مرة بنفقة وكسوة، فقالت لرسوله: يا بنيّ إني لا أقبل من أحد شيئاً، فلما خرج قالت: رُدّوه عليّ، فرَدُّوه، فقالت: إني ذكرت شيئاً قاله لي رسول الله ﷺ؛ قال: «يا عائشة من أعطاك عطاءً بغير مسألة فاقبليه، فإنما هو رزق عرضه الله لك»[2].

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر يوم عرفة على عائشة وهي صائمة يُرشّ عليها، فقال لها: أفطري، فقالت: أُفطر وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن صوم يوم عرفة يكفّر العام الذي قبله»[3].

ولما رأت عائشة رسول الله ﷺ يصلّي الضحى، بدأت تواظب عليها، ولم تتركها قط، وكانت تقول: «لو أن أبي نُشر فنهاني عنها ما تركتها»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين قالت: قلت: يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكنّ أحسنُ الجهاد وأجملُه: الحج حج مبرور، فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ، باب حج النساء برقم ١٨٦١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٧٧ برقم ٢٤٥٢٤ و٦/ ٢٥٩ برقم ٢٦٢٧٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٠٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٨٤ برقم ١٨٢٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٢٨ برقم ٢٥٠١٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد باب صيام يوم عرفة، ٣/ ١٨٩، وأصل الحديث وهو فضيلة صوم يوم عرفة موجود في كتب الصحاح والسنن، من دون قصة عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٣٨ برقم ٢٥١٢٢، والنسائي في السنن الكبرى ١/ ١٨١ برقم ٤٨٢، ومالك في الموطأ ١/ ١٥٣ برقم ٣٥٨، وعبد الرزاق في مصنفه ٤/ ٧ برقم ٤٨٦٦.

وجاءتها امرأة تسألها عن الحِنّاء فقالت عائشة رضي الله عنها: «كان حبيبي رسول الله ﷺ يعجبه لونه ويكره ريحه»[1].

التَعَايُشُ الديني:

كان بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مسكناً ومأوى لسيد المرسلين محمد ﷺ، حيث لم تكن الثروات الكبيرة ولا الأموال الهائلة ولا أغراض التنعم والعيش الهنيء الرغيد، ولا هي كانت تبالي بهذه الأشياء الزائلة.

ومعلوم أن الإسلام دين يجمع بين الدين والدنيا، فما سبق في الصفحات الماضية من ذكر بعض الحقائق، وصُوَر للجود والكرم والسخاء كانت علاقته بالفطرة البشرية والجِبِلّة الإنسانية.

ونتحوّل الآن لكي نعيش حياته ﷺ ونطّلع على صور واقعية منها في ضوء الحقائق التالية:

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل البيت تَمَثّل: «لو كان لابنِ آدمَ واديان من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ فَمه إلا الترابُ، وما جعلنا المال إلا لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ويتوبُ اللهُ على من تابَ»[2].

كان غرضه ﷺ من تكرار هذه الكلمات يومياً هو تذكير أهل البيت بفناء هذه الدنيا الزائلة، وعدم ثباتها واستقرارها، والحطّ من مكانة وأهمية المال في القلوب وتقليل قيمته.

وكان ﷺ يدخل في الحجرة بعد صلاة العشاء فيستاك ثم ينام مباشرة،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/١١٧ برقم ٢٤٩٠٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٦١ برقم ٨٩٠٥، وأبو داود في سننه باب في الخضاب للنساء برقم ٤١٦٤، والنسائي في سننه برقم ٥٠٩٠ باب كراهية ريح الحناء.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/٥٥ برقم ٢٤٣٢١، كما أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن بعضهم عن أنس وآخرون عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، والإمام مسلم في صحيحه برقم ١٠٤٨ باب لو كان لابن آدم واديان لابتغى ثالثاً، والترمذي في سننه باب ما جاء لو كان لابن آدم واديان من مال برقم ٢٣٣٧، والدارمي باب لو كان لابن آدم واديان من مال برقم ٢٧٧٨.

فإذا كان وسط الليل يستيقظ من النوم ويتهجد، فإذا كان آخر الليل يُوقظ عائشة رضي الله عنها فتصلي معه ثم توتر(١)، وإذا تبين له الفجر يصلّي ركعتي الفجر ويضطجع على شقه الأيمن(٢)، ويتحدث مع عائشة(٣)، حتى يأتيه المؤذن للإقامة.

وأحياناً كانت رضي الله عنها تقوم الليل كاملاً مع النبيّ ﷺ تعبد ربه، تقول رضي الله عنها: كنت أقوم مع الرسول ﷺ ليلة التمام فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمرّ بآية فيها تخوّف إلا دعا الله عز وجل واستعاذ، ولا يمرّ بآية فيها استبشار إلا دعا الله عز وجل ورغب إليه(٤).

كما أنها كانت تقوم تصلي مع الرسول ﷺ في الحالات الطارئة؛ مثل الكسوف وغيره.

وكانت تقتدي بالرسول ﷺ في حجرتها(٥) والرسول ﷺ يؤم الناس في المسجد.

وكانت تواظب على الصلوات الخمس وقيام الليل، وكذلك صلاة الضحى، وتكثر من الصوم، وأحياناً يصومان معاً، وحينما ترى النبي ﷺ يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، قد تشاركه في هذه العبادة، وتضرب الخيمة في المسجد فيصلّي الرسول ﷺ الصبح ثم يدخلها(٦).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٥٥ برقم ٢٤٣٢٠ و٦/ ١٥٢ برقم ٢٥٢٢٥، كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب صلاة الليل برقم ٧٤٤.

(٢) يراجع: صحيح الإمام مسلم باب صلاة الليل برقم ٧٣٦، وصحيح البخاري باب الضجعة على الشق الأيمن بعد ركعتي الفجر برقم ٦٢٦.

(٣) صحيح البخاري باب من تحدث بعد الركعتين ولم يضطجع برقم ١١٦١، وفيه «فإن كنت مستيقظة حدثني، وإلا اضطجع حتى يؤذَّن بالصلاة»، وسنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ١٢٦٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٩٢ برقم ٢٤٦٥٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٨٢.

(٥) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ١٠٥١، صحيح الإمام مسلم كتاب الكسوف برقم ٩٠٥، ٩٠٦، ٩١٠.

(٦) صحيح البخاري كتاب الاعتكاف برقم ٢٠٣٣.

وقد صحبت النبيَّ ﷺ في حجة الوداع سنة ١١هـ، فلما قدمت مكة حاضت فلم تطف بالبيت، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ فقال: انقُضي رأسك وامتشطي وأهِلّي بالحج ودعي العمرة، فلما قضت مناسك الحج، أرسلها النبي ﷺ مع شقيقها عبد الرحمن إلى التنعيم فأحرمت من هناك للعمرة واعتمرت، فقال ﷺ: «هذه مكان عمرتك»(١).

القيام بواجب النبوّة في البيت:

هذا هو المبحث الأخير في باب العلاقات الزوجية، وما مرّ معنا من القصص والوقائع التي تدلّ على غاية الحبّ والمودة، ربما يخطر منها على بال البليد القليل الفطنة أن النبي ﷺ كان يغفل عن واجب النبوة في بيته، وحسبنا في الرد على ذلك قول عائشة ﵂: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة(٢).

ولما رجع الرسول ﷺ من غزوة تبوك فاتحاً استقبلته عائشة ﵂ وعلّقت درنوكاً فيه تماثيل فأمرها ﷺ أن تنزعه فنزعته(٣).

وذات ليلة كان ﷺ عند عائشة إذ خرج فجأة فانطلقت عائشة ﵂ في إثره حتى جاء البقيع، فرفع يديه ثلاث مرات فأطال ثم انصرف، فانصرفت عائشة ﵂، تقول: فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت وسَبَقْتُه فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت، فدخل فقال: مالك يا عائشة حشياً رابية؟ قالت: لا، قال: لتُخْبِرِينني أو ليخبِرَنّي اللطيف الخبير، قلت:

---

(١) يراجع تفصيل القصة في صحيح البخاري كتاب الحج بالأرقام التالية: ١٥٥٦، ١٦٣٨، ١٦٥٠، ١٧٨٦، وفي صحيح الإمام مسلم كتاب الحج برقم ١٢١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب كيف يكون الرجل في أهله برقم ٦٠٣٩، وكذلك في كتاب النفقات برقم ٥٣٦٣ وكتاب الأذان برقم ٦٧٦، والإمام الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق برقم ٢٤٦٨.

(٣) يراجع: صحيح البخاري كتاب اللباس بأرقام ٥٩٥٤، ٥٩٥٦، والإمام الترمذي نحوه في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق برقم ٢٤٨٦، والنسائي في سننه كتاب الزينة برقم ٥٣٥٢.

يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، فأخبرته الخبر[1].

وذات مرة استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله[2]، وفي رواية لمسلم: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»[3].

هذا وبالرغم من أن الإسلام قد أباح الحرير والذهب للنساء، لكن النبي ﷺ لا تعجبه مظاهر التنعُّم والعيش الهنيء والتزين الفاخر، فيكره أن يُرى مثل هذا التنعُّم في بيته، تقول عائشة: «إن رسول الله ﷺ رأى عليها مسكتَيْ ذهب فقال: ألا أخبرك بما هو أحسن من هذا، لو نزعت هذا، وجعلت مسكتين من وَرِق ثم صفّرتهما بزعفران، كانتا حسنتين»[4].

وتقول رضي الله عنها: نهانا رسول الله ﷺ عن خمس: لبس الحرير والذهب[5] والشرب في آنية الذهب والفضة، والمِيثَرة الحمراء، ولبس القِسِّيِّ، فقالت له: يا رسول الله شيء رقيق من الذهب يربط به المسك أو يُربط به، قال: «لا،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجنائز برقم ٩٧٤، والإمام النسائي في سننه كتاب الجنائز باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين برقم ٢٠٣٧ والإمام الترمذي في سننه كتاب الصوم برقم ٧٣٩، وابن ماجه في سننه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم ١٣٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب السلام برقم ٢١٦٥، والبخاري في صحيحه كتاب الأدب برقم ٦٠٢٤ ـ ٦٠٢٥. والترمذي في سننه كتاب الاستئذان برقم ٢٧٠١.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب البر والصلة برقم ٢٥٩٣.

(٤) أخرجه الإمام النسائي في سننه كتاب الزينة برقم ٥١٤٣، وفي السنن الكبرى ٥/ ٤٣٦ برقم ٩٤٤٤، كما ذكره أبو المحاسن يوسف بن عيسى الحنفي في معتصر المختصر ٢/ ٢١٣.

(٥) لقد أباح الإسلام الذهب والحرير للنساء، ويدل عليه أحاديث صحيحة وصريحة، ولعل هذا المنع كان خاصاً بأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، أو أن المقصود بالمنع هو الإفراط والغلو في استعمالهما، والله أعلم.
قلت: أو أن النهي للكراهة لا للتحريم (الناشر).

اجعليه فضةً وصفّريه بشيء من زعفران»[1].

كان النبيّ ﷺ دائماً يعلّم أهله الخلق الحسن ويربيهم على الصفات الفاضلة والأخلاق الطيبة النبيلة، وقد سبق أن ذكرنا بعض الأمثلة على ذلك، وها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تحكي لنا قصة شاة أكلت رغيفها، فماذا كان تعليم النبي ﷺ لها، تقول: إنه كانت ليلتي معه، فطحنت شيئاً من شعير فجعلت له قرصاً، فدخل فردّ الباب، وكان إذا أراد أن ينام أغلق الباب وأوكأ القِرْبة وأكفأ القدح وأطفأ المصباح، فانتظرته أن ينصرف فأطعمه القرص، فلم ينصرف حتى غلبني النوم، وأوجعه البرد فأتاني فأقامني ثم قال: أدفئيني أدفئيني، فقلت له: إني حائض، فقال: وأن اكشفي عن فخذيك، فكشفت له عن فخذي، فوضع خدّه ورأسه على فخذي حتى دفئ، فأقبلت شاة لجارتنا داجنة، فدخلت ثم عمدت إلى القرص فأخذته، ثم أدبرت به، قالت: وقلقت عنه واستيقظ النبي ﷺ، فبادرتها إلى الباب، فقال النبي ﷺ: «خذي ما أدركتِ من قرصك ولا تؤذي جارك في شاته»[2].

وكان العرب قد تعوّدوا على أكل الضّب، ولكنّ النبيّ ﷺ كان يكرهه، فأُهدي إليه لحمه ذات مرة فلم يأكله فقالت عائشة رضي الله عنها: ألا نطعمه المساكين؟ قال: لا تطعموهم مما لا تأكلون[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٢٢٨ برقم ٢٥٩٥٣.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد ١/٥٤ برقم ١٢٠ وقال: ضعيف الإسناد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/١٤٣ برقم ٢٥١٥٣ و٦/١٢٣ برقم ٢٤٩٦١، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/١١٣ باب فيمن تصدق بما يكره، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٣٢٥ برقم ١٩٢٠٨، والطبراني في المعجم الأوسط ٥/٢١٣ برقم ٥١١٦.

الفصل الثالث

معاملتها مع الضرائر والأقارب

لا يوجد شيء في حياة امرأة أشدّ مرارة وأنكى جرحاً من وجود ضرة لها، وكانت عائشة رضي الله عنها لها ثماني ضرائر، ولكن حياتهن كلها كانت صافية نظيفة، لم يعكّر صفوها شيء من الحقد أو الشَّحْناء، وذلك لما أكرمهن الله تعالى بنبيه محمد ﷺ ورفع من مكانتهن وأعظم من شأنهن.

وكان جملة من تزوج بهن الرسول ﷺ بعد أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها عشر نساء، وقد كان زواجه ﷺ بهؤلاء النسوة في مناسبات مختلفة، ولعدد من الأسباب والمصالح. ومن ضمنها كانت أم المساكين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، التي تشرفت بالزواج بالنبي ﷺ في سنة ٣هـ، وعاشت شهرين أو ثلاثة أشهر فقط، أما التسع البواقي فقد قُدّر لهن العيش إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ، والجدول الآتي يوضّح سنوات زواج أمهات المؤمنين بالنبي ﷺ، وبهذا تتبين لنا الفترة التي عايشت فيها عائشة رضي الله عنها صويحباتها وضرائرها.

أسماء أمهات المؤمنين	سنة زواجهن
١ ـ سودة بنت زمعة	السنة العاشرة من البعثة
٢ ـ حفصة بنت عمر الفاروق	السنة الثالثة من الهجرة
٣ ـ أم سلمة	السنة الرابعة من الهجرة
٤ ـ جويرية (من أثرياء قبيلة بني المصطلق)	السنة الخامسة من الهجرة
٥ ـ زينب بنت جحش القرشية	السنة الخامسة من الهجرة
٦ ـ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان	السنة السادسة من الهجرة
٧ ـ ميمونة	السنة السابعة من الهجرة
٨ ـ صفية	السنة السابعة من الهجرة

١ ـ **أم المؤمنين خديجة** رضي الله عنها هذا وقد كان النبي ﷺ رُزق حبَّ أم

المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وكان لها مكانة رفيعة في قلبه ﷺ، وكان دائماً يذكرها بالخير عند عائشة رضي الله عنها ـ رغم أنها انتقلت إلى رحمة الله تعالى قبل زواجه ﷺ بعائشة رضي الله عنها ـ فكانت تغار عليها غَيْرة لم تنطوِ على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها، لأنها شَغَلت قلبَ النبي ﷺ بعد وفاتها، فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها، وكان شديد الكَلَف بها والتطلع إليها، تقول عائشة رضي الله عنها: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، هلكتْ قبل أن يتزوّجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشّرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيُهدي في خلائلها منها ما يسعهن»[1].

وكل ما سجلته لنا كتب الأحاديث من مآثر وخدمات أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها الدينية والدعوية؛ من مواساتها للنبي ﷺ ومساعدتها له ومؤازرتها إياه، كل ذلك مرويّ عن طريق عائشة رضي الله عنها.

٢ ـ **سودة** رضي الله عنها: وقد تزوج الرسول ﷺ عائشة وسودة في الوقت نفسه تقريباً، بفارق يسير من التقديم والتأخير، إلا أن دخوله بعائشة رضي الله عنها قد تأخر إلى ما بعد الهجرة، حيث إنها بقيت في بيت أمها بمكة لمدة ثلاث سنوات ونصف سنة تقريباً، وفي هذه الفترة (فترة تأخير بنائه بعائشة) كانت سودة رضي الله عنها هي الزوجة الوحيدة للنبي ﷺ. فلما بنى الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها في سنة ١هـ كانت سودة (ضَرّتها) موجودة، وكان من المتوقع أن تكون هذه الفترة فترة المنافسة بينهما، ونيل الحقوق دون مشاركة غيرها، إلا أن الواقع يثبت عكس ذلك كلياً، فكل ما حدث في هذه الفترة يدل على وحدتهما ومودتهما وإخلاصهما ووفائهما، بل كانت سودة رضي الله عنها صديقة لعائشة ورفيقتها في الأمور المنزلية[2]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب بأرقام ٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٨، وكتاب النكاح برقم ٥٢٢٩، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٥، والترمذي في سننه كتاب البرّ والصلة برقم ٢٠١٧، وكتاب المناقب برقم ٣٨٧٥، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٩٩٧. [هلكت: ماتت].

(٢) انظر: صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم ٥٢٦٨ قصة العسل، وفيها: قالت عائشة: فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير... الحديث.

ولما كبرت سودة ﵂ وأسنّت فَرِقَتْ أن يفارقها الرسول ﷺ وضنَّتْ بمكانها منه، وعرفت من حُبّ رسول الله ﷺ لعائشة فوهبت يومها لها، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها[1].

كانت عائشة ﵂ تمدح سودة كثيراً وتقول: ما رأيت امرأة أحبّ إليّ أن أكون في سلاخها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حِدّة[2].

٣ ـ **حفصة** ﵂: وأم المؤمنين حفصة ﵂ دخلت في كنف الرسول ﷺ في السنة الثالثة من الهجرة، وعاشتا معاً في ظل حبيبهما المصطفى ﷺ حوالي ثماني سنوات، فإحداهما كانت فلذة كَبِد أبي بكر الصديق ﵁، والأخرى كانت قرة عين عمر الفاروق ﵁، كانت حياتهما نموذجاً حياً صادقاً للتوادد والتلاطف والتحابب، يكون لهما رأي[3] واحد في الأمور المنزلية، وكانتا أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي ﷺ، وتؤيد إحداهما الأخرى في كل الأمور بإزاء غيرهما من أزواج النبي ﷺ، ومع ذلك كله فبسبب نطاق الحبّ ودائرة العشق لا تكاد تتحمل فيه الواحدة الأخرى ولا ترضى بقسمة هذا الجوهر الغالي في غيرها، لما فيها من المنافسة والغيرة على أترابها كما قال الشاعر:

---

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب النكاح برقم ٥٢١٢، وصحيح الإمام مسلم كتاب الرضاع برقم ١٤٦٣ ومستدرك الحاكم ٢/ ٢٠٣ برقم ٢٧٦٠، وسنن سعيد بن منصور ٤/ ١٤٠١ برقم ٧٠٢، وسنن البيهقي الكبرى ٧/ ٧٤ برقم ١٣٢١٢ و٧/ ٢٩٧ برقم ١٤٥١٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الرضاع برقم ١٤٦٣، وابن حبان في صحيحه ١٠/ ١٢ برقم ٤٢١١، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٤ برقم ١٣٢١١، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٣٠١ برقم ٨٩٣٤، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٢/ ٢٠٧ برقم ٧١٢.

(٣) يتبين اتحادهما في الرأي واتخاذهما موقفاً واحداً في كل القضايا بما ورد في الأحاديث الصحيحة في قصة الهدايا وحادث التحريم والإيلاء، تقول عائشة في قصة العسل: فتواصيت أنا وحفصة (صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم ٥٢٦٧)، وفي سنن الترمذي عن صفية بنت حيي قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام... الحديث، (كتاب المناقب برقم ٣٨٩٢، وكذلك سنن النسائي كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٥٨ و٣٩٥٩).

«بـاسـايـه تـرانـمـي بـسـنـدم»
«حَتَّـى ظِـلِّـك فـإنِّـي أَغَـارُ عَـلَـيْـه»

وما كانت تتوقف هذه المنافسة بينهما حتى في السفر، وإلى هذا يُشير حديث عائشة الآتي:

«إن النبي ﷺ كان إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى، فركبت، فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلّم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة، فلما نزلوا جعلت رجلها بين الإذخر وتقول: يا ربّ سلّط عليّ عقرباً أو حية تلدغني، رسولُكَ ولا أستطيع أن أقول له شيئاً»[(١)].

٤ ـ أما **أم سلمة** رضي الله عنها: فكانت هي التي امتازت بصفات عالية من العقل وقوة الإدراك وملكة في الفهم وبُعد في النظر بين أزواج النبي ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها، ومشورتها التاريخية التي أشارت بها على النبي ﷺ في صلح الحديبية بخصوص[(٢)] نحر الهدي لتستحق أن تسجّل بأحرف من الذهب،

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب النكاح حديث رقم ٥٢١١، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٤٥.

(٢) وذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من كتابة المعاهدة أمر أصحابه بالنحر والحلق، قال ذلك ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد، فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها وهو شديد الغضب، فقالت: مالك يا رسول الله؟ مراراً وهو لا يجيبها، ثم ذكر لها ما لقي من الناس وقال لها: «هلك المسلمون، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا، وفي لفظ قال: عجباً يا أم سلمة، ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه، قلت لهم انحروا واحلقوا... ثم أشارت عليه ﷺ أن يخرج ولا يكلم أحداً منهم، وينحر بُدْنه ويحلق رأسه، ففعل، فلما رأى الناس رسول الله ﷺ قد نحر وتحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون».

انظر تفاصيل الروايات والأحاديث الواردة في الموضوع: صحيح ابن حبان ١١/ ٢٢٥ برقم ٤٨٧٢، سنن البيهقي الكبرى ٥/ ٢١٥ برقم ٩٨٥٦، مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٨٣ برقم ٣٦٨٤٠، مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٤٠، مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٢٥، المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ١٤ برقم ١٣.

وتبقى تذكاراً رائعاً في تاريخ النساء. ودرجتُها في فهم المسائل، ومكانتها في استنباط الأحكام الفقهية بعد عائشة رضي الله عنها[1]، ولذلك نراها قد احتلت مرتبة رفيعة لدى النبي ﷺ رغم كبر سنّها، ولم يعكّر صفاء علاقتها مع عائشة طوال هذه الفترة إلاّ حادث واحد بسيط فقط، وهو ما حكته لنا عائشة رضي الله عنها تقول: اجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة والله إن الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يُهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار، قالت: فذكَرَتْ ذلك أم سلمة للنبي ﷺ قالت (أم سلمة): فأعرض عني، فلما عاد إليّ ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له، فقال: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها[2].

٥ ـ وأما **جويرية** رضي الله عنها: فلم تذكر لنا كتب الأحاديث والسير أيَّ خلاف بينها وبين عائشة رضي الله عنها، سوى أن عائشة قد انبهرت بجمالها لما رأتها لأول وهلة، ولنسمع وصفها بلسان عائشة تقول: وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فبينا النبي ﷺ عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على النبي ﷺ، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت.... الحديث[3]. فخافت عائشة على نفسها علّها تسبّب نقصان مرتبتها، والتقليل من مكانتها وأهميتها، وسرعان ما زاحت هذه الفكرة وزالت هذه الوسوسة، وثبت أن ذلك كان خطأً، إذ لم تكن أسباب مكانتها العالية، وعظم مرتبتها وسموّ درجتها ورفعتها ذاك الجمال الظاهري أو الحسن الرائع الذي يبهر العقول ويجلب النفوس.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٩٢ ـ ٨٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٧٧٥، سنن الترمذي كتاب المناقب برقم ٣٨٧٩، سنن النسائي كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٥٠.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ترجمة جويرية رضي الله عنها ٨/ ١١٧ ـ ١١٦، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٨ برقم ٦٧٨١.

٦ ـ **أم المؤمنين زينب بنت جحش** رضي الله عنها: كانت بنت عَمَّةِ الرسول ﷺ، أبيّة، أنوفة، فيها شيء من الحِدّة من أجلها فارقها زوجها الأول، كانت رضي الله عنها أقرب النساء قرابة من رسول الله ﷺ، ولذلك فإنها كانت تعتبر نفسها أحق وأجدر بالاحترام، والاهتمام من غيرها من الأزواج.

تقول عائشة رضي الله عنها وهي تصفها: «وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ»[١] وقد أرسلها بعض الأزواج إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت (عائشة): ثم وقعت بي، فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طَرْفه، هل يأذن لي فيها، قلت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، قالت: فلما وقعتُ بها لم أنشبها حتى أنحيتُ عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ: إنها ابنة أبي بكر[٢].

ولمّا كان النبي ﷺ يعتكفُ في العشر الأواخر من رمضان يُضرَب له الخباء، فيدخله ﷺ، وكانت عائشة أيضاً يضرَب لها الخباء في فناء المسجد، وذات مرة ضرب لها الخباء، فاستأذنت حفصة عائشة أن تضرب خباءً فأذنت لها، فضربت خباءً، فلما رأته زينب بنت جحش ضربت خباءً آخر، فلما أصبح النبي ﷺ رأى الأخبية، فقال: ما هذا؟ فأُخبر، فقال: آلبرّ تُرِدْنَ؟ فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثم اعتكف عشراً من شوّال وفي رواية مسلم «فأمر بخبائه فقُوِّض، وترك الاعتكاف في شهر رمضان....»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات برقم ٢٦٦١، وكتاب المغازي ٤١٤١، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٢.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب فضل عائشة برقم ٢٤٤١، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٢٩٩ برقم ١٤٥٢٦، والنسائي في السنن الكبرى ٥/٢٨١ برقم ٨٨٩٢، وأحمد في مسنده ٦/٨٨ برقم ٢٤٦١٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاعتكاف برقم ٢٠٤١، ومسلم في صحيحه كتاب الاعتكاف برقم ١١٧٣، وأبو داود في سننه كتاب الصوم برقم ٢٤٦٤، والنسائي في سننه كتاب المساجد برقم ٧٠٩، وابن ماجه في سننه كتاب الصيام برقم ١٧٧١.

وذات ليلة جاءت زينب إلى بيت عائشة ـ ولم يكن يومئذٍ مصباح في البيوت ـ إذ دخل النبي ﷺ فمدّ يده إليها، فقالت عائشة ﵂: هذه زينب، فكفّ النبي ﷺ يده فتقاولتا، حتى استخبتا وأقيمت الصلاة، فمرّ أبو بكر على ذلك فسمع أصواتهما فقال: اخرج يا رسول الله إلى الصلاة، واحثُ في أفواههن التراب، فخرج النبي ﷺ، فقالت عائشة: الآن يقضي النبي ﷺ صلاته فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أتاها أبو بكر فقال لها قولاً شديداً، وقال: أتصنعين هذا(1)؟.

ولا يظنّن ظان من هذه القصص أن قلوبهن لم تكن صافية تجاه ضرائرهن وصواحبهن، فكانت العلاقات بينهن على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة، فعائشة وزميلاتها كن يغرنَ ويتنافسن لا محالة كما تغار النساء في كل مكان، ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبيّ يتأدّبن بأدبه، ويتطلعن إلى رضاه، وكل ما روي لنا من غيرة زوجات النبي إن ذكرنا أنهنّ نساء من طينة الأنوثة الخالدة، فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن في كنفه ورعايته، وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ليقع بينهن من شحناء الغيرة إذا اجتمعن في بيت أسرتهن أضعاف ما روي لنا من غيرة زوجات النبي ﷺ في عشرتهن الطويلة.

ومما لا مراء فيه أن شرف الصحبة يجعل الإنسان يحتل مكانة عالية مرموقة ودرجة سامية، ولكنه لا يغير من طبيعته وجبلّته شيئاً، كذلك حال المرأة فإنها بطبيعتها وفطرتها لا ترضى بأن تشاركها واحدة أخرى في حُبها، ولا تقبل فيه أية قسمة، لكن حال زوجات النبي ﷺ تختلف عن عامة النساء، فكن يحمن حول حمى المصباح الوحيد ـ وهو مصباح حب النبي ﷺ ـ بينما قلوب جميعهن كانت تستضيء من سراج واحد، وتستنير من مصباح واحد، ورغم ذلك كله كن نموذجاً رائعاً ومثالاً نادراً للملاطفة والمداراة والتحابب فيما بين الضرائر، سوى

---

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الرضاع برقم ١٤٦٢. [الاستخاب: ارتفاع الأصوات].

ما روي عنهن في بعض الأحوال الاستثنائية والمواضع العاطفية.

وهذه زينب بنت جحش رضي الله عنها لما بنى بها النبي ﷺ هنّأتها عائشة رضي الله عنها وباركتها[1].

ولما حاولت بعض القلوب المنافقة الحاقدة اتهام عائشة رضي الله عنها في حادث الإفك شاركتهم حمنة بنت جحش ـ شقيقة زينب ـ في هذه المؤامرة، إلا أن زينب رضي الله عنها لم تَزلّ قدماها عن طريق الصواب قِيد شبر لأية لحظة، وظلّت على موقفها ثابتة، ولمّا سألها الرسول ﷺ عن أمر عائشة رضي الله عنها: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فاستعاذت بالله وقالت: «أحمي سمعي وبصري؛ والله ما علمت إلا خيراً»، وقد كان بوسعها أن تقول في هذه المناسبة ما تقوله الضرة المحنقة، وتسقط قرينتها وتخسّرها بكلمة واحدة، لكن شرف صحبة المصطفى ﷺ جعلها أعلى وأرفع بكثير من هذه الدنايا، فلم ينبس فمها بكلمة باطل، ولذلك نرى عائشة رضي الله عنها كانت تذكرها بكلمات من الشكر والامتنان، وتقول: «فعصمها الله بالورع»[2].

ومرة كان رسول الله ﷺ في سفر فاعتلّ بعير لصفية، وفي إبل زينب فضل من الإبل، فقال رسول الله ﷺ لزينب: «إن بعير صفية قد اعتلّ فلو أنك أعطيتها بعيراً؟ قالت: أنا أعطي تلك اليهودية، فغضب رسول الله ﷺ فتركها شهرين أو ثلاثاً حتى رفعت سريرها، وظننت أنه لا يرضى عنها، قالت: فإذا أنا بظله يوماً بنصف النهار، فدخل رسول الله ﷺ، فأعادت سريرها»[3].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قصة بناء النبي ﷺ بزينب وفيها: ... فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدتَ أهلك بارك الله لك... الحديث (كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٩٣).

(٢) يراجع: صحيح البخاري كتاب الشهادات برقم ٢٦٦١، صحيح الإمام مسلم كتاب التوبة برقم ٢٧٧٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه مختصراً باب ترك السلام على أهل الأهواء برقم ٤٦٠٢، وأحمد في مسنده ٦/ ١٣١ برقم ٢٥٠٤٦ و٦/ ٢٦١ برقم ٢٦٢٩٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣٢٣، والطبراني في المعجم الأوسط ٣/ ٩٩ برقم ٢٦٠٩، وفي الكبير =

مما لا شك فيه أن ذكر محاسن الأموات ومآثرهم يمنح حياتهم الخلقية الدوام والسرمدية وعائشة ﵄ كانت خير مثال لذكر محاسن ضرائرها وقريناتها، تقول ﵄: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً، قالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة الرسول ﷺ نمدّ أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذٍ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة، وكانت زينب امرأة صُنّاعة اليد، فكانت تدبغ وتخرز وتَتَصَدّق في سبيل الله ﷻ[1].

وقد سبق أن ذكرنا ما حدث ذات مرة بين عائشة وزينب ﵄ ووصل الأمر إلى غاية الضيق والكره والاستياء، وها هي عائشة ﵄ تحكي لنا تلك القصة المرة بأسلوب حلو غنيّ بالحُب والإخلاص، لا يشوبه شيء من الحقد أو الكره أو الاشمئزاز، فهي تسرد القصة وتمدحها، تقول ﵄: «فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قطّ خيرًا في الدين من

= ٧١/٢٤ برقم ١٨٨، قلت: ذكر المؤلف أن زينب بنت جحش لما وجد عليها الرسول ﷺ (لمخاطبتها صفية باليهودية) طلبت من عائشة التدخل في الموضوع وإرضاء الرسول ﷺ ففعلت عائشة ذلك، وعزاه إلى مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٥، لكن تبين بمراجعة مسند الإمام أحمد وغيره من كتب المسانيد والسنن أن التي طلبت من عائشة التدخل في الموضوع هي صفية لما وجد عليها الرسول ﷺ لأمر ما، وليست زينب.

وها هو نص رواية أحمد: عن عائشة ﵄ أن رسول الله ﷺ وجد على صفية بنت حُيَيّ في شيء، فقالت: يا عائشة أرضي عني رسول الله ﷺ ولكِ يومي، فقالت: نعم، فأخذت خماراً لها مصبوغاً بزعفران فرشته بالماء ليفوح ريحه، فقعدت إلى جنب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: إليك يا عائشة، إنه ليس يومك، قالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأخبرته بالأمر، فرضي عنها (مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٥ برقم ٢٤٦٨٤، السنن الكبرى للنسائي ٥/ ٣٠٠ برقم ٨٩٢٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة مختصراً برقم ٢٤٥٢، وابن حبان في صحيحه ١٠٨/٨ برقم ٣٣١٤، والحاكم في المستدرك ٢٦/٤ برقم ٦٧٧٦، والطبراني في الأوسط ٢٣٣/١ برقم ٦٢٧٦.

زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّق به وتقرَّب به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرة من حدٍّ كانت فيها، تُسرع منها الفيئة. . .»[١] الحديث.

٧ ـ **أما أم المؤمنين أم حبيبة** رضي الله عنها، فلم تسجّل لنا كتب الأحاديث عنها شيئاً في تعاملها مع عائشة رضي الله عنها بالموافقة أو بالمخالفة، إلا أن كتب أسماء الرجال تنصّ على أنها استدعت عائشة رضي الله عنها عند وفاتها فقالت: قد كان ويكون بيننا وبين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، فقلت (القائلة هي عائشة): غفر الله لك ذلك كله، وتجاوز، وحلّلك من ذلك، فقالت (أم حبيبة): سَرَرْتني سرّك الله[٢].

٨ ـ **وكذلك أم المؤمنين ميمونة** رضي الله عنها لم تذكر لنا كتب الأحاديث شيئاً من تعاملها مع عائشة رضي الله عنها، وقد ثبت في كتب الرجال أنها لما ماتت قالت عنها عائشة رضي الله عنها: أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم[٣].

٩ ـ **أما صفية بت حُيَيّ** رضي الله عنها فقد نالت شرف صحبة النبي ﷺ وحظيت بالبقاء في كنفه لمدة ثلاث سنوات فقط، وكانت مختلفة عن بقية أمهات المؤمنين، لأنها كانت من خيبر ومن أسرة يهودية، تزوجها رسول الله ﷺ في خيبر، فلما دنَوْا من المدينة دفع رسول الله ﷺ فعثرت الناقة العضباء وندر رسول الله ﷺ فقام فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية[٤].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب في فضل عائشة برقم ٢٤٤٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٩٩ برقم ١٤٥٢٦، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٨١ برقم ٨٨٩٢، والطبراني في الأوسط ٩/ ٨٨ برقم ٩٢١١.

(٢) أحال المؤلف إلى طبقات ابن سعد ٨/ ١٠٠ فقط، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٤ برقم ٦٧٧٣، كما ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٣، وابن حجر في الإصابة ٧/ ٦٥٣.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٤ برقم ٦٧٩٩، وابن سعد في الطبقات ٨/ ١٣٨، والحارث في مسنده ١/ ٥١٣ برقم ٤٥٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٩٧، والذهبي في السير ٢/ ٢٤٤ وابن حجر في الإصابة ٨/ ١٢٨.

(٤) صحيح الإمام مسلم باب فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها برقم ١٣٦٥، والبخاري في صحيحه كتاب النكاح، برقم ٥٠٨٥، ٥١٥٩.

فلما قدم رسول الله ﷺ من خيبر ومعه صفية أنزلها في بيت من بيوت حارثة بن النعمان، فسمع بها نساء الأنصار وبجمالها فجئن ينظرن إليها، وجاءت عائشة متنقّبة حتى دخلت، فعرفها، فلما خرجت خرج رسول الله ﷺ على إثرها، فقال: كيف رأيتِها يا عائشة؟ قالت: رأيت يهودية، قال: لا تقولي هذا يا عائشة، فإنها قد أسلمت وحَسُن إسلامها[١].

وقد عُرفت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها بجودة الطهي فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة، ولم تكتم غيرتها عليها، بل هي التي روتها، ومن حديثها عنها عرفناها، قالت: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ إناءً فيه طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته، فسألت النبي ﷺ عن كفارته فقال: «إناء كإناء وطعام كطعام»[٢]. وفي رواية البخاري: فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم بقصعة فيها طعام، فضربت بيدها فكسرت القصعة، فضمها وجعل فيها الطعام، وقال: كلوا، وحبس الرسول القصعة حتى فرغوا، فدفع القصعة الصحيحة وحبس المكسورة[٣].

كانت صفية رضي الله عنها قصيرة القامة، فذات مرة قالت عائشة لرسول الله ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا ـ تعني قصيرة ـ فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته، قالت: وحكيت له إنساناً، فقال: ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا»[٤]. والدليل على أن هذه المشاعر تجاه الضَّرّة كانت

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٢٦، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢/٢٢٧.

(٢) أخرجه النسائي في سننه برقم ٣٩٥٧، وفي السنن الكبرى ٥/٢٨٦ برقم ٨٩٠٥، وأحمد في مسنده ٦/١٤٨ برقم ٢٥١٩٦، هذا وقد اختلفت ألفاظ الرواية من كتاب إلى كتاب، وتتبين صورة القصة بأكملها عند جمع سائر الروايات.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المظالم برقم ٢٤٨١، والترمذي في سننه كتاب الأحكام برقم ١٣٥٩، والنسائي في سننه كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٥٥، وأبو داود كتاب البيوع برقم ٣٥٦٧، وقد استنبط الفقهاء من هذا الحديث أصلاً عظيماً من أصول الفقه الإسلامي ألا وهو كيفية أداء الضمان.

(٤) أخرجه الإمام أبو داود في سننه باب الغِيبة برقم ٤٨٧٥، والترمذي كتاب صفة القيامة برقم ٢٥٠٢، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٣٢٧ برقم ٤٢٨٦.

مؤقتة زائلة أن صفية رضي الله عنها كانت من حزب عائشة رضي الله عنها ومؤيدة لها في كل الأمور.

هذا وقد تبين لنا في ضوء ما قدمنا مدى اهتمام عائشة رضي الله عنها بصواحبها وضرائرها واحترامها إياهن وتوقيرهن، والنظر إليهن بنظرة العزة والإكرام والتعامل معهن بأقصى درجات اللطف والإخلاص والعدل، كما عرفنا كيف كانت تستقبلهن برحابة الصدر وسعة القلب، وتذكرهن بالخير، وتثني عليهن وعلى محاسنهن، وتُسرع إلى التوبة والرجوع إلى الله إذا صدر منها خطأ نظراً إلى الطبيعة البشرية، ولم يكن من عادتها أنها هي التي تبدأ الهجوم على ضرائرها في أمر ما، نعم إذا بادرت واحدة بالهجوم عليها فإنها كذلك لا تلزم الصمت، ومع ذلك كله فإنها تثني على كل واحدة وتمدحهن.

تنبيه على بعض الروايات الضعيفة:

كل منا يعلم أن الإخلاص والحب والوفاء بين الضرائر أصبح من الأشياء العزيزة النادرة والقليلة الوجود في مجتمعنا اليوم، إلا أن شأن أمهات المؤمنين في هذا الأمر كان مختلفاً عن غيرهنّ من نساء العالم، فقد كن على أعلى مستوى وأرفع مكانة في الخصائص والمميزات مما كان توقعه منهن العالم البشري، وقد حقّقن تلك الأحلام التي رأتها دنيا النساء تجاههن، ولم يخيّبن آمالهن في شيء والحمد لله على ذلك. فكن يَغَرنَ ويتنافسن لا محالة كما تغار النساء في كل مكان، ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبيّ، يتأدبن بأدبه، ويتطلّعن إلى رضاه، ويفزعن من غضبه.

أما ما يوجد من بعض الصّور المشوّهة غير اللائقة بهن، فإنها في واقع الأمر إما من صُنع المنافقين ونسيجهم ومكرهم، أو أنها محاولات من بعض الفرق والطوائف التي تجهل مصيرها، وتغفل عن عواقبها، مثل المرأة التي كانت في عهد النبي ﷺ وتحرّش بين الأزواج المطهرات، وتعترف بخطئها هذا، فسألها الناس كيف كن يثقن بقولك؟ فقالت: لو لم يكن موثوقاً بها

عندهن ما قبلن منها[1].

ورغم أن معظم الأحاديث والروايات التاريخية التي سبق أن ذكرناها هي مستقاة من كتب الصحاح، إلا أنه يوجد فيها بعض من نقاط الضعف، أو تشويه للصورة الأصلية، ولو قمنا بعملية الفحص والتحقيق والدراسة سيتضح لنا ذلك بكل وضوح وفي صورة مشرقة.

١ ـ مثلاً عندنا قصة كسر القصعة، فهذه القصة موجودة في سائر كتب الأحاديث تقريباً، إلا أن البخاري ومسلم لم ينصّا على أن التي كسرت القصعة هي عائشة ﵂، بينما الأحاديث الواردة في السنن والمسانيد تنصّ على أنها كانت عائشة، مثل سنن أبي داود، سنن النسائي ومسند الإمام أحمد بن حنبل وغيرها، والغريب في الأمر أنهم يروون ذلك عن عائشة نفسها، وأول راوية لهذا السند هي جسرة بنت دجاجة، وهي وإن وثّقها العجلي[2] وابن حبان[3] لكن يقول عنها البخاري: عند جسرة عجائب[4]، وزعم ابن حزم أن حديثها باطل[5].

والراوي الثاني هو أفلت العامري، وهو وإن وثّقه بعض المحدثين إلا أن معظمهم على تضعيفه.

قال الإمام أحمد: ما أرى به بأساً[6] (وهذا دليل الضعف)، ونقل الخَطّابي عن أحمد قوله: إن أفلت راوٍ مجهول، وقال البغوي في شرح السنة:

---

(١) انظر: الإصابة ٨/ ١٨٠ ولسان الميزان ١/ ٤٥٣.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٢/ ٤٣٥ رقم الترجمة ٢٧٤٩.

(٣) انظر: كتاب الثقات لابن حبان البستي ٤/ ١٢١ رقم الترجمة ٢٠٩٧، وانظر كذلك تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٣٥ رقم الترجمة ٢٧٤٩.

(٤) انظر: التاريخ الكبير للإمام البخاري ٢/ ٦٧ رقم الترجمة ١٧١٠، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٣٥ رقم الترجمة ٢٧٤٩.

(٥) نفس المصدر.

(٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٣٤٦ رقم الترجمة ١٣١٦، وانظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٢/ ١٢٥ رقم الترجمة ١٤٨٣.

ضعّف أحمد هذا الحديث، لأنه من رواية أفلت، وهو مجهول[1]، وقال ابن حزم: مشهور ولا معروف بالثقة، وحديثه هذا باطل[2].

٢ ـ وأما ما حدث بين عائشة وزينب رضي الله عنهما من التقاول والتشدد في الكلام في الليل، فإن هذه الرواية مع أنها أخرجها الإمام مسلم في صحيحه، لكن تبين لنا بعد إمعان النظر والتأمل فيها ما يلي:

١ ـ الراوي الأول لهذا الحديث هو الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه، الذي توقّف عن التردد على حجرات أمهات المؤمنين من عام ٥هـ، وهذه الحادثة وقعت بعد السنة الخامسة من الهجرة.

٢ ـ إن هذه الواقعة وقعت داخل حجرة عائشة رضي الله عنها حيث لم يكن أنس رضي الله عنه موجوداً في الحجرة، وبالتالي فاحتمال وقوع الانقطاع بين أنس والراوي الذي قبله وارد.

٣ ـ لو سُلّم أن أنساً رضي الله عنه كان في المسجد النبوي الشريف، وكانت أصوات أمهات المؤمنين تقرع أذنيه، فكيف أمكنه مشاهدة ما يجري في داخل الحجرة، من مدّ النبي ﷺ يده وما إلى ذلك، مع أن البيوت يومئذٍ لم يكن فيها مصباح، والأغرب من ذلك كله أنه كيف اطلع على ما في خاطر عائشة رضي الله عنها، أنها خافت من أبيها، وأنه سوف يزجرها، ونظراً إلى هذه الأسباب فإن هذه الرواية فيها شيء من قبيل عدم الأخذ بالحيطة والتحرّي[3].

---

(١) تهذيب التهذيب ١/ ٣٢٠ رقم الترجمة ٦٦٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) إذا قلنا إن أنساً رضي الله عنه لم يأخذ بالحيطة والتحرّي في هذه الرواية فإن هذا القول سوف يؤدي إلى إثارة الشبهة والشك في كثير من تلك الروايات التي يرويها بعض الصحابة مرسلاً مع أن مراسيل الصحابة مقبولة إجماعاً، وأنس رضي الله عنه كان من أولئك الحفظة النقلة لسنن الرسول ﷺ الذين اختارهم الله سبحانه ليكونوا أساتذة الإسلام، والأمناء عليه بعده، بل كان رضي الله عنه من كبار حفاظهم، فلم يسبقه في رواية السنّة سوى اثنين منهم وهما أبو هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ووراء كثرة روايته للسنة عاملان: أولهما: ملازمته للنبي ﷺ أثناء خدمته له مدة عشر سنوات مما ساعده أن يتلقى الكثير من السنة عنه ﷺ مباشرة، وثانيهما: امتداد عمره رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ، الذي أعطاه=

٣ ـ وفي سنن الترمذي عن صفية بنت حيي ﵂ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد بلغني عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له، فقال: «ألا قلتِ: فكيف تكونان خيراً مني؟ وزوجي محمد وأبي هارون وعمّي موسى، وكان الذي بلغها أنهم قالوا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النبي ﷺ وبنات عمه»(١) قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذلك القوي.

هذه الرواية تناقلتها كل كتب السير ولكنها لم تذكر تعليق الإمام الترمذي على الرواة، وفيما يأتي نذكر أقوال المحدثين في هاشم الكوفي الذي عليه مدار الإسناد:

قال الإمام أحمد: لا أعرفه(٢)، وقال ابن معين: ليس بشيء(٣)، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث(٤)، وقال ابن عدي: مقدار ما يرويه لا يتابع عليه(٥)، ومع ذلك كله فإن رواية أنس ﵁ ليس فيها ذكر عائشة.

٤ ـ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن علي بن زيد عن أم محمد امرأة أبيه عن عائشة قالت: كانت عندنا أم سلمة، فجاء النبي ﷺ ثم جنح الليل، قالت: فذكرت شيئاً صنعه بيده، قالت: وجعل لا يفطن لأم سلمة، قالت: وجعلت أومئ إليه حتى فطن، قالت أم سلمة: أهكذا الآن، أما كانت

= فسحة زمنية كبيرة لتعليم السنة وتحفيظها للناس، فقد عاش بعد النبي ﷺ نيفاً وثمانين سنة، وبالعكس فقد امتاز ﵁ بحيطته الكبيرة في رواية السنة حذر الخطأ، وكان هو القائل لأصحابه: لولا أن أخشى أن أخطئ لحدثتكم بأشياء سمعتها من رسول الله ﷺ، لكنه قال: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، كما أنه كان يختم حديثه بقوله أو كما قال، يراجع لمزيد من التفصيل: كتاب «أنس بن مالك الخادم الأمين والمحبّ العظيم» للأستاذ عبد الحميد طهماز، ط: دار القلم دمشق.

(١) أخرجه الترمذي في سننه باب فضل أزواج النبي ﷺ برقم ٣٨٩٤، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣١ برقم ٦٧٩٠، والطبراني في الأوسط ٨/ ٢٣٦ برقم ٨٥٠٣ وفي الكبير ٢٤/ ٧٥ برقم ١٩٦.

(٢)(٣)(٤)(٥) تهذيب التهذيب ١١/ ١٧ ترجمة رقم ٣٧.

واحدة منا عندك إلا في خلابة كما أرى، وسبّت عائشة وجعل النبي ﷺ ينهاها، فتأبى، فقال النبي ﷺ: سُبّيها، فسبّتها حتى غلبتها، فانطلقت أم سلمة على علي وفاطمة، فقالت: إن عائشة سبتها وقالت لكم وقالت لكم. . . . الحديث[1].

والراوي الثاني لهذا الحديث هو علي بن زيد، يقول فيه ابن سعد: ولد وهو أعمى، وكان كثير الحديث وفيه ضعف ولا يحتج به، وقال صالح بن أحمد عن أبيه: ليس بالقوي، وقد روى عنه الناس، وقال أحمد: ليس بشيء، وقال حنبل عن أحمد: ضعيف الحديث، وقال يحيى: ضعيف، وفي رواية: ضعيف في كل شيء، وقال الجوزجاني: واهي الحديث، ضعيف، وفيه ميل عن القصد، لا يحتج بحديثه، وقال الحاكم أبو أحمد: ليس بالمتين عندهم، وقال أبو زرعة: ليس بالقوي، وقال البخاري: لا يحتج به، وقال سليمان بن حرب عن حماد بن زيد: حدثنا علي بن زيد وكان يقلب الأحاديث، وفي رواية: كان يحدثنا اليوم بالحديث ثم يحدثنا غداً، فكأنه ليس كذلك[2].

هذا وكتب السير غنية بعدد كبير من هذه الوقائع، ومعظمها مستقاة من رواية الواقدي والكلبي، وفيما يأتي نذكر مثالاً واحداً للتوضيح:

٥ ـ روى أصحاب الصحاح قصة زواج النبي ﷺ من ابنة رئيس قبيلة، فأُنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها، فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: هبي نفسك لي، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسُّوقة؟ قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: قد عذت بمعاذ، ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد اكسها رازقيتين وألحقها بأهلها[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٣٠ برقم ٢٥٠٣٠.

(٢) انظر هذه الأقوال كلها في تهذيب التهذيب ٧/ ٢٨٤ رقم الترجمة ٥٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق برقم ٥٢٥٧، وابن الجارود في المنتقى ١/ ١٩٠ برقم ٧٥٨ ط: مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت ١٤٠٨هـ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣٣٩ باب في متعة الطلاق، وأحمد في مسنده ٥/ ٣٣٩ برقم ٢٢٩٢٠.

كانت هذه رواية صحيح البخاري، أما رواية ابن سعد ففيها زيادات، وقد رواها بسنده من طريق هشام بن محمد... قال: تزوج رسول الله ﷺ أسماء بنت النعمان الجونية فجئت بها، فقالت حفصة لعائشة أو عائشة لحفصة: اخضبيها أنت وأنا أمشّطها، ففعلن، ثم قالت لها إحداهما: إن النبي ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول: أعوذ بالله منك، فلما دخلت عليه وأغلق الباب وأرخى الستر مد يده إليها فقالت: أعوذ بالله منك... الحديث[1].

وهشام بن محمد هذا (راوي الحديث) هو الكلبي نفسه، والذي قال فيه العلماء: متروك، غير ثقة، رافضي، يقول الإمام أحمد: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة[2].

ورواية البخاري تُثبت أن هذه المرأة (التي قالت أعوذ بالله منك) لم تكن تعرف النبي ﷺ وها هو نص الحديث:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ذُكر للنبي ﷺ امرأة من العرب. فأمر أبا أسيد الساعدي أن يرسل إليها، فأرسل إليها، فقدمت فنزلت في أجم بني ساعدة، فخرج النبي ﷺ حتى جاءها فدخل عليها، فإذا امرأة منكّسة رأسها، فلما كلّمها النبي ﷺ قالت: أعوذ بالله منك، فقال: قد أعذتك مني، فقالوا لها: أتدرين من هذا؟ قالت: لا، قالوا: هذا رسول الله ﷺ جاء ليخطبك، قالت: كنت أنا أشقى من ذلك... الحديث[3].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٤٦.

(٢) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٧/٨٩ رقم الترجمة ٩٢٤٥، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٦/١٩٦ رقم الترجمة ٧٠٠.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأشربة برقم ٥٦٣٧، وصحيح الإمام مسلم كتاب الأشربة برقم ٢٠٠٧.

وهذه السيدة عائشة رضي الله عنها تروي لنا قصة هذه المرأة[1] ولا تقول إنها هي التي علّمتها أن تقول ما قالت، مع أن حريتها في البيان والاعتراف بالخطأ إذا صدر منها أمر معروف ومشهور.

علاقتها الوطيدة بالسيدة فاطمة رضي الله عنها:

كان لرسول الله ﷺ أربع بنات كلهن من خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وهن: السيدة زينب، رُقية، أم كلثوم، وفاطمة الزهراء رضي الله عنهن، وكلّهن قد كن تزوّجن وانتقلن إلى بيوت أزواجهن قبل بناء الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها، إلا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، أما السيدة رقية رضي الله عنها فقد وافتها المنيّة قبل سنة من بناء الرسول ﷺ بعائشة، وأما السيدة زينب وأم كلثوم رضي الله عنهما فقد عاشتا حوالي سبعة أو ثمانية أعوام مع زوجة أبيهما عائشة رضي الله عنها، ثم استأثرت بهما رحمة الله تعالى في السنة الثامنة والتاسعة من الهجرة على التوالي، ولم يحدث بينهن خلال هذه الفترة شيء يعكّر صفو علاقتهن، وهذه السيدة زينب رضي الله عنها أكبر بنات الرسول ﷺ وقد استشهدت في سبيل الله، تروي لنا عنها عائشة رضي الله عنها قول النبي ﷺ قال: «هي أفضل بناتي أصيبت فيَّ»[2] وكانت لها بنت تسمى أمامة، يحبّها النبي ﷺ، ومن حبه لها أنه كان يصلي وهو حاملها، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها[3]. وذات مرة

---

(١) صحيح البخاري كتاب الطلاق، برقم ٥٢٥٧،.و٥٢٥٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢١٩ برقم ٢٨١٢، و٤/ ٤٦، و٤/ ٤٧، كما ذكره أبو المحاسن يوسف بن موسى في معتصر المختصر ٢/ ٢٤٦، وأحمد بن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ٥/ ٣٧٢ برقم ٢٩٧٥، كما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ٧/ ١٠٩ نقلاً عن الطحاوي، والبخاري في التاريخ الصغير ١/ ٧ مبحث حديث زينب بنت رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة برقم ٥١٦، ومسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم ٥٤٣، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ٩١٧، والإمام مالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة برقم ٤١٢، والدارمي في سننه كتاب الصلاة برقم ١٣٥٩.

أهديت للرسول ﷺ هدية فيها قلادة من جزع فقال: «لأدفعنَّها إلى أحب أهلي إليّ».

فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، فدعا النبي ﷺ أمامة بنت زينب فعلّقها في عنقها»[1].

أما السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها فإنها كانت بكراً عندما بنى الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها، لكنها كانت أكبر سناً منها بحوالي خمس أو ست سنوات، وقد عاشت مع عائشة رضي الله عنها سنة أو أقل، لأنها تزوجت في وسط السنة الخامسة للهجرة، وكانت عائشة من اللاتي قمن بتجهيزها للعرس، وإعداد أغراض البيت وترتيب أمور الزواج، تقول رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نجهّز فاطمة حتى نُدخلها على علي، فعمدنا إلى البيت، ففرشنا تراباً ليّناً من أعراض البطحاء، ثم حشونا مرفقتين ليفاً فنفشناه بأيدينا، ثم أطعمنا تمراً وزبيباً، وسقينا ماءً عذباً، وعمدنا إلى عود فعرضناه في جانب البيت ليُلقى عليه الثوب ويعلق عليه السقاء، فما رأينا عرساً أحسن من عرس فاطمة[2]. والبيت الذي نزلت فيه فاطمة رضي الله عنها بعد الزواج كان يفصله جدار من حجرة عائشة رضي الله عنها، وكان بينهما مشربة تتكلمان منها.

هذا ولم تسجّل لنا كتب الأحاديث واقعة صحيحة تدل على أن واحدة منهما تحمل شيئاً من الكراهية أو البغض في قلبها تجاه الأخرى، بل أجمع أصحاب السير وكتب الأحاديث على أن الصلة بين عائشة رضي الله عنها وبين فاطمة كانت على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها، وكانتا شريكتين في قلب واحد تتنافسان عليه ولكنها شركة بين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠١ برقم ٢٤٧٤٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد مفصلاً باب مناقب أمامة ٩/ ٢٥٤، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٤٤٢ برقم ١٠٨٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب النكاح برقم ١٩١١.

كريمتين، وها هي فاطمة ﵂ تأتي إلى النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى وقد بلغها أنه جاءه رقيق فلم تصادفه فذكرت ذلك لعائشة... الحديث(١).

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي ﷺ ينشدن العدل في ابنة أبي قحافة، لكن لنرى كيف كان موقفها من ذلك، تقول: فكلَّمَتْه فقال: يا بنية ألا تحبّين ما أُحب؟ قالت: بلى، فرجعت إليهن فأخبرتهن فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع(٢).

وهذه عائشة ﵂ تثني على فاطمة ﵂ قائلة: ما رأيت أحداً أحسن من فاطمة غير أباها ﷺ(٣).

ويقول جميع بن عمير التيمي: دخلت مع عمتي على عائشة فسُئلت: أي الناس كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة(٤).

تقول عائشة ﵂: «ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلاً وهدياً برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قالت: وكانت إذا دخلت على النبيّ ﷺ قام إليها فقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكان ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبّلته وأجلسته في مجلسها»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النفقات برقم ٥٣٦١، ومسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء برقم ٢٧٢٧، وأبو داود في سننه كتاب الخراج برقم ٢٩٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الهبة برقم ٢٥٨١، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٢، والنسائي في سننه كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٤٤.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط عن عائشة ﵂ قالت: ما رأيت أفضل من أبيها ... الحديث ٣/ ١٣٧ برقم ٢٧٢١.

(٤) أخرجه الإمام أبو عبد الله الحاكم في المستدرك ٣/ ١٧١ برقم ٤٧٤٤، والترمذي في سننه باب فضل فاطمة ﵂ برقم ٣٨٧٤، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٤٠٣ برقم ١٠٠٨.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه باب مناقب فاطمة ﵂ برقم ٣٨٧٢، وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٤٠٣ برقم ٦٩٥٣، نحوه، وكذلك الحاكم في المستدرك ٣/ ١٧٤ برقم ٤٧٥٣ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأبو داود في سننه باب ما جاء في القيام برقم ٥٢١٧.

كما أن عائشة هي التي روت حديث فضل أهل البيت الذي يعتبر من أعظم مناقب فاطمة رضي الله عنها. والحديث الآتي يبين لنا مدى علاقتها الوطيدة مع فاطمة رضي الله عنها، وثنائها عليها في الوقت نفسه، تقول: كنّ أزواج النبي ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي ما تُخطئ مِشيتُها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً، فلما رآها رحّب بها فقال: مرحباً بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارّها فبكت بكاءً شديداً فلما رأى جَزَعها سارّها الثانية، فضحكت، فقلت لها: خصّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسّرار ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها ما قال لكِ رسول الله ﷺ؟ قالت: «ما كنت أُفشي على رسول الله ﷺ سرّه، قالت: فلمّا توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمتُ عليكِ بما لي عليكِ من الحق لما حدَّثِتني ما قال لك رسول الله ﷺ، فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارّني في المرة الأولى فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وإنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أُرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك، قالت: فبكَيْتُ بُكائي الذي رأيتِ، فلما رأى جَزَعي سارّني الثانية فقال: يا فاطمة أما ترضيْنَ أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين أو سيّدة نساء هذه الأمة، قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت»[1].

هذا الحديث خير دليل على حسن علاقتهما الوطيدة، وكما نعلم أن هذا الحادث جرى في آخر عمر فاطمة رضي الله عنها، فاتضح من ذلك أن قضايا الميراث وفَدَك لم تؤثر شيئاً على علاقتهما الطيبة، ولم تدفع إلى حدوث أي توتر في الصلة التي تجمعهما بكل صدق وإخلاص، كما أنه لم يُعهَد منهما شيء من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٦٢٤، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٥٠ واللفظ له، والترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٧٢، وابن ماجه في سننه كتاب ما جاء في الجنائز برقم ١٦٢١.

المضايقات حتى في الشؤون المنزلية والداخلية يعكّر صفو علاقتهما القلبية والروحية.

تنبيه على بعض الروايات الواهية والضعيفة:

أورد الإمام أحمد بن حنبل في مسنده رواية عن طريق الراوي نفسه الذي روى حديث تشاجر عائشة مع أم سلمة في بيت عائشة ﵂ بشيء من الزيادة ونصها:

فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة فقالت: إن عائشة سبتها، وقالت لكم وقالت لكم، فقال علي لفاطمة: اذهبي إليه فقولي إن عائشة قالت لنا وقالت لنا، فأتته فذكرت ذلك له فقال النبي ﷺ: إنها حِبّةُ أبيك وربّ الكعبة، فرجعت إلى علي فذكرتْ له الذي قال لها، فقال: أما كفاك إلا أن قالت لنا عائشة وقالت لنا حتى أتتك فاطمة فقلت لها: إنها حبة أبيك وربّ الكعبة[1]. فظاهر هذا الحديث فيه منقبة لعائشة ﵂ والثناء عليها، ولكن يبدو بعد إمعان النظر وتدقيقه أن الراوي قام بتقديم صورة مشوّهة مستكرهة لأخلاق أمهات المؤمنين، ومصدر هذه البلية هو علي بن زيد التيمي الذي ضعفه العلماء، وهو رافضي[2].

وأخرج يحيى في مسنده عن عمر بن علي بن عمر بن علي بن الحسين قال: كان بيت فاطمة في موضع الزوار مخرج النبي ﷺ، وكانت فيه كُوّة إلى بيت عائشة ﵂، فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم وأن فاطمة قالت لعلي: إن ابنيّ أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدماً نستصبح به، فخرج علي إلى السوق فاشترى لهم أدماً وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت، فدخلت عائشة المخرج في جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم، وذكر كلاماً وقع بينهما فلما

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٧/ ١٣٠ برقم ٢٥٠٣٠.

(٢) تهذيب التهذيب ٧/ ٨٣ ـ ٢٨٤ رقم الترجمة ٥٤٥.

أصبحوا سألت فاطمة النبي ﷺ أن يسدّ الكوة، فسدّها رسول الله ﷺ[1].

وعبد الحميد وعيسى بن عبد الله ضعيفان ومن أهل التشيع، ورغم أن علماء الحديث لا يعتبرون التشيع من أسباب الضعف، إلا أن شهادتهم لا تقبل في عائشة رضي الله عنها.

❋ ❋ ❋

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/٤٦٦، تأليف نور الدين علي السَّمْهودي المتوفى عام ٩١١هـ، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان.

الفصل الرابع

حديث الإفك ومشروعية التيمم

إن المصائب والمحن التي واجهها المسلمون بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة كانت متباينة تماماً مما أصابهم في مكة المكرمة، وقد نشأ في المدينة رهط من المنافقين، كان شغلهم الشاغل التآمر ضد المسلمين ونسج خيوط المكر والدهاء للإيقاع في المسلمين.

ولا شك أن العِرض والناموس هو رأس مال الإنسان وأغلى متاع عنده، والهجوم على أعراض الناس والطعن فيها والنيل من نواميسهم لا يجترئ على ذلك إلا العدو اللئيم الحقير الخسيس، وكما أن المدينة المنورة كانت مأوى ومستقراً للمؤمنين الصادقين المتفانين في سبيل الله، أصحاب الإخلاص والوفاء، أولي الهمم العالية والتضحيات الجليلة العظيمة، كذلك نشأت هناك طائفة من الأعداء الخائنين الخاتلين الذين كانوا يكتمون النفاق في قلوبهم، وكان جل اهتمامهم الغدر والخيانة بالمسلمين والتآمر ضدهم بسائر الطرق المتاحة لديهم، وكان سلاحهم الأقوى والأكبر هو بث الإشاعات الكاذبة ونشر الأخبار المزوّرة التي تنال من حرمات المسلمين وأعراضهم، وتهتك حرماتهم، كما أنها تهيِّئ الأسباب والدوافع لإشعال الحروب الأهلية، وتوفّر مناخاً مناسباً وجواً ملائماً لها.

ولو لم يكن توفيق الله ﷻ حليفاً للمسلمين، والعناية الإلٰهية حافة بالنبي ﷺ لتكللت جهودهم السيئة هذه بالنجاح، وأثاروا الفتن في المجتمع الإسلامي، ليس عن طريق التفريق بين الصحابة وتشتيت شملهم فحسب، بل بإيجاد أسباب ودوافع للتقاتل والتحارب وإسالة الدماء.

هذا ومن أسوأ وأقبح الأمثلة لهذه الجهود التي قامت بها القلوب الحاقدة ضد المسلمين حادثة الإفك، ولما كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه

وسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه من أكبر أعداء هذه القلوب الحاقدة المنافقة، صرفت هذه الطائفة الماكرة قسطاً كبيراً من مساعيها وجهودها الفاشلة إلى توجيه الطعن إلى حرم النبوة أمهات المؤمنين السيدة عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

أولاً ـ حديث الإفك:

كانت غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس فنزل النبي ﷺ على بئر لبني المصطلق يقال لها «المريسيع» قريباً من نجد، فقاتلوا المشركين، وقد خرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا قط في غزاة قبلها، لأنهم ظنوا أنه لا يحدُثُ شيء، ولا تنشب معركة دامية، يقول ابن سعد: «وخرج معهم بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها»[1].

وقبل الخروج أقرع النبي ﷺ بين أزواجه حسب عادته فأيهن خرج سهمها خرج بها الرسول ﷺ، تقول عائشة رضي الله عنها: «فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ».

وكانت عائشة قد استعارت عِقْداً من أختها أسماء، وكان في عنقها وكانت سموطه تسقط وتتقطع، فانقطع هذا العقد، وهي يومئذٍ في الرابعة عشرة من عمرها، فقلقت عليه كما هي عادة البنات في مثل هذا العمر وهي تحسب وتعتبر الحلية المتواضعة البسيطة من أغلى الأشياء عندها، وتستعد لتحمل أي مشقة في سبيل الحصول عليها.

تقول رضي الله عنها: «فأقبل الذين يرحِّلون لي، فاحتملوا هودجي فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَثْقُلن ولم يَغْشَهُنّ اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثِقَلَ الهودج، فاحتملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا».

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٣ غزوة رسول الله ﷺ المريسيع.
قلت الأصح سنة ست، انظر: الحاشية رقم (٣) ص(٩٠).

هذا وخلال رحلة العودة إلى المدينة المنورة قام المنافقون بإيقاد نار من الاضطرابات، وإحداث الغوغاء بين المهاجرين والأنصار، وكادوا أن يشهروا السلاح ويتقاتلوا فيما بينهم.

وكان المنافقون يحثون الأنصار على أن لا ينفقوا على المهاجرين والإسلام والمسلمين، ويتخلَّوْا عن مؤازرتهم ويتركوا مساعدتهم، فقال عبد الله بن أُبَيّ رئيس المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

ولما سمع النبي ﷺ هذه الغوغاء بين المهاجرين والأنصار خرج فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟ ثم قال: ما شأنهم؟ فأُخبر بما حصل بين المهاجرين والأنصار فقال: دعوها فإنها منتنة، ثم أمر بالرحيل وخرج بالناس، فقدم عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ حتى وقف لأبيه على الطريق، فلما رآه أناخ به وقال: لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمد العزيز[١].

تقول عائشة: «لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل دَنَوْنا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عِقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقدي فحبسني ابتغاؤه» ـ وكانت على يقين تام أنها ستجد ضالّتها قبل رحيل السفر ولذلك لم تخبر أحداً ولم تطلب منهم أن ينتظروها ـ قالت: «وأقبل الرهط الذين كانوا يرحّلوني فاحتملوا

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٥، وأخرجه الترمذي في سننه تفسير سورة «المنافقون» برقم ٣٣١٥، وكذلك البخاري في صحيحه. ورجّحوا أن هذه الواقعة كانت في غزوة المريسيع بينما قال النسائي: إنها كانت في غزوة تبوك، (السنن الكبرى للنسائي تفسير سورة «المنافقون» ٦/ ٤٩١ برقم ١١٥٩٧)، والأول هو الصحيح وعليه أجمع كل أصحاب السير والمغازي، وهو المفهوم من رواية البخاري «وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين» وفصّل القول في ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري فقال: قوله: «كنا في غزاة قال سفيان مرة في جيش» وسمّى ابن إسحاق هذه الغزوة غزوة بني المصطلق، وكذا وقع عند الإسماعيلي من طريق ابن أبي عمر عن سفيان أن هذه الغزاة غزاة بني المصطلق وكذا في مرسل عروة (فتح الباري ٨/ ٦٤٩).

هودجي، فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه...، قالت: ووجدت عِقْدي بعد ما استمرّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيمّمت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطّل السُّلَمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول»[١].

هذه هي الصورة الحقيقية للواقعة، والتي تحدث في معظم الأحوال عندما يكون واحد في السفر، حتى في زمننا هذا الذي وصل فيه الرقيّ التكنولوجي إلى قمة التطور والنمو، وأبدعت شتى أنواع وسائل السفر والمواصلة والتنقل.

ثم ما حدث لعائشة ﵂ وما قام به أصحاب القلوب الحاقدة ذوات الشحناء والبغضاء نحو هذه المُحْصَنة الغافلة التقية الزكيّة، ليس ذلك الوحيد من نوعه، وإنما هذا إعادة لما حدث من قبل لمريم البتول ﵍ في بني إسرائيل، ولـ «سيتا» المرأة الطاهرة في الديانة الهندوسية.

فوجد الخبيث عدو الله عبد الله بن أُبَيّ متنفَّساً، فتنفس من كُرَب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يحيك الإفك ويوشّيه، ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرّقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه. ولما سمع المسلمون الصادقون وسادات الصحابة قالوا: هذا بهتان عظيم، وهذا أبو أيوب ﵁ قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت

---

(١) صحيح البخاري حديث الإفك برقم ٤١٤١.

لأفعله، قال: فعائشة خيرٌ منك(١).

وقد شارك عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلول في هذه المؤامرة ثلاثةٌ آخرون وهم حسّان بن ثابت، وحَمْنة بنت جحش، ومِسْطح بن أُثاثة ﷺ، مع أن حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش لم يكونا مع المسلمين في هذه الغزوة، ولم يشاهدا الحادث بأم أعينهم، إلا أن حسان (معاذ الله) كان فرحاً شامتاً بصفوان وفضيحته، وكان قلقاً على ما حصل للمهاجرين من عزة وسعادة في المدينة أكثر من أهلها، وقد قال شعراً يعرِّض بصفوان فيه:

«أَمْسَى الجَلابِيْبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوْا ... وابْنُ الفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ»(٢)

أما حمنة شقيقة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها فقد أرادت أن تضار عائشة رضي الله عنها بهذه الطريقة لكي تُعظّم من شأن أختها وعزتها عند الرسول ﷺ.

وأما مسطح فأمره غريب، وكل واحد يستغرب ذلك، كيف قام بذلك مع أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي كان يتكفله وينفق عليه لقرابته منه وفقره.

وليس أشد على نفس الفتاة خاصة ولا أوجع لضميرها من مطعن يَهْدم سمعتها، ويعصف بهناءتها، ويُفقدها الرجل الذي تحبّه، والمكانة التي تبوّأتها، وأشد ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة، لم تكن عائشة رضي الله عنها مطلعة على هذا الخبر المُفجع المؤلم، ولم تشعر بالشرّ إذ خرجت مع أم مِسْطح قِبَل المناصع، تقول رضي الله عنها: «فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً. . . . فانطلقت أنا وأم مسطح، إذ عثَرَتْ في مِرْطها فقالت: تعس مسطح، قالت: قلت: بئس ـ لعمرُ الله ـ ما قلتِ لرجل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٦٨، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ١١٤.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٢/ ١١٥، السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٧٠، البداية والنهاية ٤/ ١٦٣ وبقية الشعر:

قَدْ ثَكِلَتْ أُمُّهُ مَنْ كُنْتُ صَاحِبَه ... أَوَ كَانَ مُنْشباً في بُرْثُنِ الأَسَدِ
ما لقتيلي الّذِي أَغْدُو فآخذُه ... من دِيَةٍ فيه يُعطاها ولا قَوَدِ

من المهاجرين قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله فقد كان، قالت: فوالله أني ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت»[١] قالت: فلما تيقنت بالخبر جئت إلى بيت أمي، فقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً، قالت: أي بنية خفّفي الشأن، ثم جاءت أنصارية فحكت لي كل القصة، حتى لم يبق هناك أي مجال للشك، فلما سمعت خررت مغشياً عليّ، ودخلت في بيتي، ووعكت وعكاً شديداً، ورسول الله ﷺ كان يدخل علي ولكن لا أعرف منه اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني، فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ فأذن لي رسول الله ﷺ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، وتقول أمّي: يا بنيّ هوّني على نفسك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها[٢].

وذات مرة أرادت أن تلقي نفسها في البئر نظراً إلى الغَيْرة الشديدة.

فلما سمع صفوان بالشعر الذي هجاه فيه حسّان حلف بالله وقال: سبحان الله ما كشفت ثوباً عن أنثى[٣]، واعترضه بالسيف وضربه ثم قال:

«تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فإِنَّنِي غُلَامٌ إذا هُوْجِيْتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ»

فلما ضربه صفوان بسيفه جيء به إلى الرسول ﷺ، فدعا حسان وصفوان بن المعطل، فقال ابن المعطل: يا رسول الله إنه آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته فقال رسول الله ﷺ لحسان: أحسن يا حسان

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤٦٤.

(٢) صحيح البخاري قصة الإفك برقم ٤١٤١.

(٣) مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٦٠٥ وفي تفسير الطبري: ما كشفت كنف أنثى قط ١٨/ ٩٤.

أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام، ثم قال: أحسن يا حسّان في الذي أصابك، قال: هي لك يا رسول الله، قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً منها بيرحاء، وهي قصر بني جديلة اليوم بالمدينة، وكانت مالاً لأبي طلحة بن سهل تصدق بها على آل رسول الله ﷺ، فأعطاها رسول الله ﷺ حسان في ضربته(١).

ومما لا شك فيه أن أم المؤمنين كانت مبرّأة من كل الاتهامات براءة كاملة، إلا أن الحاجة كانت داعية إلى التحقيق والتمحيص لتسكيت ألسنة الناس والمتحدثين بالأقاويل، فدعا رسول الله ﷺ علياً وأسامة رضي الله عنهما يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة رضي الله عنه فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الودّ، فقال: أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك؟ (وبريرة لم تستوعب سؤال النبي ﷺ، لأن الواقع كان أصلاً مستبعداً ومستحيلاً وظنت أنهم يستفسرونها عن الأمور المنزلية) فردت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، ثم سألها الرسول ﷺ بألفاظ صريحة فقالت: أحمي سمعي وبصري، والله لعائشة أطيب من طيب الذهب(٢). وزادت بعض الروايات: أن علياً رضي الله عنهما ضرب الجارية وهو يقول: اصدقي رسول الله ﷺ، وزعم بعض الناس نظراً إلى ضربه الجارية أن عائشة رضي الله عنها تأذت بفعل علي هذا، وقد كان ذلك من ضمن الاتهامات التي اتهم بها بنو أمية علياً رضي الله عنه، ولكن فنّدها الإمام الزهري رحمه الله في حينها.

أما من الضرائر فكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها هي التي تسامي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ والبداية والنهاية ٤/ ١٦٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١٨/ ٩٥، مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٥٥٩، شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٣٨٥، الكفاية في علم الرواية ١/ ٩٨.

عائشة ﵂ من أزواج النبي ﷺ، (وقد شاركت أختُها حمنة المتآمرين في هذه القضية) فسألها الرسول ﷺ عن أمر عائشة فقال: يا زينب ما علمت ما رأيت؟ فقالت: «يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً».

ثم قام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبَيّ بن سلول فقال رسول الله ﷺ: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه ـ وكانت العداوة بين الأوس والخزرج مستمرة من زمن بعيد، فلما أشرق فجر الإسلام قضى على هذه الفتنة، ولكن رماد هذه النار لم يخمد كلياً، فكلما هبت ريح ولو خفيفة توقد هذه النار وتشتعل أشعتها وتحيط بهاتين القبيلتين ـ فلما سمع ذلك سعد بن عبادة (رئيس الخزرج) ساءه ذلك، ورأى أن ما قاله سعد بن معاذ هو تدخل منه في غير قبيلته من غير حق. فقام وقال: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى همّوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت».

ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة ﵂، وهي كانت مضطجعة على فراش المرض وأبواها جالسان عندها، لا يرقأ لها دمع، إذ جلس عندها ثم قال: يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرّئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، تقول ﵂: قلص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأميّ: أجيبي عنّي رسول الله ﷺ فيما قال: فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت عائشة: وأنا

جارية حديثة السّن لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في قلوبكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصّدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدِّقُنّني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨][١].

أهداف المنافقين من وراء حادث الإفك:

هذا وكان المنافقون قد استهدفوا من وراء هذه الفتنة العظيمة ما يأتي:

١ ـ إهانة وتشويه سمعة أهل بيت النبي ﷺ، وبيت الصديق رضي الله عنه والنيل من أعراضهما، والطعن في حرماتهما.

٢ ـ التفريق والتشتيت في الأسرة النبوية الكريمة.

٣ ـ تمزيق شمل المسلمين وجمعهم، وإحداث خلل في قوتهم ووحدتهم وغرس بذور الفُرقة في وحدة الأخوّة الإسلامية.

وظاهراً قد نجحوا في تخطيطهم هذا، وحقّقوا أهدافهم، وتحققت أحلامهم وآمالهم، إلا أن البيان الرباني كان بانتظارهم يترقبهم، وآن الأوان أن يتكلم ويزيح الستار عن الواقع ويكشف الغمة عن الحقيقة الأصلية، تقول عائشة رضي الله عنها: فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجُمان من العَرَق في يوم شات، فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله فقد برّأك الله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

---

(١) والتفاصيل موجودة في واقعة الإفك من كتب الصحاح.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١١ ـ ١٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٤].

فقالت لها أمها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت عائشة: «والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله».

ثم نُفِّذ الحد في أولئك الثلاثة الذين شاركوا في هذه المؤامرة، فجلدوا ثمانين جلدة(١).

هذا وقد أنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه شعراً يمدح فيه عائشة، ذكره ابن إسحاق في سيرته(٢)، وروى البخاري عن مسروق قال: دخلنا على عائشة رضي الله عنها

(١) حديث الإفك أخرجه بالتفصيل الإمام البخاري في صحيحه كتاب الشهادات برقم ٢٦٦١ وكتاب المغازي برقم ٤١٤١ وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٥٠، ومسلم في صحيحه كتاب التوبة برقم ٢٧٧٠، أما الإضافات والزيادات التي زيدت خلال الرواية وأثناء سرد القصة فهي مستقاة من كتب الأحاديث الأخرى، وكذلك كتب السيرة والتراجم والتاريخ، وقد اعتمدت في نقل هذه الواقعة على فتح الباري تفسير سورة النور، واتبعت أثر الحافظ ابن حجر العسقلاني في تطبيق الروايات، والاختلافات الموجودة فيها، وكذلك في ترتيب الوقائع وتصحيح المطالب.

(٢) وفيها:

عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غالِبٍ ... كِرَامِ المساعي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيمَها ... وطَهَّرَها مِنْ كُلِّ سوءٍ وبَاطِلِ
فإن كنتُ قد قُلْتُ الذي قَدْ زَعَمْتُمُ ... فلا رَفَعَتْ سَوْطِي إليَّ أَنامِلِي
وكيفَ ووُدِّي ما حَيِيتُ ونُصْرَتِي ... لآلِ رسولِ اللهِ زينُ المَحَافِلِ
له رُتَبٌ عالٍ على النّاسِ كلهم ... تَقَاصَرَ عنه سَوْرَةُ المُتَطَاوِلِ

يراجع: السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٧٣:

وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشبّب بأبيات له وقال:

حَـصَـانٌ رَزَانٌ مـا تُـزَنُّ بِـرِيْـبَـةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُوْمِ الغَوَافِلِ

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك[1]، (تشير إلى أنه كان أحد الخائضين في حديث الإفك).

موقف المستشرق «وليم موير» من حديث الإفك:

هذا وقد وقع الكاتب المؤرخ المستشرق «وليم موير» فريسة أخطاء فادحة وفظيعة أدبية وتاريخية في حكايته لحديث الإفك. ولا يسعني في هذا الكتاب الموجز أن أستعرض جملة أخطائه التاريخية والأدبية، وسأكتفي بذكر مثال واحد لكل من الخطأ التاريخي والأدبي.

يقول وليم موير: «لما قفل المسلمون من بني المصطلق ووصلوا المدينة، حملوا معهم هودج عائشة رضي الله عنها، فوضعوه عند الباب قرب المسجد النبوي أمام النبي ﷺ، فلما فتحوه لم يجدوا فيه عائشة، وبعد وقت قليل ظهر صفوان بن المعطّل (الصحابي المهاجر) فكانت عائشة جالسة على البعير وهو يقودها».

ثم يقول: «لقد أسرع صفوان بن المعطل لكي يلحق بالجيش، لكنه لم يقدر عليه، فلما نزل الناس وضربوا الخيام جاءت عائشة ودخلت المدينة على مرأى من الناس، يقودها صفوان بن المعطل».

وكل من هذين التصريحين يخالف ما ورد في سائر كتب الأحاديث والسير، ولا شك أن غرض «وليم موير» من ذلك لهو بعينه غرض كل متشبث بحديث الإفك ليتخذ منه سبيلاً إلى الطعن في الإسلام، وتشويه صورة الواقعة بشكل أسوأ وأفضح، لأنه قد ثبت باتفاق علماء السير والتاريخ أن صفوان قد أدرك الجيش في الظهيرة قبل الوصول إلى المدينة، فلا علاقة للموضوع بالمدينة المنورة.

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي رقم ٤١٤٦، وصحيح الإمام مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٨٨.

كان الناس يطعنون في حسان بن ثابت ويسبّونه، لكن عائشة رضي الله عنها لم تسّبه قط بلسانها فحسب بل إنها كانت تمنع الناس أن يسبّوه.

عن هشام عن أبيه قال: ذهبت أسبّ حسّان عند عائشة فقالت: «لا تسبّه فإنه كان ينافح عن النبي ﷺ»[1].

وهذه عائشة رضي الله عنها تبيّن لنا سبب الامتناع عن سبّ حسّان بن ثابت رضي الله عنه كما في الحديث الآتي:

عن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبّب وقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

قالت: لستَ كذاك، قال مسروق: فقلت لها: لمَ تأذنين له يدخل عليك وقد أنزل الله ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ...﴾ فقالت: فأي عذاب أشد من العمى، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ[2].

إلا أن السير وليم موير يرى سبباً آخر لمنع عائشة رضي الله عنها عن سبّ حسان فيقول:

«لقد أنشد حسان قصيدة رائعة مدح فيها عائشة وعفتها وحسنها وذكاءها وفطنتها وجمالها الجسمي، وأدى هذا المدح الغني بالتملق والمجاملة إلى إيجاد علاقة بينهما».

ويا ليت لو بيّن لي هذا المستشرق كلمة واحدة في قصيدة حسان التي تثني على حسن عائشة وروعتها وبهائها ورقة بدنها ووضاءتها، ولعلّه فاته أن حسّان بن ثابت رضي الله عنه حينما أنشد هذه الأبيات عند عائشة رضي الله عنها كان أعمى، وكانت هي قد بلغت من عمرها أربعين عاماً، فمن أين لها الجسم الرقيق في مثل هذا العمر، وقد سبق أن ذكرنا أنها قد سمنت وبدنت وعمرها خمسة عشر عاماً[3].

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٥٣١ وكتاب المغازي برقم ٤١٤٥ وكتاب الأدب ٦١٥٠، صحيح الإمام مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤١٤٦، وصحيح الإمام مسلم برقم ٢٤٨٨.

(٣) والدليل عليه ما أخرجه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر=

وأغرب من ذلك كله مما يدعو إلى الاستعجاب والضحك قوله:

«كانت تلك القصيدة تتضمن الثناء على جسم عائشة الرقيق النحيف، وكانت تتأذى بالهجاء للجسم النحيف الرقيق، فلما بلغ حسان إلى الفقرة التي تشير إلى جسمها النحيف، أوقفته لبرهة من الزمن بالتدلل وذمته على سمنته».

وقد استعرضتُ سائر دفاتر التاريخ الإنساني واستطلعت كل السجلّات والصحائف، وتصفحت الكتب، ومع كل هذا التتبع لم أجد لها هذه الأوصاف الخَلقية والخُلقية أبداً.

وفي الأخير بدأت أبحث في الموضوع على منهج المستشرق وليم نفسه وطريقه التي سلكها فبدا لي أن التقصير لم يكن في الصورة، وإنما كان مترشحاً وناتجاً عن ذلك الذهن والنظر الذي يزعم أنه أعرف الأوروبيين باللغة العربية، وأبرعهم فيها وأقدرهم على تعيين فحواها ومرادها.

وواقع الأمر أن سوء فهمه أتى من تفسيره للخبر فقد ورد أن البيت الثاني من القصيدة هو «وتصبح غرثى من لحوم الغوافل» فقالت له عائشة: «ولكنك لست كذلك».

وأكل لحم الغير يطلق في اللغة العربية على الغيبة، وذكر أحد بما يكرهه، وكان غرض حسان من هذا الشعر أن عائشة رضي الله عنها لا تغتاب أحداً، ولا تطعن في أحد، فقالت له عائشة تعريضاً: ولكنك لست كذلك، تعني: أنه يغتاب، وتشير بذلك إلى أن حسان كان أحد الخائضين في حديث الإفك، فلم تقصد أبداً أنها كانت نحيفة الجسم وهو متين وسمين (وحاشاها من ذلك) ولا شك أن مثل هذه الجهالة الجهلاء، وعدم الإلمام بمعاني وفحوى الكلمات، وتحميل اللفظ ما لا يحتمله هذا كله لا يوجد إلا في غرائب أوروبة وعجائبها.

وفي النهاية نشكره على أنه قد استبعد حديث الإفك حيث قال بعد الإشارة إليه: «إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد

= قالت: فسابقته فسبقته على رجليّ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السبقة (باب السبق على الرجل برقم ٢٥٨٧).

براءتها من التهمة»[1].

ثانياً ـ مشروعية التيمّم:

خرجت عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ في إحدى أسفاره، وكان في عنقها نفس العِقد الذي كان في غزوة بني المصطلق، فلما قفل المسلمون ووصلوا إلى ذات الحبيش انسلَّ العقد من عنقها وذلك من السَّحَر[2]، فحُبس رسول الله ﷺ لالتماسه.

تقول عائشة رضي الله عنها وهي تحكي لنا القصة بتمامها: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الحبيش انقطع عِقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر الصديق، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمّموا[3].

إن من خصائص الشريعة الإسلامية وميزات أحكامها أن الله ﷻ قد أنزلها في أوقات مناسبة وحسب الحاجات الإنسانية والمصالح البشرية، فالوضوء كان فرضاً للصلاة، لكن واجه المسلمون مشكلات في عشرات المواضع حيث لم يتوفر فيها الماء، وهذا المكان كان من تلك المواضع التي لم يجد فيها المسلمون الماء، فأنزل الله تعالى حكم التيمّم نظراً لحاجتهم

---

(1) The Life of Mohammad (S.A.W) by, Sir Wiliam Meour.

(2) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٧٢ برقم ٢٦٣٨٤.

(3) صحيح البخاري كتاب التيمم برقم ٣٣٤ وكتاب المناقب برقم ٣٦٧ وكتاب التفسير برقم ٤٦٠٧، وصحيح مسلم كتاب الحيض باب التيمم برقم ٣٦٧.

الشديدة ورحمة بهم وشفقة عليهم لكي يقيموا أكبر شعائر الإسلام وأهم فرائضه ألا وهي الصلاة، ونزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣] فلما نزلت هذه الآية سُرعان ما تحوّل جوّ المعاتبة والغضب إلى جوّ من الفرح والسرور والبهجة والحبور، وبدأ المسلمون يرفعون أيديهم إلى فاطر السماوات والأرض داعين لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيث أُكرم المسلمون بهذه النعمة الإلـٰهية العظمى من أجلها، وقام أسيد بن حضير ووجهه متهلل بمعالم الفرح يقول: «ما هي أول بركتكم يا آل أبي بكر»[١] وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لقيت منه عائشة رضي الله عنها ما الله به عليم من التعنيف والتأنيب، بدأ يقول حين جاء من الله ما جاء من الرخصة للمسلمين: «والله ما علمت يا بنيّة أنك لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر»[٢] ثم وجدوا العِقْد الذي افتقدته عائشة رضي الله عنها وكان تحت البعير.

❁ ❁ ❁

(١) صحيح البخاري كتاب التيمم برقم ٣٣٤، وصحيح مسلم كتاب التيمم برقم ٣٦٧.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٢٧٢ برقم ٢٦٣٨٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٠٨ برقم ٩٤٧، وابن ماجه في سننه باب التيمّم برقم ٥٦٥.

الفصل الخامس

وقائع التحريم والإيلاء والتخيير

أولاً ـ التحريم:

سبق أن ذكرنا أن أزواج النبي ﷺ كُنّ حزبين، وكان الحزب الأول يضم عائشة وحفصة وسودة وصفية رضي الله عنهن، والحزب الآخر يضم زينب وبقية الأزواج المطهرات، وكان من عادته ﷺ أنْ يزور سائر أزواجه ويقضي معهن شيئاً من الوقت بعد صلاة العصر، ويعدل في الجلوس عندهن حتى لا يمكن أن ترجح كفة واحدة على الأخرى، إذا به يجلس عند أم المؤمنين زينب رضي الله عنها فوق العادة، وظلت بقية الأزواج ينتظرنه في أوقاتهن المحددة والمعتادة، فأرابهنّ ذلك، وسألت عائشة النبيَّ ﷺ عن سبب التأخير، فقال ﷺ: إن امرأة من قوم زينب أهدت لها عكة من العسل ـ وكان العسل من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ ـ وهي تسقيه منه كل يوم، فيتناوله ولا يرفض حتى لا ينكسر خاطرها، وهذا هو سبب التأخير، فتواطأت عائشة وحفصة وسودة أن يحتلن له، وقلن: أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له: ماذا شربت؟ وما هذه الريح التي أجد منك؟ ـ وكان الرسول ﷺ يكره أن توجد منه الريح[(١)] ـ فإن قال: شربت عسلاً، فلتقل: جرست نحله العرفط (شجر الطلح)، ولعله عسل المغافير ـ والمغافير شيء ينضحه شجر العُرْفُط حلو كالناطف، وله ريح منكرة ـ وهكذا وقع، فقال النبي ﷺ: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له وقد حلفت[(٢)].

وهكذا بدأ النبي ﷺ يكره العسل وحلف أن لا يشربه.

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ٦/٢٤٩ برقم ٢٦١٦٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٩١٢ وكتاب الأيمان والنذور برقم ٦٦٩١.

ولو صدر ذلك الحلف من إنسان عادي لم تكن له أية أهمية، ولكنه صدر من الشارع العظيم الذي يكون كل قول مما نطق به لسانه سبباً لتشريع الشرائع وتأصيل الأصول. ولذلك أنزل الله تعالى العتاب ونزلت آيات من سورة التحريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ١ ـ ٢].

وأثناء هذه الفترة أسرّ النبي ﷺ إلى حفصة شيئاً، فأخبرت عائشة بذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: ٣ ـ ٤].

إذن ما هو السّر الذي طلب من حفصة أن تخفيه؟ وقد ورد في صحيح البخاري أن ذلك كان حادث تحريم العسل[١]، كما ورد في بعض الروايات الضعيفة أن رسول الله ﷺ كانت له أمة تسمى مارية يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه، وأكّد على حفصة أن تحافظ على هذا السّر ولا تفشيه عند أحد، فأخبرت بها عائشة فنزلت هذه الآية[٢].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ لقوله: بل شربت عسلاً.

(البخاري كتاب الطلاق برقم ٥٢٦٧، صحيح مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٤، سنن النسائي كتاب الطلاق برقم ٣٤٢١، كتاب الأيمان والنذور برقم ٣٧٩٥).

(٢) أشار به المؤلف إلى الرواية التي أخرجها البيهقي وغيره أن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها زارت أباها ذات يوم وكان يومها فلما جاء النبي ﷺ فلم يرها في المنزل فأرسل إلى أمته مارية القبطية فأصاب منها في بيت حفصة، فجاءت حفصة على تلك الحالة =

ولكن هنا ينشأ السؤال أنه لما لم يكن قصد النبي ﷺ بالتحريم إرضاء عائشة وحدها كما هو منصوص في الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ فلا معنى لإخفاء هذا السّر فقط عن عائشة. لأنه قد أمكن الحصول على رضاها بعدما اطلعت على هذه الواقعة، كما أن الآية الكريمة تدلّ على أن ما حرمه الرسول ﷺ ليس له أي علاقة بالأمة، لأننا حتى لو سلّمنا بصحة هذه الرواية، فإنها تدلّ على أن حفصة هي التي طلبت من النبي ﷺ ذلك. بينما الآية تستوجب أن يكون ذلك رغبة مشتركة من ثلاثة من الأزواج على الأقل. وليس من واحدة فقط. ثمّ سرّ الاحتراز عن طعام أو أمة ليس بذاك الأهمية حتى يتطلب مؤازرة المسلمين في الأرض والملائكة في السماء، لأنه ﷺ لو لم يتناول العسل ولم تبق له علاقة ظاهرية مع الأمة لعرف الناس أنه ﷺ فعل كذا، مثل ما كان الأمر في الضبّ، حيث كان العرب كلهم يأكلونه، لكن النبي ﷺ لا يعجبه ذلك، كما أنه ﷺ كان قد طلّق بعض أزواجه أو فكّر بذلك، ولكن لم يكن شيء من ذلك سراً مخفياً عن الناس، والذين لديهم إلمام بأساليب القرآن الكريم العامّة ومناهجه في البيان والتوضيح، واطلاع على اللغة العربية وقواعدها، يعرفون حق المعرفة أن الكلمة التي تأتي بعد «إذ» تكون جملة مستأنفة وقصة جديدة، فالآية السابقة تناولت موضوع التحريم، ثم استأنفت موضوعاً جديداً، وما هو هذا الموضوع؟ قد بينه القرآن الكريم في آية أخرى ألا وهو «الظهار»[1] وسوف نذكر تفاصيل موضوع الظهار لاحقاً.

= فقالت: يا رسول الله أتفعل هذا في بيتي وفي يومي، قال: فإنها علي حرام لا تخبري بذلك أحداً، فانطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها بذلك، فأنزل الله ﷻ في كتابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ....﴾ الآية هذا الحديث مرسل، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/٣٥٣ برقم ١٤٨٥٤، وأخرجه موصولاً أصحاب السنن عن أنس ﵁ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها على نفسه، فأنزل الله ﷻ الآيات.
انظر: سنن النسائي الكبرى ٥/٢٨٦ برقم ٨٩٠٧ و٦/٤٩٥ برقم ١١٦٠٧، والمقدسي في الأحاديث المختارة ٥/٦٩ برقم ١٦٩٤.
هذا وقد صرّح كبار المحدثين أن هذه الرواية لم تثبت من طريق صحيح.

(١) الظهار هو تشبيه المسلم زوجته أو تشبيه ما يعبَّر به عنها من أعضائها أو تشبيه جزء=

إن منافقي المدينة المنورة الذين سبق أن ذكرنا بعض نماذج من خبثهم ومكرهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين لم تسنح لهم فرصة أغلى وأثمن لإبداء كراهيتهم والضغينة الدفينة في قلوبهم تجاه النبي ﷺ من هذه الفرصة، ولا عجب أن غرسوا بذوراً من المؤامرة الخطيرة، ولا نقول ذلك قياساً أو استنباطاً، وإنما يدل عليه آيات من القرآن الكريم، والآية السابقة بما لها من الأهمية البالغة تشير إلى هذا الواقع، والآية بعدما بينت وأرشدت الناس إلى أنْ لا يكون حب الأهل والأولاد عائقاً لهم دون الصراط المستقيم جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ⁽٩⁾﴾ [التحريم: ٩] ثم في الخطاب نفسه ساقت الآية قصة أزواج نوح ولوط عليهما السلام ووضّحت أنهما لو لم يتبعا طريق الحق، وانحرفتا عن سواء السبيل فماذا أضرتا بالأنبياء، أو بدعوتهم؟ وهكذا أنتم يا أيها المنافقون ماذا بوسعكم أن تؤذوا النبي ﷺ أو تضرّوه بشيء بموجدة زوجاته المؤقتة عليه؟ كما يدلّ على صحّة هذا القياس ما نزل من الآيات ضمن هذه القصة[١] وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

تفنيد بعض الشبهات:

لقد أخطأ بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [التحريم: ٤] إذ قالوا إن معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ﴾ إن رجعتما إلى الله فهو واجب، لأن قلوبكما قد زاغت، وهذا المعنى لا يصح لثلاثة وجوه:

= شائع منها بمحرّم عليه تأبيداً بوصف لا يمكن زواله (الفقه على المذاهب الأربعة).

(١) انظر قصة الإيلاء في صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم ٤٩١٣/٥١٩١، وصحيح مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٩ وفيه قول عمر بعد ذكر الآية: «فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر».

١ ـ لأن هذه جملة شرطية حذف جزاؤها، والجزاء المحذوف في تقديري كلمة «فلا بأس» لا كما قدّره المفسّرون وهو «فهو واجب» والمُلمّون بقواعد اللغة العربية يعرفون تمام المعرفة أنه إذا حُذف الجزاء بعد «إن» الشرطية، وذُكرت علّة الجزاء بـ «فقد» فيكون الجزاء المقدّر دائماً هو كلمة «لا بأس» أو «لا حرج» أو «لا ضير» أو «فهو هيّن» وقد ورد في شعر العرب، وفي القرآن الكريم نفسه أمثلة كثيرة على ذلك(١).

٢ ـ ولا يصح أن تترجم كلمة «صغت» بـ «زاغت» لأن عائشة ﵂ وبقية أمهات المؤمنين حاشاهن أن تزيغ قلوبهن أو تضلّ.

هذا ويوجد في اللغة الأردية مفهومان:

١ ـ الانحراف عن الشيء.

٢ ـ الميلان إلى الشيء.

أما في اللغة العربية فيعبّر عن هذين المفهومين ثلاثة أنواع من الكلمات:

الأول: الذي يدلّ على المعنى الأول مثل: انحرف، زاغ، حاد.

الثاني: الذي يدلّ على المعنى الثاني مثلاً: زاغ، تاب، التفت، توجّه.

الثالث: الذي يدل على المعنى الأول والثاني معاً مثلاً: مال، شغل، عدل، رجع.

فكلمة «صغى» استعملت للمعنى الثاني، إلا أن بعض المفسّرين قد أرادوا به المعنى الثالث، ومعظمهم استخدموه للمعنى الأول، وهذا من الأخطاء الأدبية الفادحة، التي لا تستند إلى أي دليل أو برهان في أساليب

---

(١) ومن تلك الأمثلة:

أ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

ب ـ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

ج ـ ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

د ـ ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

اللغة العربية واستعمالاتها[1]، وقد وردت هذه الكلمة في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣] وليس معناها الانحراف ولا الزيغ.

٣ ـ لم تنصّ الآية الكريمة ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ على الشيء الذي مالت إليه قلوب عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وقد ذكر بعض المفسّرين أن قلوبهما ـ نعوذ بالله ـ مالت إلى إيذاء الرسول ﷺ، بينما القاعدة تقول: إن الكلمة المحذوفة تكون موجودة حوالي الجملة إما قبلها أو بعدها، أو تدلّ عليها القرائن الغالبة، وقد ذكرت كلمة «التوبة» من قبل، فيغلب الظن أن هذه هي الكلمة المقدّرة والمحذوفة، ولو أظهرنا ما حُذف من الآية تكون العبارة كالآتي:

«إن تتوبا إلى الله (فهو هين) فقد صغت قلوبكما (إلى التوبة إلى الله)».

ثانياً ـ الإيلاء:

وقعت قصة الإيلاء عندما وقع التحريم، وذلك في العام التاسع الهجري، وكانت قد اتسعت رقعة الدولة المسلمة آنذاك، واستولى المسلمون على مناطق بعيدة، فكانت المدينة تردها الخيرات بقدر وافر بين فينة وأخرى، وكثرت الغنيمة والفيء إثر الفتوحات الإسلامية، في مشارق الأرض ومغاربها، ورغم كل هذه السعة في الخيرات والكثرة في الأموال وامتلاء خزائن بيت مال المسلمين بالثروات، ما زالت حياة النبي ﷺ في وضعها السابق لم تتغير، فكانوا يعيشون عيشة الشدّة والشظف والعسرة، وعلى قمة من الزهد والقناعة.

---

(١) يراجع: لسان العرب وفيه: صغىٰ إليه يصْغىٰ ويصغُو صَغْواً وصُغُوًّا وصغاً: مال، وصغى صغياً: مال، قال شمر: صَغَوتُ وصَغَيتُ وصَغِيتُ، وأكثره صَغَيتُ، وقال ابن السكيت: صغيت إلى الشيء أصغى صُغياً إذا ملت، قال الله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ . . . .﴾ أي ولتميل (لسان العرب ١٤/ ٤٦١، كذا في مختار الصحاح ١/ ١٥٣).

وذكره البيضاوي بصيغة «قيل» وفصّل القول في هذا الموضوع العلامة حميد الدين الفراهي فأفاد وأجاد.

وبعدما فتح الله خيبر للمسلمين فرض النبي ﷺ للأزواج المطهّرات قدراً معلوماً من الأطعمة والتمور سنوياً، وهذا القدر من المال كان أقل من حوائجهن السنوية، زد على ذلك ما أكرمهن الله تعالى من الكرم والجود وطول اليد للإنفاق في سبيل الله، والبذل والعطاء في سبيل الخير، فتمضي أيام ولا توقد النار في بيوت أزواج النبي ﷺ، وكما هو المعلوم أن الأزواج المطهرات منهنّ من كانت بنت شيخ قبيلة أو رئيس أو ثري، والبعض منهن كن عشن سابقاً مع أزواجهن أو بيوت آبائهن عيشة الترف وفي التنعم والهناء، لم تمسّهن العسرة ولا الشدة في العيش لا من قريب ولا من بعيد، فلما رأين هذه السعة في الأموال التي حصلت للمسلمين إثر الفتوحات الإسلامية طالبن الرسول ﷺ بالمزيد من النفقة والزينة، فلما سمع عمر بذلك أصابه القلق والاضطراب فدخل على حفصة، وفهّمها الأمر وقال: «لا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك»، والله لولا أنا لطلَّقَكِ الرسول ﷺ، ثم ذهب إلى أخرى ونصحها، فقالت له أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فأخذتني أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها»[(١)].

وذات مرة دخل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على رسول الله ﷺ فوجدا النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً يطلبن منه النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: «تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده»[(٢)].

أما بقية الأزواج فبقين على طلبهن، وفي هذه الفترة «ركب رسول الله ﷺ فرساً بالمدينة فصرعه على جذم نخلة فانفكت قدمه[(٣)] فجلس في مشربة له

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٩، صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٩١٣.

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٨.

(٣) سنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ٦٠٢، سنن ابن ماجه كتاب الطب برقم ٣٤٨٥.

واعتزل فيها وآلى من نسائه شهراً، وشهّر المنافقون وشاع بين المسلمين أن النبي ﷺ طلّق نساءه».

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أي رجة، فاجتمع الصحابة ﷺ في المسجد يبكي بعضهم، وبدأت أمهات المؤمنين يبكين، ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من بقية المسلمين، وكان لهذه العقوبة - التي لم يعاقبن بمثلها من قبل - في قلوبهن أبلغ الأثر، ولم يتجرأ أحد أن يستفسر من الرسول ﷺ عن الحادث، وبوسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً، ويسأل عنه في فزع، فقال صاحبه: حدث أمر عظيم، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت لغلام له أسود: استأذِن لعمر، فدخل الغلام فكلّم النبي ﷺ ثم رجع، فقال: كلمت النبي ﷺ وذكرتك له فصمت، ثم في المرة الثالثة لما ولّيت منصرفاً إذا الغلام يدعوني فقال: قد أذن لك النبي ﷺ فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصّاع ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة، وإذا أَفيقٌ معلّق قال: فابتدرت عيناي... فقلت: يا رسول الله أطلَّقْتَهُنّ؟ قال: لا، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد، والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلّق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: نعم، إن شئت، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه(١).

وهذا الشهر كان تسعاً وعشرين ليلة، وكانت عائشة رضي الله عنها تنتظر استيفاء الثلاثين، وقد عدّتْهن يوماً يوماً، وعلمت ساعة دخول النبي ﷺ كم مضى وكم

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٩.

بقي، تقول رضي الله عنها: فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فقالت عائشة: يا رسول الله إنك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنما أصبحت مع تسع وعشرين ليلة أعدها عداً، فقال: الشهر تسع وعشرون ليلة(١).

ثالثاً ـ التخيير:

وبما أن عامة الأزواج كن قد طلبن الزيادة في النفقات، ولم يكن للنبي ﷺ أن يلطّخ يده بالزخارف الدنيوية وزينتها وبهائها تلبيةً لرغبات أزواجه، فقد غضب من نسائه لكثرة منازعاتهن، وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة، وكان خير درس لهن يعلّمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي ﷺ عليها، لأنهن قدوة في القناعة ومغالبة الهوى، ولسن بقدوة في الترف ونعمة العيش، وقد خُيِّرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن، فاخترن أجمل النصيبين بهن، ونزلت آية التخيير:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

تقول عائشة رضي الله عنها: لما مضى تسع وعشرون ليلة دخل عليّ رسول الله ﷺ بدأ بي فقلت: يا رسول الله إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنك دخلت مع تسع وعشرين أعدّهن، فقال: إن الشهر تسع وعشرون، ثم قال: يا عائشة إنّي ذاكر لكِ أمراً فلا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، ثم قرأ عليّ الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ قالت عائشة: قد علم والله أن أبويّ لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: فقلت: أوَ في هذا أستأمر أبويّ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم قالت: لا تخبر نساءك أني اخترتك، فقال لها النبي ﷺ: «إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعنتاً»(٢).

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح برقم ٥١٩١/٥٢٠١/٥٢٨٩، صحيح الإمام مسلم كتاب الصيام برقم ١٠٨٣، سنن الترمذي كتاب الصوم برقم ٦٩٠.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٥.

الفَصْلُ السَّادِسُ

وداع الحبيب

في السَّنَةِ الحَادِيَةَ عَشَرَةَ لِلهِجْرَةِ

وها نحن الآن ندخل في المرحلة العصيبة النهائية، والنقطة الأخيرة من مصائب الحياة التي تعاني منها المرأة، ألا وهي وداع الحبيب ومفارقة الزوج.

كانت عائشة ﵂ في السنة الثامنة عشرة من عمرها عندما التحق المصطفى ﷺ بالرفيق الأعلى، وكانت ملامح الحب والوفاء ومعالم الإخلاص والمودّة تُلمس بينهما بكل جلاء، وفي كل مكان ومناسبة، فكان يوماً من شهر صفر عام ١١هـ إذ دخل رسول الله ﷺ على عائشة فقالت: وارأساه، فقال رسول الله ﷺ: بل أنا وارأساه[١]. ومنذ ذلك الحين ابتدأ به ﷺ وجعه في بيت ميمونة، وكان وجعاً في رأسه الكريم، وكان أكثر ما يعتريه ﷺ الصداع، فجعل مع هذا يدور على نسائه فما إن شعر بالمرض حتى أخذ يسأل: أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ استبطاءً ليوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها[٢].

سببُ رغبته ﷺ في التمريض في بيت عائشة:

وربما يفهم البعض أن سبب رغبته ﷺ في التمريض في بيت عائشة ﵂ هو حبّه لها، ولكننا ذكرنا سابقاً أن الله ﷻ قد خصّ السيدة عائشة ﵂ بكثير من الفضائل والمزايا الفطرية ووهبها حظاً وافراً من كمال العقل وقوة الذاكرة وسرعة الفهم والذكاء المتوقد والبديهة الواعية وقدرة التحصيل والإحاطة بكل

(١) صحيح البخاري كتاب المرضى برقم ٥٦٦٦ وكتاب الأحكام برقم ٧٢١٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٣٨٩، كتاب المناقب برقم ٣٧٧٤، كتاب المغازي ٤٤٥٠، كتاب النكاح برقم ٥٢١٧، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٣.

ما يقع في متناول ذهنها، وملكة في الاستنباط والاستخراج، وقوة نادرة للاجتهاد، إذن فلا غرابة أن يكون غرض الرسول ﷺ من التمريض في بيت عائشة والاستقرار فيه أن تقوم عائشة بحفظ كل الأقوال والأفعال الصادرة من النبي ﷺ في أيامه الأخيرة، والحق الذي لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نَبيهم وأمر دينهم، وأحواله ﷺ عند الاحتضار، من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه الصلاة والسلام.

هذا واشتد المرض بالنبي ﷺ على مرّ الأيام حتى لم يسعه أن يصلّي بالناس في المسجد، وكانت هناك أدعية كان النبي ﷺ إذا مرض نفث بها على نفسه، فعائشة رضي الله عنها كذلك كانت تنفث عليه بتلك المعوّذات والأدعية وتمسح بيده[1]، وكان الناس عكوفاً ينتظرون النبي ﷺ في المسجد لصلاة الصبح، فكلما ذهب لينوء أُغمي عليه، فقال: «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس»، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر، قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فقال: «ليصلّ بالناس أبو بكر، فإنكن صواحب يوسف»[2].

وكان ﷺ قد ترك شيئاً من الذهب عند عائشة رضي الله عنها قبل مرضه الذي مات فيه، فتذكّره في مرضه فقال لعائشة: يا عائشة ما فعلتِ بالذهب؟ فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة، فجعل يقلّبها بيده ويقول: ما

---

(١) أشار به المؤلف إلى الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوّذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفّي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوّذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ (البخاري في صحيحه كتاب المغازي برقم ٤٤٣٩، ومسلم في صحيحه كتاب السلام برقم ٢١٩٢، وأبو داود في سننه كتاب الطب برقم ٣٩٠٢، وابن ماجه في سننه كتاب الطب برقم ٣٥٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان برقم ٦٨٧، والإمام مسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٤١٨.

ظنُّ محمد بالله ﷻ لو لقيه وهذه عنده، أنفقيها[1].

وحانت اللحظة الأخيرة من حياة سيّد المرسلين ﷺ، وكانت عائشة رضي الله عنها مسنِدةً رسول الله ﷺ، تقول: دخل عليّ عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندةٌ رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحبّ السّواك فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولتُه فاشتد عليه، وقلت: أليّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليّنته فأمرّه[2]، وفي رواية: «فاستنّ بها كأحسن ما رأيته مستناً قط»[3].

فكانت عائشة رضي الله عنها تعتز وتفتخر بما نالت من هذه الفضيلة والكرامة وتقول: إن من نعم الله تعالى عليّ أن رسول الله ﷺ توفّي في بيتي وفي يومي وبين سحَري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته[4].

فلما ثقل رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه أخذت عائشة رضي الله عنها بيده وجعلت تمسحه وتقول: أذهبِ الباس ربَّ الناس اشفِ وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً، قالت: فنزع يده مني ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى»[5].

وكانت رضي الله عنها تقول: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «إنه لم يُقْبَض نبيّ قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيّا أو يخيّر، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غُشي عليه فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذاً لا يجاورنا، فعرفت أنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٩ برقم ٢٤٢٦٨ و٦/ ١٨٢ برقم ٢٥٥٣١، كما أخرجه ابن حبّان في صحيحه ٨/٨ برقم ٣٢١٢، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٨٣ برقم ٣٤٣٧١.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤٤٤٩.

(٣) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤٤٥١، ومسند الإمام أحمد ٦/ ٢٧٤ برقم ٢٦٣٩٠.

(٤) صحيح البخاري كتاب فرض الخمس برقم ٣١٠٠، كتاب المغازي برقم ٤٤٤٩ و٤٤٥١، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ٦/ ١٢٦ برقم ٢٤٩٩٠، والبخاري نحوه في صحيحه برقم ٤٤٦٣ كتاب المغازي.

الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح»[1]. وتقول: «وقد قبض رسول الله ﷺ وهو في حجري فذهبت أنظر إلى وجهه، فإذا بصره قد شَخَص، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي»[2].

ومما لا شك فيه أن من أعظم الفضائل وأعلى السعادة وأهم المناقب للسيدة عائشة ﵂ أن حجرتها الشريفة كانت المسكن الأخير للنبي ﷺ، ومكان دفنه ووفاته.

«إنا لله وإنا إليه راجعون».

خبر منام عائشة ﵂:

وكانت عائشة ﵂ قد رأت في المنام أن ثلاثة أقمار سقطت في حجرتها، قالت: فسألت أبا بكر ﵁ فقال: يا عائشة إنْ تصدق رؤياك، يُدْفَنْ في بيتك خير أهل الأرض ثلاثة، فلما قُبض رسول الله ﷺ ودُفن قال لي أبو بكر: يا عائشة هذا خير أقمارك، وهو أحدها[3].

وقد أثبتت الوقائع القادمة أن القمرين الآخرين هما أبو بكر وعمر بن الخطاب ﵄، والآن صارت السيدة عائشة ﵂ أرملة، وقضت من عمرها أربعين عاماً على هذه الحالة، لزمت حجرتها طول حياتها تعزي نفسها بجوار قبر المصطفى ﷺ، وذات مرة رأت النبي ﷺ في المنام فتركت ذلك المكان[4] وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة لا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة، واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤٤٣٧ و٤٤٦٣، ومسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٧٤ برقم ٢٦٣٩١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٢ برقم ٤٤٠٠ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٨٥ و٩/ ٣٨، والطبراني في الأوسط ٦/ ٢٦٦ برقم ٦٣٧٣ وفي الكبير ٢٣/ ٤٨ برقم ١٢٧، والإمام مالك في الموطأ باب ما جاء في دفن الميت ١/ ٢٣٢ برقم ٥٤٨.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد.

لقبره، وهي لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه، فقد كانت تزوره زيارة الأحياء.

كما أنها كانت تزور القبر الشريف من دون حجاب ثلاث عشرة سنة متوالية إلى أن توفّي عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]، فلما دفن عمر معهما جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب، وهي تزور أولئك الأصحاب المتجاورين كأنهم على قيد الحياة.

هذا وقد حرّم الله تعالى على أزواج النبي ﷺ أن يتزوجن بعد وفاة النبي ﷺ.

قال رجل من سادات قريش: «لو توفّي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة»[2] فلما كان هذا الأمر مخالفاً للمصالح الدينية والسياسية، وحطاً من شأن النبوة أنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والأصل في هذا أن الأزواج المطهّرات اللاتي أكرمهن الله تعالى بصحبة نبيّه الحبيب ﷺ في حله وترحاله، عشن في كنفه حاملات لتعاليمه، حافظات لسنته، وبخاصة سنته عليه الصلاة والسلام في بيته، التي لم يطلع عليها في الأغلب أحد سواهن لم تكن بقايا حياتهن إلا لكي يقمن بواجب نشر وإشاعة الدروس والتعليمات التي تلقّينها من الحبيب المصطفى الزوج المبارك المعظّم طول حياتهن، وألا يصرفن شيئاً من حياتهن إلا في تأدية هذا الواجب، كن أمهات المؤمنين، فكانت مسؤوليتهن تعليم أبنائهن وتربيتهم، وكن المرجع الأول فيما حفظ عندهن من آي القرآن، وما حفظنه من السنن والأحاديث، حتى كانت بيوتهن مثابة الزوار من أبنائها وبناتها.

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم ٤/ ٨ برقم ٦٧٢١.

(٢) ذكره الإمام القرطبي في تفسيره ١٤/ ٢٢٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٩ برقم ١٣١٩٦.

يقول الله ﷻ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٠ ـ ٣٤].

والحياة المتبقية لعائشة رضي الله عنها هي تفسير عملي بمعنى الكلمة لهذه الآيات الربانية.

❀ ❀ ❀

عائشة بعد رحيل الحبيب ﷺ

عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الذي رشّحه النبي ﷺ لكي يلي أمور المسلمين ويكون الخليفة الراشد الأول، وبعدما فرغ المسلمون من مراسم دفن الرسول ﷺ وصار أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة المسلمين، أرادت أزواج النبي ﷺ أن يرسلن عثمان رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه يسألنه ميراثهن من رسول الله ﷺ، فقالت لهن عائشة رضي الله عنها مذكّرة إياهن بقول الحبيب المصطفى في حياته: «لا نورث ما تركناه صدقة»[1] فلما سمعن ذلك توقفن عنه.

والواقع أن النبيّ ﷺ لم يخلّف شيئاً بعد وفاته حتى يوزّع بين الورثة، ففي صحيح البخاري عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً[2] إلا ما خصّه الله تعالى في الفيء، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ، وكان ﷺ يُنفق على أهله من هذا المال نفقة سنته، ثم يأخذ ما بقي فيجعله في مال الله، فعمل بذاك رسول الله ﷺ حياته، فلما توفّى الله نبيّه، وولي أبو بكر فقبضها وعمل بما عمل به رسول الله ﷺ، وهكذا جرى الأمر في هذا المال طوال الخلافة الراشدة[3].

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٧١٢ وكتاب الفرائض برقم ٦٧٢٥، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجهاد والسير برقم ١٧٥٨.

(٢) صحيح البخاري كتاب الوصايا برقم ٢٧٣٩، وسنن النسائي كتاب الأحباس برقم ٣٥٩٤.

(٣) انظر تفصيل الحوار الذي جرى بين علي والعباس وعمر رضي الله عنهم حول موضوع توزيع المواريث، في صحيح البخاري كتاب الفرائض برقم ٦٧٢٨، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجهاد والسير برقم ١٧٥٧، وسنن أبي داود كتاب الخراج والإمارة والفيء برقم ٢٩٦٣.

وما فعلته عائشة رضي الله عنها في موضوع الميراث يدل على مكانتها الرفيعة في الجود والسخاء والكرم وطول يدها في البذل والعطاء، وخاصة إذا عرفنا أنه توفّي رسول الله ﷺ وما في بيتها شيء يأكله ذو كبد سوى البركة(١).

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

ولم تطل خلافة الصديق رضي الله عنه، إلى مدة طويلة، وإنما انتهت بعد استكمال سنتين فقط، حيث توفّي الخليفة الراشد الصديق رضي الله عنه في عام ١٣هـ. وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تُشرف على تمريضه عند الاحتضار، وقد نحلها أبو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من المال والأراضي، فقال لها: أي بُنيْة! قد علمتُ أنك كنت أحب الناس إليّ وأعزهم. وإني كنت نحلتك الأراضي التي تعلمين بمكان كذا وكذا، وأنا أحب أن تردّي بها إليّ، فيكون ذلك قسمة بين ولدي على كتاب الله، فألقى ربّي حين ألقاه، ولم أفضّل بعض ولدي على بعض(٢)، فقالت عائشة رضي الله عنها: على الرأس والعين، ثم سألها في كم كفنتم رسول الله ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة، وقال لها: في أي يوم توفّي الرسول ﷺ؟ قالت: يوم الإثنين، قال: فأي يوم هذا؟ قالت: يوم الإثنين، قال: أرجو فيما بيني وبين الليل، فنظر إلى ثوب عليه كان يُمرَّض فيه به ردع من زعفران، فقال: اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين، فكفنّوني فيها، فقالت: إن هذا خَلِق، فقال: إن الحيّ أحق بالجديد من الميّت، وإنما هو للمهلة، فلم يتوف حتى أمسى من ليلة الثلاثاء(٣). فلما توفي حُفر له في حجرة عائشة رضي الله عنها وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ، وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ.

وهكذا أصبحت هذه الحجرة مجمعاً لقمر الخلافة مع قمر النبوة، ومرّت عائشة رضي الله عنها بهذه المرحلة العصيبة الثانية من نوعها. وتحملت هذه الصدمة

---

(١) انظر: سنن الترمذي كتاب الأدب.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ذكر وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣/ ١٩٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز برقم ١٣٨٧، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٣٢ برقم ٢٥٠٤٩.

صدمة وفاة الوالد، رابطة الجأش ثابتة القلب في سنّها المبكّر، وذلك بعد سنتين فقط مما مرت به من الحادثة حيث ودّعت حبيبها المصطفى ﷺ.

عَهْدُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يتميز عهد الفاروق رضي الله عنه من حيث التنظيم والتنسيق تميزاً ملموساً، وكان قد فرض رضي الله عنه عطية نقدية لكل المسلمين من بيت المال في عهده الميمون، أما ما فرضه لأمهات المؤمنين فقد ذكر لنا الإمام أبو يوسف رحمه الله(١) روايتين في كتابه «الخراج»(٢)، الأولى: أنه فرض لأمهات المؤمنين كل واحدة منهن اثني عشر ألف سنوياً، والثانية: أن عمر رضي الله عنه فرض لأمهات المؤمنين عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ. (وقد أخرجها الحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)(٣). وكان رضي الله عنه قد جعل تسع صحاف، عدد أزواج النبي ﷺ، فلا تكون فاكهة ولا طريفة إلا جعل منها في تلك الصحاف، فيبعث بها إلى أزواج النبي ﷺ(٤).

---

(١) هو الإمام يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، العلامة أبو يوسف، فقيه العراقيين صاحب أبي حنيفة رحمه الله، كان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الرأي، ولي القضاء لهارون الرشيد، مات ببغداد سنة ١٨٢هـ، كان رحمه الله من أولاد أبي دجانة الأنصاري، وأول من لقب بقاضي القضاة، قال محمد بن سماعة: كان أبو يوسف يصلّي بعد ما ولي القضاء كل يوم مئتي ركعة، روى عنه محمد بن الحسن الشيباني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

وأكثر العلماء على تفضيله وتعظيمه، وكان مع سعة علمه أحد الأجواد الأسخياء، ولد سنة ثلاث عشرة ومئة ومات ببغداد سنة اثنتين وثمانين ومئة، وله «الأمالي» و«النوادر» و«الخراج» (انظر: شذرات الذهب ١/٣٠١، تذكرة الحفاظ ١/٢٩٢، الفوائد البهية ص٣٧٢).

(٢) انظر: كتاب الخراج لأبي يوسف ص٥١، وفيه استثناء «جويرية وصفية رضي الله عنهما» فإنهما قد فرض لهما ستة آلاف في أول الأمر فلم تقبلا ففرض لهما اثني عشر ألفاً.

(٣) الحاكم في المستدرك ٤/٩ برقم ٦٧٢٣، كما أخرجه المحاملي في أماليه ١/٢٤٨ برقم ٢٤٢.

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ باب جزية أهل الكتاب ١/٢٧٩ برقم ٦١٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٣٥ برقم ١٣٠٣٦، وابن أبي عاصم في كتاب الزهد ١/١١٦.

وأكبر دليل على اهتمامه البالغ بأمهات المؤمنين وشدة التفقد لأحوالهن أنه كان يبعث إليهن باللحوم كلما نُحرت النَّعَم، كما تقول عائشة رضي الله عنه: «كان عمر بن الخطاب يرسل إلينا بأحظائنا ـ حصصنا ـ حتى من الرؤوس والأكارع[(١)]».

ولما فتح المسلمون العراق جاء درج إلى عمر رضي الله عنه وفيه جوهر فقال لأصحابه: «تدرون ما ثمنه؟ قالوا: لا، ولم يدروا كيف يقسمونه، فقال: تأذنون أن أبعث به إلى عائشة لحبّ رسول الله ﷺ إياها؟ فقالوا: نعم، فبعث به إليها، ففتحته فقالت: ماذا فتح علي ابن الخطاب بعد رسول الله ﷺ، اللهم لا تبقني لعطيته لقابل[(٢)]».

وكان رضي الله عنه يتمنى أن يدفن في حجرة عائشة رضي الله عنها تحت أقدام الرسول ﷺ، لكنه لم يتمكن من تقديم طلبه هذا نظراً إلى التأدب والاحترام، وكان مضطرباً قلقاً من هذا الموضوع وهو في سياقة الموت وحالة الاحتضار، حتى قال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقل: يقرأ عليك عمر السلام، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه، فمضى فسلّم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فسلّم عليها وقال كما أوصاه، قالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي[(٣)].

وحتى بعد هذا الإذن من عائشة رضي الله عنها قال عمر رضي الله عنه: «يا عبد الله بن عمر انظر، فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري، ثم قف بي على الباب، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإنْ أذنَتْ لي فأدخلني، وإن ردّتني فردني إلى مقابر

---

(١) انظر: موطأ الإمام محمد باب الزهد والتواضع برقم ٩٢٧، ط: وزارة الأوقاف القاهرة مصر ١٤٠٧هـ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٩ برقم ٦٧٢٥، والإمام أحمد في فضائل الصحابة رقم ١٦٤٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٣٩٢، كتاب المناقب برقم ٣٧٠٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٥٨ برقم ٦٨٧٤ باب من رأى أن يدفن في أرض مملوكة بإذن صاحبها، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٣٤ برقم ١١٨٥٨ مختصراً، و٧/ ٤٣٦ برقم ٣٧٠٥٩.

المسلمين، فإني أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السلطان»، ففعل كما أمر به، وأذنت السيدة عائشة رضي الله عنها مرة ثانية، ثم دفن هناك مع صاحبيه[1].

وأخيراً أفل هذا القمر الثاني للخلافة في نفس الحجرة المقدّسة.

عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

امتد عهد خلافة عثمان رضي الله عنه إلى اثني عشر عاماً، والنصف الأول من هذا العهد كان يسوده الأمن والسكون والاستقرار، بينما النصف الثاني من عهده أصيب بأنواع من الاضطرابات، وحدثت فيه بعض الخلافات نحو الخليفة، واشتكى طائفة من الناس الخليفة عثمان رضي الله عنه، وها هي عائشة رضي الله عنها تروي لنا وصية الرسول ﷺ التي أوصى بها عثمان: «يا عثمان إن الله عز وجل لعله أن يقمِّصَك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه، ثلاث مرات»[2].

لقد احتلت السيدة عائشة رضي الله عنها مكانة سامية مرموقة في قلوب عامة الناس[3]، فكانوا يقصدونها متعلمين مستفتين، فكانت تهدي الحائر، وتعلّم الجاهل، وتحمي الملتجئ، وتنجد المستغيث، فكانت أم المؤمنين بمعنى الكلمة، والناس في الحجاز والعراق والشام ومصر يعتبرونها أمًّا لهم بواقع الأمر، والوقائع التي سوف نتحدث عنها لاحقاً تدل على ذلك بكل وضوح، كما أن الناس يُقبلون عليها، يعرضون عليها شكاواهم فهي تؤازرهم

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٣٩٢، كتاب المناقب برقم ٣٧٠٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٤٩ برقم ٢٥٢٠٣، وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٣٤٦ برقم ٦٩١٥، الحاكم في المستدرك ٣/ ١٠٦ برقم ٤٥٤٤ وقال: هذا حديث صحيح عالي الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ١/ ٥٣٩ برقم ٢١٩٦، وفي مجمع الزوائد ٥/ ١٧٨، ٥/ ١٨٤، ٩/ ٥٦، ٩/ ٩٠، وتكلم بالتفصيل حول الرواة، وكذلك أخرجه الترمذي في سننه باب مناقب عثمان رضي الله عنه برقم ٣٧٠٥، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرج الحاكم في المستدرك عن عطاء قال: كانت عائشة رضي الله عنها أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة (٤/ ١٥، برقم ٦٧٤٨، كما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٥ وابن حجر في الإصابة ٨/ ١٨ وابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ١٨٨٣).

وتواسيهم، ومن المعروف تاريخياً أن كبار الصحابة وأصحاب الإفتاء والمشورة كانوا على قيد الحياة في عهدي الصديق والفاروق رضي الله عنهما وكذلك في بداية عهد عثمان رضي الله عنه، فكان الخلفاء يستشيرونهم في مهمّات الأمور ومعضلات القضايا، وهم كانوا حائزين على مناصب جليلة رفيعة المستوى حسب مواهبهم ومؤهلاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، وميّزهم على غيرهم، وكان نظام الحكومة والترتيبات المتعلقة بالسلطة التي أقامها الشيخان غاية في العدل والإنصاف، لا يشوبها شيء من الحيف أو الظلم، ولذا ضمن لهم ذلك النظام استقرار البلاد أمناً وسكوناً فلم تشهد أيّ توتر أو اضطراب أو خلل في الأمن، ولم يجد كبار الصحابة أي سبب لتقديم الشكاوى على إساءة التنظيم أو خلل في الأمن.

أما الشباب أمثال عبد الله بن الزبير، ومحمد بن أبي بكر، ومروان بن الحكم، ومحمد بن أبي حذيفة، وسعيد بن العاص رضي الله عنهم، فكلهم كانوا يهابون الخليفة، ويقدّرون للخلافة قدرها، ويعتبرونها فوق مصالحهم.

❋ ❋ ❋

الفَصْلُ الثَّامِنُ

نشوء الفتن ومعركة الجمل

إن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه حواريِّ رسول الله ﷺ وابن عمته، سبط أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان يعتبر نفسه أحق بالخلافة، وأنه وارث للخلافة، أما محمد بن أبي بكر فكان أصغر أبناء الصديق رضي الله عنه وهو أخو عائشة رضي الله عنها من الأب، وقد تزوّجَ أمَّه ـ بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ علي رضي الله عنه، ولذلك فإنه قد ترعرع ونشأ في حضن علي رضي الله عنه، وكان يحبه مثل أبنائه[1]، ومحمد بن أبي حذيفة تربى وترعرع في كنف عثمان رضي الله عنه، ولما بلغ أشدّه طالب بمنصب كبير فرفض عثمان رضي الله عنه أن يسلّمه، فارتحل إلى مصر غاضباً.

وأما مروان بن الحكم وسعيد بن العاص فكانا من الأمويين ومن الشباب حديثي السن، من أبناء المهاجرين القدامى وأخلافهم، وكانوا من مقدّمي طُلّاب المناصب الرفيعة، وذلك نظراً إلى ما كان يحوزه آباؤهم وأسلافهم من مناصب رفيعة، والخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه كذلك كان من الأمويين، وكان يثق بأفراد أسرته، ولذا فكان المُرَشَّحُون والمختارون للمناصب معظمهم من بني أمية.

ولذلك نرى أن مروان وسعيد بن العاص قد فازا بمناصب كبيرة رفيعة المستوى، الأمر الذي أدى إلى إثارة الغضب والسخط لدى بعض شباب قريش تجاه بني أمية، وكان هذا هو السبب الذي دفع محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ليشاركا في الثورة ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه أكثر من الآخرين، مع العلم بأن هؤلاء الشباب ما كان فيهم من صفات الصبر والعدل والصدق

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة ٦/ ٢٤٥ ترجمة رقم ٨٣٠٠.

والأمانة والزهد والورع مثل ما كان في آبائهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فوصل الأمر إلى غضبهم وثورتهم ضد الخليفة.

وفوق ذلك كله فإن العرب كانوا يعتبرون الاستعباد العجمي وصمة عار على جبين شرفهم وسعادتهم، إذ إنهم قد نشؤوا وترعرعوا في بيئة تتمتع بالحرية والاستقلال، فلما جاء الإسلام نفخ فيهم روحاً جديدة، وجعل كل القبائل في ميزان واحد وتحت قوة واحدة. وكبار الصحابة الذين كانوا هم رعاة تعاليم الإسلام وتربيته الأصيلة كانوا يراعون هذا الجانب دائماً، ولما جاء مَن خَلَفهم من المسؤولين وأصحاب المناصب الرفيعة والمراتب العالية، تناسوا هذا الدرس العظيم، وبدؤوا يتظاهرون علناً بشرفهم القبلي والأسري ويتفاخرون به ويتباهون باستقلالهم الشخصي في مجالسهم وزواياهم، فشقّ ذلك على القبائل العربية الأخرى، فزعموا أن الفتوحات التي حصلت بعد العهد النبوي في كل من إيران والشام ومصر وبلاد أفريقية، كلها كانت بسبب سيوفهم، ولذا فإنهم يستحقون نصيبهم وسهامهم بالتساوي والتعادل.

أما الأعاجم الذين كانوا حديثي العهد بالإسلام فهم على طبيعتهم السابقة، لم يكونوا راضين بحكم قريش أو بني أمية فحسب، بل كانوا لا يعجبهم أن تكون السلطة بيد العرب أساساً وهم يحكمون عليهم، ولذا فإنهم كانوا يحبّون أن يساهموا في كل فتنة أو ثورة تثار ضد الحكومة، والموقع الجغرافي لبلاد الكوفة كان نقطة اتصال بين العرب والعجم، ومن ثمة بدأت الفتنة، وكانت هناك أكبر المجمّعات للقبائل العربية، كان واليها سعيد بن العاص، وكان سادات معظم القبائل الموجودة في البلد يجتمعون في ديوانه بالليل، حيث يتحدثون حول موضوع الحروب التي خاضتها العرب، كما يتطرق حديثهم إلى موضوع أنساب العرب ومفاخر الآباء والأجداد، وكل قبيلة تزعم نفسها أعلى وأرفع من الأخرى، وتكون نهاية الحديث مؤلمة، فيُنهون كلامهم وسمرهم بالتشاجر والتهاوش والتجادل والسبّ والشتم، وسعيد بن العاص يغتنم هذه الفرصة لإظهار مفاخر قريش، الأمر الذي يزيد الطين بلّة، فاشتكى سادات القبائل أخلاقه وسلوكه، وأدت هذه الظاهرة السيئة إلى نشوء

فتنة، وأثناء هذه الفترة، اعتنق ابن سبأ اليهودي الإسلام.

اعتناق عبد الله بن سبأ اليهودي الإسلام:

ومن عادة اليهود - أصحاب الدسائس والمكر والخداع - أنهم لو لم يتمكّنوا من الانتقام من أعدائهم بإظهار العداوة، سرعان ما يتحوّلون ظاهراً إلى أصدقاء حميمين، وينسجون خيوط المؤامرات الخفية، مثل اليهود لما سقطوا في إفشال دعوة سيّدنا عيسى عليه السلام وإزاحة تأثيرها، فاعتنق أحد زعمائهم - بولس - النصرانية، وتستّر بستارها، ومن ثمّ بدأ في استئصال جذور تعاليمها، والقضاء على حقيقتها.

فقام ابن سبأ يُشيع بين الناس أن علياً رضي الله عنه هو خليفة الرسول ﷺ ووصيّه، يعني أن النبيّ ﷺ كان قد أوصى بخلافته، وكان ابن سبأ يعتقد نفس هذه العقيدة تجاه هارون عليه السلام، عندما كان يهودياً، فنادى في الناس: انهضوا بهذا الأمر فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وادعوا الناس إلى هذ الأمر، فبثّ دعاته، وكاتب مَن كان في الأمصار، ودَعَوْا في السّر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وبذل ابن سبأ أقصى ما في وسعه في نسج شبكات من المؤامرة والمكر على نطاق واسع استناداً إلى الإصلاح السياسي، وقام بجولة لكل من بلاد الكوفة والبصرة ومصر، حيث كانت هذه البلاد مشحونة بالسلاح والرجال، منذ أن أمر عمر بن الخطاب بتأسيسها، لتكون ثكنات عسكرية لجند المسلمين، ينطلقون منها لنشر الإسلام. وكان طبيعياً وجود بعض العناصر من محبّي الثورة والانقلاب في القوّات العسكرية، فاتخذ ابن سبأ مصر مقراً ومركزاً لهؤلاء الثوّار، وبدأ يجمع أولئك الشراذم المتفرقين في سلك واحد، وعلى رصيف واحد، فسمّوا هؤلاء فيما بعد بالسّبئية.

هذا وكانت الحروب جارية مستمرة في مختلف مناطق أفريقية وبلاد الجزائر والروم زمن خلافة عثمان رضي الله عنه، ولهذا السبب كان معظم الجيوش

الإسلامية موجودين هناك، ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا يلتقيان بالجيوش ويجلسان عندهم بكل حرية بزعم المشاركة في الجهاد، ويؤلّبانهم على عثمان رضي الله عنه، فأدّى ذلك إلى أن تحولت مصر إلى مركز للثوّار ومعارضي السلطة والخارجين على الخليفة، وكان والي مصر حينذاك هو عبد الله بن أبي سرح، فبدأ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة بحركة معادية لعبد الله بن أبي سرح وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وهكذا تزعما حزباً سياسياً جديداً في مصر، وعِظَمُ ذلك كان مُسنداً إلى محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة حتى استنفرا نحو ألف راكب من كل من الكوفة والبصرة ومصر، يذهبون إلى المدينة بصفة حُجّاج، ليشغبوا على عثمان رضي الله عنه، فساروا إليها وأقاموا قرب المدينة، فلما اقتربوا من المدينة، أمر عثمان رضي الله عنه عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يخرج إليهم ليردّهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة، فانطلق عليّ بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظّمونه ويبالغون في أمره، فردّهم وأنّبهم وشتمهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، ورجع كل فريق منهم إلى قومهم، وأظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم، وساروا أياماً راجعين، ثم كرُّوا عائدين إلى المدينة، فما كان غير قليل حتى سمع أهل المدينة التكبير وإذا القوم قد زحفوا على المدينة وأحاطوا بها، وذهب الصحابة إلى هؤلاء يؤنّبُونهم حتى قال علي لأهل مصر: ما ردّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: لما رجعنا إلى بلادنا وجدنا في الطريق شخصاً فإذا معه في إداوة كتاب على لسان عثمان فيه الأمر بقتل طائفة منهم، وبصلب آخرين، وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان.

هذا وظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم بيده، فحاصروا بيت عثمان رضي الله عنه واشترطوا عليه شرطين: إما أن يسلّم إليهم مروان بن الحكم أو يعتزل عن الخلافة، فرفض عثمان رضي الله عنه هذين الشرطين.

واستدعت عائشة رضي الله عنها أخاها محمد بن أبي بكر، وطلبت منه أن يمتنع من هذا لكنه رفض، حتى حان موعد الحج، فخرجت إلى الحج وأرادت أن تأخذ معها أخاها محمداً لكنه رفض.

استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وبيعة علي بن أبي طالب:

واستمر حصار الدار ثلاثة أسابيع، وأخيراً قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيداً بيد البغاة والخوارج، «إنا لله وإنا إليه راجعون» وبعدما استُشهد عثمان رضي الله عنه لم يبق للخلافة إلا أربعة من الصحابة الذين يستأهلونها وهم طلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

وكان الكوفيون يطلبون الزبير فلا يجدونه، والبصريّون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، والمصريّون يُلحّون على علي وهو يهرب منهم إلى الحيطان، فمضوا إلى سعد بن أبي وقّاص فقالوا: إنك من أهل الشورى، فلم يقبل منهم، فرجعوا إلى عليٍّ فألحّوا عليه، وأخذ الأشتر النخعي بيده فبايعه وبايعه الناس، وكان من مقدّمي أصحاب علي رضي الله عنه الأشتر النخعي وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر، وكان بعض الناس رشّحوا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أما بنو أميّة فرشّحوا للخلافة أبان بن عثمان، كما أن هناك من كانوا يذكرون عبد الرحمن بن أبي بكر.

ثم بعد ثلاثة أيام بايعه جمهور أهل المدينة، إلا بعض الأشخاص.

وهذا ما حدث في الحجاز، أما الوضع السياسي في بلاد الشام فكان معاوية رضي الله عنه يحلم باستقلاله وحريته، كما أن محمد بن أبي حذيفة أعلن استقلاله بمصر، وكان الناس مذهولين بسبب حادث استشهاد الخليفة الراشد الثالث في رحاب الحرم النبوي، وبأيدي المسلمين، تلك الحادثة المفجعة التي لم يرض بها حتى معارضو عثمان ومخالفوه، وكانت من هؤلاء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كما في[١] رواية، وحاشاهم أن يتعمدوا ذلك.

وقبل هذا الحادث المدهش المذهل جاء الأشتر النخعي فقال: «يا أم المؤمنين ما تقولين في قتل هذا الرجل؟ يعني عثمان، فقالت: معاذ الله أن آمر بسفك دم إمام المسلمين»[٢]، وقد أذاع بعض الأعداء أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت متورّطة في هذه الحادثة. ولعلّهم يبرّرون زعمهم الباطل هذا بما فعله

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جزء أهل المدينة ترجمة مروان بن الحكم.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤٨٥.

أخوها محمد بن أبي بكر في هذه الحادثة، لأنه كان من كبار الثائرين على عثمان والمؤلّبين عليه، لكن سبق أن ذكرنا أن عائشة رضي الله عنها قد غضبت على أخيها لموقفه من عثمان وسمّته مذمَّماً، وظلّت تدعو عليه من كبدٍ حَرّى وعلى بقية الساعين في قتل عثمان دعاءً حاراً، كما أعربت السيدة عائشة عن انطباعاتها نحو الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ذات مرة قائلة: «والله ما أحببت أن يُنتهك من عثمان أمرٌ قط إلا قد انتُهك مني مثلُه، حتى والله لو أحببت قتله لقتلت، يا عبيد الله بن عدي لا يغرنك أحد بعد الذي تعلم، فوالله ما احتقرت أعمال أصحاب النبيّ ﷺ حتى تهجّم النفر الذين طعنوا في عثمان، فقالوا له قولاً لا يَحْسُن قوله، وقرؤوا قراءة لا يحسن مثلها، وصلَّوْا صلاة لا يصلّى مثلها، فلما تدبرت الصنيع إذا هم والله ما يقاربون أعمال أصحاب رسول الله ﷺ»[(١)].

ولا شيء أدل على تفنيد ما زعمه الزاعمون وأذاعه المرجفون من أكاذيب حول نجوم خلاف بين السيدة عائشة وعثمان رضي الله عنهما، ودحض مزاعمهم الباطلة من هذا التصريح والإعلان الواضح الصريح من السيدة عائشة رضي الله عنها.

عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وبالجملة فإن أوضاع المسلمين كلها كانت مصابة بالتوتر والاضطراب، وكانوا يعانون من ظروف حرجة وقاسية من الناحية السياسية في تلك الفترة، فلما رأى جماعة من الصحابة هذا المنظر المؤلم وجدوا أن الحديقة التي سقَوْا أزهارها ورووها بدمائهم، وبذلوا فيها النفائس، وضحَّوْا من أجلها بكل نفس ونفيس وغال ورخيص، قد بدأت تتعرض للانهيار والضياع، ورأوا بأم أعينهم أن مجهوداتهم أصبحت تروح سدى ومن دون جدوى، فلما واجهوا ذلك كله قاموا ورفعوا عَلَم الإصلاح، وكان من أهم أعضاء هذه الجماعة طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم.

طلحة رضي الله عنه: هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي، أبو محمد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، كان فاتح

---

(١) جزء خلق أفعال العباد للإمام البخاري ١/٥٦، كما ذكره معمر بن راشد في جامعه ١١/٤٤٧.

المعارك في عهد النبوة، وصهر الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ونسيب النبي ﷺ.

الزبير رضي الله عنه: هو الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد القرشي أبو عبد الله، كان حواريَّ رسول الله ﷺ وابن عمته، ونسيبه، وصهر الخليفة الأول، وكان من شجعان الإسلام، وهذان الاثنان كانا من أولئك الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة.

وقد سبق أن ذكرنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها خرجت من المدينة قاصدة مكة لأداء الحج حسب عادتها، وذلك بعد أن غلب الثائرون والغوغاء على المدينة المنوّرة وحاصر البغاة بيت عثمان رضي الله عنه، وعلمت السيدة عائشة بمقتل عثمان وهي في طريق العودة إلى المدينة، فلما تقدمت لقيها طلحة والزبير رضي الله عنهما هاربين من المدينة، فقالت: «ما وراءكما؟ فقالا: «وراءنا أنا تحملنا بقليتنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوماً حيارى، لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً، ولا يمنعون أنفسهم» فقالت عائشة رضي الله عنها: فائتَمِرُوا أمراً ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء»، وتمثلت:

«وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سَرَاتُهم   لَأَنْقَذْتُهُمْ مِن الحِبَالِ أو الخَبَل»(١)

ثم عادت إلى مكة المكرمة، ولما علم عامة الناس بهذا الحادث، بدأوا يقصدونها من كل النواحي وجميع الأطراف، وطلبوا منها أن تنهض بعمل إصلاح الأمة ورأب الصدع الذي أحدثه مقتل عثمان رضي الله عنه في صفوفها، تروي لنا عمرة بنت عبد الرحمن عن أم المؤمنين رضي الله عنها قولها: «ما رأيت مثل ما رغبت هذه الأمة عنه، من هذه الآية(٢): ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]».

---

(١) يراجع: تاريخ الطبري ٣/ ٧.

(٢) موطأ الإمام محمد كتاب التفسير رقم الحديث ١٠٠٣ ص٣١٥، تعليق وتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ط: وزارة الأوقاف القاهرة ١٤٠٧هـ.

الإصلاح وواجبات المرأة المسلمة:

تحكي لنا عائشة رضي الله عنها قصة فتاة فتقول: إن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، وأنا كارهة، قالت: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها، فقالت: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أنْ ليس للآباء من الأمر شيء(١).

فطلوع عائشة رضي الله عنها على منصة السياسة لدليل على أن نطاق حقوق المرأة المسلمة لا ينحصر فيما يظنه العامة، لقد أصيبت السيدة عائشة رضي الله عنها بصدمة عنيفة إثر هذا الحادث المفجع، وتألمت كثيراً بما رأته من أوضاع المسلمين وأحوالهم التي وصلت إلى أسوأ درجة، ولا سيما لما عرفت بأنه لا يوجد من ينهض للإصلاح فيما بينهم ويقوم بحلّ هذه العقدة التي وقعوا فريستها إبّان مقتل عثمان رضي الله عنه، وكما نعرف أن أم المؤمنين عائشة كانت ذات جرأة نادرة، رابطة الجأش، ثابتة القلب والنفس، لم تزعزعها شدة المصيبة، ولم تهزّ كيانها المشاكل والمصائب، ومن مظاهر جرأتها العديمة المثال أنها استأذنت من النبي ﷺ أن تشارك في الجهاد، فقال لها النبي ﷺ: «جهادكن الحج»(٢).

وكانت قد شاركت في بعض الغزوات قبل أن ينزل الحجاب، وفي رواية أنها شاركت في غزوة بدر الكبرى كذلك. أما في غزوة أحد فكان لها سهم وافر في نصرة المجاهدين، فكانت تسقي الجرحى، وتحمل قُرَب الماء على عاتقها لتُفرغها في أفواه المجاهدين، يقول أنس رضي الله عنه: «ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُلَيْم لمشمّرتان أرى خدم سُوقهما تنقلان القُرَب على متونهما ثم

---

(١) أخرجه النسائي في سننه باب البكر يزوّجها أبوها وهي كارهة برقم ٣٢٦٩، وفي السنن الكبرى ٣/ ٢٨٤ برقم ٥٣٩٠، وابن ماجه في سننه برقم ١٨٧٤ وأحمد في مسنده ٦/ ١٣٦ برقم ٢٥٠٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه باب حج النساء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد؟ فقال: لكُنّ أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور.

تفرغانه في أفواههم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم»[١].

وفي غزوة الخندق لما كان المسلمون شبه محصورين نزلت من الحصن الذي وَضَع فيه النبي ﷺ النساءَ والأطفال، وتقدمت إلى الصفوف الأمامية[٢].

ولا يُنكر أحد أن الإمارة والولاية لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي والطبيعي، كما أن الشروط اللازمة للإمامة والإمارة لا يمكن أن يتحملها هذا الجنس اللطيف الرقيق، ولذلك لم تكلّفها الشريعة بحمل هذا العبء العظيم والثقل الكبير على أكتافها، ولكن لا يُحتج بذلك على عدم جواز تولّيها وظائف أخرى، ومساهماتِها في شتى ميادين السياسة، من القيام بأعمال إصلاحية، وإرشادية في الجمهور، ولا سيما في الأوضاع الطارئة التي تسود فيها نيران الفتن والفساد كل المجتمع، ولا يوجد أحد غيرها يقوم بإخماد هذه النار، والقضاء على تلك الفتن والاضطرابات واجتثاث جذورها من المجتمع البشري.

وقد ذهب الإمام مالك، والطبري، وأبو حنيفة في رواية، وآخرون إلى جواز منح المرأة الإمارة وولاية القضاء[٣]. وكانت شفاء العدوية رضي الله عنها قد استعملها عمر رضي الله عنه على السوق[٤]، وهذه عائشة رضي الله عنها ربما اجتمع عندها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير برقم ٢٨٨٠، وكتاب المناقب برقم ٣٨١١، وكتاب المغازي برقم ٤٠٦٤، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير برقم ١٨١١.

(٢) تقول عائشة: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فالتفتّ فإذا أنا بسعد بن معاذ.... الحديث أخرجه أحمد مفصلاً في مسنده ٦/ ١٤١ برقم ٢٥١٤٠ وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٤٩٧ برقم ٧٠٢٨، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١/ ٢٨٤.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: قال الخطابي: في الحديث أن المرأة لا تلي الإمارة ولا القضاء، وأجازه الطبري، وهي رواية عن مالك، وعن أبي حنيفة: تلي الحكم فيما تجوز فيه شهادة النساء (فتح الباري ٩/ ٤٦٩).

(٤) أخرج أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني عن زيد بن أبي حبيب أن عمر رضي الله عنه استعمل الشفاء على السوق، قال: ولا نعلم امرأة كهذه (الآحاد والمثاني ٦/ ٤ رقم ٣١٧٩).

النساء، فأمتهن وقامت بينهن في الوسط[1].

عائشة رضي الله عنها ترفع راية الإصلاح وتغادر إلى البصرة:

وعلى كلٍّ فإن عائشة رضي الله عنها لما أعلنت نهوضها بأعمال الإصلاح ورفعت رايته لبّى ندائها حوالي سبعمئة شخص من الحرم فقط، وتبرّع ابن عامر وابن أمية ـ من أغنياء العرب ـ بمئات الآلاف من الدراهم، والبعير، وأناخوا بالأبطح معسكراً، ثم استشاروا في بيت عائشة رضي الله عنها لتقرير اتجاه مسير العسكر، فأشارت عليهم أن يتجهوا إلى المدينة حيث يوجد السبئيون والثوّار ـ ولو كانوا اتجهوا إلى المدينة لكان الأمر مختلفاً ـ لكن بعد مداولات الآراء ومناقشتها استقام لهم الرأي على أن يتجهوا إلى البصرة، فلما قالوا لها ذلك ولم يكن ذلك مستقيماً إلا بها، قالت: نعم. وقد كان أزواج النبي ﷺ معها على قصد المدينة. فلما تحوّل رأيها إلى البصرة تركن ذلك. وانطلق القوم إلى حفصة فقالت: رأيي تبع لرأي عائشة. قال يعلى بن أمية: معي ستمئة ألف، وسبعمئة بعير فاركبوها، وقال ابن عامر: معي كذا وكذا، فتجهزوا به، فنادى المنادي أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المُحدثين والطلب بثأر عثمان، ومن لم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز، فهذا جهاز وهذه نفقة، وتجهزوا بالمال ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين، فخرجوا في سبعمئة رجل من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس حتى وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف رجل، وخرج معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق يودِّعْنها، فودعنها بالدموع والنحيب، ولم يُر يوم كان أكثر باكياً على الإسلام منه.

ولم تتهيأ لشباب بني أمية فرصة أحسن من هذه لإثارة الفتن والغوغاء فكانوا قد لجأوا إلى الحرم المكي فارين هاربين مختفين، ولما سمعوا أن أم

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٣١ برقم ٥١٣٨، وابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٤٣٠ برقم ٤٩٥٤، وعبد الرزاق في المصنف ٣/ ١٤١ برقم ٥٠٨٦، ٥٠٨٧، وهو في كتاب الآثار ١/ ٤١ برقم ٢١٢.

المؤمنين خرجت تطلب ثأر دم عثمان انضمّوا معها، وشارك معظم الناس في هذه الجماعة، لأنهم أُخبروا أن أم المؤمنين هي التي تقود هذا الجيش، فلحقوا به حتى وصلوا إلى ثلاثة آلاف لما انتهوا إلى المنزل. هذا ولم يكن الهدف الأساسي لبعض بني أمية من وراء هذه الجهود طلب ثأر دم عثمان، والعمل من أجل الإصلاح، وإنما كان غرضهم الزيادة في مشكلات علي رضي الله عنه، ولذا فإنهم لما رأوا أن هناك قوة سياسية ثالثة بدأت تنشأ بقيادة السيدة عائشة رضي الله عنها. ويمكن أن تكون هذه القوة حليفهم الثاني، بدأوا ينسجون شبكات من المؤامرات الخفية والدسائس الباطنية في داخل العساكر، وبما أن هذا العسكر كان فيه العديدُ من مدّعي الخلافة، فأول سؤال طُرح عن الخليفة، من يتولى الخلافة؟ هل طلحة أو الزبير؟ فقامت عائشة رضي الله عنها بإنهاء هذه القضية، ثم ثارت فتنة أخرى حول الإمامة، مَن يؤم الناس؟ ومن هو أحق بالإمامة؟ فقررت عائشة رضي الله عنها لأبناء كل من طلحة والزبير أن يتناوبوا في الإمامة يوماً بعد يوم.

قصة ماء الحوأب وعزم عائشة على الرجوع:

ولما وصلوا مياه بني عامر طرقوا ماء الحوأب ونبحت الكلاب فقالت: أي ماء هذا؟ فقالوا: ماء الحوأب، فصرخت فقالت: ما أظنّ إلا راجعة، وتذكرت قول الرسول ﷺ لما خاطبها قائلاً: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب؟»(١) فأناخت وأناخوا حولها وهم على ذلك وهي تأبى حتى كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغد، وفي نهاية الأمر شهد خمسون شخصاً من القرية أن هذا ليس بماء الحوأب، فاطمأنت عائشة رضي الله عنها، فلما وصل الخبر إلى علي رضي الله عنه بخروج طلحة والزبير وأم المؤمنين أمَّر على المدينة تمام بن العباس، وبعث إلى مكة قثم بن العباس، وخرج وهو يرجو أن يأخذهم

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٥/ ١٢٦ برقم ٦٧٣٢، وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ١/ ٤٥٣ برقم ١٨٣١، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٥٣٦ برقم ٣٧٧٧١، والطبراني في الأوسط ٦/ ٢٣٤ برقم ٦٢٧٦، وأحمد في مسنده ٦/ ٥٢ برقم ٢٤٢٩٩ و٦/ ٩٧ برقم ٢٤٦٩٨.

بالطريق، وأراد أن يعترضهم، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين.

فجاءها ابن الزبير فقال: النجاء النجاء، فقد أدرككم والله علي بن أبي طالب، فارتحلوا.

هذه رواية الطبري[1] وما شاكله من كتب التاريخ.

وقد أخرج الإمام أحمد هذه القصة بلسان عائشة رضي الله عنها نفسها أنها أتت على الحوأب وسمعت نباح الكلاب، فقالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله ﷺ قال لنا: «أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب»؟ فقال لها الزبير: ترجعين؟ عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس[2]، وفي رواية أخرى: «فقال بعض من كان معها بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ذات بينهم»[3] وهذه الروايات خير دليل على أن مسيرة عائشة رضي الله عنها كان الغرض الأساسي منها هو الإصلاح بين الناس لا غير.

أوضاع المسلمين في الكوفة:

كانت الكوفة أكبر بلاد المسلمين بعد مكة والمدينة والبصرة، وكان والِيَها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وزعماء الفريقين يحاولون إقناع العامة بما يَرَوْنهم، ودعوتهم إليهم كل على حدة، فجاء الناس إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يستشيرونه في الخروج، فقال أبو موسى: «كان الرأي بالأمس

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٩٧ برقم ٢٤٦٩٨، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٩ برقم ٤٦١٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣٤ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣/ ٨٩١ برقم ١٥٦٩ ونعيم بن حماد في الفتن ١/ ٨٣ برقم ١٨٨. (وانظر كذلك الهامش السابق).

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٢ برقم ٢٤٢٩٩، هذا وروايتا أحمد عن طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم، واختلفت أقوال المحدثين في قيس بين التوثيق والتجريح، ووصفه البعض بأنه ضعيف منكر الرواية ساقط الحديث، وتكلموا في صحة روايته هذه عن الحوأب، (انظر تهذيب التهذيب ٨/ ٣٤٦ رقم الترجمة ٦٩١).

ليس باليوم، إن الذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جرّ عليكم ما تَرَوْن، وما بقي إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا». وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى الكوفة مع رسولهم، وأرسل علي رضي الله عنه عماراً ومعه الحسن رضي الله عنهما إلى الكوفة، فخطب عمار في جامع الكوفة حول الأوضاع الراهنة، وبيّن مناقب أم المؤمنين رضي الله عنها، ثم قال: هذا ابن عم رسول الله ﷺ إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزبير، وإني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة، فانظروا ثم انظروا في الحق، فقاتلوا معه، ثم قام الحسن بن علي فقال: يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فأجيبوا دعوتنا على ما ابتُلينا به وابتُليتم، فسامح الناس وأجابوا ورضوا به، وأثّر فيهم هذا الخطاب تأثيراً عجيباً، ونفر معهم تسعة آلاف، فأخذ بعضهم البَرّ وأخذ بعضهم الماء.

إلا أن الناس كانوا مترددين إلى أي جانب يميلون ومع مَن يروحون، لأنهم وجدوا أم المؤمنين وحبيبة رسول الله ﷺ في جانب، وابن عم الرسول وصهره في جانب آخر.

ولما وصلت عائشة رضي الله عنها قرب البصرة، أرسلت بعض الناس لكي يخبروا الناس بالواقعة، كما كتبت إلى رؤساء وسادات العرب في البلاد، وذهبت إلى بعض الرؤساء، وقد امتنع رئيس من قبيلةٍ ما، فذهبت إليه عائشة رضي الله عنها بنفسها وأقنعته فقال: أنا أستحيي أن أرفض أمّي ولا أطيع أمرها(١)، وكان عثمان بن حنيف قد ولّاه علي رضي الله عنه على البصرة، فدعا عثمانُ عمرانَ بنَ حصين وألزمه بأبي الأسود الدؤلي فقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعْلَما عِلمَها وعلمَ من معها، فخرجا فانتهيا إليها وإلى الناس فاستأذنا فأذنت لهما، فسلّما وقالا: إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت رضي الله عنها:

«والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ولا يغطّي لبنيه الخبر، إن الغوغاء من

---

(١) ذُكر في الأخبار الطوال «أن كعب بن سُور قعد عنهم في أهل بيته حتى أتته عائشة في منزله فأجابها وقال: أكره ألا أجيب أمّي».

انظر: الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن دُوَاد الدِّيْنَوَري، تحقيق عبد المنعم عامر ص (١٤٤) ط: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٠م.

أهل الأمصار ونُزّاع القبائل، غَزَوْا حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث، وآوَوْا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر، فاستحلّوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلّوا البلد الحرام والشهر الحرام، ومزّقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمُقامهم، ضارين مضرّين، غير نافعين ولا متقين، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون، فخرجتُ في المسلمين، أُعلّمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، ولا ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأتْ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] ننهض في الإصلاح ممن أمر الله ﷻ وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضّكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثّكم على تغييره»[1].

فخرج أبو الأسود وعمران من عندها، فأتيا طلحة، فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قالا: ألم تبايع علياً؟ قال: بلى، والعجّ في عنقي وما أستقيل علياً، إنْ هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان، ثم أتيا الزبير وسألاه نفس السؤال، فأجابهما الزبير بما أجاب طلحة، فرجعا إلى أم المؤمنين فودّعاها فودّعتْ عمران وقالت: «يا أبا الأسود إياك أن يقودك الهوى إلى النار، ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]».

وقد أثّر كلامُ عائشة رضي الله عنها في عمران، واعتزل عن المعركة، وقال لعثمان: والله لتعركنكم عركاً طويلاً، ثم لا يساوي ما بقي منكم كثير شيء، فقال له عثمان: فأشر عليّ يا عمران! قال: إني قاعد فاقعد، فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين علي وانصرف إلى بيته، ثم نادى في الناس، وأمرهم بالتهيؤ، ولبسوا السلاح، واجتمعوا إلى المسجد الجامع.

وأقبل عثمان على الكيد، فكاد الناس لينظرَ ما عندهم وأمرهم بالتهيؤ، وأمر رجلاً ودسّه إلى الناس خدعاً كوفياً قيسياً فقام فقال: يا أيها الناس أنا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٤.

قيس بن العقدية الحُمَيْسي، إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم، إن كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان رضي الله عنه فما نحن بقَتَلة عثمان، أطيعوني في هؤلاء القوم فردّوهم من حيث جاؤوا[1].

وقد وقع سهم الخطيب في موقعه، وتأثر العامة بكلامه، إذ قام الأسود بن سريع السعدي فقال: أو زعموا أنّا قتلة عثمان رضي الله عنه؟ فإنما فزعوا إلينا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا، فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت، فمن يمنعهم من إخراجهم الرجال أو البلدان[2].

ولم تكن هذه الكلمات أقل تأثيراً مما سبق، وكان الناس يستمعون إلى هذه الخطب إذ دخلت عائشة رضي الله عنها فيمن معها حتى إذا انتهَوْا إلى المربد ودخلوا من أعلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها، ويكون معها، فاجتمعوا بالمربد وجعلوا يثوبون حتى غصّ بالناس فتكلم طلحة ثم تكلم الزبير وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهجوا.

خُطبة عائشة رضي الله عنها في البصرة:

فتكلمت عائشة وكانت جهورية الصوت، يعلو صوتها كثرة، كأنه صوت امرأة جليلة، فحمدت الله عز وجل وأثنت عليه وقالت: «كان الناس يتجنَّوْن على عثمان رضي الله عنه، ويُزرون على عمّاله، ويأتوننا بالمدينة يستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنجده بَرّاً تقياً وفياً، ونجدهم فجرة كذبة، يحاولون غير ما يظهرون، فلما قووا على المكاثرة كاثروه، فاقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عُذر، ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره، أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه، وإقامة كتاب الله عز وجل»[3] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ١٥.
(٣) نفس المصدر.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

خُطبة أخرى لعائشة رضي الله عنها:

ويُنسب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خطبة أخرى بهذه المناسبة، وهي تفوق الخطبة المذكورة من حيث البلاغة والفصاحة ورصانة في الأسلوب ورشاقة في البيان ونصها: «إن لي عليكم حرمة الأمومة[١]، وحق الموعظة، لا يتهمني إلا من عصى ربّه، قُبض رسول الله ﷺ بين سحري ونحري[٢]، وأنا إحدى نسائه في الجنة، له ادّخرني ربّي وحصّنني من كل بضع، وبي ميّز مؤمنكم من منافقكم[٣]، وبي أرخص الله لكم في صعيد الأبواء وفي نسخة «ثم أبي ثاني اثنين الله ثالثهما» وأبي رابع أربعة من المسلمين[٤]، وأول مَن سُمِّي صدّيقاً[٥]، قُبض رسول الله ﷺ وهو عنه راض. وقد طوّقه وهف الإمامة[٦]، ثم اضطرب حبل الدين، فأخذ بطرفيه، ورتق لكم أثناءه[٧]، فوقد النفاق، وأغاض نبع[٨] الرّدة، وأطفأ ما تحش يهود، وأنتم يومئذٍ جحظ العيون، تنظرون العدوة وتستمعون الصّيحة[٩]، فرأب الثأي وأوزم العطلة[١٠]، وامتاح

(١) لأنها من أمهات المؤمنين أزواج النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

(٢) السَّحَر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر، تريد أنه مات محضوناً بين يديها وصدرها.

(٣) تشير إلى حديث الإفك المعروف، وخلاصته أن قوماً اتهموها بريبة فنزل الوحي ببراءتها وعلم أن المنافقين هم الذين شنعوا في التهمة، وقد سبق ذكره.

(٤) تشير إلى أنه من الأوائل السابقين في التشرف بدخول الإسلام.

(٥) لأنه كان كلما تحدث النبي ﷺ بشيء أجابه «صدقت».

(٦) أي ثقلها.

(٧) الرتق ضد الفتق، وأثناء الشيء: قواه، تريد لما اضطرب الأمر يوم الردة أحاط به من جوانبه وضمّه.

(٨) النبع: العين التي يخرج منها الماء، وأغاضه: أنقصه، تريد أنه لافى فورتها من أصلها.

(٩) تريد أنهم كانوا في حالة جهد وبلاء، أجحظوا عيونهم أي أبرزوها وهم ينظرون الوثبة عليهم ويسمعون للتصايح إليهم، وقد أسقط في يدهم.

(١٠) العطلة: الدلو المعطلة عن الاستقاء لانقطاع وزمها: أي السيور التي بين آذانها أو عراها، وأوزمها: أي شدّها وأصلحها.

من المهواة[1]، واجتحى دفين الداء، ثم انتظمت طاعتكم بحبله، فولى أمركم رجلاً شديداً في ذات الله ﷻ، مذعناً إذا ركن إليه، بعيداً ما بين اللابتين[2] عركة للأذاة بجنبه، فقبضه الله وأطأ على هامة النفاق، مذكياً نار الحرب للمشركين، يقظانَ الليل في نصرة الإسلام، صفوحاً عن الجاهلين، خشاش المرآة والمخبرة، فسلك مسلك السابقية، تبرأت إلى الله من خطب جمع شمل الفتنة، ومزق ما جمع القرآن، أنا نصب المسألة عن مسيري هذا، ألا وإنّي لم أجرّد إثماً أدرعه، ولم أدنس فتنة أوطئكموها، أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً واعتذاراً وتعذيراً، وأسأل الله أن يصلّي على محمد عبده ورسوله وأن يخلفه في أمته بأفضل خلافة المرسلين»[3].

وكانت هذه الخطبة قمةً في البلاغة والفصاحة، ذات تأثير عميق، فبهرت فصاحتُها السامعين وسحرتهم بلاغتها، وأدهشتهم عارضتها، لم يسمع الناس أفخم ولا أحسن منها، وقد وقعت موقع السهم في هدفه، وافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين، فقالت فرقة: صدقت والله وبرّت، وجاءت والله بالمعروف، وقال الآخرون: كذبتم، والله ما نعرف ما تقولون، فتحاثَوْا وتحاصبوا وأرهجوا، فلما رأت ذلك عائشة انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان، حتى وقفوا في المربد، وبقي أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا، ومال بعضهم إلى عائشة، وبقي بعضهم مع عثمان.

وفي اليوم الثاني بدأت المعركة بين الفريقين حيث أقبل حكيم بن جبلة، وقد خرج وهو على الخيل، فأنشب القتال، وأشرع أصحاب عائشة رضي الله عنها

(١) امتاح: انتزع، والمهواة: أرادت بها البئر العميقة.
(٢) اللابتان: مثنى اللابة، وهي حرة المدينة. وهي أرض ذات حجارة سود كبيرة، تريد أنه واسع الصدر، فاستعارت له اللابة كما يقال: «رحب الفناء واسع الجناب».
(٣) انظر: بلاغات النساء لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني، تحقيق د. عبد الحميد الهنداوي، ط: دار الفضيلة القاهرة، كما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد باب الخطيب، وذكر واقعة الجمل.
وكذلك أحال إليه العلامة الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه إزالة الخفاء.

رماحهم وأمسكوا ليمسكوا فلم ينته ولم يثن، فقاتلهم، وأصحاب عائشة كافّون إلا ما دافعوا عن أنفسهم، وحكيم يذمر خيله ويركبهم بها، ويقول: إنها قريش ليردينّها جبنها، واقتتلوا على فم السكة، وأشرف أهل الدور ممن كان له في واحد من الفريقين هوى، فرمَوْا باقي الآخرين بالحجارة.

وأمرت عائشة أصحابها، فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها ملياً، وثار إليهم الناس، فحجز الليل بينهم، فرجع عثمان إلى القصر، ورجع الناس إلى قبائلهم، وجاء أبو الجرباء أحد بني عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم إلى عائشة وطلحة والزبير فأشار عليهم بأمثل من مكانهم، فاستنصحوه وتابعوا رأيه، فساروا من مقبرة بني مازن، فأخذوا على مسناة البصرة من قِبَل الجُبّانة، حتى انتهوا إلى الزابوقة، فباتوا يتأهبون، وبات الناس يسيرون إليهم، وأصبح عثمان بن حنيف فغاداهم، وغدا حكيم بن جبلة وهو يبربر، وفي يده الرمح، فقال له رجل من عبد القيس: من هذا الذي تسب وتقول له ما أسمع؟ قال: عائشة، قال: يا ابن الخبيثة! أَلِأُمّ المؤمنين تقول هذا؟ فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله، ثم مرّ بامرأة وهو يسبّها يعني عائشة، فقالت: من هذا الذي ألجأك إلى هذا؟ قال: عائشة، قالت: يا ابن الخبيثة! أَلِأُمّ المؤمنين تقول هذا؟ فطعنها بين ثدييها فقتلها، وقد كثر القتلى في أصحاب ابن حنيف، وفشت الجراحة في الفريقين، ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكفّ، فيأبَوْن، حتى إذا مسّهم الشرّ وعضّهم، نادَوْا أصحاب عائشة إلى الصلح فأجابوهم، وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة، وحتى يرجع الرسول إلى المدينة، فإن كانا أُكرها (طلحة والزبير) خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة، وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير.

فخرج كعب حتى يقدم المدينة، فاجتمع الناس لقدومه، وكان قدومه يوم الجمعة، فقام كعب وقال: يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم، أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعَيْن؟ فلم يجبه أحد من القوم، إلا ما كان من أسامة بن زيد، فإنه قام فقال: اللهم إنهما لم يبايعا إلا

وهما كارهان، فواثبه سهل بن حنيف والناس، وثار صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد في عدة من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم محمد بن مسلمة حين خافوا أن يُقتل أسامة، فقال: اللهم نعم، فانفرجوا عن الرجل فانفرجوا عنه، وأخذ صهيب بيده حتى أخرجه، فأدخله منزله، وبلغ علياً الخبرُ الذي كان بالمدينة من ذلك، فبادر بالكتاب إلى عثمان يعجزه، ويقول: والله ما أُكرها إلا كرهاً على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل، وقدم كعب فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا فاحتجّ عثمان بالكتاب، وقال: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه، فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى، ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء، وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان بن حنيف فقدّما عبد الرحمن بن عتّاب، فشهر الزط والسيابجة السلاح، ثم وضعوه فيهم، فأقبلوا عليهم فاقتتلوا في المسجد، وصبروا لهم، فأناموهم وهم أربعون، وأدخلوا الرجال على عثمان ليخرجوه إليهما، فلما وصل إليهما توطؤوه، وما بقيت في وجهه شعرة، ثم بعثت ﵂: لا تحبسا عثمان ودعاه، ففعلا، فخرج عثمان، وقالت عائشة ﵂: لا تقتلوا إلا من قاتلكم. ونادوا من لم يكن من قتلة عثمان ﵁ فليكفف عنا، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان، ولا نبدأ أحداً، فأنشب حكيم القتال ولم يرع للمنادي.

مكاتبة عائشة لأهل الكوفة:

وكتبت عائشة ﵂ إلى أهل الكوفة مع رسولهم:

«أما بعد فإني أذكركم الله ﷻ والإسلام، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه، اتقوا الله واعتصموا بحبله وكونوا مع كتابه، فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده، فأجابنا الصالحون إلى ذلك، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح، وقالوا: لَنُتْبِعنّكم عثمان، ليزيدوا الحدود تعطيلاً، فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣]» فأذعن لي بعضهم واختلفوا بينهم فتركناهم وذلك، فلم يمنع ذلك من كان منهم على رأيه

الأول من وضع السلاح في أصحابي، وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلوني حتى منعني الله ﷻ بالصالحين، فردّ كيدهم في نحورهم، فمكثنا ستاً وعشرين ليلة ندعوهم إلى كتاب الله وإقامة حدوده، وهو حقن الدماء أن تهراق دون من قد حل دمه، فأبوا واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها، فخافوا وعذروا وخانوا، فجمع الله ﷻ لعثمان رضي الله عنه ثأرهم، فأقادهم، فلم يفلت منهم إلا رجل، وأردأنا الله ومنعنا منهم بعمير بن مرثد ومرثد بن قيس ونفر من قيس ونفر من الرباب والأزد، فالزموا الرضا إلّا عن قتلة عثمان بن عفان، حتى يأخذ الله حقه، ولا تخاصموا الخائنين، ولا تمنعوهم، ولا ترضوا بذوي حدود الله فتكونوا من الظالمين[1].

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى رجال بأسمائهم خاصة وفيما يأتي نص الرسالة:

«فثبّطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم، واجلسوا في بيوتكم، فإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضي الله عنه، وفرقوا بين جماعة الأمة، وخالفوا الكتاب والسنة، حتى شهدوا علينا فيما أمرناهم به وحثثناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده، بالكفر وقالوا لنا المنكر، فأنكر ذلك الصالحون، وعظموا ما قالوا، وقالوا ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم أنْ أمَرَتْكم بالحق لتقتلوها، وأصحاب رسول الله وأئمة المسلمين، فعزموا وعثمان بن حنيف معهم على من أطاعهم من جُهّال الناس، وغوغائهم على زطّهم وسيابجهم، فلُذْنا منهم بطائفة من الفساط، فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً، ندعوهم إلى الحق وألا يحولوا بيننا وبين الحق، فغدروا وخانوا، فلم نقايسهم، واحتجوا ببيعة طلحة والزبير، فأبردوا بريداً فجاءه بالحجة فلم يعرفوا الحق ولم يصبروا عليه، فغادوني في الغلس ليقتلوني والذي يحاربهم غيري، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ومعهم هاد يهديهم إلي، فوجدوا نفراً على باب بيتي منهم عمير بن مرثد ومرثد بن قيس ويزيد بن عبد الله بن مرثد ونفر من قيس ونفر من الرباب والأزد، فدارت عليهم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٠.

الرحى، فأطاف بهم المسلمون فقتلوهم، وجمع الله ﷻ كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة، فإذا قتلنا بثأرنا وسعنا العذر، وكانت الوقعة لخمس ليالٍ بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين»[١].

معركة الجمل:

خرج علي ﷺ من المدينة ومعه سبعمئة شخص، فلما وصل إلى الكوفة اجتمع معه سبعة آلاف، وأهل البصرة كانوا ينتظرونهم، فلما وصلوا إلى البصرة كانوا حوالي عشرين ألفاً.

أما عائشة ﵂ فاجتمع حواليها ثلاثون ألف شخص تقريباً، وتواجه الفريقان في ساحة المعركة والتقَوْا، فنزلت القبائل إلى قبائلهم، مضرهم إلى مُضَرُهم، ربعيهم إلى ربعيهم، يمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح. فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم.

كانت هذه المأساة المروّعة تُعتبر من أعظم المآسي في تاريخ المسلمين، وهذا اليوم المشؤوم المفجع الذي لم ير المسلمون أسوأ منه في تاريخهم، وبالرغم من أن القلوب كانت عامرة بالحب والمودة، إلا أن الفكرة السياسية قد فرّقت بين الأشقاء، وفلذات أكباد أمٍّ واحدة، فواحد هنا والآخر هناك، كل واحد يرى الحق في مكان دون مكان، وكان الشوق إلى البحث عن الحق والوصول إليه مرتبطاً بالحب الأخوي، وقلب كل مسلم يبكي دماً لما يعاني من هذا الموقف العصيب الشديد، ويواجه هذه المأساة الأليمة، ويرى أن تلك السيوف التي كانت تصيب رؤوس المشركين وتقضي على الباطل، سوف تُستخدم الآن لإصابة أيدي وصدور الأصدقاء والإخوان من المسلمين، ولما رأى الزبير ﷺ هذا المنظر المفجع لم يلبث إلا أن قال: لما أصبح المسلمون مثل الجبال الراسيات في القوة والطاقة يريدون أن يحطم بعضهم بعضاً.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢١ ـ ٢٠.

وكان كلا الفريقين يعتبر نفسه على الحق دون الآخر، ولا يرضى أن يتزعزع من موقفه، ويتنازل عنه ولو قِيدَ شبر. وأرسل بعض بني عدي فيمن أرسل، فأقبل رسوله حتى نادى على باب مسجدهم: ألا إن أبا نجيد عمران بن الحصين يقرئكم السلام ويقول لكم: والله لأن أكون في جبل حضن مع أعنز وضأن، أجُزُّ أصوافها وأشرب ألبانها، أحبّ إليّ من أن أرمي في شيء من هذين الصفّين بسهم، فقالت بنو عدي جميعاً بصوت واحد: إنا والله لا ندع ثِقَلَ رسول الله ﷺ لشيء، يعنون أم المؤمنين.

هذا وكان كلا الفريقين على يقين أن هذه المعركة لا تطول إلى المواجهة والمحاربة، وإنما تنحلّ بالصلح والإصلاح، فأرسل علي رضي الله عنه القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير فخرج القعقاع حتى قدم البصرة، فبدأ بعائشة رضي الله عنها وقال: أي أمَّهْ ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أيْ بني، إصلاح بين الناس، فسأل طلحة والزبير: ما تقولان أنتما: أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: متابعان، قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن، ولئن أنكرناه لا نصلح، قالا: قتلة عثمان رضي الله عنه، فإن هذا إنْ تُرك كان تركاً للقرآن، وإن عُمل به كان إحياءً للقرآن، فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمئة إلا رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، فلما سمعوا ذلك أثّر فيهم هذا الكلام وقالوا: نعم إذاً قد أحسنتَ، وأصبت المقالة، فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، فكره ذلك من كرهه ورضيه من رضيه[1].

مجهودات القعقاع للإصلاح بين الفريقين:

هذا وقد أثمرت مساعي القعقاع التي بذلها للإصلاح بين الفريقين،

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٩، والبداية والنهاية ٧/٢٣٨، السيرة الحلبية ٣/٣٥٨.

وأيقن الجميع أن الصلح قريب، ولكن أدرك الثائرون على عثمان ﷺ أن الصلح ليس في صالحهم، وأن الدائرة ستدور عليهم، وأنّ كل ما بذلوه من الجهود طوال السنوات الماضية سيذهب سُدًى في لحظة واحدة، وكان أكثر السبئية مع علي ﷺ، وبات الفريقان على الصلح، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة، وباتوا يتشاورون، ثم اتفقوا على إنشاب الحرب في السرّ، واستسرّوا ذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشرّ، فغدَوْا مع الغلس، وما يشعر بهم جيرانهم، وانسلّوا إلى ذلك الأمر انسلالاً، وعليهم ظلمة، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربعيهم إلى ربعيهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهّتوهم[1].

وهكذا قامت الحرب على قدم وساق، وتبارز الفرسان وجالت الشجعان، وكان علي ﷺ ينادي: أيها الناس كفوا فلا شيء، فلا يسمع أحد، وثار كل فريق إلى سلاحه، وقام الناس من منامهم إلى السلاح فقالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلاً وبيتونا وغدروا بنا، وأصبحوا على القتال، فلما سمعت عائشة ﷺ بالغوغاء سألت: ما هذا؟ فقالوا: ضجة العسكر، وأقبل كعب بن سور حتى أتى عائشة ﷺ فقال: أدركي، فقد أبى القوم إلا القتال، لعل الله يصلح بك، فركبت وألبسوا هودجها الأدراع ثم بعثوا جملها.

تذكير علي طلحة والزبير بمقالة الرسول ﷺ ورجوعهما عن المعركة، وشهادة الزبير:

وطلب عليٌّ طلحةَ والزبيرَ ليكلمهما، فاجتمعوا حتى التقَتْ أعناق خيولهم، وذكّرهما بمقالة الرسول ﷺ وفيها: أن النبي ﷺ مرّ عليهما فقال لعلي: ما يقول ابن عمتك؟ «ليقاتِلَنّك وهو لك ظالم»[2]. فانصرف عنه الزبير

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠ ـ ٣٩، البداية والنهاية ٧/ ٢٤٠.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠.

وقال: اللهم نعم، ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا، ووالله لا أقاتلك[1]. ومضى الزبير ﷺ متجهاً إلى المدينة المنورة، فرآه عمرو بن جرموز وتبعه، وحضرت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة، فقال الزبير: الصلاة، فنزلا، واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في حربان درعه فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، ودخل على علي ﷺ فأخبره، فدعا بالسيف فقال: سيف طالما جلّى الكُرَب عن وجه رسول الله ﷺ[2].

وكان طلحة يريد أن ينصرف، إذ رآه مروان بن الحكم وكان يعتقد أن حياته هي الحاجز الأكبر في سبيل الأمويين، فرماه بسهم غرب نظم ركبته بصفحة الفرس حتى امتلأ جرموقه دماً، ثم مات ﷺ، فأخذ كعب بن سور مصحف عائشة فبدر بين الصفّين يناشدهم الله ﷻ في دمائهم وأُعطي فرمى بها تحته وأتى بترسه فتنكبه فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه ﷺ.

ووقف الناس للقتال، فكان القتال نصف النهار مع عائشة، وتزاحف الناس، فهزمت يمنُ البصرة يمنَ الكوفة، وأفلت الأمر من يد عائشة ﷺ، المتقاتلون كلهم كانوا إخواناً، كانوا يضربون على الأيدي والأرجل، ويتجنبون الصدور والرؤوس، وجعلوا يبترون الأطراف الأيدي والأرجل، فما رُئيت وقعة قط قبلها ولا بعدها، ولايسمع بها أكثر يداً مقطوعة ورجلاً مقطوعة منها لا يُدرى مَن صاحبها.

وحاول السبئية أنهم لو حصلوا على عائشة ﷺ ليعامِلُنَّها معاملة سيئة، وتقدم أهل الكوفة بعد طلحة والزبير إلى هودج عائشة ﷺ أكثرهم ضبة والأزد، فقالت لمن عن يسارها: من القوم؟ قالوا: صبرة بن شيمان بنوك

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٤١، قلت: قال ابن كثير في البداية والنهاية: وفي هذا السياق كله نظر، والمحفوظ منه الحديث الذي رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أبي حازم المازني قال: شهدت علياً والزبير حين توافقا، فقال له علي: يا زبير أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: إنك تقاتلني وأنت ظالم؟ قال: نعم لم أذكره إلا في موقفي هذا ثم انصرف، ورواه البيهقي مرسلاً.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦.

الأزد، قالت: يا آل غسان حافظوا اليوم جلادكم الذي كنا نسمع به، وقالت لمن عن يمينها: مَن القوم؟ قالوا: بكر بن وائل، وأقبلت على كتيبة بين يديها فقالت: من القوم؟ قالوا: بنو ناجية، ثم أطافت بها بنو ضبة، وكانت بنو الأزد ترتجز بهذه الأبيات:

يـا أمَّـنـا يـا خـيـرَ أُمٍّ نَـعْـلَـمُ   أما تَـرَيْـنَ كَـمْ شُـجَاعٍ يُـكْـلَـمُ
وتُـخـتَـلـى هـامتُـه والـمـعـصـمُ

عقر جمل عائشة رضي الله عنها لإيقاف المعركة:

وأدرك علي رضي الله عنه أن القتال لن يتوقف حتى يعقر الجمل، فنادى: اعْقِروا الجمل، فإنه إن عقر تفرقوا، وكانت بنو ضبة محيطة بالجمل، لا يمر أحد من حواليه إلا قضوا عليه، وكانوا يحضّضون قومهم، وقد تعاوروا الخطام ويرتجزون:

«نَـحْـنُ بـنـو ضـبَّـةَ لا نَـفِـرُّ   حَـتّـى نَـرَىٰ جَـمَـاجِـم تـخـرُّ
يَـخِـرُّ مـنـهـا الـعَـلَـقُ الـمُـحَـمـرُّ
يـا أُمَّـنَـا يـا عـيـشُ لا تُـرَاعِـي   كُـلُّ بَـنِـيْـكِ بَـطَـلٌ شُـجَـاع
يـا أُمَّـنَـا يـا زَوْجَـةَ الـنَّـبِـيِّ   يـا زوجـةَ الـمُـبَـارَكِ الـمَـهْـديِّ

وكانوا أكثر ما يرتجزون به من الأبيات هي:

«نحنُ بنو ضُبَّةَ أَصْحَابَ الجَمَلْ   الموتُ أَحْلَىٰ عِنْدَنا مِنَ العَسَلْ
نَحْنُ بنو المَوْتِ إذا المَوْتُ نَزَلْ   نَنْعَىٰ ابنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الأَسَلْ
رُدُّوا عَـلَـيْـنَـا شَـيْـخَـنَـا ثـم بَـجَـلْ

وقد استبسلت بنو ضبة حول جمل السيدة عائشة رضي الله عنها فقاتلوهم، فقُتل يومئذٍ سبعون رجلاً، كلهم يأخذ بخطام الجمل، وحمل الأشتر فاعترضه عبد الله بن الزبير فاختلفا ضربتين، ضربه الأشتر فأمه وواثبه عبد الله فاعتنقه فخرّ به وجعل يقول:

اقتلوني ومالكاً، وكان الناس لا يعرفونه بمالك، ولو قال والأشتر وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء.

ورأى رجل من بني ضبة أنه لو لم يعقر الجمل سيقضي على قبيلته، ولن

يبقى لها أيُّ أثر، فجاء من الخلف وعقر الجمل فسقط الجمل، ثم أتى محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر إلى عائشة وقد عقر الجمل فقطعا غرضة الرحل، واحتملا الهودج فنحّياه، وأمر عليٌّ محمد بن أبي بكر فضرب عليها قبة، وقال: انظر هل وصل إليها شيء، فلما وضعاه أدخل محمد يده وقال: أخوكِ محمد، فقالت: مذمَّم، قال: يا أخية هل أصابك شيء؟ قالت: ما أنت من ذاك؟ قال: فمن إذاً الضلال؟ قالت: بل الهداة.

توديع عليٍّ عائشةَ وتشييعها بكل الإجلال والتوقير:

وانتهى إليها علي فقال: كيف أنت يا أُمَّهْ؟ قالت: بخير، قال: يغفر الله لك، قالت: ولك[١].

ولما كان من آخر الليل خرج محمد بن أبي بكر بعائشة حتى أدخلها البصرة فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث، وجهّز عليٌّ عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد وأخرج معها كل من نجى ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات.

وقال لأخيها: تجهّز يا محمد فبلّغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس فخرجت على الناس، وودّعوها وودّعتهم وقالت: يا بنيّ تعتب بعضنا على بعض استبطاءً واستزادة، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم، إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي ـ على معتبتي ـ لمن الأخيار. وقال علي: صدقت والله وبرّت ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيّكم ﷺ في الدنيا والآخرة، وشيّعها عليٌّ أميالاً وسرّح بنيه معها يوماً[٢]. وارتحلت رضي الله عنها قاصدة مكة، وأقامت فيها إلى الحج، ثم رجعت إلى المدينة المنورة بعد طول غياب.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٣/ ٥٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٦١.

تأسُّف عائشة رضي الله عنها على خطئها الاجتهادي:

وكانت تتأسف طول عمرها على ما صدر منها من الخطأ الاجتهادي في اختيارها المنهج الإصلاحي، وكانت تقول حين حضرتها الوفاة: يا ليتني لم أُخلق، يا ليتني كنت شجرة، أسبّح وأقضي ما عليّ. وكانت تقول: يا ليتني كنت شجرة، يا ليتني كنت مدرة، يا ليتني كنت حجراً(١).

روى الطبري في تاريخه أن كوفياً دخل على عائشة رضي الله عنها بالمدينة فقالت: من أنت؟ فقال: رجل من الأزد، أسكن الكوفة، قالت: أشهدتنا يوم الجمل؟ قال: نعم، قالت: ألنا أم علينا؟ قال: عليكم، قالت: أفتعرف الذي يقول: «يا أمنا يا خير أُمٍّ نعلم»؟ قال: نعم، ذاك ابن عمّي، فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت(٢). وقد أوصت رضي الله عنها أن لا تُدفن مع الرسول ﷺ، بل مع غيرها من أزواج النبي ﷺ، في البقيع، «عن عائشة رضي الله عنها أنها أوصت عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: لا تدفنّي معهم، وادفنّي مع صواحبي بالبقيع، لا أزكّى به أبداً»(٣).

وفي رواية «فإني أكره أن أُزَكّى»(٤) وفي رواية للحاكم «قالت عائشة وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها مع رسول الله ﷺ وأبي بكر، فقالت: إني أحدثتُ بعد رسول الله ﷺ حدثاً، ادفنوني مع أزواجه، فدُفنت بالبقيع»(٥). وكانت رضي الله عنها إذا قرأت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣١] بكت حتى تبلّ خمارها(٦).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٧٤ ـ ٧٣.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨ ـ ٤٧.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجنائز برقم ١٣٩١.

(٤) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة برقم ٧٣٢٧.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٧ برقم ٦٧١٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٨٠.

الرد على القول بالجفاء في علاقة علي بعائشة رضي الله عنها:

لقد زعم بعض المؤرخين من ذوي العصبيات السياسية والأفكار المريضة أن السبب الحقيقي لمشاركة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في معركة الجمل يرجع إلى حديث الإفك الذي سبق ذكره، وذلك أن علياً رضي الله عنه حينما استأمره النبي ﷺ في فراق أهله بعد أن استلبثَ الوحيَ عليه قال: «يا رسول الله لم يضيّق الله عليك»، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك[1] ولذا فإن عائشة رضي الله عنها لم تنس له تلك البادرة التي كادت تعصف بروحها عصفاً لولا لطف الله بنبيّه وبها، فأنزل عليه براءتها.

ولكن الواقع يرفض هذا التصور من كل الوجوه، ويكفينا لبيان بطلان هذه المزاعم ما سردناه من تفاصيل المعركة، وهذا ما دفعنا إلى ذكر سائر الرسائل التي كُتبت، والخُطب التي أُلقيت، ومن أمعن النظر فيها لا يجد أمراً يُوحي ويؤشّر إلى تعكير صفو العلاقة بين علي وعائشة رضي الله عنهما، بل كانت المعركة مصادفة، وكان الفريقان بريئين إلا الذين تعمدوا هذه الجريمة وأشعلوا نيران الفتن من الثائرين على عثمان رضي الله عنه.

وصحيح أن عائشة رضي الله عنها ردّت مزاعم السبئية القائلة بأن علياً وصي رسول الله ﷺ للخلافة، وكانت تقول: «متى أوصى إليه وقد كنت مُسْندتَه إلى صدري أو قالت حجري، فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري وما شعرت أنه قد مات، فمتى أوصى إليه»[2].

ولكن لا يدل ذلك على أنه نجم خلاف بينهما أو ساءت علاقتهما،

---

(١) يراجع حديث الإفك، صحيح البخاري كتاب الشهادات برقم ٢٦٦١ وكتاب المغازي برقم ٤١٤١.

(٢) صحيح البخاري كتاب الوصايا برقم ٢٧٤١، صحيح مسلم كتاب الوصية برقم ١٦٣٦، سنن النسائي كتاب الطهارة برقم ٣٣ وكتاب الوصايا برقم ٣٦٢٤، سنن ابن ماجه كتاب ما جاء في الجنائز برقم ١٦٢٦.

وإنما غاية ما فيه هو بيان تاريخي لواقعة لا أكثر ولا أقل.

وقد سألها عقبة بن صهبان الهنائي عن تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢] فقالت له: يا بنيّ كل هؤلاء في الجنة، فأما السابق إلى الخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن تبع وجاء من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم(١).

وأتى عمار ومعه الأشتر إلى عائشة رضي الله عنها يستأذن عليها، قال: يا أمه، فقالت: لست لك بأم، قال: بلى وإن كرهت، قالت: من هذا معك؟ قال: هذا الأشتر، قالت: أنت الذي أردت قتل ابن أختي؟ قال: قد أردت قتله وأراد قتلي، قالت: أما لو قتلته ما أفلحت أبداً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاثة: رجل قَتل فقُتل، أو رجل زنى بعد ما أحصن، أو رجل ارتد بعد إسلامه»، وفي رواية الطيالسي: «قالت لعمار: أما أنت يا عمار فقد علمت ما قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قَتل فيُقتل»(٢).

وفي هذا الحديث دليل صريح على أن عائشة رضي الله عنها لم يكن هدفها من وراء هذه الجنود والجيوش وإعداد العُدّة والعتاد هو سفك الدماء، والتقاتل ومحاربة الناس الأبرياء، وإنما وضعت نُصب عينيها منذ خرجت من مكة

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده ١/٢٠٩ برقم ١٤٨٩، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٦٢ برقم ٣٥٩٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٩٦، والطبراني في الأوسط ٦/١٦٧ برقم ٦٠٩٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٢٠٥ برقم ٢٥٧٤١، والطيالسي في مسنده ١/٢١٦ برقم ١٥٤٣، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٩٣ برقم ٨٠٣٩، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣/٩١٣ برقم ١٦٠٢.

العمل من إجل إصلاح الأمة والمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان وإيقاع العقوبة بهم، وقد أثيرت هذه الشبهة من قِبَل بعض بني أمية الذين استغلّوا قول علي رضي الله عنه: «يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير»، واستخدموه لغرضهم السيئ، بينما كان قصد علي رضي الله عنه من ذلك هو أنه ﷺ إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن تتحقق براءتها فيمكن مراجعتها، وهؤلاء لمّا لم يتمكنوا من الحصول على مستند قوي وبرهان قاطع للإساءة إلى علي ـ رضي الله عنه وأكرم وجهه ـ وتشويه شخصيته وسُمعته، أدخلوا هذه القصة في مثالبه، والسبب في ذلك أن الله تعالى وصف الذين تولَّوْا كِبْرَه منهم أنهم أصحاب النار.

ردّ الإمام الزهري على الوليد بن عبد الملك:

يقول الإمام الزهري: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقياً، فلما بلغ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾... حتى بلغ ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ جلس، ثم قال: يا أبا بكر من تولى كبره منهم؟ أليس عليَّ بن أبي طالب؟ قال: قلت في نفسي لقد عوّدني الله على الصدق، فقلت: أصلح الله الأمير ليس الأمر كذلك، أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول(١).

وفي رواية البخاري: عن الزهري قال: قال لي الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن علياً كان فيمن قذف عائشة، قلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك: أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أن عائشة قالت لهما: «كان عليٌّ مُسلّماً في شأنها» فراجعوه فلم يرجع(٢).

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧/٤٣٧، وانظر: تفسير القرطبي ١٢/١٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي برقم ٤١٤٢.

وكان النبيّ ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس في مرضه الذي مات فيه، ثم وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس والآخر علي رضي الله عنه، فعائشة لما كانت تحدِّث هذه الواقعة لا تذكر اسم علي وكانت تقول: فخرج النبي ﷺ بين رجلين، بين عباس ورجل آخر[1] واستَنتج من هذا الحديث بعض أهل الأهواء وأصحاب الظنون السيئة والأفكار الخاطئة أن عائشة رضي الله عنها لم تذكر علياً لأنها لم تطِبْ نفسها له بخير، مع أن الواقع أن العباس رضي الله عنه كان في جانب واحد أما الجانب الآخر فقد يكون هناك علي، ويمكن أسامة بن زيد، ومن أجل عدم تأكدها من الأمر لم تسمّ شخصاً وقالت: «رجل آخر».

كما يردّ على هذا الزعم الباطل ما أورده الإمام الطبري في تاريخه من كلام عائشة رضي الله عنها في علي وكلام علي في عائشة يُبديان فيه انطباع كل منهما نحو الآخر بسعة قلب ورحابة صدر وأن علاقته معها كانت قائمة على المودة والاحترام المتبادلين بينهما.

تقول عائشة رضي الله عنها: «إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي ـ على معتبتي ـ لَمِنَ الأخيار، فقال علي: صدقتْ والله وبرّت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لَزوجةُ نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة[2]».

كما يدلّ على ذلك أنها لما سُئلت أي الناس كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: «فاطمة، فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمتُ صوّاماً قوّاماً»[3]. كما أن معرفتنا بكون علي من أهل البيت مستندها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان برقم ٦٦٥ و٦٨٧، وكتاب الهبة برقم ٢٥٨٨، ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٤١٨، والدارمي في سننه كتاب الصلاة برقم ١٢٥٧.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣/٦١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٧٤ وقال: هذا حديث حسن غريب، =

عائشة رضي الله عنها نفسها، وإن أهل السنة والجماعة لم يعرفوا ذلك إلا عن طريق عائشة[1].

عائشة رضي الله عنها ترشد المستفتين إلى علي رضي الله عنه:

وقد حدث مرات أن المستفتي جاء عائشة رضي الله عنها يستفتيها في مسألة من أمور الدين فأرشدته أن يذهب إلى علي رضي الله عنه[2]، كما أنها كانت تقربه لمّا يقدم من السفر[3]، ولما قُتل علي رضي الله عنه شهيداً بيد الخوارج في الكوفة، حكى لها الناس قصته، فجاء عبد الله بن شدّاد فسألته: يا عبد الله بن شدّاد هل أنت صادقي عما أسألك عنه؟ حدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي، فقال: وما لي لا أصدقك، قالت: فحدثني عن قصتهم، فحكى لها عبد الله كلَّ التفاصيل، من مصالحة معاوية وعلي وتحكيمه، ثم مخالفة الخوارج، وإفهام علي لهم، وعدم إطاعتهم لعلي وكل الموضوعات التي صارت، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها كل ذلك قالت: أجل صدق الله ورسوله، يرحم الله علياً رضي الله عنه، إنه

= وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٧١برقم ٤٧٤٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) وذلك في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي، فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «إنما يُريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً». (أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٢٤).

(٢) مثاله ما أخرجه الإمام أحمد عن شريح بن هانئ قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن المسح على الخفين، فقالت: «سل علياً، فإنه أعلم بهذا مني».
انظر: مسند الإمام أحمد ١/ ٩٦ برقم ٧٤٨ وكذلك ٦/ ١٥٥ برقم ٢٥٢٥٩.

(٣) أخرج الإمام أحمد عن يزيد بن أبي يزيد الأنصاري عن امرأته أنها سألت عائشة عن لحوم الأضاحي، فقالت عائشة: قدم علينا علي من سفر فقدّمنا إليه منه فقال: لا آكله حتى أسأل عنه رسول الله ﷺ، قالت: فسأله، فقال رسول الله ﷺ: «كلوه من ذي الحجة إلى ذي الحجة» ٦/ ١٥٥ برقم ٢٥٢٥٩.

كان من كلامه لا يرى شيئاً يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث[1].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٨٧ ـ ٨٦ برقم ٦٥٦، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٦٥ برقم ٢٦٥٧، والمقدسي في الأحاديث المختارة ٢/ ٢٢٣ برقم ٦٠٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٨٠.

الفصل التاسع

أم المؤمنين في عهد معاوية رضي الله عنهما

كانت مدة خلافة علي رضي الله عنه أربع سنين فقط، ثم أقبل معاوية وتولى سلطة الحكم، وحكم البلاد الإسلامية لمدة طويلة امتدت إلى عشرين سنة متوالية، وقد توفيت عائشة رضي الله عنها قبل انتهاء زمن حكمه بسنتين، وأمضت ثماني عشرة سنة من عمرها في عهد معاوية رضي الله عنهما، بكل هدوء وسكوت تام، إلا في بعض الأحوال.

وذات مرة أقبل معاوية ودخل على عائشة رضي الله عنها فقالت له: أما خفت أن أُقعد لك رجلاً فيقتلك؟ فقال: ما كنت لتفعلين وأنا في بيت أمان، وقد سمعت النبي ﷺ يقول: يعني الإيمان قد الفتك، كيف أنا في الذي بيني وبينك؟ وفي حوائجك؟ قالت: صالح، قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا عز وجل[1].

كان حجر بن عدي رضي الله عنه من أصحاب علي رضي الله عنه ورئيس الفرقة العلوية في الكوفة. وأعظم القضايا التي اشتد فيها إنكار عائشة رضي الله عنها على معاوية، هي قضية قتل حجر بن عدي وأصحابه، وقد أرسل والي الكوفة سائر أفراد هذه الفرقة إلى دمشق وكان منهم حجر، وهو من قبيلة كندة اليمنية، ورغم وجود هذه الفرقة في الكوفة لم ينهض أحد منهم لمساعدة حجر ومؤازرته وإنقاذه من أيدي الأعداء، وكان رضي الله عنه يوقره العلماء والصلحاء ويجلّونه ويحترمونه، فشق عليهم ذلك، وسمعت عائشة فبعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حجر وأصحابه فقدم عليه، وقد قتلهم، وقالت: لولا أنّا لم نغير شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشدّ مما كنّا فيه لغيّرنا قتل حجر، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حَجّاجاً معتمراً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٩٢.

ولما حجّ معاوية مر على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له، فلما قعد قالت له: أأمنت أن أخبئ لك من يقتلك؟ قال: بيتَ الأمن دخلتُ، قالت: يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟ قال: لست أنا قتلتهم، إنما قتلهم من شهد عليهم[(١)].

وفي رواية أخرى: قالت: يا معاوية أين كان حلمك عن حجر؟ فقال لها: يا أم المؤمنين لم يحضرني رشيد[(٢)].

وروى مسروق التابعي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أما والله لو علم معاوية أن عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أن يأخذ حجراً وأصحابه من بينهم حتى يقتلهم بالشام. ولكن ابن آكلة الأكباد علم أنه قد ذهب الناس، أما والله إن كانوا لجمجمة العرب عزاً ومنعة وفقهاً، ولله در لبيد حيث قال:

ذَهَبَ الّذِيْنَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِم ... وَبَقِيْتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ
يتأكّلون مغالةً وملاذةً ... وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ[(٣)]

رأي عائشة في الخوارج:

كان أهل العراق ومصر يسبّون عثمان رضي الله عنه، وأهل الشام كانوا يسبّون علياً، أما الخوارج فيسبّونهما، فلما أُخبرت عائشة رضي الله عنها بذلك قالت: «أُمروا أن يستغفروا لأصحاب النبيّ ﷺ فسبّوهم»[(٤)].

قال الإمام النووي: قولها «أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبّوهم» الظاهر أنها قالت هذا عندما سمعت أهل مصر يقولون في عثمان ما قالوا، وأهل الشام في علي ما قالوا، والحَرورية في الجميع ما قالوا[(٥)]. وكانت الخوارج لما اعتزلوا علياً رضي الله عنه نزلوا في موضع «حروراء» وتعاقدوا عندها على قتال أهل

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣/ ٢٣٢ والسيرة الحلبية ٣/ ١٦٣.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٠.
(٣) انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ ١/ ٣٣٢، انظر ديوان لبيد ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب التفسير برقم ٣٠٢٢.
(٥) شرح النووي لصحيح الإمام مسلم ١٨/ ١٥٧ ط: دار إحياء التراث العربي بيروت.

العدل، فسُمّوا حرورية، (وحروراء بفتح الحاء والمدّ قرية بالعراق).

جاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها وقالت: أتقضي إحدانا صلاتها أيام محيضها؟ فقالت: «أحرورية أنت»[1]؟ فدل على أنها كانت تكره هذه الطائفة.

كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة أم المؤمنين يستنصحها: اكتبي إليّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: «سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا النَّاس بسخط الله وكّله الله إلى الناس، والسلام عليك»[2]. إن هذه الكلمات الجامعة من عائشة رضي الله عنها هي بمثابة تعليق موجز منها على حياة معاوية رضي الله عنه.

كان مروان قد استعمله معاوية على الحجاز، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا؛ فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾، فقالت عائشة من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عُذري»[3]، وهذا يُوحي بأن عائشة رضي الله عنها لم تكن راضية بتولية يزيد بن معاوية.

واقعة دَفْن الحسن بن علي ريحانة رسول الله ﷺ:

توفي الحسن بن علي رضي الله عنهما بالمدينة عام ٤٩هـ في إمارة معاوية رضي الله عنه.

وقد كان عهد إلى أخيه الحسين رضي الله عنه أن يُدفن مع الرسول ﷺ في الموضع الخالي جنب قبر النبي ﷺ، وإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شر فليدفن بالبقيع، فأبى مروان أن يدعه، وكان معزولاً يومئذٍ ويريد أن يُرضي معاوية، ولم يزل عدواً لبني هاشم، فلبس الحسين السلاح ومعه بنو هاشم،

(١) صحيح البخاري كتاب الحيض برقم ٣٢١، وصحيح الإمام مسلم كتاب الحيض برقم ٣٣٥ واللفظ له.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه كتاب الزهد برقم ٢٤١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن برقم ٤٨٢٧.

وتسلّح بنو أمية بقيادة مروان وقالوا: لا ندعه يدفن مع رسول الله ﷺ، وكادت الفتنة تقع بين الحسين بن علي ومروان بن الحكم، فخرج أبو هريرة رضي الله عنه، وأشار على الحسين أن لا يقاتل، فامتثل، وذكّره عهد الحسن حيث إنه أوصى إذا خيفت الفتنة والشر فادفنوني مع أمّي، وفي النهاية دفنوه بالبقيع قريباً من قبر أمه رضي الله عنها.

موقف عائشة رضي الله عنها:

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ماذا كان موقف عائشة رضي الله عنها من هذه الواقعة؟ ذكر بعض المؤرخين من الشيعة أن عائشة رضي الله عنها خرجت بنفسها على بغلة بيضاء ومعها بعض الجنود، تمنع جنازة الحسن من الدفن في بيتها قرب قبر النبي ﷺ، إذ أقبل أخوها فلما واجهها قال: ما زالت وصمة العار التي خلّفتها معركة الجمل باقية على جبين أسرتنا، وأنتِ تريدين أن تخوضي معركة أخرى؟ فرجعت عائشة رضي الله عنها.

هذه الرواية موجودة في نسخة مترجمة إلى اللغة الفارسية من تاريخ الطبري، المطبوعة في الهند، وأما النسخة العربية وهي الأصل فلا توجد فيها هذه الرواية، والواقع أن هذه الترجمة الفارسية لتاريخ الطبري مليئة بالإضافات والزيادات، والحذوفات التي لا توجد في النسخة العربية، وقد صرّح بذلك المترجم نفسه في المقدّمة، إلا أن اليعقوبي (المؤرخ الشيعي من القرن الثالث الهجري) قد نقل هذه القصة دون أن يسوق لها إسناداً، وذكرها بكلمة «قيل» كما أنه لم يذكر القتال أو رمي السهام، وذكر أبو الفداء أنه لما تنازعت بنو أمية وبنو هاشم، وتسبب ذلك في القتال بينهما بلّغتهم عائشة رضي الله عنها: «أن هذه الدار ملكي ولا آذن لأحد أن يدفن فيها» إلا أن هذه الرواية كذلك غير صحيحة، وإنما الصحيح من ذلك ما صرّح به ابن الأثير وغيره من المؤرخين الثقات، قال الإمام ابن الأثير في (الكامل): ووصّى أن يدفن عند النبي ﷺ إلا أن تُخاف فتنة، فيُنقل إلى مقابر المسلمين، فاستأذن الحسين عائشة فأذنت له، فلما توفّي أرادوا دفنه عند النبي ﷺ، فلم يعرض لهم سعيد بن العاص،

وهو الأمير، فقام مروان بن الحكم، وجمع بني أميّة وشيعتهم ومنع عن ذلك، فأراد الحسين الامتناع، فقيل له: إن أخاك قال: إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين، وهذه فتنة فسكت، وصلى عليه سعيد بن العاص، فقال له الحسين: لولا أنه سنة لما تركتك تصلّي عليه[1].

وقد روى كل من الإمام ابن عبد البّر وابن الأثير في (أسد الغابة) والسيوطي في (تاريخ الخلفاء)، بعبارة واحدة ونصها:

«قد كنت طلبت إلى عائشة إذا متّ أن تأذن لي فأدفن في بيتها مع رسول الله ﷺ، فقالت: نعم، وإني لا أدري لعل ذلك كان منها حياءً، فإذا أنا متُّ، فاطلب ذلك إليها، فإن طابت نفسها فادفنّي في بيتها، وما أظن إلا القوم سيمنعونك إذا أردت ذلك، فإن فعلوا فلا تراجعهم في ذلك، وادفنّي في بقيع الغرقد، فإن فيمن فيه أسوة، فلما مات الحسن أتى الحسين عائشة فطلب ذلك إليها فقالت: نعم وكرامة، فبلغ ذلك مروان، فقال مروان: كذب وكذبت، والله لا يدفن هناك أبداً، منعوا عثمان من دفنه في المقبرة ويريدون دفن الحسن في بيت عائشة[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٦٠ للإمام ابن الأثير، ط: دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ.

(٢) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر ١/ ٣٩٢، وتاريخ الخلفاء للإمام السيوطي ١/ ١٧٠ باب ذكر وفاة الحسن رضي الله عنه، وأسد الغابة لابن الأثير ٢/ ١٥.

الفصل العاشر

وفاة عائشة رضي الله عنها

إن نهاية إمارة معاوية رضي الله عنه كانت آخر أيام حياة عائشة رضي الله عنها. وكانت قد بلغت من العمر سبعاً وستين سنة، ومرضت في شهر رمضان المبارك سنة ثمان وخمسين من الهجرة، فإذا سُئلت: كيف أصبحت؟ قالت: صالحة الحمد لله[١]، وكل من يعودها يبشرها فتردّ عليه قائلة: يا ليتني كنت حجراً، يا ليتني كنت مدرة.

واستأذن عليها ابن عباس رضي الله عنهما في مرضها فأبت أن تأذن له، فقال لها بنو أخيها: ائذني له، فإنه من خير ولدك، قالت: دعوني من تزكيته، فلم يزالوا بها حتى أذنت له، فلما دخل عليها قال: إنما سُمِّيتِ أم المؤمنين لتسعدي، وإنه لاسمك قبل أن تولدي، إنك كنت من أحب أزواج النبي ﷺ إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيِّباً، وما بينكِ وبين أن تلقَيْ الأحبة إلا أن تفارق الروحُ الجسد، ولقد سقطت قلادتك ليلة الأبواء، فجعل الله للمسلمين خيرة في ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى آية التيّمم، ونزلت فيك آيات من القرآن، فليس مسجد من مساجد المسلمين إلا يُتلى فيه عُذرك آناء الليل وآناء النهار، فقالت: دعني من تزكيتك لي يا ابن عباس، فوددت أني كنت نسياً منسياً[٢].

وقالت عند وفاتها: «لا تدفُنِّي معهم وادفني مع صواحبي بالبقيع، لا

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٧٥.

(٢) أخرج الجزء الأول من الحديث الإمام البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٧٧١ وكذلك في كتاب تفسير القرآن من سورة النور.

وقد أخرجه كاملاً الحاكم في المستدرك ٤/ ٩ برقم ٦٧٢٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٢٠ برقم ١٩٠٥.

أزكّى به أبداً»[١]، وفي رواية ابن سعد: «إني قد أحدثت بعد رسول الله ﷺ، فادفنوني مع أزواج النبي ﷺ»[٢] كما أمرت أن تُدفن من ليلتها.

وأخرج الإمام محمد في (الموطأ) قيل لعائشة رضي الله عنها: لو دُفنت معهم؟ قال: قالت: «إني إذاً لأنا المبتدأة بعملي»[٣].

توفيت رضي الله عنها سنة ثمان وخمسين، ليلة سبع عشرة من شهر رمضان بعد الوتر، الموافق يونيو عام ٦٧٨م، فاجتمع الناس وحضروا فلم تُر ليلة أكثر ناساً منها.

عن عثمان بن أبي عتيق عن أبيه قال: «رأيت ليلة ماتت عائشة ورأيت النساء بالبقيع كأنه عيد»[٤] وسمعت أم سلمة رضي الله عنها الصرخة فقالت لجارية: اذهبي فانظري، فقالت: وجبت، فقالت أم سلمة: والذي نفسي بيده لقد كانت أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها[٥]، وفي رواية الطيالسي: سمعت أم سلمة الصرخة على عائشة فأرسلت جاريتها: انظري ماذا صنعت؟ فجاءت فقالت: قد قضت، فقالت: يرحمها الله، والذي نفسي بيده لقد كانت أحب الناس كلهم إلى رسول الله ﷺ إلا أباها[٦]. وكان أبو هريرة رضي الله عنه والي المدينة بالنيابة فصلى على عائشة رضي الله عنها، ونزّلها في القبر كل من القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عتيق، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن الزبير، ودُفنت بالبقيع[٧]، وقامت القيامة في المدينة المنورة لأفول شمعة من شموع المدينة. يقول

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز برقم ١٣٩١ وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة برقم ٧٣٢٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٧ برقم ٦٧١٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٧٤.

(٣) موطأ الإمام محمد برقم ٩٧٣ باب النوادر ص٣١١.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٧٧.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٥ برقم ٦٧٤٦.

(٦) أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ ٢٢٤.

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٧٧.

مسروق (التابعي الجليل): لولا بعض الأمر لأقمت المناحة على أم المؤمنين[١].

سُئل رجل من أهل المدينة كيف كان وَجْدُ الناس على عائشة؟ فقال: كان فيهم وكان، قال: أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه[٢].

وقد تركت عائشة رضي الله عنها مما تركت غابة، فورثتها أختها أسماء رضي الله عنها ثم اشتراها منها معاوية رضي الله عنه بمئة ألف درهم، فوزّعتها أسماء في القاسم بن محمد وابن أبي عتيق[٣].

كنية عائشة رضي الله عنها:

لم تحمل عائشة رضي الله عنها قط ولم تلد ولداً، ومع ذلك لم يكن أصابها حزن أو تأسف على ذلك، ولا هي اشتكت طول حياتها، وكان من عادة أشراف العرب أنهم كانوا يكتنون بأسماء أولادهم، فلا يناديهم أحد بأسمائهم الأصلية، بل كانوا يخاطبون بكناهم، فقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: كل صواحبي لهن كنى، قال: «فاكتني بابنك عبد الله، يعني ابن أختها، فكانت تكنى بأم عبد الله»[٤] وقد أشكلت هذه الكنية على ابن الأعرابي، فروى أنها أسقطت ولداً سماه النبي ﷺ عبد الله، فكانت لهذا تكنى بأم عبد الله[٥] ولكن هذه الرواية واهية، في غاية الضعف سنداً، والصحيح الثابت الذي نصت عليه الأحاديث أنها لم تلد[٦].

والمراد بعبد الله هو ابن أختها عبد الله بن الزبير أول مولود في الإسلام

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٧٨.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٧٨.
(٣) صحيح البخاري ترجمة الباب.
(٤) سنن أبي داود كتاب الأدب برقم ٤٩٧٠.
(٥) شرح الزرقاني على المواهب ٣/٢٦٩.
(٦) أخرج الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله كل نسائك لها كنية غيري، فقال لها رسول الله ﷺ اكتني أنت أم عبد الله، فكان يقال لها أم عبد الله حتى ماتت ولم تلد قط. (٦/١٥٦ برقم ٢٥٢٢٢).

بعد الهجرة، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم فلا يولد لهم ولد ذكر، فكبّر أصحاب رسول الله ﷺ حين وُلد عبد الله، ولما ولد أخذه الرسول ﷺ فوضعه في حجره وأتى بتمرة فمصها ثم مضغها ثم وضعها في فيه فحنّكه بها، فكان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ[1]، وقد تبنته عائشة رضي الله عنها، وكانت تحبه حباً شديداً، وهو كذلك يحبّها أكثر من أمّه، كما أن عائشة رضي الله عنها كانت تربي أيتاماً آخرين في حضنها وتحت رعايتها، روى عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أنه قال: كانت عائشة تليني وأخاً لي يتيمين في حجرها، فكانت تخرج من أموالنا الزكاة[2]. وقصة تربيتها لبنت أنصارية وتزويجها مذكورة في الأحاديث، تقول رضي الله عنها: كانت في حجري جارية من الأنصار فزوجتها، قالت: فدخل علي رسول الله ﷺ يوم عرسها فلم يسمع لعباً فقال: «يا عائشة إن هذا الحي من الأنصار يحبّون كذا وكذا»[3].

وإليك قائمة بأسماء أولئك العباقرة الذين تخرجوا من مدرسة أم المؤمنين، ربّتهم في حجرها وعلمتهم فصنع الله منهم على يدها حفظة الإسلام ونَقَلته إلى الأجيال اللاحقة، وهؤلاء هم مسروق بن الأجدع، عمرة بنت عائشة بنت طلحة، عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عروة بن الزبير، القاسم بن محمد وأخوه عبد الله بن يزيد[4]، كما أنها هي التي ربّت بنات محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزوّجتهنّ[5].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٣٢ برقم ٦٣٣٠.
(٢) موطأ الإمام مالك ١/ ٢٥١ برقم ٥٨٩.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٦٩ برقم ٢٦٣٥٦ وابن حبان في صحيحه ١٣/ ١٨٥ برقم ٥٨٧٥، وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ١/ ٤٩٤ برقم ٢٠١٦ والطبراني في الأوسط ٥/ ٣٥٢ برقم ٥٥٢٧.
(٤) انظر: موطأ الإمام مالك باب زكاة أموال اليتامى ١/ ٢٥١ ومسند الإمام أحمد ٦/ ٣٢ برقم ٢٤٠٨٤.
(٥) موطأ الإمام مالك باب ما لا زكاة فيه من الحلي ١/ ٢٥٠ برقم ٥٨٦.

الباب الثاني

عائشة رضي الله عنها

شمائلها ومناقبها ومكانتها العلمية

* الفصل الأول: شمائلها رضي الله عنها
* الفصل الثاني: مناقبها رضي الله عنها
* الفصل الثالث: مكانتها العلمية رضي الله عنها
  * البحث الأول: علمها بالقرآن الكريم
  * البحث الثاني: علمها بالحديث الشريف
  * البحث الثالث: علمها بالفقه والقياس وأصولها في الاجتهاد
  * البحث الرابع: علمها بالتوحيد أو العقيدة
  * البحث الخامس: علمها بأسرار الدين
  * البحث السادس: معرفتها بالطب والتاريخ والخطابة والشعر
* الفصل الرابع: دور عائشة في التعليم والإفتاء والإرشاد
* الفصل الخامس: فضل عائشة ومِنَنها على نساء العالمين

الفَصْلُ الأَوَّلُ

شمائلها رضي الله عنها

هيئتها ولباسها:

كانت عائشة رضي الله عنها من أولئك السيدات التي تنمو وترعرع بسرعة هائلة من حيث النمو الجسمي، فكانت لما بلغت التاسعة أو العاشرة من عمرها سمنت كأحسن سمنة[١]، أما في باكورة عمرها فكانت نحيفة الجسم خفيفة لم يغشها اللحم[٢]، ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة، ولما كبرت بدنت ورهقها اللحم[٣]، وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أن لونها كان أبيض يميل إلى الحمرة[٤]، كانت وضيئة بهية المنظر رائعة الجمال[٥]، وكانت على أقصى غاية من الزهد والقناعة، لم تكن تملك إلا ثوباً واحداً، فإذا أصابه شيء تغسله ثم تلبسه[٦]. وكان عندها قميص ثمين غالٍ ثمنه خمسة دراهم، وكانت النساء

---

(١) لأنها زفت إلى الرسول ﷺ، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، وقد سبق أن ذكرناها بالتفصيل.

(٢) يراجع: حديث الإفك في صحيح البخاري ومسلم، وسنن أبي داود باب السبق، صحيح البخاري رقم ٤١٤١، صحيح الإمام مسلم كتاب التوبة برقم ٢٧٧٠، سنن أبي داود كتاب الجهاد برقم ٢٥٧٨.

(٣) سنن أبي داود باب السبق برقم ٢٥٧٨.

(٤) والدليل على كونها بيضاء ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، قال ﷺ: إني رأيت بياض كف عائشة في الجنة (١٣٨/٦ برقم ٢٥١٢٠).

(٥) يدل عليه قول أم رومان «يا بنيّة هوّني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها» (صحيح البخاري برقم ٤١٤١)، وكذلك قول عمر رضي الله عنه لحفصة: «يا بنيّة لا يغرنكِ هذه التي أعجبها حُسنها» يقصد عائشة، (صحيح البخاري برقم ٥٢١٨) وقوله: «أن كانت جارتك أوضأ منك» (صحيح البخاري برقم ٥١٩١).

(٦) تقول عائشة رضي الله عنها: «ما كان لإحدانا إلا ثوب واحد، تحيض فيه، فإذا أصابه شيء من دم قالت بريقها، فقصعته بظفرها» (صحيح البخاري كتاب الحيض برقم ٣١٢ وسنن=

تستعيره منها لِيُلبِسْنَه عرائسهن ليلة زفافهن[١]، كما أنها كانت تلبس ثوباً مصبوغاً بزعفران في بعض الأحيان[٢]. وكانت تتزين بالحُليّ والمجوهرات، وكانت في عنقها قلادة من جزع أظفار[٣]، وتلبس الخاتم من الذهب[٤].

خُلقها رضي الله عنها:

مما لا شك فيه أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نالت شرف صحبة المصطفى ﷺ منذ نعومة أظفارها إلى مرحلة الشباب، وقضت هذه الفترة الطويلة تحت ظلال وفي رعاية ذلك النبي المقدّس الذي بعثه فاطر السماوات والأرض في هذا الكون ليكمّل مكارم الأخلاق، وقد وصفه قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فأوصلتها هذه التربية العظيمة والصحبة الكريمة إلى أوج الخلق الحسن، والمكانة العالية الرفيعة التي تعتبر قمة الترقية الروحانية ونهاية مطاف العلوّ المعنوي للإنسانية الحائرة.

ولذا كانت عائشة رضي الله عنها قد احتلت مكانة سامية مرموقة في الأخلاق الحسنة النبيلة الرفيعة، وكان الزهد والورع والعبادة والسخاء والجود والشفقة على الناس من أهم وأكبر معالم شخصيتها رضي الله عنها.

المرأة والقناعة صفتان متضادتان ومفهومان متغايران، وقد صدق الصادق المصدوق ﷺ: «إني أُريتكن أكثر أهل النار»، فقلن: بم يا رسول الله؟ قال:

= أبي داود كتاب الطهارة برقم ٣٥٨.

(١) تقول عائشة رضي الله عنها: كان لي منهن درع على عهد رسول الله ﷺ فما كانت امرأة تقيّن - تزيَّنُ لزفافها - بالمدينة إلا أرسلت إليّ تستعير» (البخاري كتاب الهبة باب الاستعارة للعروس برقم ٢٦٢٨).

(٢) قال البخاري في ترجمة الباب من صحيحه: ولبست عائشة رضي الله عنها الثياب المعصفرة وهي مُحرمة. (باب ما يلبس المحرم من الثياب).

(٣) انظر: حديث التيمم وواقعة الإفك، ص١٢٦.

(٤) قال البخاري: باب الخاتم للنساء، وكان على عائشة خواتيم ذهب (كتاب اللباس من صحيح البخاري).

«تكثرن اللعن وتكفرن العشير»[1] ولكن عبقرية عائشة ﵂ جمعت بين هذين الوصفين بأتم وجه وأكمل صورة، وقد مرّ بنا سابقاً أنها عاشت حياتها في كنف النبي ﷺ، وثبتت على شظف العيش وعسره وقسوته، ولم يُسمَعْ على لسانها كلمة شكوى قط، ورغم أنها كانت تشاهد ما يرد بيت المال من الخزائن والأموال والخيرات بالكثرة الكاثرة لكنها لم تتقدم قط بأي طلب لزيادة نفقة ولم يخطر على بالها، وعاشت حياتها حياة زهد وقناعة، لم تتيسر لها الملابس القيمة والمجوهرات الثمينة الغالية، والقصور الفاخرة الفخمة والنعم اللذيذة، والعيش الرغيد الهنيء.

يقول مسروق: دخلت على عائشة بعد وفاة النبي ﷺ فدعت لي بطعام وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قال: قلت: لِمَ؟ قالت: «أذكر الحال التي فارق عليها الرسول ﷺ الدنيا، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم»[2]. كانت ﵂ محرومة من نعمة الأولاد، فكانت تربّي أولاد المسلمين واليتامى منهم، تلي أمورهم وترعاهم وتعلّمهم وتقوم بواجب زواجهم.

مساعدة النساء:

كانت ﵂ حرم بيت النبوة وزوجة أعظم وأرفع رجل ﷺ، فكان لديها شعور كامل بعِظم هذه المسؤولية، ولذا فإنها تهتم كل اهتمام بأداء هذه المسؤولية والقيام بها خير قيام، وكلّما تأتيها امرأة لحاجة تمدّ إليها يد العون والمساعدة، وتقضي حاجتها، وتعرض قضاياها على الحبيب المصطفى ﷺ[3].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحيض برقم ٣٠٤ وكتاب الزكاة برقم ١٤٦٢ وصحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان برقم ٨٠ وكتاب صلاة العيدين برقم ٨٨٥، سنن ابن ماجه كتاب الفتن برقم ٤٠٠٣.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه كتاب الزهد برقم ٢٣٥٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر الأدلة عليه في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٢٢٦ برقم ٢٥٩٣٤ و٢٥٩٣٥.

طاعة الزوج:

كانت ﵂ تصرف كل جهودها صباح مساء في طاعة الرسول ﷺ وتنفيذ أوامره ونواهيه، والبحث عن رغباته ومرضاته[١]، ولو شعرت من وجهه ﷺ بسمة الحزن وعلامة القلق والكراهية تضطرب له ويشقّ عليها ذلك. كما أنها كانت تراعي أقارب رسول الله ﷺ ولا ترد لهم طلبهم، وذات مرة قالت: عليّ نذر إن كلّمت عبد الله بن الزبير، فاستشفع إليها ابن الزبير برجال من قريش وبأخوال رسول الله ﷺ خاصة، فامتنعت[٢] وكانت توقر أصدقاء النبي ﷺ وأصحابه وتحترمهم ولا ترفض طلباتهم[٣].

الاحتراز من الغيبة:

وكان من شيمتها أنها لم تكن تغتاب أحداً، وقد بلغ عدد مروياتها الآلاف لكننا لم نحصل في هذه الذخيرة الكبيرة حرفاً واحداً قصدت به إهانة شخص أو إساءة إلى أحد، إن التقاول على الضرائر، وشدّة الكلام بينهن من خصائص النساء وطبيعتهن الأنثوية، لكن مرّ بنا كيف كانت عائشة ﵂ تحدث بمناقب ضرائرها برحابة الصدر وسعة القلب وتذكرهن، بأوصاف حميدة، وهذا حسان بن ثابت ﵁ الذي انصدمت منه عائشة صدمة عنيفة في حادث الإفك كان يستأذن عليها فتأذن له بكل رضا، ومرة دخل عليها حسان بن ثابت يُنشدها شعراً يشبّب بأبيات له وقال:

«حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ … وتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ»

فتذكرت ﵂ حادثة الإفك فقالت: «لكنك لست كذلك»[٤].

---

(١) من الأدلة عليه ما أخرجه أحمد: سألت امرأة عائشة ﵂: ما تقولين يا أم المؤمنين في الحناء؟ فقالت: كان حبيبي ﷺ يعجبه لونه ويكره ريحه... ١١٧/٦ برقم ٢٤٩٠٥ وانظر كذلك ٥٨/٤ و١٣٨/٦ برقم ٢٥١٢٢.

(٢) في صحيح البخاري ذهب عبد الله بن الزبير مع أناس من بني زهرة إلى عائشة وكانت أرق شيء عليهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ، كتاب المناقب برقم ٣٥٠٣.

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة رقم ٧٣٢٨.

(٤) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤١٤٦، كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٥٥/٤٧٥٨، =

وعن عروة قال: ذهبت أسبّ حسّان عند عائشة رضي الله عنها فقالت: لا تسبّه فإنه كان ينافح عن النبي ﷺ[1]. وذات مرة ذُكر رجل عند عائشة فلعنته أو سبته، فقيل لها: إنه قد مات، فقالت: أستغفر الله له، فقيل لها: يا أم المؤمنين لعنته ثم استغفرت له؟ فقالت: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تذكروا موتاكم إلا بالخير»[2].

التورّع عن قبول الهدايا:

قلّما كانت تقبل هدايا الآخرين، وإن قبلتها فتكافئ عليها في أقرب وقت، وقد قدم درج إلى عمر رضي الله عنه من العراق وفيه جوهر، فقال لأصحابه: تدرون ما ثمنه؟ قالوا: لا، ولم يدروا كيف يقسمونه، فقال: تأذنون أن أبعث به إلى عائشة لحب رسول الله ﷺ إياها؟ فقالوا: نعم، فبعث به إليها، ففتحته فقالت: ماذا فتح عليّ ابن الخطاب بعد رسول الله ﷺ؟ اللهم لا تبقني لعطيته لقابل[3].

تقول عائشة بنت طلحة: كان الناس يأتونها من كل مصر، فكان الشيوخ ينتابوني لمكاني منها، وكان الشباب يتآخوني فيهدون إليّ ويكتبون إليّ من الأمصار، فأقول لعائشة: يا خالة هذا كتاب فلان وهديته، فتقول لي عائشة: أي بنية فأجيبيه وأثيبيه، فإن لم يكن عندك ثوب أعطيتك، فقالت: فتعطيني[4].

وقد بعث إليها عبد الله بن عامر بنفقة وكسوة فقالت للرسول: أي بنيّ لا أقبل من أحد شيئاً، فلما خرج قالت: ردّوه عليّ، فردوه، قالت: إني ذكرت

= وصحيح الإمام مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٨.

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٥٣١.

(٢) مسند الطيالسي ١/ ٢٠٩ برقم ١٤٩٤.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٩ برقم ٦٧٢٥، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إذا صح سماع ذكوان أبي عمرو، ولم يخرجاه، كما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٩٠، وقال: هذا مرسل، والإمام أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة ٢/ ٨٧٥ برقم ١٦٤٢.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٨٢ برقم ١١١٨، ونقله عنه العلامة شمس الحق العظيم آبادي في عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠/ ٢٦٨.

شيئاً، قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة من أعطاك عطاءً بغير مسألة فاقبليه فإنما هو رزق عرضه الله لك»(١).

تجنب المدح والإطراء:

كانت رضي الله عنها تكره الثناء عليها بنفسها، كما لا تحب أن يثني عليها أحد عند حضورها، وقد استأذن عليها ابن عباس رضي الله عنهما في مرضها الذي ماتت فيه، لكنها عرفت أنه يأتي يمدحها ويثني عليها فرفضت أن تأذن له، ثم أذنت له بعدما شفع فيه بعض الناس، فلما دخل عليها ابن عباس بدأ يثني عليها فقالت: «وددت أني كنت نسياً منسياً»(٢).

الإباء والأنفة:

ومع هذا التواضع وانكسار النفس فإنها كانت أبيّة النفس، وقد تشتد فيها هذه الصفة بإزاء الآخرين، وتتحول إلى تدلل الحبيب إلى حبيبه عند النبي ﷺ ولنذكر هنا موقفها رضي الله عنها في حادث الإفك لما نزلت براءتها من فوق سبع سماوات كان أول كلمة تكلم بها النبي ﷺ: يا عائشة أما الله عز وجل فقد برّأك، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قالت لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل الذي أكرمني بإنزال براءتي(٣).

وكذلك نذكر موقفها الأبيّ من النبي ﷺ حينما تغضب عليه فلا تحلف ب

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٧٧ برقم ٢٤٥٢٤ و٦/ ٢٥٩ برقم ٢٦٢٧٦، كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٠٠ وقال: رجاله ثقات، إلا أن المطلب بن عبد الله مدلّس، واختلف في سماعه من عائشة، كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٨٤ برقم ١١٨٢٣ وفي شعب الإيمان ٣/ ٢٨٢ برقم ٣٥٥٥، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٣٩ برقم ١٢٥٠.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) يراجع حديث الإفك، ص١٢٦.

«ورب محمد» وإنما كانت تحلف فتقول: «لا وربّ إبراهيم»[1] كل ذلك من أنواع وطرق التدلل للحبيب، ينبغي أن ينظر إليه بنظرة العلاقة الزوجية.

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يخدم عائشة رضي الله عنها ومن أحب البشر إليها وأبرّ الناس بها، وكان من عادتها رضي الله عنها أنها لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله إلا تصدقت به، فقال لها ابن الزبير: ينبغي أن يؤخذ على يديها، فقالت: أيؤخذ على يدي؟ عليّ نذر إن كلمته، فاستشفع إليها برجال من قريش وبأخوال الرسول ﷺ خاصة فامتنعت[2].

قلما يوجد شخص يكون أبياً صاحب غيرة وأنفة، ويكون عادلاً منصفاً في الوقت نفسه، فاجتماع صفة الإباء والعدل في وقت واحد في شخص يعدّ من النوادر، ولا ينالها إلا من حاز أعلى درجات الأخلاق النبيلة وقمة السلوك الطيب، إلا أن عائشة رضي الله عنها التي ربّتها اليد النبوية الكريمة، كان من أهم خصائصها ومميزاتها الجمع بين تلك الصفات وأنواع الأخلاق التي ظاهرها التضاد ويصعب على كل من هب ودبّ أن يجمعها، وبالتالي فكانت رضي الله عنها تتصف بصفة العدل والإنصاف مع كونها أبيّة النفس، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة أسألها عن شيء، فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولّي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[3].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥٢٢٨ وكتاب الأدب برقم ٦٠٧٨، صحيح الإمام مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٩.

(٢) صحيح البخاري باب مناقب قريش برقم ٣٥٠٥.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر برقم ١٨٢٨، وابن حبان في صحيحه ٢/٣١٣ برقم ٥٥٣.

الشجاعة والمجاهدة:

كانت رضي الله عنها من ذوات الشجاعة النادرة، رابطة الجأش، ثابتة القلب، جريئة، تمشي إلى البقيع في الليل دون أن يصدها خوف أو تردد، تنزل في ساحة المعارك، وفي غزوة أحد لما ساد المسلمين الاضطراب خرجت مع النساء تسقي الجرحى وتحمل القُرَب على متنها لتفرغها في أفواه المجاهدين[1]، وفي غزوة الخندق نزلت من الحصن الذي وضع فيه النبي ﷺ النساء والأطفال، وتقدمت إلى الصفوف الأمامية، تقول رضي الله عنها: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي يعني حس الأرض... الحديث[2]، وقد استأذنت من النبي ﷺ في الجهاد فقال لها النبي ﷺ: «جهادكن الحج»[3]. ومجيئها في معركة الجمل بالقوات والعساكر بطريقة مثالية دليل على شجاعتها النادرة وبطولتها العظيمة.

السخاء والكرم:

إن الجود والكرم والبذل والعطاء من أهم معالم أخلاقها النبيلة الفاضلة، والجوهر الغالي فيها، وهي فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء، وهي فيه على آسال من أبيها العظيم رضي الله عنه، وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رُزقت القدوة القريبة بسيّد المواسين للضعفاء ومعلّم الجابرين لكسر القلوب. وهكذا شقيقتها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، كلتاهما كانت كريمة النفس وعلى أعلى درجات الفضل والعطاء.

يقول عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: ما رأيت امرأتين أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف، أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلى الشيء حتى إذا اجتمع عندها قسمت، وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئاً لغد[4].

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب الجهاد والسير برقم ٢٨٨٠.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/١٤١، كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٣٦، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/٣٧٣ برقم ٣٦٧٩٦.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير برقم ٢٨٧٥.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد ١/١٠٦ برقم ٢٨٠، وذكره الذهبي في سير=

وكانت تستقرض في أكثر الأحيان وتدّان، فقيل لها: مالكِ وللدَّيْن؟ فقالت: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان له من الله ﷻ عون» فأنا ألتمس ذلك العون[١]، إنها كانت تتصدق بكل مال يصل إلى يدها، سواء كان قليلاً أو كثيراً وتنفقه في السائلين.

ذات مرة دخلت عليها امرأة معها ابنتان لها تستطعم، قالت: فسألتني فلم تجد عندي إلا تمرة واحدة، فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ فحدثته، فقال: «مَن يلي مِن هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»[٢].

وذات مرة كان استطعمها مسكين وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة[٣]؟ كأنها تشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧].

وعن عروة رضي الله عنه قال: رأيتها تصَدّق بسبعين ألفاً وإنها لترقع جانب درعها[٤].

= أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٢، وأبو الفرج بن الجوزي في صفة الصفوة ٢/ ٥٨.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٩٩ برقم ٢٤٧٢٣ و٦/ ١٣١ برقم ٢٥٠٣٧ و٦/ ٢٣٤ برقم ٢٦٠١٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦، برقم ٢٢٠٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٣٢ وقال بعد ذكر ألفاظ الحديث المختلفة: ورجال أحمد رجال الصحيح إلا أن محمد بن علي بن الحسين لم يسمع من عائشة، وإسناد الطبراني متصل إلا أن فيه سعيد بن الصلت، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٥٤ برقم ١٠٧٣٩، ١٠٧٤٠، والطيالسي في مسنده ١/ ٢١٤ برقم ١٥٢٤.

(٢) البخاري في الأدب المفرد ١/ ٥٩ برقم ١٣٢، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٢٠١ برقم ٢٩٣٩.

(٣) موطأ الإمام مالك ٢/ ٩٩٧ برقم ١٨١١، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف ٢/ ٣٥٢ برقم ٩٨٢٠. أن سائلاً سأل عبد الرحمن بن عوف وبين يديه عنب، فناوله حَبَّة فكأنهم أنكروا ذلك، فقال: في هذه مثقال ذرة كثير.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٦٧، كما أخرجه هنّاد في الزهد ١/ ٣٣٧ برقم ٦١٧، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٧.

وقد بعث معاوية رضي الله عنه إلى عائشة بمئة ألف فقسمتها حتى لم تترك منها شيئاً، فقالت بريرة: أنت صائمة فهلّا ابتعت لنا بدرهم لحماً؟ فقالت عائشة: لو أني ذكرت لفعلت[1]. كذلك بعث إليها ابن الزبير رضي الله عنه بمال في غرارتين يكون مئة ألف، فدعت بطبق فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست قالت: هاتي يا جارية فُطُوري، فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين أما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم، قالت: لا تعنّفيني لو ذكرتيني لفعلت[2].

كانت رضي الله عنها تؤثر السائل على نفسها بما تفطر عليه في صيامها، فذات مرة جاءها مسكين فسألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطيه إياه، قالت: فعلت، فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لنا شاة وكفها، فدعتني عائشة أم المؤمنين فقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك[3].

وقد باعت رضي الله عنها مسكنها لمعاوية رضي الله عنه بمئة وثمانين ألف درهم، ويقال بمئتي ألف درهم، وحمل إليها المال فما رامت من مجلسها حتى قسمته[4].

كان عبد الله بن الزبير ابنَ أختها، وكان أحب البشر إليها وأبرّ الناس بها، وكانت لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله إلا تصدقت، فقال ابن الزبير: ينبغي أن يؤخذ على يديها، فقالت: أيؤخذ على يدي؟ عليّ نذر إن كلّمتُه، فاستشفع إليها برجال من قريش وبأخوال الرسول ﷺ خاصة فامتنعت[5].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٥ برقم ٦٧٤٥، كما أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في الحلية ٢/ ٤٧.

(٢) أخرجه هنّاد في الزهد ١/ ٣٣٧ برقم ٦١٩، وأبو نعيم الأصبهاني في الحلية ٢/ ٤٧ وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٧، وكذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٦٧.

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٧ برقم ١٨١٠ باب الترغيب في الصدقة، كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٦٠ برقم ٣٤٨٢، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٨ برقم ١٢٨٦.

(٤) ذكره ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٦٥، وأبو نعيم الأصبهاني في الحلية ٢/ ٤٨ ـ ٤٧.

(٥) صحيح البخاري باب مناقب قريش برقم ٣٥٠٥.

وكانت رضي الله عنها بمكانة سامية من الخشية والورع، رقيقة القلب لا تملك نفسها من البكاء، ولمّا أصابها في حجة الوداع ما يصيب بنات آدم، فلم تقدر أن تعتمر، بدأت تبكي، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فأمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر أن يأخذها لتُهلّ بعمرة من التنعيم، فقرّ قرارها وهدأ خاطرها[1].

وذات مرة تذكّرت الدجال فبكت بكاءً شديداً فدخل عليها الرسول ﷺ وهي تبكي، فقال لها: «ما يبكيك»؟ قالت: يا رسول الله ذكرت الدجال[2].

وتذكرت عند الاحتضار بعض أخطائها الاجتهادية فقالت: يا ليتني لم أُخلَق، يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي[3] ما عليَّ.

وذات مرة نذرت أن لا تكلم ابن الزبير، فلما أكثروا عليها كلّمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها ذلك فيما بعد وتبكي حتى تبلّ دموعُها خمارَها[4].

وقد مرت معنا قصة بكائها لما علمت بالبهتان العظيم الذي افتراه عليها المنافقون حيث كانت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، حتى ظن أبواها أن البكاء فالقٌ كَبِدَها[5].

وها هي عائشة رضي الله عنها تحكي لنا قصة سائلة ومعها ابنتان لها: دخلت علي سائلة ومعها ابنتان لها فأمرتُ لها بثلاث تمرات، فأطعمتهما تمرة تمرة،

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج باب عمرة التنعيم برقم ١٧٨٤ وكتاب الجهاد والسير برقم ٢٥٨٥.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٧٥ برقم ٢٤٥١١، وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٢٣٥ برقم ٦٨٢٢ والهيثمي في موارد الظمآن ١/ ٤٦٩ برقم ١٩٠٥ وفي مجمع الزوائد ٧/ ٣٣٨.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٧٤.
(٤) صحيح البخاري باب الهجرة وقول النبي ﷺ: لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث.
(٥) حديث الإفك.

ورفعت تمرة إلى فيها لتأكلها، ثم لحظا إلى أمهما فأخرجت التمرة من فيها فشقتها بينهما، قالت: فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك يا عائشة؟ قلت: يا رسول الله الوالدة ورحمتها، وأخبرته[(١)].

العبَادة:

كانت عائشة رضي الله عنها تداوم على العبادة، وتواظبُ على التطوّع والنوافل، وكل وقتها في الذكر والتسبيح، كانت تصلّي الضحى وتقول: صليت صلاة كنت أصليها على عهد النبي ﷺ لو أن أبي نُشِر فنهاني عنها ما تركتها[(٢)].

وتقوم في الليل مع النبي ﷺ: «كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمرّ بآية فيها تخوّف إلا دعا الله عز وجل واستعاذ، ولا يمرّ بآية فيها استبشار إلا دعا الله عز وجل ورغب إليه»[(٣)]. وإذا نامت عن صلاة أو نسيت قيام الليل صلته قبل صلاة الفجر. وذات مرة نامت عن صلاتها فدخل عليها القاسم بن محمد قبل صلاة الفجر وهي تصلي، فقال لها: ما هذه الصلاة؟ قالت: نمت عن جزئي الليلة فلم أكن لأدعه[(٤)].

كانت تهتم بصلاة التراويح اهتماماً بالغاً، فإذا صار رمضان تأمر مولاها ذكوان فهو يؤمها ويقرأ من المصحف[(٥)]، وكانت تصوم معظم الأيام، وتقول بعض الروايات أنها كانت تصوم الدهر[(٦)]، وذات مرة دخل عليها عبد الرحمن بن أبي بكر يوم عرفة، وهي صائمة يرش عليها، فقال لها عبد الرحمن: أفطري، فقالت: أُفطر وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٩٦/٤ برقم ٧٣٤٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كما أخرجه الطيالسي في مسنده ٢٠٤/١ برقم ١٤٤٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٣٨/٦ برقم ٢٥١١٢.

(٣) مسند الإمام أحمد ٩٢/٦ برقم ٢٤٦٥٤.

(٤) سنن الدارقطني ٢٤٦/١.

(٥) صحيح البخاري، باب إمامة العبد والمولى وكانت عائشة يؤمُّها عبدها ذكوان من المصحف.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦٨/٦.

صوم يوم عرفة يكفّر العام الذي قبله»؟[١].

وأما الحج فلا تدعه يفوتها أي سنة، فقد حجّت واعتمرت مرات كثيرة، تقول رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكُنّ أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور، فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ[٢]، ولما استأذنت من عمر رضي الله عنه للحج أرسل معها عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف[٣].

هذا وكانت قد حددت أماكن إقامتها أيام الحج، ففي بداية أمرها كانت تنزل في آخر حدود عرفة بنمرة، اتباعاً للنبيّ ﷺ، فلما رأت زحمة الناس هناك ضربت خيمتها بعيداً عن ذلك، وانتقلت إلى الأراك، وأحياناً كانت تقف مجاورة لجبل ثبير[٤].

وكانت رضي الله عنها تهلّ ما كانت في منزلها ومن كان معها، فإذا ركبت فتوجهت إلى الموقف تركت الإهلال، وكان من عادتها أنها كانت تعتمر بعد الحج من مكة في ذي الحجة، ثم تركت ذلك، فكانت تخرج قبل هلال محرم حتى تأتي الجُحفة فتُقيم بها حتى الهلال، فإذا رأت الهلال أهلّت بعمرة[٥].

وكانت تصوم يوم عرفة ثم تقف حتى يبيضّ ما بينها وبين الناس من الأرض ثم تدعو بشراب فتفطر[٦].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٢٨ برقم ٢٥٠١٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٨٩ وقال: رواه أحمد، وعطاء لم يسمع من عائشة، بل قال ابن معين: لا أعلمه لقي أحداً من أصحاب النبي ﷺ، وبقية رجاله رجال الصحيح، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٦٨ برقم ١٥١٨ وقال: رواته ثقات محتج بهم في الصحيح إلا أن عطاء الخراساني لم يسمع من عبد الرحمن بن أبي بكر.

(٢) صحيح البخاري باب حج النساء برقم ١٨٦١.

(٣) نفس المصدر باب حج النساء برقم ١٨٦٠.

(٤) قصة إقامتها في ثبير مذكورة في صحيح البخاري باب طواف النساء عن عطاء رضي الله عنه.

(٥) ذكره الإمام مالك في الموطأ باب قطع التلبية برقم ٧٥٠.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢٧٥ برقم ٨٣٦، وابن أبي شيبة في المصنف مختصراً ٣/ ١٩٧ برقم ١٣٣٩٩.

الاحتراز من الأشياء التافهة:

وكانت رضي الله عنها تجتنب حتى الأشياء التافهة والأمور البسيطة من المنهيات، عن مجاهد أن مولى لعائشة أخبره: أنه كان يقود بها وأنها كانت إذا سمعت الجرس أمامها قالت: قف بي، فيقف حتى لا تسمعه، وإذا سمعته ورآها قالت: أسرع بي حتى لا أسمعه[1].

وقد بلغها أن أهل بيت في دارها كانوا سُكاناً فيها عندهم نرد، فأرسلت إليهم: لئن لم تخرجوها لأخرجنكم من داري، وأنكرت ذلك عليهم[2].

وذات مرة قتلت جاناً فأريت فيما يرى النائم فقيل لها: والله لقد قتلت مسلماً، فقالت: والله لو كان مسلماً ما دخل على أزواج النبي ﷺ، فقيل لها: وهل كان يدخل عليك إلا وأنت متجلببة أو مخمَّرة؟ فأصبحت وهي فزعة، فتصدقت وأعتقت رقاباً[3].

الرحمة بالأرقاء والموالي والرفق بهم:

كانت رضي الله عنها كثيرة الرفق بالأرقاء، وقد أعتقت في كفارة يمين واحدة أربعين رقبة[4]. وبلغ عدد المعتقين على يدها سبعاً وستين رقبة[5]، وكانت عندها جارية من قبيلة تميم فسمعت من الرسول ﷺ أن هذه القبيلة من ولد إسماعيل فأعتقتها[6]، وكذلك بريرة جاءتها تستعينها في كتابتها، ولم تكن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٥٢ برقم ٢٥٢٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٣٥ برقم ١٢٧٤، قال البخاري: موقوف صحيح الإسناد، كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢١٦ وفي شعب الإيمان ٥/ ٢٣٩برقم ٦٥٠٥، وابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ١٧٨.

(٣) أورده الهيثمي في الزوائد ١/ ٤٨٥ برقم ٤١٩ وفيه «فأمرت باثني عشر ألفاً فجعلتها في سبيل الله عز وجل» وذكره القرطبي في تفسيره ١/ ٣١٧ وقال: روي من وجوه، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ١٨٢ برقم ٣٠٥١٤، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ١١٨، وأبو نعيم الأصبهاني في الحلية ٢/ ٤٩.

(٤) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٥٠٥، وكتاب الأدب برقم ٦٠٧٥.

(٥) ذكره محمد بن إسماعيل الصنعاني في سُبل السلام ٤/ ١٣٩.

(٦) «وكانت سبية منهم عند عائشة فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل» صحيح البخاري=

قضت من كتابتها شيئاً، فاشترتها وأعتقتها[1].

وذات مرة أصابها مرض، وبعض أولاد أخيها ذكروا شكواها لرجل من الزط يتطبب وأنه قال لهم: إنهم ليذكرون امرأة مسحورة سحرتها جارية في حجرها صبي، في حجر الجارية الآن صبي، قد بال في حجرها، فقال: ائتوني بها، فأتي بها، فقالت عائشة رضي الله عنها: سحرتيني؟ قالت: نعم، قالت: لمَ؟ قالت: أردت أن أعتق، وكانت عائشة رضي الله عنها قد أعتقتها عن دبر منها، فقالت: إن لله عليّ أن لا تُعتَقي أبداً، انظروا شرّ البيوت ملكة فبيعوها منهم، ثم اشتروا بثمنها رقبة فأعتقوها[2]. فكأنها أرادت أن تعاقبها، لكن تأمل كيف كان العقاب؟.

إعانة الفقراء وأصحاب الحاجة على قدر مراتبهم:

إن مساعدة الفقراء والمساكين ينبغي أن تكون حسب درجاتهم وعلى قدر منازلهم، فإذا جاء شخص مسكين من الدرجة المتدنّية فيكفي أن تقضي حوائجه، ولكن لو جاء أحد أرفع منه درجة وأعظم مكانة فإنه يستحق الاحترام والتوقير أكثر من الأول، كانت عائشة رضي الله عنها تراعي هذا الترتيب دائماً، فذات مرة جاءها سائل فأعطته كسرة من الخبز، فأخذها الفقير ومضى، ثم مرّ بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته، فأكل، فقيل لها في ذلك: فقالت: قال رسول الله ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»[3].

= كتاب العتق برقم ٢٥٤٣.

(١) صحيح البخاري كتاب العتق برقم ٢٥٦٣ و٢٥٦٤ و٢٥٦٥ وصحيح مسلم كتاب العتق برقم ١٥٠٤، وسنن أبي داود كتاب العتق برقم ٣٩٢٩، موطأ الإمام مالك كتاب العتق برقم ١٥١٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٤٤ برقم ٧٥١٦ واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٣٧، والدارقطني في سننه ٤/ ١٤٠ برقم ٥٣، وأحمد في مسنده ٦/ ٤٠ برقم ٢٤١٧٢، والبخاري في الأدب المفرد ١/ ٦٨ برقم ١٦٢.

(٣) سنن أبي داود كتاب الأدب برقم ٤٨٤٢ باب تنزيل الناس منازلهم.

الاهتمام البالغ بالحجاب:

كانت ﵂ تهتم بالحجاب اهتماماً بالغاً، وقد تأكد ذلك الأمر بعد نزول آية الحجاب[1]، وإذا أرادت أن يدخل عليها أحد من تلاميذها الخواص تأمر إحدى قريباتها - أختها أو بنت أختها - فترضعه، وذلك استناداً إلى حديث خاص من رسول الله ﷺ[2]، وبالتالي فتكون جدة لذلك التلميذ من الرضاعة، فيدخل عليها[3]، وإلا فيكون هناك حجاب بينها وبين تلاميذها[4]، ومن شدة اهتمامها وعنايتها البالغة بأمور الحجاب أنها لم تكن تخالط الرجال في الطواف، «وكانت تطوف حُجْرة من الرجال، لا تخالطهم، فقالت امرأة:

---

(١) صحيح البخاري حديث الإفك، وقد مرّ عدة مرات.

(٢) وهو الحديث الذي ذُكر فيه رضاعة سالم: عن عائشة ﵂ قالت: «جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم، وهو حليفه، فقال النبي ﷺ: أرضعيه، قالت: وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟ فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: وقد علمت أنه رجل كبير» (صحيح الإمام مسلم كتاب الرضاع برقم ١٤٥٣).
وقد أخرجه الإمام أبو داود بتفصيل أكثر وفيه سبب احتجاج عائشة بهذا الحديث، ونصه: جاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي... فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالماً ولداً وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد، ويراني فُضلاً (أي متبذلة في ثوب واحد من ثياب محضتي) وقد أنزل الله ﷻ فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: أرضعيه، فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشة ﵂ تأمر بنات أخواتها وبنات إخوتها أن يرضعن من أحبت عائشة أن يراها ويدخل عليها وإن كان كبيراً، خمس رضعات ثم يدخل عليها»... (سنن أبي داود كتاب النكاح برقم ٢٠٦١، وانظر كذلك مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٧٢).

(٣) هذه المسألة قد تفردت بها عائشة ﵂ من بين سائر الأزواج المطهَّرات، قال الإمام أبو داود في الحديث السابق برقم ٢٠٦١: وأبت أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ أن يُدخلن عليهن بتلك الرضاعة أحداً من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشة: والله ما ندري لعلها كانت رخصة من النبي ﷺ لسالم دون الناس» (وسوف نتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل لاحقاً في مبحث المسائل الفقهية الخلافية).

(٤) ورد في صحيح البخاري: كنت آتي عائشة أنا وعبيد بن عمير وهي مجاورة في جوف ثبير... (كتاب الحج برقم ١٦١٨).

انطلقي نستلم يا أم المؤمنين، قالت: عنك، وأبت»[1].

وإذا أرادت الطواف في النهار يخلى المطاف من الرجال[2]، وفي رواية أنها كانت تخمر وجهها بالجلباب أثناء الطواف، ودخل عليها مكاتب لها ببقية مكاتبته فقالت له: ما أنت بداخل مرتك هذه فعليك الجهاد في سبيل الله[3].

كذلك من ورعها وشدتها في أمر الحجاب أنها كانت احتجبت من إسحاق التابعي وكان ضريراً، فقال لها: أتحتجبين مني ولست أراك! قالت: إن لم تكن تراني فإني أراك[4].

لم تفرض الشريعة الإسلامية الاحتجاب من الأموات لكن عائشة رضي الله عنها من شدة ورعها، واهتمامها بالحجاب، والأخذ بالحيطة الكاملة لم تكن تدخل بيتها بعد دفن عمر رضي الله عنه إلا مشدودة عليها ثيابها.

تقول رضي الله عنها: «كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه واضعةً ثوبي، وأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر رضي الله عنه والله ما دخلت إلا مشدودة عليّ ثيابي، حياءً من عمر رضي الله عنه»[5].

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٦١٨.

(٢) نفس المصدر، وكذلك: مسند الإمام أحمد ٦/١١٧ برقم ٢٤٩٠٥. عن كريمة بنت همام قالت: دخلت المسجد الحرام فأخلوه لعائشة.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٨٥ برقم ٢٤٥٩٢، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٧٥ وقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد ثقات.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/٦٩.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٨ برقم ٦٧٢١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

الفصل الثاني

مناقبها رضي الله عنها

قال الرسول ﷺ: «أنا تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله.... وأهل بيتي»[1] ومقصوده ﷺ أن كتاب الله العظيم بالرغم من أن الله ﷻ قد يسّره وجعله سهل البيان متيسّر الفهم بحيث لا يحتاج إلى من يقوم بالتطبيق العملي، إلا أن الحاجة ظلت دائماً ماسة إلى أولئك العباقرة الذين يحلّون رموزه ويكشفون عن أسراره، ويوضّحون للعالم فحواه العلمي والعملي، والآن بعد ما استأثرت رحمة الله تعالى بالرسول ﷺ ينبغي لنا أن نبحث عن هؤلاء العباقرة في أهل بيته ﷺ، وقد مرّ معنا في تفسير سورة الأحزاب من هم المقصودون بأهل البيت.

ونظراً إلى العناية الفائقة والاهتمام البالغ الذي أولاه النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وما توفر لها من إمكانات وفرص للاستفادة من صحبة النبي ﷺ وتلقي العلوم من فم الرسول الكريم مباشرة، وما أكرمها الله تعالى من البراعة والجوهر الطبيعي والمواهب والصلاحيات، لا يبقى لأحد مجال للشك أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد احتلت مكانة مرموقة متميزة سامية في أهل بيت النبي ﷺ، وعلى هذا فمن يكون أحسن ترجمان للقرآن الكريم وأعرف بتأويل سنن المصطفى ﷺ، وأنجح معلم للأمة جمعاء بأحكام الشريعة الإسلامية من عائشة رضي الله عنها؟

كان الناس يرون النبي ﷺ خارج المنزل فقط، لكن عائشة رضي الله عنها سنحت لها الفرصة أن تعيش مع النبي ﷺ خارج المنزل وداخله، وإذا كان الأمر كما

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٠٨.

أسلفنا فحكم الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى كان حكماً في غاية من العدالة عندما قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1] وقد أريها النبي ﷺ في المنام وبُشِّر بأنها زوجته، يقول ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أُريتك في المنام مرتين، أرى أنك في سرقة من حرير ويقول هذه امرأتك فاكشف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضه»[2] ولم ينزل عليه وحي في لحاف واحدة من أمهات المؤمنين غيرها[3]، وكان جبريل عليه السلام يقرأ عليها السلام، قالت: قال ﷺ يوماً: يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ[4] وقد رأت جبريل عليه السلام مرتين بأم عينيها، وقد شهد الباري تعالى على عفافها وبراءتها من فوق سبع سماوات، وبشّرها الصادق المصدوق ﷺ بكونها أحبّ أزواجه في الآخرة[5].

كانت رضي الله عنها تقول: «خلال لي تسع لم تكن لأحد من النساء قبلي، ما أقول هذا أني أفخر على أحد من صواحباتي، قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله ﷺ، وتزوجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة سبع سنين، وأهديت إليه وأنا ابنة تسع سنين، وتزوجني بكراً لم يكن في أحد من الناس، وكان يأتيه الوحي وأنا وهو في لحاف واحد، وكنت من أحبّ الناس إليه، ونزل فيّ آيات

---

(١) صحيح الإمام البخاري فضل عائشة برقم ٣٧٦٩، ٣٧٧٠، وصحيح الإمام مسلم فضل عائشة برقم ٢٤٣١، ٢٤٤٦، وصحيح ابن حبان ١٦/ ٥٠ برقم ٧١١٣، ٧١١٥، وسنن الترمذي برقم ١٨٣٤ ، ٣٨٨٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٨٩٥، وصحيح الإمام مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣٨، وسنن الترمذي كتاب المناقب رقم ٣٨٨٠.

(٣) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٧٧٥، سنن الترمذي كتاب المناقب برقم ٣٨٧٩، سنن النسائي كتاب عشرة النساء برقم ٣٩٤٩، ٣٩٥٠.

(٤) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٧٦٨، كتاب الأدب ٦٢٠١، كتاب الاستئذان برقم ٦٢٥٣ صحيح مسلم كاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٧، سنن الترمذي كتاب الاستئذان والآداب برقم ٢٦٩٣.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١١ برقم ٦٧٢٩.

من القرآن كادت الأمة تهلك فيه، ورأيت جبريل ﷺ ولم يره أحد من نسائه غيري، فأتى في بيت لم يله الملك إلا أنا»[(١)] وفي رواية «ومات في يومي وليلتي وبين سحري ونحري»[(٢)].

❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١١ برقم ٦٧٣٠، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣٨٩ برقم ٣٢٢٧٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤١، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٩١، والإمام الطبري في تاريخه، هذا وقد ورد في بعض الروايات سبع خلال بدل تسع، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤١ والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ٣١ برقم ٧٧، والإمام أبو يوسف في كتاب الآثار ١/ ٢٠٩ برقم ٩٣٢.
كما ورد في رواية ابن سعد قالت رضي الله عنها: فضّلت على نساء النبي ﷺ بعشر.. الحديث (٨/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) هذا لفظ كتاب الآثار ١/ ٢٠٩.

الفصل الثالث

مكانتها العلمية رضي الله عنها

تمهيد:

لم تكن مكانتها العلمية وتفوّقها العلمي أرفع وأسمى من عامة النساء فحسب، بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل. والذكاء المتوقد والبديهة الواعية، باستثناء عدد من كبار الصحابة فقط، ولا يقصر علمها على وعي الكلمات والعبارات، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً[(١)].

وهذا الإمام محمد بن شهاب الزهري الذي ترعرع في حضن كبار الصحابة رضوان الله عليهم يقول: «كانت عائشة أعلم الناس، يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ»[(٢)].

وقال عطاء بن أبي رباح والذي قد نال شرف التتلمذ على يد عديد من صحابة رسول الله ﷺ: «كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة»[(٣)].

وقال التابعي الجليل أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: «ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله ﷺ ولا أفقه في رأي إن احتيج إليه، ولا أعلم بآية

---

(١) سنن الترمذي باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٣٨٨٣.

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٤.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٥ برقم ٦٧٤٨، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٥ و٢/ ٢٠٠، والحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٦٣، وابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ١٨٨٣.

فيما نزلت ولا فريضة، من عائشة»[1].

وذات مرة قال معاوية: يا زياد أي الناس أعلم؟ قال: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أعزم عليك، قال: «أما إذا عزمت علي فعائشة»[2].

وقال عروة بن الزبير بن العوّام حواري رسول الله ﷺ: «ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام والعلم والشعر والطب من عائشة أم المؤمنين»[3].

وفي رواية أخرى: «ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحرام ولا بحلال ولا بفقه ولا بشعر ولا بطب ولا بحديث العرب ولا نسب من عائشة»[4].

وقد سُئل مسروق التابعي الجليل وكان قد تربى في حضن عائشة رضي الله عنها هل كانت أم المؤمنين تُحسن الفرائض فقال: أي والذي نفسي بيده لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض[5].

لقد كان غيرها من أمهات المؤمنين كذلك يقمن بواجب حفظ السنة وإشاعتها وتبليغها إلا أن المكانة التي وصلت إليها عائشة رضي الله عنها لم يصل إليها أحد غيرها، يقول محمود بن لبيد: «كان أزواج النبي ﷺ يحفظن من حديث النبي ﷺ كثيراً ولا مثلاً لعائشة وأم سلمة»[6] وقال محمد بن شهاب الزهري: «لو جمع علم الناس كلهم ثم علم أزواج النبي ﷺ لكانت عائشة أوسعهم علماً»[7].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧٥.

(٢) الحاكم في المستدرك ٤/ ١٥ برقم ٦٧٤٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٣.

(٤) ذكره أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء ٢/ ٤٩، وأبو الفرج ابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/ ٣٢.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٦، والدارمي في سننه ٢/ ٤٤٢ برقم ٢٨٥٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٢، والخراساني في كتاب السنن ١/ ١١٨ برقم ٢٨٧، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٢٣٩ برقم ٣١٠٣٧، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١٨١.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧٥.

(٧) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٢ برقم ٦٧٣٤، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٩٩.

وقد روى بعض المحدثين حديث «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء»[1] في مناقب عائشة ﵂ وقد أورده ابن الأثير في النهاية والديلمي في مسند الفردوس باختلاف في اللفظ، لكنه حديث موضوع لا يصح، ولو أن معناه صحيح.

العلم والاجتهاد:

هذا الفصل من أهم أبواب حياة أم المؤمنين عائشة ﵂، والذي تتميز فيه شخصيتها تميزاً ملموساً ليس في صنف النساء فحسب، وإنما في صنف الرجال على السواء. ونظراً إلى مكانتها الرفيعة ودرجتها السامية في معرفة الكتاب والسنة والاطلاع على معانيها وإدراك فحواها لاستنباط الأحكام، إنها تستحق أن يذكر اسمها في عداد علماء الصحابة الأجلّاء، أمثال عمر الفاروق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس ﵃.

وها نحن نستهلّ هذا الفصل بذكر مكانتها في معرفة كتاب الله تعالى وتفسيره وتأويله وآرائها القيمة في علوم التفسير.

❁ ❁ ❁

(١) ذكره الملا علي القاري في المصنوع ١/٩٨ برقم ١٢١ وقال: لا يعرف له أصل، وقال محمد بن أبي بكر: كذب مختلق، نقد المنقول ١/٥١، كذا ذكره ابن القيم في المنار المنيف ١/٦١.

المبحث الأول

علمها بالقرآن الكريم

الكل يعرف أن القرآن الكريم قد تمّ نزوله في مدة ثلاث وعشرين سنة، وعائشة رضي الله عنها زُفّت إلى الرسول ﷺ في التاسعة من عمرها، فيكون ذلك السنة الرابعة عشرة من نزول القرآن الكريم، أو من البعثة، وعلى هذا فإنها قد عاشت مع النبي ﷺ زهاء عشر سنوات، ونستوحي من ذلك أن أكثر من نصف القرآن الكريم يكون قد نزل قبل بلوغ عائشة رضي الله عنها سن الرشد. وبالرغم من هذا السنّ المبكّر فلم يثبت أنّها فوّتت فرصة من فرص الاستفادة حتى أيام طفولتها - أيام اللهو واللعب - وتركتها تذهب سُدى دون أن تغتنمها، وخاصة أنّه لم يمر يوم إلا ويأتي فيه النبي ﷺ بيت أبي بكر طرفي النهار بكرة وعشية[1].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد ابتنى مسجداً بفناء داره، فكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن[2]، وكانت عائشة رضي الله عنها تنتهز هذه الفرصة السانحة فتحفظ ما يَقرع سمعها من آيات الكتاب الحكيم، وتعيها وتخزّنها في ذاكرتها القوية التي وهبها الله تعالى إياها.

تقول رضي الله عنها: «لقد أُنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]»[3].

---

(١) تقول عائشة رضي الله عنها: لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية (صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٩٠٦).

(٢) صحيح البخاري كتاب الصلاة برقم ٤٧٦.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير برقم ٤٨٧٦ وكتاب فضائل القرآن برقم ٤٩٩٣.

لم تكن عائشة ﷞ تحفظ الشيء الكثير من كتاب الله حتى الثالثة عشرة من عمرها، وقد اعترفت بذلك وصرحت به قائلة عندما وقعت حادثة الإفك: «وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً»(١) ومع ذلك فإنها كانت تستدل بالآيات القرآنية، والقرآن الكريم لم يتمّ تدوينه كتابة في شكل كتاب حتى وفاة النبي ﷺ إلى أن جاء الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷛ فقام بتدوينه في عهده المجيد، وخلال هذه الفترة قام بعض الصحابة بتدوينه على حدة للتلاوة اليومية، ولم يكن هناك اختلاف في التدوين إلا ما كان في تقديم سورة أو تأخيرها، كان أبو يونس مولى لعائشة ﷞ وهو يعرف الكتابة فأمرته عائشة ﷞ أن يكتب لها مصحفاً(٢)، ومعظم الاختلافات في القراءة كان في بلاد العراق، وذلك نظراً للاختلاط بالعجم هناك(٣).

جاء عراقي إلى عائشة ﷞ فقال: أريني مصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لعليّ أولّف القرآن عليه، فإنه مؤلف، قالت: وما يضرك أيّة آية قُرئت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه..... فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور(٤).

وقد وهبها الله تعالى لساناً سؤولاً فلا يهدأ لها بال إذا أشكل عليها شيء من معاني القرآن حتى أن تشفي غليلها بالاستفسار من النبي ﷺ.

وقد ورد في الأحاديث أنها كثيراً ما كانت تستفسر من الرسول ﷺ عن تفاسير الآيات ومعانيها وتأويلاتها، كيف لا وقد أمرهن الباري ﷻ فقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] فكان تنفيذ هذا الأمر واجباً عليهن، وذلك لا يكتمل إلا بمعرفة معاني الذكر

---

(١) صحيح البخاري حديث الإفك بأرقام ٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠.

(٢) صحيح الإمام مسلم برقم ٦٢٩، ومسند الإمام أحمد ٦/ ٧٣ برقم ٢٤٤٩٢.

(٣) جاء في صحيح البخاري أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة (باب جمع القرآن).

(٤) صحيح البخاري باب تأليف القرآن.

الحكيم. كما أنها كانت تقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، وتستمع لما يقرأه ﷺ من سور طوال المفصّل: البقرة وآل عمران والنساء[1]، ولم ينزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ في لحاف واحدة غير عائشة رضي الله عنها[2]، فكانت أول من تلقى القرآن مباشرة من فم النبوة فور نزوله، تقول رضي الله عنها: «وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[3].

وبالجملة فإن هذه هي الأسباب التي مكّنت عائشة رضي الله عنها من فهم معاني كل آية من الآيات القرآنية، وتحديد فحواها الحقيقي، واختلاف الأحرف السبعة، وإدراك مواضع الاستدلال فيها، وطرق الاستنباط منها، وجعلتها تحتل مكانة رفيعة، وتنال براعة كاملة وملكة كبيرة في هذا الموضوع. ولذلك نراها ترجع إلى كتاب الله العزيز قبل كل شيء في حل كل مشكلة صغيرة أو كبيرة والكشف عن عقدة تفسيرية، أو ردّ سؤال موجّه إليها في هذا الصدد. فهو المرجع الأول لها في كل الأمور، وإنها لم تكن تراجع القرآن الكريم في قضايا العقائد والفقه والأحكام الشرعية فحسب، بل في كل الأمور حتى في موضوع سيرة النبي ﷺ وبيان أخلاقه وسلوكه، وكذلك في المسائل ذات الصلة بالتاريخ والأخبار.

وقد جاءها ذات مرة ناس يسألونها عن خلق الرسول ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، قالوا: حدثيني عن قيام الليل؟ قالت: ألست تقرأ يا أيها المزّمل[4].

وسوف نتحدث لاحقاً بالتفصيل عن طرق ومناهج استنباطاتها

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩٢ برقم ٢٤٦٥٣.
(٢) صحيح البخاري باب تأليف القرآن.
(٣) صحيح البخاري باب تأليف القرآن.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه برقم ١٣٤٢، ومسلم في صحيحه بشيء من التفصيل باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم ٧٤٦، وابن خزيمة في صحيحه ٢/ ١٧١ برقم ١١٢٧، وابن حبان في صحيحه ٦/ ٢٩٢ برقم ٢٥٥١، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٩ برقم ٤٥٨٨.

واستخراجاتها وسعة نطاق البحث الذي كان سمة رئيسة بارزة لأم المؤمنين ﵂.

إن عدد الروايات الصحيحة عن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين التي تتناول تفسير الآيات القرآنية قليل جداً، فنرى صحيح الإمام البخاري الذي يتضمن كتاباً كبيراً ومفصلاً عن تفسير الآيات القرآنية، إلا أن معظمه روايات عن التابعين في حل اللغات، أو سرد مختلف القصص والوقائع ضمن تفسير الآيات لوجود مناسبة ولو بسيطة بينهما، كما هو عادة الإمام البخاري ﵀، وإلا فإن التفسير الحقيقي منه قليل جداً، كذلك الإمام الترمذي فكتابه «السنن» يحتوي على كتاب كبير من التفسير، لكن عليه ملاحظات آتية:

١ ـ لم يراع فيه صحة الأسانيد إلا قليلاً.

٢ ـ يعزو فيه تفسير الآية بمعنى الكلمة.

أما الإمام مسلم ﵀ فإنه جمع كتاباً خاصاً بتفسير القرآن الكريم في آخر صحيحه، لكنه لم يأت بالشيء الكثير، ومعظم ما فيه من الروايات فهي مروية عن ابن عباس وعائشة ﵄، وعلى كل فإن ما روي عن عائشة ﵂ حول تفسير الآيات القرآنية ليس بقليل، وفيما يأتي نقتصر على ذكر تلك الروايات التفسيرية التي توجد فيها نكتة خاصة بيّنتها عائشة ﵂.

١ ـ إن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج، وقد ورد فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال عروة: سألتُ عائشة ﵂ فقلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فوالله ما على أحد جُناح أن لا يطوف بالصفا والمروة.

قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أوَّلتَها عليه كانت «لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما». ولكنها أُنزلت في الأنصار، كانوا

قبل أن يُسلموا يُهلّون لمناة الطّاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، فكان من أهلّ يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فلمّا أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك قالوا: يا رسول الله إنا كُنّا نتحرّج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطّواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطّواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا لعلم...»[1].

ولا شك أن هذا هو الواقع.

إن عائشة رضي الله عنها كانت على علم كافٍ وبصيرة تامة، وقد كشفت عن عقدة معقّدة لأصول التفسير، ولا بد أن تراعى هذه الأصول في كل تفسير، وهي أن فحوى الآية ومقصودها الحقيقي يُحدّد في ضوء ما يتبادر إلى الذهن من معاني الألفاظ حسب استعمالات العرب، والأمثال العربية، وإلا ـ كما تقول أم المؤمنين ـ لكان من الممكن أن يعبر الله تعالى عن ذلك بعبارة أخرى يكون معناها المتبادر واضحاً جلياً.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

قال عروة وهو يسأل عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية: قلت: أ«كُذبوا» أم «كُذِّبوا» قالت عائشة: كُذّبوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم، فما هو بالظن؟.

قالت: أجل لعمري، لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظنّوا أنهم قد كُذبوا، قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربّها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربّهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذّبهم من قومهم

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٦٤٣، وصحيح الإمام مسلم كتاب الحج برقم ١٢٧٧، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن برقم ٢٩٦٥، وسنن النسائي كتاب مناسك الحج برقم ٢٩٦٨.

وظنّت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك[1].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣].

والظاهر عدم وجود المناسبة والمطابقة بين هذه الآية والتي قبلها، فالأُولى تحدّثت عن الجَوْر في حقوق الأيتام، والثانية تحدثت حول إذن النكاح.

وقد سأل عائشة أحدُ تلاميذها عن هذه الآية وانسجامها مع سابقتها فقالت: «اليتيمة تكون عند الرجل وهو وليها فيتزوجها على مالها ويسيء صحبتها ولا يعدل في مالها، فليتزوج ما طاب له من النساء سواها مثنى وثلاث ورباع»[2].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

فسُئلت عائشة ﵂ عن هذه الآية فقالت: والذي ذكر الله تعالى أنه ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن[3].

٥ ـ اختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

---

(١) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٦٩٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح برقم ٥٠٩٨، صحيح الإمام مسلم كتاب التفسير برقم ٣٠١٨.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب التفسير برقم ٣٠١٨، وصحيح البخاري كتاب الشركة برقم ٢٤٩٤، وكتاب الوصايا برقم ٢٧٦٣.

فقالت عائشة رضي الله عنها: «أنزلت في ولي اليتيم الذي يقيم عليه ويصلح في ماله إن كان فقيراً أكل منه بالمعروف»(١) وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الإذن نسخه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] لكن ظاهر الآية يدلّ على أن مستحقي هذا العقاب هم أولئك الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً، تقول عائشة رضي الله عنها: إن الآية الأولى التي فيها إذن بالأكل هي لولاة الأيتام إذا كانوا فقراء، فإنهم يأكلون منه مكان قيامهم عليهم بالمعروف، فإن كان وُلاة الأيتام من الموسرين فلا يجوز لهم أن يأخذوا منه شيئاً، مكان قيامه عليهم، وإن كانوا فقراء فلهم ذلك.

٦ ـ آية نشوز الزوج: قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

فالرجوع إلى الصلح لدفع الغضب وإزالة سوء التفاهم أمر طبيعي، إذن ما فائدة هذا الحكم؟ تجيب عائشة رضي الله عنها عن هذا السؤال قائلة: «الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها فتقول له: أمسكني ولا تطلقني ثم تزوّج غيري فأنت في حل من النفقة علي والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾»(٢).

٧ ـ الآيات التي تدل على الخوف أو فيها ذكر المشاهد المفزعة والمناظر المرعبة، يربطها المفسّرون بالقيامة، لكن الصحابة الكرام بموجب معرفتهم بمجمل سائر الآيات القرآنية، كان بإمكانهم أن يحدّدوا مفهوم الآية على أكمل وجه وأحسن طريق، مثلاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية وسبب نزولها: «إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصَوْا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف،

---

(١) صحيح البخاري كتاب البيوع برقم ٢٢١٢، كتاب الوصايا برقم ٢٧٦٥، كتاب التفسير برقم ٤٥٧٥ ومسلم في صحيحه كتاب التفسير برقم ٣٠١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المظالم والغضب برقم ٢٤٥٠ وكتاب الصلح برقم ٢٦٩٤ وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٦٠١ وكتاب النكاح برقم ٥٢٠٦، ومسلم في صحيحه كتاب التفسير برقم ٢٠٢١.

فأصابهم قحط وجَهْد، حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ ـ ١١]»[1].

كذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [الأحزاب: ١٠] تقول عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية: «كان ذاك يوم الخندق»[2] تعني أن هذا تصوير لاضطراب المسلمين وابتلائهم يوم الخندق.

٨ ـ تفسير «الصلاة الوسطى» في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

اختلفت أقوال الصحابة رضي الله عنهم في تفسير «الصلاة الوسطى» فروى الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن ثابت وأسامة رضي الله عنهما أنها صلاة الظهر[3]، وروي عن البعض منهم أنها صلاة الصبح، بينما ترى عائشة رضي الله عنها أنها صلاة العصر، وكانت تقول ذلك بغاية من الثقة والاعتداد، حتى إنها سجّلت هذا التفسير على هامش المصحف الذي كتبه لها مولاها أبو يونس[4]. وهذا هو التفسير

---

(١) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجمعة برقم ١٠٠٧/ ١٠٢٠ وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٦٩٣، ٤٧٧٤، ٤٨٠٩، ومسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة برقم ٢٧٩٨، وسنن الترمذي كتاب التفسير برقم ٣٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤١٠٣، وصحيح مسلم كتاب التفسير برقم ٣٠٢٠.

(٣) أخرج الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٠٥ برقم ٢١٨٤٠ أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى فقال: هي العصر، فقام إليه رجلان منهم فسألاه فقال: هي الظهر، ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال: هي الظهر، إن رسول الله ﷺ كان يصلّي الظهر بالهجير، ولا يكون وراءه إلا الصف والصفّان من الناس في قائلتهم وتجارتهم فأنزل الله تعالى ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ٤١١.

(٤) أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي يونس مولى عائشة أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنيّ ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها، فأملت عليّ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ـ=

المعتمد لدى كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومنهم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وسَمُرة بن جندب رضي الله عنهم[(١)]، وهو ما يقتضيه العقل، لأن صلاة العصر هي في وسط النهار بين الظهر والمغرب.

٩ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

ظاهر الآية أن الإنسان يحاسب بما تحدث به نفسه ولا يدري ما يغفر منه وما لا يغفر منه، ولا شك أن الإنسان إذا حوسب بما يخطر على باله من الأحاديث والوساوس يشقّ عليه ذلك وتضيق عليه الحياة. قال علي وابن عباس رضي الله عنهما: نسختها الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٢)] وهذا هو رأي ابن عمر رضي الله عنهما[(٣)].

١٠ ـ أما عائشة رضي الله عنها فإنها لما سُئلت عن تفسير هذه الآية وكذلك قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: هذه معاتبة الله العبد فيما يصيبه من الحمّى والنكبة، حتى البضاعة يضعها في كمّ قميصه فيفقدها فيفزع لها، حتى إن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير[(٤)].

هذا وقد روي عن عائشة رضي الله عنها تفسير الآيات الأخرى كذلك، إلا أننا

= وصلاة العصر ـ ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم ٦٢٩، كما أخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٢٩٨٢ والنسائي في سننه كتاب الصلاة برقم ٤٧٢ وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ٤١٠).

(١) أخرج الإمام الترمذي في سننه كتاب التفسير أقوال هؤلاء العلماء: حديث سمرة بن جندب برقم ٢٩٨٣ وحديث ابن مسعود رضي الله عنه برقم ٢٩٨٥ وحديث علي رضي الله عنه برقم ٢٩٨٤.

(٢) أخرج الترمذي في سننه كتاب التفسير قول ابن عباس رضي الله عنهما برقم ٢٩٩٢ وقول علي رضي الله عنه برقم ٢٩٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير برقم ٤٥٤٥ وكذلك ٤٥٤٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه كتاب التفسير برقم ٢٩٩١، وكذلك الإمام أحمد في مسنده.

اقتصرنا على هذا القدر، وتفسير هذه الآيات بالذات لأن لها رأياً خاصاً ووجهة نظر منفردة فيها، أما تفاسير الآيات الأخرى فليس هناك وجهة نظر خاصة ملموسة لها من بين عامة الصحابة، وسوف يتضح لنا مدى عمق اطلاعها وسعة علمها ومعرفتها العالية في مجال علوم القرآن بآرائها الحديثية والفقهية والكلامية، والتي سوف نتطرق إليها لاحقاً إن شاء الله.

القراءات الشاذة المروية عن عائشة(١):

وقد رُويت عن عائشة ﵂ بعض القراءات الشاذة ومنها:

١ ـ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر)، يقول أبو يونس مولى عائشة: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها فأملت عليّ ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين﴾ قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ(٢)، فقولها: ﴿وصلاة العصر﴾ غير موجود في أصل القرآن.

والواقع أن عائشة ﵂ لم تقصد زيادة ﴿وصلاة العصر﴾ في أصل القرآن الكريم، **وإنما كان غرضها من ذلك هو بيان تفسير الصلاة الوسطى فقط**(٣)، **إلا أن الراوي أساء فهم قولها.**

---

(١) القراءات الشاذة: لمعرفة القراءات الشاذة لا بد من معرفة ضابط القراءة الصحيحة، وفي هذا يقول الشيخ ابن الجزري: كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحّ سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها... قال: ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها: ضعيفة أو شاذة أو باطلة.

انظر للتفصيل: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ١/ ٩ ط: دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم ٦٢٩، والترمذي في سننه برقم ٢٩٨٢ كتاب التفسير، والنسائي في سننه كتاب الصلاة برقم ٤٧٢، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ٤١٠.

(٣) وهو ما اصطلح عليه باسم القراءة التفسيرية (الناشر).

٢ ـ روي عنها في باب الرضاعة أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفّي رسول الله ﷺ وهُنّ فيما يُقرأ من القرآن»(١) لكن لا توجد آية في القرآن باتفاق العلماء تدلّ على خمس رضعات، ولو صحت نسبة هذا الحديث إلى عائشة رضي الله عنها، فلعله وهم منها، أو أنها قصدت أن خمس رضعات كانت سابقاً، أما القول بوجود هذا الحكم في القرآن الكريم فليس بصحيح، ويمكن أن الراوي أساء الفهم(٢).

❁ ❁ ❁

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الرضاع برقم ١٤٥٢، وسنن الترمذي كتاب الرضاع برقم ١١٥٠، وسنن النسائي كتاب النكاح برقم ٣٣٠٧.

(٢) وقد روى بعض العلماء عن عائشة رضي الله عنها قولها: «لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشراً، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها» (أخرجه ابن ماجه في سننه باب رضاع الكبير برقم ١٩٤٤، والدارقطني في سننه ٤/ ١٧٩، والطبراني في الأوسط ١٨/ ١٢ برقم ٧٨٠٥، وأبو يعلى في مسنده ٨/ ٦٤ برقم ٤٥٨٨، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ١/ ٣١٠، والإمام ابن حزم في المحلى ١١/ ٢٣٦) وهذا باطل، لأنه لم يثبت نزول أي آية في مرض موته ﷺ بإجماع العلماء، ولو قلنا إنها نزلت قبل مرض الموت فكان من المفروض أن تكون محفوظة عند كُتّاب الوحي، وحفظها عامة المسلمين، لا أن تكون تحت سريرها.

وراوي الحديث هو محمد بن إسحاق، وهو ضعيف في باب الأحاديث والأحكام عند العلماء، أما حديث خمس رضعات فموجود في صحيح الإمام مسلم والموطأ وغيرهما من كتب الأحاديث الصحيحة، لكنهم لم يتطرقوا إلى قصة أكل الداجن هذه الصحيفة، فدلّ على أنه زيادة من أحد الرواة. والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

علمها بالحديث الشريف

أم المؤمنين عائشة وبقية أمهات المؤمنين:

مما لا شك فيه أن موضوع علم الحديث هو ذات النبي ﷺ، فمن كان أقرب إلى النبي ﷺ ونال شرف صحبته أكثر فقد تمكن من الحصول على هذا العلم المبارك أكثر، وقد قدّر الله ﷻ لعائشة ﵂ أن تنال الحظ الأوفر والنصيب الأكمل من هذا الجوهر الغالي الثمين، وتهيّأت لها كل الأسباب التي جعلتها تتبوّأ مكانة رفيعة، وتفوز بفرص قيّمة سانحة للاستفادة من فم النبي الكريم ﷺ مباشرة دون أي واسطة، فقد نكحها الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين، وأثناء هذه الفترة لم يمرّ يوم إلا ويأتيها النبي ﷺ في بيتها.

أما بعد الهجرة فلم تتمكن من معايشة حبيبها والتشرف برؤية محيّاه لستّ شهور، ثم حان وقت زفافها فزُفّت إلى الرسول ﷺ في شوّال، ثم رافقته منذ ذلك الوقت إلى أن توفاه الله تعالى، وبالرغم أن في ابتداء الإسلام كانت تمرّ بزمن طفولتها إلا أن ذكاءها المتوقد وفطنتها الجبلّية وذاكرتها النادرة قد أكملت ما انتقص من أجل سنّ الطفولة، فاستدركت ما فاتها في صباها. وأم المؤمنين سودة ﵂ هي الوحيدة التي نالت شرف صحبة النبي ﷺ ستة أشهر زائدة من أم المؤمنين عائشة ﵂، إلا أن الوضع مختلف تماماً بين سودة وعائشة ﵄، فهناك فرق شاسع وبون كبير واختلاف ملموس واضح في المواهب والقدرات، وقوة الفهم والإدراك، والوعي وحسن الحفظ والتعبير بين عائشة وسودة، زد على ذلك أن سودة كانت كبيرة في السن، ضعفت قواها ووهنت أعصابها، حتى لم تعد قادرة على أداء الحقوق الزوجية قبل وفاته ﷺ بعدة سنوات.

أما عائشة رضي الله عنها فكانت شابة، وقد مكّنتها هذه المرحلة من العمر من أنْ تزداد كل يوم نمواً في العقل وتطوراً في الفهم وعمقاً في النظر والتفكير، وبالتالي فقد قُدّر لها أن تنال شرف صحبة النبي ﷺ حتى اللحظات الأخيرة من حياته، بكل جدارة ولياقة، فكانت النتيجة بطبيعة الحال أن تكون هي أوسع علماً وأكثر معرفة واطلاعاً على أحوال النبي ﷺ وأخباره من غيرها من أمهات المؤمنين.

وقد تزوج الرسول سائر الأزواج المطهّرات إلا سودة بعد عائشة رضي الله عنها بفترة طويلة، ومع ذلك لم يحصلن إلا يوماً واحداً من كل ثمانية أيام لخدمة النبي ﷺ، لكن عائشة رضي الله عنها تحظى بيومين يوم لها ويوم لسودة، لأنها وهبت نوبتها لعائشة، كما أن حجرة عائشة رضي الله عنها كانت ملاصقة للمسجد النبوي الشريف المدرسة الأولى في الإسلام، حيث تعقد حلقات الدروس والوعظ والإرشاد، وكان المعلّم هو سيّد المرسلين محمد ﷺ، فكان المسجد المنبع الأصلي والمصدر الحقيقي للأحاديث الشريفة.

فكان من الطبيعي أن لا تدانِيَها أيٌّ واحدة من أمهات المؤمنين في معرفة الأحاديث، والاطلاع على الآثار، وهي تعدّ من كبار حُفّاظ السنّة من الصحابة، ولم يسبقها أحد من الصحابة ولا وصل إلى مكانتها المتميزة في الحديث سوى خمسة أشخاص من الرجال، فما بالك بالنساء؟!

أم المؤمنين عائشة وكبار الصحابة والمكثرون منهم:

أما كبار الصحابة أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم فإنهم وإن كانوا على أرفع مكانة وأعلى درجة في نيل شرف صحبة النبي ﷺ ولهم باع في الفهم والإدراك وبُعد في النظر والتفكير أكثر من عائشة رضي الله عنها، إلا أن الزوجة هي الزوجة، وما تتمكن من معرفته في شهور لا يتمكن من معرفته خاصة الأصحاب في سنين، وهناك جانب آخر وهو أن هؤلاء الكبار من الصحابة قد انشغلوا بأمور الخلافة وقضايا الناس، ورغم ذلك ما روَوْه من الأحاديث حول موضوع الخلافة وما أصدروا من الأحكام هي التي ينبني عليها

فقهنا الإسلامي ويقوم عليها صَرْحه، وبالتالي فقام بواجب رواية الأحاديث الصحابة الآخرون الذين لم تَثْقُل كواهلهم بحمل هذه الأعباء من مهمّات الخلافة ومسؤوليات رعاية الأمة.

وسبب آخر لقلة الروايات من عباقرة الصحابة وكبارهم كما أشار إليه ابن سعد فقال: إنما قلت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم توفوا قبل أن يُحتاج إليهم، وإنما كثر الغرماء عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، لأنهما وُلّيا فسُئلا وقَضَيا بين الناس، وكل أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أئمة يقتدى بهم ويحفظ عنهم ما كانوا يفعلون ويُستفتَوْن فيُفتون، وسمعوا أحاديث فأدَّوْها.

فكان الأكابر من أصحاب الرسول ﷺ أقل حديثاً عنه من غيرهم، مثل أبي بكر، وعثمان، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من نظرائهم، فلم يأتِ عنهم من كثرة الحديث مثل ما جاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله ﷺ مثل جابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص ونظرائهم، وكل هؤلاء كانوا يُعَدّون من فقهاء الصحابة، وكانوا يلزمون رسول الله ﷺ مع غيرهم من نظرائهم، فكان أكثر الرواية والعلم في هؤلاء ونظرائهم من أصحاب رسول الله ﷺ، لأنهم بقُوا وطالت أعمارهم واحتاج الناس إليهم، ومضى كثير من أصحاب رسول الله ﷺ قبلهم وبعدهم بعلمهم لم يؤثر.

«ثم كان التابعون بعد أصحاب رسول الله ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم، فيهم فقهاء وعلماء، وعندهم رواية الحديث والآثار، والفقه، والفتوى...»[(١)].

والمكثرون في الرواية من أصحاب رسول الله ﷺ الذين يبلغ عدد مروياتهم إلى الآلاف هم سبعة:

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٨ـ ٧٦.

الأسماء	سنة الوفاة	عدد الروايات
١ ـ أبو هريرة رضي الله عنه	٥٧ هـ	٥٣٦٤
٢ ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما	٧٣ هـ	٢٦٣٠
٣ ـ أنس بن مالك رضي الله عنه	٩١ هـ	٢٢٨٦
٤ ـ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها	٥٨ هـ	٢٢١٠
٥ ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما	٦٨ هـ	١٦٦٠
٦ ـ جابر بن عبد الله رضي الله عنه	٧٨ هـ	١٥٤٠
٧ ـ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه	٧٤ هـ	١١٧٠

مكانة عائشة رضي الله عنها عند المكثرين من الصحابة:

تأتي عائشة رضي الله عنها في المرتبة الرابعة في حفظ وكثرة الرواية، و[الثلاثة] الذين ذُكرت أسماؤهم قبل اسمها كانوا قد عاشوا بعد وفاة أم المؤمنين رضي الله عنها، هذا في جانب، وفي جانب آخر إذا قارنا بين عائشة وأقرانها من المكثرين نرى:

أ ـ أن عائشة رضي الله عنها كانت من أولئك النساء اللاتي يلزمن بيوتهن، ولم تكن تخرج وتحضر المجالس مثل أقرانها من الرجال، ولا أن طلاب العلم يأتون إليها في كل حين، ولا أنها تيسّر لها السفر إلى كبرى مدن البلاد الإسلامية مثل ما تيسّر لأقرانها من الرجال، إذا نظرنا إلى ذلك كله يتضح لنا أن كفة أم المؤمنين رضي الله عنها هي الأرجح على هؤلاء النجوم السبعة.

عدد رواياتها:

لقد تبين لنا من الجدول السابق أن عدد رواياتها يبلغ ألفين ومئتين وعشر روايات، فمنها في الصحيحين: مئتان وست وثمانون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم منها على إخراج مئة وأربع وسبعين حديثاً، وانفرد البخاري بأربع وخمسين حديثاً، وانفرد مسلم بثمان وخمسين حديثاً، وعلى هذا فلها في صحيح البخاري مئتان وثمانية وعشرون حديثاً، وفي صحيح مسلم مئتان واثنان وثلاثون حديثاً، أما بقية مروياتها فهي موزّعة في كتب الأحاديث الأخرى، وتقع مروياتها في المجلد السادس من مسند الإمام أحمد فقط في مئتين وثلاث

وخمسين صفحة من الطبعة المصرية بحيث لو جمعت في صحيفة مستقلة لخرجت في شكل كتاب ضخم.

الاهتمام بالدراية مع الرواية عند المكثرين من الصحابة:

ومما لا شك فيه أن فضل أم المؤمنين عائشة ﵂ ومكانتها العالية ليس في كثرة الرواية فقط، وإنما الشيء الذي يميّزها والجوهر الأصلي الذي يفضّلها هو الدقّة والبراعة في الفهم، والقوة في الاجتهاد والإدراك، والعمق في التفقه والاستنباط، ولذلك نرى أن كبار فقهاء الصحابة وأصحاب الفتيا منهم معظمهم من المقلّين في الرواية. بخلاف الذين يحدثون كل ما يسمعونه فهم عادة يقل فيهم الاعتناء بالفهم والدراية وقوة الاستنباط، ولذلك نرى أن الصحابة الخمس الذين ذكرت أسماؤهم في جدول المكثرين يعدّهم الأصوليّون من رواة الحديث فقط، وهم ليسوا من فقهاء الصحابة، وكل ما لدينا من ذخائر السنّة النبوية وخزائن الحديث الشريف لم نطلع فيها لسيدنا أبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك ﵃، على أي اجتهاد أو استنباط حكم من كتاب أو سنّة لمسألة لم يرد فيها نصّ صريح من الشارع الحكيم. ولم يشارك عائشة ﵂ في هذه الفضيلة العظيمة والميزة المباركة،ـ ألا وهي العناية بالتفقه والاجتهاد وقوة الاستنباط ـ إلا عبد الله بن عباس ﵄،وهو الذي قد رزقه الله ملكة في التفقه في الدين وبراعة في الاجتهاد وإدراكاً في المعرفة وقوة في الاجتهاد والاستنباط مع كثرة الرواية.

اعتناء عائشة ﵂ ببيان حِكَم وأسباب الحكم الشرعي:

هذا وبالإضافة إلى خصائص عائشة في الرواية من الكثرة والتفقه والدراية وقوة التفكير وطاقة الاستنباط والاستخراج هناك ميزة أخرى لمرويات عائشة ﵂ وهي أنها لما تبدأ في بيان الحكم لا تقتصر على بيان حكم من الأحكام الشرعية في مسألة ما، وإنما تقوم بتوضيح علل ذلك الحكم وشرح مصالحها وحكمها، حتى يرسخ ذلك الحكم في ذهن السائل والسامع ويقتنع بمشروعيته، وأوضح دليل على ذلك حديث الاغتسال يوم الجمعة، فقد أخرجه

البخاري في صحيحه عن كل من عبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعائشة رضي الله عنهم متتابعاً، وفيما يلي نص الروايات الثلاث لكي يتضح الفرق بينها:

١ ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من جاء منكم الجمعة فليغتسل»(١).

٢ ـ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»(٢).

٣ ـ حديث عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين: «كان الناس ينتابون يوم الجمعة من منازلهم والعوالي فيأتون في الغبار، يصيبهم العرق والغبار فيخرج منهم العرق، فأتى رسول الله ﷺ إنسان منهم وهو عندي، فقال النبي ﷺ: لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا»(٣).

وفي رواية أخرى لها: «كان الناس مَهَنة أنفسهم، وكانوا إذا راحوا إلى الجمعة راحوا في هيئتهم، فقيل لهم: لو اغتسلتم»(٤).

٤ ـ أمر النبي ﷺ في عام فقال: «لا يأكل أحدكم من لحم أضحيته فوق ثلاثة أيام»، ففهم منه عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما أن هذا حكم مؤبد(٥)، فأفتوا بذلك، ولكن عائشة رضي الله عنها فهمت أن النهي عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث كان من قبيل المندوب والمستحب فقالت: [لحم] الضحية كنا نملّح منه فنقدم به إلى النبي ﷺ بالمدينة، فقال: «لا تأكلوا إلا

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ٨٩٤، وسنن الترمذي كتاب الجمعة برقم ٤٩٢، وسنن النسائي كتاب الجمعة برقم ١٣٧٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ٨٩٥، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجمعة برقم ٨٤٦، وسنن النسائي كتاب الجمعة برقم ١٣٧٧.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ٩٠٢، وصحيح مسلم كتاب الجمعة برقم ٨٤٧، وسنن النسائي كتاب الجمعة برقم ١٣٧٩.

(٤) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ٩٠٣، وصحيح مسلم كتاب الجمعة برقم ٨٤٧، وسنن أبي داود كتاب الطهارة برقم ٣٥٢.

(٥) صحيح البخاري كتاب الأضاحي برقم ٥٥٦٨ و٥٥٧٤، وصحيح مسلم كتاب الأضاحي برقم ١٩٧٠ و١٩٧٣.

ثلاثة أيام»، وليست بعزيمة، ولكن أراد أن يطعم منه، والله أعلم[١]، ثم وضّحت عن علة منع الادّخار، لما سألها ابن ربيعة: أكان رسول الله ﷺ ينهى عن لحوم الأضاحي؟ قالت: لا، ولكن قلَّ من كان يضحّي من الناس، فأحب أن يطعم من لم يكن يضحّي، لقد كنا نرفع الكراع فنأكله بعد عشرة أيام»[٢].

٥ ـ أخرج الخمسة[٣] إلا أبا داود[٤] عن أبي هريرة ﷺ: «أن الذراع كانت أحب اللحم إلى النبي ﷺ» ولكن تروي لنا عائشة ﷺ سبب إعجابه ﷺ بلحم الذراع، فتقول: «ما كان الذراع أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ، ولكن كان لا يجد اللحم إلا غباً، فكان يعجل إليه، لأنه أعجلها نضجاً»[٥].

٦ ـ «رُوي في الأحاديث أن النبي ﷺ كان يبعث عامله إلى خيبر كل سنة، فيذهب العامل وينظر في الثمار ويخرصها»[٦] هكذا يرويه عامة الصحابة، بينما ترويه عائشة ﷺ فتبيّن لنا سبب الخرص وتقول:

«وإنما كان أمر النبي ﷺ بالخرص لكي تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمرة وتفرّق»[٧].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأضاحي برقم ٥٥٧٠.

(٢) سنن الترمذي كتاب الأضاحي برقم ١٥١١.

(٣) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٤٠، وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٧١٢، وصحيح مسلم كتاب الإيمان برقم ١٩٤، وسنن الترمذي كتاب الأطعمة برقم ١٨٣٧، وكتاب صفة القيامة برقم ٢٤٣٤، وسنن ابن ماجه كتاب الأطعمة برقم ٣٣٠٧.

(٤) قلت: وقد أخرجه أبو داود في سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ كتاب الأطعمة برقم ٣٧٨٠، وأخرجه الدارمي في سننه عن أبي عبيد، كتاب المقدمة برقم ٤٤.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الأطعمة برقم ١٨٣٨، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٦) أخرجه ابن الجارود في المنتقى ١/٩٦ برقم ٣٥١، والترمذي في سننه باب ما جاء في الخرص برقم ٦٤٤، وابن حبان في صحيحه ٨/٧٣ برقم ٣٢٧٨، ٣٢٧٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/١٢١ برقم ٧٢٢٣، وأبو داود في سننه باب في خرص العنب برقم ١٦٠٣.

(٧) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٤/٤١ برقم ٢٣١٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٧٦، باب الخرص، وأحمد في مسنده ٦/١٦٣ برقم ٢٥٣٤٤، والبيهقي في السنن=

٧ ـ إن من أسباب قلة الأخطاء في مرويات عائشة رضي الله عنها، أن عامة الناس كانوا يسمعون حديثاً أو يشاهدون قصة مرة واحدة فيحدّثون بها ويروونها، بينما عائشة رضي الله عنها كان منهجها شديداً جداً في هذا الباب، حيث إنها لا تروي حديثاً أو قصة إلا إذا اقتنعت بموردها وتفهمه جيداً، وإذا أشكل عليها أمر فلا يهدأ لها بال ولا يقرّ لها قرار حتى تراجع النبي ﷺ في ذلك الأمر حتى يطمئن قلبها[١]، ولا شك أن هذه الفرصة قلما تتوفر لآخرين.

ولذا نرى أن هناك عدداً كبيراً من الروايات اختلفت فيها رواية عائشة عن رواية الصحابة الآخرين، نظراً إلى المصالح والأسباب والحكم، وسوف نتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل في مبحث «علمها بأسرار الشريعة».

كان من عادتها رضي الله عنها أنها إذا لم تتلق الحديث من فم النبي ﷺ مباشرة، وإنما حدثها به أحد غيره، تسلك في ذلك طريق التحرّي والأخذ بالحيطة، وتفحصه فحصاً كاملاً ثم تعتمد عليه، ذات مرة حُدّثت بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حدثها به عروة، ثم إن عبد الله بن عمرو حج بعد، فقالت: «يا ابن أختي (تقصد عروة) انطلق إلى عبد الله فاستثبت لي منه الذي حدثتني عنه، يقول عروة: فجئته فحدثني به كنحو ما حدثني فأتيت عائشة فأخبرتها، فعجبت وقالت: والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو»[٢].

التحرّي في رواية الحديث:

ولهذا السبب لو جاء أحدٌ يطلب منها أن تحدثه بحديث حدثها به شخص آخر، فلا تسرع في رواية الحديث، وإنما ترسل الطالب إلى الشخص نفسه الذي حدثها به وذلك لكي يتلقى الحديث من مصدره المباشر، كما يكون

= الكبرى ٤/ ١٢٣ برقم ٧٢٣١، وأبو داود في سننه باب في الخرص برقم ٣٤١٣، وعبد الرزاق في المصنف ٤/ ١٢٣ برقم ٧٢٠٣.

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة: أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، (كتاب العلم باب من سمع شيئاً فراجع برقم ١٠٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة برقم ٧٣٠٧.

غرضها من ذلك تقليل الوسائط، والحصول على السند العالي، فمثلاً كان النبي ﷺ يصلّي الركعتين بعد العصر في البيت، والأصل أنه لا تطوع ولا نافلة بعد العصر، فأشكل ذلك على صحابة رسول الله ﷺ فأرسلوا كُرَيباً إلى عائشة رضي الله عنها فقالوا: «اقرأ عليها السلام منا جميعاً، وسلها عن الركعتين بعد صلاة العصر، وقل لها: إنّا أُخبرنا عنك تصلّينها، وقد بلغنا أن النبي ﷺ نهى عنها، قال كريبٌ: فدخلت عليها فبلّغتها ما أرسلوني، فقلت: سل أم سلمة... الحديث»[1].

كذلك في مسألة المسح على الخفين، يقول شريح بن هانىء: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفّين، فقالت: «عليك بابن أبي طالب فسله، فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ..»[2]. وقد أشار الإمام الحازمي رحمه الله في كتاب «الاعتبار» إلى منهج عائشة رضي الله عنها هذا.

ولم يقتصر الأمر عندها أنها جنّبت مروياتها من الأخطاء والتسامحات، بل وصلت إلى درجة أنه يصل أحياناً إلى سمعها عن بعض العلماء من الصحابة روايات وأحكام على غير وجهها، فتصحح لهم ما أخطؤوا فيه أو تبيّن ما خفي عليهم، ولها فضل عظيم يُعترَف به، وجميل لا يُنكَر على الإسلام، إنها استدركت على أقرانها ومعاصريها في مسائل شتى، ونبّهتهم على أخطائهم.

وقد حاول بعض الأئمة في فن الحديث جمع هذه الاستدراكات في رسالة[3] خاصة، وآخرها رسالة العلّامة جلال الدين السيوطي رحمه الله

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ١٢٣٣، وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ٨٣٤، وسنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ١٢٧٣، وسنن الدارمي كتاب الصلاة برقم ١٤٣٦.

(٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة برقم ٢٧٦، وسنن النسائي كتاب الطهارة برقم ١٢٩، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة برقم ٥٥٢.

(٣) أول من صنّف في هذا الموضوع هو أبو منصور عبد المحسن بن محمد بن علي البغدادي، المحدث التاجر الرحلة، عاش في القرن الخامس الهجري، ولد سنة ٤١١هـ ومات سنة ٤٨٩هـ، تلقى الحديث في دمشق، ومصر، والرحبة، وروى عن=

(ت سنة ٩١١هـ)، وقد سمّاها «عين الإصابة فيما استدركته السيّدة عائشة على الصحابة»[(١)] ورتّبها المؤلِّف حسب الأبواب الفقهية، وبالرغم من أن أصول الحديث وقواعده لم يتم تدوينها في عصر الصحابة، إلا أن المراحل الابتدائية لهذا الفن تكون قد بُدِئَت.

الأصول التي تنبني عليها استدراكات عائشة:

وإذا أمعنا النظر فيما استدركته عائشة ﵂ على الصحابة يتبيّن لنا أن استدراكاتها تنبني على الأسس التالية:

أ- لا يُحتَج بالسنّة إذا خالفت الكتاب:

ولعل أول أصل أصّلته عائشة ﵂ في فن الحديث هو أن لا تكون الرواية مخالفة لكتاب الله، ونظراً إلى هذه القاعدة فإنها أنكرت صحة عدة أحاديث، وأوّلتها حسب وجهة نظرها، واستناداً إلى علمها.

ولتوضيح أكثر نضرب الأمثلة الآتية:

١ ـ مسألة تعذيب الميت ببكاء أهله عليه:

روى ابن عمر وابن عباس وآخرون عن النبي ﷺ قوله: «إن الميت ليعذّب

= ابن غيلان والعتيقي وطبقتهما وكتب وحصل الأصول، وجملة ما استدرك في مصنفه خمسة وعشرين حديثاً ينظر: شذرات الذهب ٣/ ٣٩٢ ثم جاء الإمام محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي أبو عبد الله بدر الدين مصري المولد والوفاة تركي الأصل شافعي المذهب، ولد سنة (٧٤٥هـ) وتوفي (٧٩٤هـ) كان إماماً علّامة مصنفاً محرراً أخذ عن جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني، كان فقيهاً أصولياً، أديباً، فاضلاً، مؤلفاته كثيرة كلها نافعة ومفيدة من أهمها كتاب «البحر المحيط في أصول الفقه» و «البرهان في علوم القرآن» و «تخريج أحاديث الرافعي» ومنها رسالة «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» وهي مطبوعة بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، بالمطبعة الهاشمية بدمشق عام ١٣٥٨هـ، (لترجمة الزركشي يراجع: شذرات الذهب ٦/ ٣٣٥، الفتح المبين ٢/ ٢٠٩).

(١) رسالة لطيفة مختصرة لخّصها السيوطي ﵀ من كتاب الزركشي السابق ذكره، وقد طبعت في حيدرآباد الدَّكَّن كما هي مطبوعة مع كتاب «سيرة عائشة ﵂» للعلّامة السيد سليمان الندوي، الذي نحن بصدد ترجمته إلى اللغة العربية.

ببكاء أهله» فذُكر عند عائشة رضي الله عنها قول ابن عمر، فقالت: «رحم الله أبا عبد الرحمن سمع شيئاً فلم يحفظه، إنما مرّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي وهم يبكون عليه، فقال: «أنتم تبكون وإنه ليعذّب»[1] وكان مقصود عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري: «إنه ليعذّب بخطيئته وذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن»[2] لأن البكاء عمل الآخرين فهم يتحملون عقابه وليس الميت، ثم قالت: وحسبكم القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: «والله هو أضحك وأبكى» قال ابن أبي مليكة: «والله ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئاً»[3].

يقول الإمام البخاري رحمه الله وهو يفصّل لنا قول عائشة، وابن عمر رضي الله عنهما: «قول النبي ﷺ يعذّب الميّت ببعض بكاء أهله عليه، إذا كان النوح من سنّته لقول الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ وقال النبي ﷺ: «كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته»، فإذا لم يكن من سنّته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ ذنوباً ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾[4] وهو رأي عبد الله بن المبارك[5].

ولكنني أرى أن استدلال عائشة رضي الله عنها صحيح في كل الصور الثلاث، وقد وافقها في هذه المسألة من الأئمة: الشافعي[6]، ومحمد، والإمام

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٢٨٩، وصحيح مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٣١، وسنن الترمذي كتاب الجنائز برقم ١٠٠٤.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٣٩٧٩، وصحيح مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٣٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٢٨٨، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٢٩.

(٤) صحيح البخاري كتاب الجنائز (ترجمة الباب).

(٥) قال الإمام الترمذي: وقال ابن المبارك: «أرجو إن كان ينهاهم في حياته أن لا يكون عليه من ذلك شيء» (سنن الترمذي باب ما جاء في كراهية البكاء على الميت حديث رقم ١٠٠٢).

(٦) قال أبو عيسى الترمذي: حديث عائشة حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن عائشة، وقد ذهب أهل العلم إلى هذا وتأولوا هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو قول الشافعي (كتاب الجنائز برقم ١٠٠٤).

أبو حنيفة رحمهم الله[١].

٢ ـ مسألة سماع الموتى:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اطّلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: «وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقيل له: يا رسول الله تدعو أمواتاً! فقال رسول الله ﷺ: ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون»[٢] وفي رواية: فقال عمر: «يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، رواه قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة»[٣] فلما ذُكر ذلك لعائشة رضي الله عنها قالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ حتى قرأت الآية»[٤] وحاول علماء الحديث التطبيق بين الروايتين، فقال قتادة التابعي: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً»[٥] يعني أن الله تعالى أودع فيهم قوة السّماع لفترة من الوقت كمعجزة للنبي ﷺ.

٣ ـ الشؤم في ثلاثة في المرأة والدابة والدار:

لما أُخبرت عائشة رضي الله عنها أن أبا هريرة رضي الله عنه يحدث أن نبي الله ﷺ كان يقول: «الشؤم في ثلاثة: في المرأة والدابة والدار» فقالت: لم يحفظ أبو هريرة، لأنه دخل رسول الله ﷺ وهو يقول: «قاتل الله اليهود، يقولون الشؤم في ثلاثة في الدار والمرأة والفرس»[٦] فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله».

روى الإمام أحمد في مسنده أن أبا بردة جاء إلى عائشة رضي الله عنها فقال:

---

(١) يراجع موطأ الإمام محمد.
(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٣٧٠.
(٣) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٣٩٧٦.
(٤) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٣٩٨١، وصحيح مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٣٢، وسنن النسائي كتاب الجنائز برقم ٢٠٧٦.
(٥) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٣٩٧٦.
(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ١/ ٢١٥ برقم ١٥٣٧.

«يا أمّتاه حدثيني شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقالت: قال رسول الله ﷺ: الطير تجري بقدر، وكان يعجبه الفأل الحسن»(١) وفي رواية أنها لما سمعت حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق قالت: «والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول...» ثم قرأت: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢](٢).

كما أنه يوجد هناك بعض الروايات يمكن بها التطبيق بين روايتي عائشة، وأبي هريرة رضي الله عنهما ومنها: قوله ﷺ: «إن كان الشؤمُ في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»(٣) وهذا ليس حكاية للواقع وإنما على صورة التعليق(٤).

٤ ـ رؤية النبي ﷺ الرب تعالى:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: «إن محمداً ﷺ رأى ربّه مرتين، مرة ببصره، ومرة بفؤاده»(٥) فسأل مسروق عائشة رضي الله عنها فقال: يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: لقد قفّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث، من حدَّثكهن فقد كذب، من حدَّثك أن محمداً ﷺ رأى ربّه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. وقد وردت أحاديث أخرى صحيحة في تأييد قول عائشة رضي الله عنها كما في صحيح

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ١٢٩ برقم ٢٥٠٢٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٥٠ برقم ٢٥٢٠٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢١ برقم ٣٧٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٤٠، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ١/ ١٠٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥٠٩٤، ومسلم في صحيحه كتاب السلام برقم ٢٢٢٥، وأبو يوسف في كتاب الآثار ١/ ١٩٩ برقم ٩٠٠، والطبراني في الأوسط ٧/ ٢٧٩ برقم ٧٤٩٧.

(٤) عين الإصابة للسيوطي نقلاً عن الإجابة للزركشي ص ٢٩ـ ١٢٧.

(٥) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٧٩ وقال: رواه الطبراني في الأوسط ٦/ ٥٠ برقم ٥٧٦١، ورجاله الصحيح خلا جهور بن منصور الكوفي وذكره ابن حبان في الثقات، كما أورده البيهقي في الاعتقاد ١/ ٣٠٤، والقرطبي في تفسيره ٧/ ٥٦ و ١٧/ ٩٢ وكذلك ابن كثير في تفسيره ٤/ ٢٥١.

الإمام مسلم قال الرسول ﷺ: «نور أنّى أراه»[1].

٥ ـ قضية المتعة:

كانت المتعة[2] مباحة في الجاهلية، وفي الإسلام حتى السنة السابعة من الهجرة النبوية، ثم حرّمها الإسلام وأعلن تحريمها في غزوة خيبر، وكان ابن عباس رضي الله عنه ومعه بعض الصحابة يقولون بإباحتها، ولكن جمهور الصحابة يقولون بتحريمها، ويستدلون عليه بأحاديث مختلفة صحيحة وصريحة، ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن المتعة لم تُجب مستدلة بالحديث الشريف وإنما قالت: بيني وبينهم كتاب الله[3]، ثم قرأت: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنين: ٥ ـ ٦] فلا يجوز للمؤمن إلا هاتان الصورتان، ومعلوم أن المرأة التي ينكحها الإنسان عن طريق المتعة لا تكون زوجة ولا مما ملكت يمينه، فلا تجوز.

٦ ـ ولد الزنا شرُّ الثلاثة:

بلغ عائشة رضي الله عنها أن أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «ولد الزنا شرّ الثلاثة» فقالت: أما قوله: «ولد الزنا شر الثلاثة» فلم يكن الحديث على هذا، إنما كان رجل من المنافقين يؤذي رسول الله ﷺ فقال: من يعذرني من فلان؟ قيل: يا رسول الله، مع ما به ولد زنا، فقال رسول الله ﷺ: «هو شرّ الثلاثة والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] يعني أن التقصير كان من الوالدين فما ذنب الابن فيه»[4].

ب ـ الوصول إلى فحوى الكلام ولُبّه:

إن اختلاف بعض الصحابة في رواية بعض الأحاديث قد يكون ناتجاً عن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان برقم ١٧٨، والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن برقم ٣٢٨٢.

(٢) المتعة هي: أن يقول الرجل لامرأة: خذي هذه العشرة، وأتمتع بك مدة معلومة، فتقبله. (التعريفات للجرجاني ص ٣١٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣٤ برقم ٣١٩٣ و ٢/ ٤٢٧ برقم ٣٤٨٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٠٦ برقم ١٣٩٥٢.

(٤) عين الإصابة للسيوطي ص ٣٠٩ والإجابة للزركشي ص ١٣٤ ـ ١٣١.

الاختلاف في فهم لُبّ الكلام وإدراك فحواه الحقيقي، وعائشة رضي الله عنها كانت من أولئك اللاتي أكرمهن الله تعالى بحظ وافر ونصيب كامل من نعمة الفهم، والذكاء المتوقّد، والفطنة النادرة، فاستغلت رضي الله عنها هذه الموهبة الربّانية في فهم السنّة النبوية وإدراك روحها الحقيقي، والأمثلة التالية توضّح ما قلناه سابقاً:

١ ـ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً»(١) ثم دخل أبو هريرة على عائشة رضي الله عنها فقالت: يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقها، فقال أبو هريرة: سمعته منه، يعني النبي ﷺ، فقالت عائشة: «أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا، قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه في هرة، فإذا حدثْتَ عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدث»(٢).

٢ ـ عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها ثم قال: «سمعت رسول الله ﷺ: إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها»(٣) فلما سمعت عائشة رضي الله عنها بحديث أبي سعيد قالت: «رحم الله أبا سعيد كان قصد النبي ﷺ باللباس أعمال الإنسان»(٤) وقد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

(٢) مسند الطيالسي ١/١٩٩ برقم ١٤٠٠، وأخرجه أحمد في مسنده ٢/٥١٩ برقم ١٠٧٣٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٩٠ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجنائز برقم ٣١١٤، والحاكم في المستدرك ١/٤٩٠ برقم ١٢٦٠ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/٣٨٤ برقم ٦٣٩٥، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٤/٢٠٥ برقم ٥٤١٧، وقال: رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه، وفي إسناده يحيى بن أيوب وهو الغافقي المصري، احتج به البخاري ومسلم وغيرهما، وله مناكير، وقد قال أبو حاتم: لا يحتج به، وقال أحمد: سيئ الحفظ، وقال النسائي: ليس بالقوي.

(٤) تأويل عائشة رضي الله عنها للحديث وإنكارها على أبي سعيد الخدري ذكره السيوطي في عين=

قال النبي ﷺ: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً» وفي رواية: «حفاة عراة مشاة غرلاً»[١].

٣ ـ الأصل في الإسلام أن المطلقة تعتد في بيت زوجها، لكن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها تحكي قصتها خلاف ذلك وتقول: إن النبي ﷺ أذن لها بالخروج من بيت زوجها أيام اعتدادها، كما أنها احتجت بقصتها في مختلف الأوقات عند عدد من الصحابة الكرام، فقبل بها البعض ورفضها الأكثرون، ثم حدث أن يحيى بن سعيد بن العاص طلّق ابنةَ عبد الرحمن بن الحكم، فأخرجها عبد الرحمن من بيته، فأرسلت عائشة أم المؤمنين إلى مروان بن الحكم وهو أمير المدينة: اتق الله واردها إلى بيتها» قال مروان: أو ما بلغك شأن فاطمة بنت قيس؟ قالت: «لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة»[٢] وفي رواية: «قالت: أما إنه ليس لها خير في ذكر هذا الحديث» وزاد ابن أبي الزناد: «وعابت عائشةُ أشدّ العيب، وقالت: إن فاطمة كانت في مكان وحش فخيف على ناحيتها، فلذلك أرخص لها النبي ﷺ»[٣].

٤ ـ روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحبّ إليّ أن أعتق ولد زنية»[٤] دلّ الحديث على أن ولد الزنا إذا

= الإصابة ص ٣٠١، وقال الزركشي: ورأيت في كتاب أصول الفقه لأبي الحسين أحمد بن القطان من قدماء أصحابنا من أصحاب ابن سريج في الكلام على الرواية بالمعنى: أن أبا سعيد رضي الله عنه فهم من الحديث أن النبي ﷺ أراد بالثياب الكفن، وأن عائشة رضي الله عنها أنكرت عليه ذلك وقالت: يرحم الله أبا سعيد إنما أراد النبي ﷺ عمله الذي مات عليه» (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي ص ١٤٦).

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٤٩ و ٣٤٤٧، وكتاب التفسير برقم ٤٦٢٥، وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها برقم ٢٨٥٩ و ٢٨٦٠.

(٢) صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم ٥٣٢٢، وصحيح مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٨١.

(٣) صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم ٥٣٢٦، وسنن أبي داود كتاب الطلاق برقم ٢٢٩٢ وسنن ابن ماجه كتاب الطلاق ٢٠٣٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٣٣ برقم ٢٨٥٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

كان رقيقاً فلا ثواب في إعتاقه، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها بحديث أبي هريرة هذا قالت: «رحم الله أبا هريرة أساء سمعاً فأساء إصابة» أما قوله: «لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أعتق ولد الزنا» أنها لما نزلت: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٣] قيل: يا رسول الله ما عندنا ما نعتق، إلا أن أحدنا له جارية سوداء تخدمه وتسعى عليه، فلو أمرناهن فزنين فجئن بالأولاد فأعتقناهم، فقال رسول الله ﷺ: «لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحبّ إليّ أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد»[(١)].

٥ - أخرج أصحاب الصحاح إلا أبا داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الذراع كانت أحب اللحم إلى النبي ﷺ، فلمَّا سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت: «ما كان الذراع أحبّ اللحم إلى رسول الله ﷺ، ولكن كان لا يجد اللحم إلا غباً، فكان يعجل إليه، لأنه أعجلها نضجاً»[(٢)].

٦ - روي عن عمر رضي الله عنه وغير واحد من الصحابة أن لا صلاة بعد صلاة الصبح والعصر، فلمَّا سمعت عائشة رضي الله عنها قالت: وهم عمر، إنما نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة أن يتحرى طلوع الشمس وغروبها»[(٣)].

هذا وقد علّل الفقهاء المنع بأن هذا وقت عبادة الشمس، فوجب تجنّب التشبّه بعُبّاد الشمس، وإن صحّ هذا فما ذهبت إليه عائشة رضي الله عنها هو أقرب إلى الصواب، وأصح وأنسَب من حيث الدراية، ويُعلَم من ذلك أن عائشة رضي الله عنها كانت قد فهمت علة المنع والغرض منه، وقد ورد في الحديث أن من تفوته الركعتان قبل الفجر يصليهما بعد صلاة الفجر[(٤)]، وقال قوم من أهل مكة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٣٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الأطعمة برقم ١٨٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٨٣٣، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٢٤، وأما قول عمر رضي الله عنه ومعه علي، وعقبة بن عامر، وأبو هريرة، وابن عمر، وسمرة بن جندب رضي الله عنهم، ذكره الترمذي في سننه كتاب الصلاة برقم ١٨٣.

(٤) أخرج الترمذي في سننه عن قيس قال: «خرج رسول الله ﷺ فأقيمت الصلاة فصلّيت معه الصبح، ثم انصرف النبي ﷺ فوجدني أصلّي فقال: مهلاً يا قيس أصلاتان معاً؟ =

بهذا، حيث لم يروا بأساً أن يصلّي الرجل الركعتين بعد المكتوبة قبل أن تطلع الشمس، كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يصلّي بعد العصر ركعتين، وروي عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ ما دخل عليها بعد العصر إلا صلّى ركعتين»[1] فكان بعض الصحابة يصلونهما، والبعض الآخر يقولون: إنهما مما اختصّ به النبي ﷺ، وروي عن أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ عن هاتين الركعتين فقال ﷺ: إنه شُغل عن ركعتي الظهر فصلاهما بعد العصر[2].

وعلى كل يبدو أن رواية عائشة رضي الله عنها هي الأقوى والأنسب نظراً إلى الروايات السابقة، ولكونها أقرب إلى المصلحة الشرعية والمعقول.

لكن شخصية عمر رضي الله عنه أيضاً ليست من عامة الناس حتى لا يُدرك روح الشريعة ومقصد كلام النبي ﷺ وغرضَه من المنع، مثلما فهمت عائشة رضي الله عنها، والأصل أن الشريعة إنْ تمنع من شيء فإنها تمنع من مبادئها كذلك، فالصلاة ممنوعة عند طلوع الشمس وغروبها، ولكن أطلق عليه بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر لكي لا تُصلى صلاة بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ومن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس.

٧ ـ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من لم يوتر فلا صلاة له» فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: مَن سمع هذا من أبي القاسم ﷺ؟ والله ما بعد العهد وما نسيت، إنما قال أبو القاسم ﷺ: «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً، فليس له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه»[3] والمقصود أن الوتر

= قلت: يا رسول الله إني لم أكن ركعت ركعتي الفجر، قال: فلا إذن» (كتاب الصلاة برقم ٤٢٢، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الصلاة برقم ١١٥٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج برقم ١٦٣١، وصحيح الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٨٣٥، وسنن النسائي كتاب المواقيت برقم ٥٧٥.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه مفصلاً عن أم سلمة رضي الله عنها، كتاب صلاة المسافرين برقم ٨٣٤، والنسائي في سننه كتاب المواقيت برقم ٥٧٩.

(٣) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٩٣و ١/ ٢٩٢، والمعجم الأوسط للطبراني ٤/ ٢١٥ =

تطوع وسنّة، ومعاقبة تاركه بعدم قبول صلاته معناه أنه لا يُغفر له أبداً، والمعاقبة بعدم الغفران تكون على ترك الفرائض وليست على ترك السنن.

ج ـ المعرفة الشخصية:

لقد هيّأ الله ﷻ لأم المؤمنين عائشة ﵂ كل الأسباب التي جعلت منها أحد الأعلام حاملي علوم النبوة، ومعروف أن الزوجة أدرى الناس بأقوال زوجها وأفعاله، ولما كان النبي ﷺ أسوة حسنة ونموذجاً مثالياً للأمة جمعاء، كانت سنّته الفعلية والعملية بمثابة القوانين، وقد توفّر للأزواج المطهّرات من وسائل وإمكانات المعرفة الشخصية لأقوال النبي ﷺ وأفعاله ما لم يتوفر للآخرين، وتراثنا الفقهي الإسلامي غني بتلك القضايا والمسائل التي قضى فيها: أصحاب النبي ﷺ بحكم لجوءاً إلى اجتهادهم الشخصي أو استناداً إلى حديث يعرفونه، بينما رفضت عائشة ﵂ ذلك الحكم نظراً إلى علمها الخاص ومعرفتها الشخصية واطلاعها الذاتي على الحكم الذي قد لا يطلع عليه الآخرون، وظلّ قولها هو المعوّل عليه والمعتمد في تلك المسائل إلى يومنا هذا، وفيما يلي بعض الأمثلة:

١ ـ كان عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ يفتي أن النساء إذا اغتسلن ينقضن رؤوسهن فبلغ ذلك عائشة ﵂ فقالت: «يا عجباً لابن عمرو، هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلّقن رؤوسهن، لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات»(١).

٢ ـ كان ابن عمر ﵄ يفتي بانتقاض الوضوء من التقبيل، فلما سمعت عائشة ﵂ بذلك قالت: «إن النبي ﷺ قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قال الراوي: قلت: من هي إلا أنت؟ قال: فضحكت»(٢).

= برقم ٤٠١٢، وانظر كذلك الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٣٤.

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الطهارة برقم ٣٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الطهارة برقم ٨٦، والنسائي في سننه كتاب الطهارة=

٣ ـ سمعت عائشة رضي الله عنها حديث أبي هريرة: «يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة» فقالت: «قد شبّهتمونا بالحمير والكلاب، والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وأنّي على السرير بينه وبين القِبلة مضطجعة، فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي النبي ﷺ فأنسلّ من عند رجليه»(١) وفي رواية مسلم: «كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قِبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجليّ وإذا قام بسطتهما»(٢).

٤ ـ روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه خطب فقال: «من أدركه الصبح فلا وتر له» فذُكر ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: «كذبَ أبو الدرداء، كان رسول الله ﷺ يُصبح فيوتر»(٣).

٥ ـ قال بعض الناس: إن النبي ﷺ كُفّن في حُلّة يمنية، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت: «أدرج رسول الله ﷺ في حلة يمنية كانت لعبد الله بن أبي بكر، ثم نُزعت عنه، وكفن في ثلاثة أثواب سحولية يمانية ليس فيها عمامة ولا قميص»(٤).

٦ ـ كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «من أصبح جنباً فلا يَصُمْ، فانطلق أبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام وأبوه حتى دخلا على أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما، فكلاهما قالت: «كان رسول الله ﷺ يُصبح جنباً ثم يصوم، فانطلق أبو بكر وأبوه إلى أبي هريرة فحدثاه، فقال: هما أعلم»(٥).

= برقم ١٧٠، وأبو داود في سننه كتاب الطهارة برقم ١٧٨، وابن ماجه في سننه كتاب الطهارة برقم ٥٠٢.

(١) صحيح البخاري كتاب الصلاة برقم ٥١٤، وصحيح مسلم كتاب الصلاة برقم ٥١٢.

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب الصلاة برقم ٥١٢.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٧٨ برقم ٤٢٩٨، وذكره المقريزي في مختصر كتاب الوتر ١/ ١٥٧ برقم ٧٢، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٤٦ وحسّن إسناده، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٤٢ برقم ٢٦١٠٠.
قلت: أهل الحجاز يستعملون (كذبَ) بمعنى (أخطأ) فليعلم ذلك (الناشر).

(٤) صحيح الإمام مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٤١، وصحيح البخاري.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصوم برقم ١١٠٩، وابن حبان في صحيحه ٨/ ٢٦١ =

٧ ـ إن المحرم يحل له كل شيء بعد الرمي والحلق إلا الطيب والنساء[١]، ولكن عائشة رضي الله عنها ترى أنه لا حرج في الطيب، وتقول: «طيّبت رسولَ الله ﷺ بيديّ هاتين حين أحرم ولحِلّه حين أحل قبل أن يطوف» وبسطَتْ يديها[٢].

٨ ـ كان ابن عباس رضي الله عنهما يفتي أن من أهدى هدياً حَرُم عليه ما يحرُمُ على الحاجّ حتى ينحر هديه، فلما سمعت بذلك عائشة رضي الله عنها قالت: «ليس كما قال ابن عباس، أنا فتلت قلائد هدي رسول الله ﷺ بيدي، ثم قلّدها رسول الله ﷺ بيده، ثم بعث به مع أبي، فلم يحرم على رسول الله ﷺ شيء أحله الله حتى نحر الهدي»[٣].

٩ ـ كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «ما أحب أن أصبح محرماً أنضخ طيباً، لَأَن أُطلَى بقَطِران أحبّ إليّ من أن أفعل ذلك» فذُكر قول ابن عمر لعائشة رضي الله عنها فقالت: «أنا طيّبت رسول الله ﷺ ثم طاف في نسائه ثم أصبح محرماً»[٤] وأحياناً كانت تقول: «كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم»[٥].

= برقم ٣٤٨٦، وأخرجه الترمذي بدون القصة كتاب الصوم برقم ٧٧٩، والدارمي في سننه ٢/ ٢٣ برقم ١٧٢٥، وأبو داود في سننه كتاب الصوم برقم ٢٣٨٨.

(١) هذا مذهب بعض أصحاب النبي ﷺ مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو مذهب الأحناف، أما غيرهم فيرون أنه يحل له كل شيء إلا النساء، وهو قول الشافعي، وأحمد، وإسحاق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه باب الطيب عند رمي الجمار والحلق قبل الإفاضة برقم ١٧٥٤، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه باب إشعار البدن برقم ١٦٩٩، ١٧٠٠، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١٣٢١، وينظر: المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ٣/ ٣٩٧ برقم ٣٠٥٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الغسل برقم ٢٧٠، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١١٩٢، والنسائي في سننه كتاب الغسل برقم ٤١٧، وكتاب الحج برقم ٢٧٠٤.

(٥) صحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٥٣٨، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١١٩٠.

د ـ الذاكرة القوية والحافظة النادرة:

إن قوة الذاكرة والحافظة من منح الله تعالى الغالية والثمينة، وقد رُزقت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حظاً وافراً من هذه النعمة الجليلة، وقد مرّ معنا حفظها آيات من القرآن الكريم أثناء لعبها مع صديقاتها في صباها. ومعروف أن الذاكرة تلعب دوراً بارزاً وأساسياً في مجال رواية الأحاديث الشريفة، فحفظ الوقائع التي كانت تقع في العصر النبوي ليل نهار صباح مساء، ووعيها بمعنى الكلمة ثم القيام بأدائها كما هي وبتعبير وألفاظ النبي ﷺ، هذا كله من أهم وأعظم مسؤوليات المحدّث، ومن أكبر واجباته.

ولذا نلاحظ أن ما استدركته عائشة رضي الله عنها على أقرانها ومعاصريها وأنكرت عليهم من بعض الأمور، إنما يرجع إلى التفاوت في مراتب قوة الحفظ واختلاف درجات الوعي، وما يأتي من الأمثلة يوضّح ما قلناه:

١ ـ لما مات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أمرت عائشة رضي الله عنها أن يمرّ بجنازة سعد بن أبي وقاص في المسجد فتصلّي عليه، فأنكر الناس ذلك عليها، فقالت: «ما أسرع ما نسي الناس، ما صلّى رسول الله ﷺ على سهيل بن البيضاء إلا في المسجد»[(١)].

٢ ـ سأل الناس عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ قال: «أربعاً، إحداهن في رجب، فقال عروة: يا أماه يا أم المؤمنين ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: ما يقول؟ قال: يقول: إن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمرات إحداهن في رجب، قالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر عمرة إلا وهو شاهده، وما اعتمر في رجب قط»[(٢)].

٣ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون، فذكروا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجنائز برقم ٩٧٣، ومالك في الموطأ كتاب الجنائز برقم ٥٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج برقم ١٧٧٦، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١٢٥٥.

ذلك لعائشة فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن، إنما قال: الشهر يكون تسعاً وعشرين»[1].

٤ ـ روى غير واحد من أصحاب النبي ﷺ (ومنهم عمر وابن عمر رضي الله عنهما) قوله ﷺ: «الميت يعذب ببكاء أهله عليه» فلما بلغ عائشة قول عمر وابن عمر قالت: «إنكم لتحدثوني عن النبي ﷺ غير كاذبين ولا مكذِّبين، ولكن السمع يخطىء»[2] وفي رواية: «رحم الله أبا عبد الرحمن سمع شيئاً فلم يحفظه»[3].

وفي رواية قالت: «يغفر الله لأبي عبد الرحمن، أما إنه لم يكذب ولكنه نسي أو أخطأ» ثم قالت: «إنما مرّ رسول الله ﷺ على يهودية يُبكى عليها، فقال: إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذّب في قبرها»[4].

جمع وتدوين مرويات أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

لقد بدأ علماؤنا رحمهم الله منذ منتصف القرن الهجري الأول بجمع وتحرير مرويات صحابة رسول الله ﷺ وتدوينها في الكتب والصحف، وفي مستهلّ القرن الثاني الهجري لما تولّى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمور الخلافة، وولّى أبا بكر بن عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه على المدينة، وكان فضل علمه وكماله يرجع إلى خالته عمرة التي تربّت في كنف عائشة رضي الله عنها، وكانت أحد الثقات العالمات بعائشة والأثبات فيها، وكانت من أعلم الناس بحديثها، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ٥١ برقم ٢٤٢٩٢ و ٦/ ٢٤٣ برقم ٢٦١٠٩.

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٢٨، وسنن النسائي كتاب الجنائز ١٨٥٨، ومسند الإمام أحمد ٦/ ٢٨١ برقم ٢٦٤٥٢.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٣١.

(٤) صحيح الإمام مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٣٢، وسنن الترمذي كتاب الجنائز برقم ١٠٠٦، وسنن النسائي كتاب الجنائز برقم ١٨٥٦، ومسند الإمام أحمد ٦/ ٣٩ برقم ٢٤١٦١ و ٦/ ١٠٧ برقم ٢٤٨٠٢ و ٦/ ٢٥٥ برقم ٢٦٢٢٣.

«أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة فاكتبه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله»[١].

* * *

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤٨٠، والتمهيد لابن عبد البر ١٧/ ٢٥١، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٢/ ٤٦٦، رقم الترجمة ٢٨٥٠.
قلت: انظر (الرسالة المحمدية) للمؤلف (الناشر).

المبحث الثالث

علمها بالفقه والقياس
وأصولها في الاجتهاد

إذا تأملنا من وجهة النظر الأصولية يتضح لنا أن الكتاب والسنّة بمثابة الأدلة. والفقه هو اسم للاستنباطات والنتائج المستخرجة من تلك الدلائل، وما سبق حول عنوان «الحديث» و «القرآن» وما سيأتي لاحقاً حول عنوان «الإفتاء والإرشاد» كل ذلك سوف يجلّي لنا مكانة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في علم الفقه، وما هي الأصول التي تستند إليها في استنباط المسائل والاجتهاد والقياس.

وكما هو معروف فإن شخصية الرسول ﷺ كانت هي المصدر الوحيد للتعليم والإفتاء والإرشاد في العصر النبوي، ثم خلفه بعد انقراض هذا العصر المبارك كبارُ الصحابة الأَكْفاء العدول الذين حملوا هذه الأمانة العلمية والفقهية والقوة الاجتهادية من قائد هذا الركب المبارك ﷺ، فكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إذا عُرضت عليهما قضية جديدة يناديان في العلماء فيجتمعون ثم يستشيرانهم فيها، فإن وجدا أحداً عنده حديث سمعه من رسول الله ﷺ يحدث الناس به، وإلا كانا يقيسانه على الحكم المنصوص عليه ثم يحكمان.

وظل هذا المجمع الفقهي الإسلامي منوطاً بالمركز النبوي حتى مستهل عصر الخلافة الثالثة، ولما اشتعلت نيران الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه، وعم الاضطراب، وشاعت الغوغاء، وبدأ الناس يغادرون إلى مكة، والطائف، والشام، والبصرة، ثم اتخذ علي رضي الله عنه الكوفة مقراً للخلافة، وانتشرت هذه الطائفة المباركة التي تربّت في ظلال الحبيب المصطفى ﷺ في شتى البلاد، وهذا الانتشار وإن أدى إلى توسيع نطاق العلم والفقه في مختلف أرجاء البلاد وأطرافها، إلا أنه خلّف تأثيراً سلبياً في جانب، ألا وهو القضاء على الوحدة

الاجتماعية التي شاهدها العصر سابقاً، وإن بقي هذا الاتحاد والتجمع في مكان، فكان في رحاب بيوت النبي ﷺ.

وكان عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبّاس، وأبو هريرة وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم هم الأربعة المشهورون الذين تبوؤا مناصب الفقه، ومنابر الإفتاء والدعوة والإرشاد في المدينة المنوّرة بعد خلوّها من كبار الصحابة، علماً أن هؤلاء الأربعة تختلف وجهات نظرهم، وتتباين أصولهم ومناهجهم في استنباط الأحكام للوقائع الجديدة التي لم يرد في حكمها نص صريح، فكان منهج عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما إذا عرض عليهما حادث بحثا عن حكمه في الكتاب والسنّة والأثر، فإن وجداه أفتيا به، وإن لم يجدا سكتا عنه، أما عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فإنه لا يقتصر على البحث في الكتاب والسنّة وإنما يقيس الوقائع الجديدة على الأحكام المنصوص عليها، ثم يفتي بما يراه مناسباً من حيث العقل.

القرآن الكريم:

أما عائشة رضي الله عنها فكان منهجها أنها كانت ترجع أولاً إلى كتاب الله العزيز، ثم إلى السنّة النبوية ثم إلى القياس وإلحاق النظير بالنظير، وقد سبق أن ذكرنا في مبحث «مكانتها في الحديث» استدلالها بالآيات القرآنية بشكل تلقائي، فذات مرة سُئلت عن متعة النساء فقالت: بيني وبينكم كتاب الله، وقرأت: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٦][1] والمرأة المتمتّع بها ليست بزوجة ولا أمة، فلا تجوز المتعة.

وسألها رجل عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: «ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم»[2] وكأنها استنبطت

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣٤ برقم ٣٩١٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٠٦ برقم ١٣٩٥.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ٢/ ٢٢٤، وكذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٠٦.

هذا الحكم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣].

جاءت أمٌّ محبة إلى عائشة ﵂ فقالت لها: «يا أم المؤمنين أكنت تعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته جارية إلى عطائه بثمانمئة نسيئة، وإنه أراد بيعها فاشتريتها منه بستمئة نقداً، فقالت لها: بئس ما اشتريت وبئس ما اشترى أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب»(١) ومعنى ذلك أن عائشة ﵂ قرّرت المئتين في هذه الصورة من الربا، وقد اقتصرت بعض الروايات على ذكر هذه القصة دون التطرق إلى مستند عائشة في هذا الحكم، إلا أن هناك روايات أخرى(٢) تصرّح أن مستندها في هذا الحكم هو قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

يقول الباري تعالى في عدة المطلقة: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨] واختلف العلماء في تحديد معنى القرء، ولما طُلّقت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وانتقلت حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فذُكر ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة، وقد جادلها في ذلك ناس، فقالوا: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ فقالت عائشة ﵂: «صدقتم، تدرون، إنما الأقراء الأطهار»(٣).

يقول الإمام مالك ﵀ وهو يروي عن ابن شهاب قال: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: «ما أدركت أحداً من فقهائنا إلا وهو يقول هذا، يريد قول عائشة»(٤).

أما أهل العراق فيفسّرون الأقراء بالحيض.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٣٠ برقم ١٠٥٧٩ و ١٠٥٨٠، والدارقطني في سننه ٣/ ٥٢ برقم ٢١١، وعبد الرزاق في المصنف ٨/ ١٨٥ برقم ١٤٨١٢، ١٤٨١٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) موطأ الإمام مالك ٢/ ٥٧٦ برقم ١١٩٧.
(٤) المصدر السابق برقم ١١٩٨.

السنّة النبوية:

إن السنّة النبوية تلي الكتاب في المرتبة والمكانة.

* وقد عُرض على عائشة رضي الله عنها موضوع التخيير بحيث إذا خيّر الزوج امرأته في الطلاق فرفضت هذا الخيار واختارت زوجها فهل يقع عليها طلاق أم لا؟ ذهب علي وزيد رضي الله عنهما إلى وقوع طلقة واحدة عليها، بينما ترى عائشة رضي الله عنها عدم وقوع الطلاق، واحتجت بمسألة التخيير حيث قالت: «خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدّه طلاقاً»[(1)]. وفي رواية: «خيّرنا رسول الله ﷺ أفكان طلاقاً»[(2)]؟!

* لو أعتق أحد عبده فإنها تحدث قرابة الولاية بين المعتق والعتيق، ويجري التوارث بينهما، ويصبح المولى قريباً للمعتق شرعاً، وهكذا دخل غلام على عائشة رضي الله عنها وقال: يا أم المؤمنين إني كنت غلاماً لعتبة بن أبي لهب، وإن عتبة مات، وورثني بنوه، وإنهم باعوني من عبد الله بن أبي عمرو المخزومي، فأعتقني ابن أبي عمرو، واشترطوا (أي بنو عتبة) ولائي، فمولى مَن أنا؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: «دخلت عليّ بريرة وهي مكاتبة، فقالت: اشتريني يا أم المؤمنين فأعتقيني، فقلت: نعم، فقالت: إن أهلي لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: اشتريها وأعتقيها، الولاء لمن أعتق، وإن اشترطوا مئة شرط»[(3)].

وفي رواية أخرى كانت بريرة مكاتبة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: اشتريني وأعتقيني، قالت: نعم، قالت: لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي،

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق برقم ٥٢٦٢، ومسلم في صحيحه كتاب الطلاق برقم ١٤٧٧، والنسائي في سننه كتاب النكاح برقم ٣٢٠٣.

(2) صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم ٥٢٦٤، وصحيح مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٧٧، وسنن الترمذي كتاب الطلاق برقم ١١٧٩، وسنن النسائي كتاب النكاح برقم ٣٢٠٢.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العتق برقم ٢٥٦٥، صحيح مسلم كتاب العتق برقم ١٥٠٤، سنن أبي داود كتاب العتق برقم ٣٩٢٩، موطأ الإمام مالك كتاب العتق برقم ١٥١٩.

فقالت: لا حاجة لي بذلك، فسمع بذلك النبي ﷺ أو بلغه فقال: اشتريها وأعتقيها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا، فأعتقَتْها عائشة ﵂، واشترط أهلها الولاء، فقال النبي ﷺ: «الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مئة شرط».

تقول عائشة ﵂: «وكان في بريرة ثلاث سنن: خُيّرت على زوجها حين عُتقت، وأهدي لها لحم فدخل عليّ رسول الله ﷺ والبُرمة على النار، فدعا بطعام فأتي بخبز وأدم من أدم البيت، فقال: ألم أر برمة على النار فيها لحم؟ فقالوا: بلى يا رسول الله ذلك لحم تُصُدِّق به على بريرة، فكرهنا أن نطعمك منه، فقال: هو عليها صدقة، ولنا هدية»[1].

هذه القصص ولو كانت بسيطة في نظر العامة إلا أن عائشة ﵂ استنبطت منها عدة أصول وقواعد فقهية، كما أن قصة بريرة أطلعتنا على ثلاثة من أحكام الإسلام، وهي:

١ ـ الولاء لمن أعتق.

٢ ـ الجارية تخيّر على زوجها حين تُعتق.

٣ ـ لو تصدق بمال على صاحب حاجة وهو أهداه إلى غيره يجوز أخذه، وذلك لوجود التغير في الحقيقة والماهية.

وهناك بعض الاستنباطات الأخرى لم تصرح بها أم المؤمنين لكن كلامها يقتضيها، ثم بنى عليها الفقهاء والأصوليون والمجتهدون جزئيات وفروعاً فقهية كثيرة.

* الكل يعرف أن حوالي مئة ألف صحابيّ كانوا مع الرسول ﷺ في حجة الوداع، وكان منهم كبار الصحابة، وكل ما حدث في هذا السفر حفظه الصحابة الكرام، وكذلك عائشة ﵂ حفظته، وكل تلك الوقائع مسجّلة محفوظة في الأحاديث، إلا أن ما حدَّثت به عائشة ﵂ من وقائع هذا السفر

---

(١) صحيح البخاري باب الحرة تحت العبد برقم ٥٠٩٧ و ٥٢٧٩ و ٥٤٣٠، كتاب الأطعمة، وصحيح مسلم كتاب العتق برقم ١٥٠٤، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١٠١/٤ برقم ٢٤٤٩، وابن حبان في صحيحه ٥١٨/١١ برقم ٥١١٦.

المبارك أصبحت بمثابة الأصول والقواعد لدى المجتهدين يعتمدون عليها في بيان الأحكام وتفريع الفروع.

ولما قدمت ﵂ مكة حاضت فلم تقدر أن تطوف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قضوا الحج أرسلها النبي ﷺ مع عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم فاعتمرت، فقال: «هذه مكان عمرتك»(١).

قال الإمام ابن القيم(٢) ﵀ بعد ذكر هذه الرواية:

«وحديث عائشة هذا يؤخذ منه أصول عظيمة من أصول المناسك:

أحدها: اكتفاء القارن بطواف واحد وسعي واحد.

الثاني: سقوط طواف القدوم عن النساء في حالة العذر.

الثالث: أن إدخال الحج على العمرة للحائض جائز، كما يجوز للطاهر، وأَوْلى، لأنها معذورة محتاجة إلى ذلك.

الرابع: أن الحائض تفعل أفعال الحج كلها إلا أنها لا تطوف بالبيت.

الخامس: أن التنعيم من الحل.

السادس: جواز عمرتين في سنة واحدة، بل في شهر واحد.

السابع: أن المشروع في حق المتمتع إذا لم يأمن الفوات أن يدخل الحج على العمرة.

الثامن: أنه أصل في العمرة المكية»(٣).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٥٥٦ و ١٦٣٨ و ١٦٥١ و ١٧٨٥، وكتاب المغازي برقم ٤٣٩٥، وصحيح مسلم كتاب الحج برقم ١٢١٢.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية الحنبلي الفقيه الأصولي المفسّر النحوي، قال عنه الشوكاني: برع في جميع العلوم وفاق الأقران، من كتبه: مدارج السالكين وزاد المعاد وإعلام الموقعين. والطرق الحكمية، توفي سنة (٧٥١هـ)، انظر: البدر الطالع ٢/ ١٤٣، شذرات الذهب ٦/ ١٦٨، الدرر الكامنة ٤/ ٢١.

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٢/ ١٧٥ ط: مؤسسة الرسالة، ت: شعيب الأرناؤوط (١٤٠٧هـ).

* كانت صفية بنت حُيَيّ أم المؤمنين ﵂ قد حاضت ليلة النفر فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «أحابستنا هي؟ فقيل: إنها أفاضت، فقال: فلا إذاً»[1] فاستنبطت منه عائشة ﵂ أن طواف الوداع ليس بواجب على أصحاب الأعذار، فكل النساء اللاتي كانت تحج معها تعمل بهذا الحكم.

تقول عمرة بنت عبد الرحمن: «إن عائشة أم المؤمنين ﵂ كانت إذا حجت ومعها نساء تخاف أن يحضن قدمتهن يوم النحر فأفضن، فإن حضن بعد ذلك لم تنتظرهن فتنفر بهن وهنّ حيض، إذا كن قد أفضن»[2].

القياس العقلي:

ويأتي دور القياس بعد الكتاب والسنّة، وليس معنى القياس العقلي أن يأتي من هبّ ودبّ ويقضي بحكمٍ ما في دين الله تعالى بعقله، وإنما المقصود من ذلك أولئك العلماء الجهابذةَ الذين أكرمهم الله تعالى بالتفقه في الدين، فبرعوا فيه وصارت لهم ملكة في ذلك، ورسخت علومهم في فهم الكتاب والسنّة، واستفرغوا كل المجهودات في الوصول إلى أعماق الأحكام الشرعية، ومارسوا الاجتهاد بمعنى الكلمة، فأمثال هؤلاء العباقرة إذا عرضت لهم مسألة فإنهم يُدركون مباشرة بما أودع الله فيهم من المواهب والقدرات أن الشارع لو كان موجوداً لحكم بكذا في قضية كذا، مثل المحامي البارع الخبير الذي مرّت عليه نظائر وأحكام كثيرة لمحكمة خاصة، إذا رأى قضية تشبه السابقة فإنه يستطيع أن يقول بكل ثقة واعتماد: إن هذه القضية لو رفعت في المحكمة الفلانية، لقضَتْ بالحكم الفلاني.

ونحن نعلم مدى سعة اطلاع أم المؤمنين عائشة ﵂، وعلمها الراسخ وفهمها العميق لنظام الشريعة وأحكامها، ولذا فنسبة الأخطاء في قياساتها تكون ضئيلة جداً، والأمثلة الآتية تسلّط الضوء على قياسها العقلي:

١ ـ كانت النساء في عهد النبي ﷺ تدخل المساجد وتصلّي بالجماعة مع

---

(١) موطأ الإمام مالك باب إفاضة الحائض ١/ ٤١٢ برقم ٩٢٦.

(٢) نفس المصدر برقم ٩٢٨.

الرسول ﷺ، وتكون صفوف الرجال ثم الأطفال ثم النساء، وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة بالسماح للمرأة بالذهاب إلى المساجد فقال: «إذا استأذنت امرأة أحدكم فلا يمنعها»(١) وكذلك قوله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(٢). فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وفتح المسلمون البلاد ووصلت الغنائم وكثرت الخيرات وازدادت النعم والثروات، ودخل في الإسلام ناس من شتى الحضارات والثقافات، يحملون طابع مختلف العادات والتقاليد، أثّر ذلك كله في نساء المسلمين، وفتح لهن أبواب الزينة والتجمّل على مصراعيه، وحدث كل ذلك بمرأى ومسمع من أم المؤمنين، فلم تلبث إلا وجّهت نداءها إلى أبنائها وبناتها، ترشدهم إلى ما فيه صلاحهم وتقواهم، فقالت فيما روته عمرة رضي الله عنها: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن، كما مُنعت نساء بني إسرائيل»(٣) وإن لم يُعمل برأي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك الحين إلا أن مصدر هذا الاستنباط كان هو القياس العقلي.

٢ ـ كان أبو هريرة رضي الله عنه يفتي أن من غسل جنازة يغتسل ومن حمل جنازة يعيد وضوءه، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت: «أَوَنجّس موتى المسلمين؟ وما على رجل لو حمل عوداً»(٤).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأذان برقم ٨٧٣، وكتاب النكاح برقم ٥٢٣٨، وصحيح مسلم كتاب الصلاة برقم ٤٤٢، وسنن النسائي كتاب المساجد برقم ٧٠٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ٩٠٠، وصحيح الإمام مسلم كتاب الصلاة برقم ٤٤٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأذان برقم ٨٦٩، وصحيح مسلم كتاب الصلاة برقم ٤٤٥، وسنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ٥٦٩.

(٤) قال الزركشي: ذكر أبو منصور البغدادي بإسناده... عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «من غسّل ميتاً اغتسل، ومن حمله توضأ» فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: «أو نجس موتى المسلمين؟ وما على رجل لو حمل عوداً؟» واعلم أن جماعة من الصحابة رووا هذا الحديث ولم يذكروا فيه الوضوء على من حمله، منهم عائشة أخرجه أبو داود ومنهم حذيفة أخرجه البيهقي وهو يقوّي إنكار عائشة، لكن قال البيهقي: «الروايات المرفوعة في هذا الباب عن أبي هريرة غير قوية لجهالة بعض رواتها وضعف بعضهم، والصحيح أنه موقوف على أبي هريرة» (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٣٦ ـ ١٣٥).

٣ ـ هل يلزم خروج المني لوجوب الغسل الشرعي؟ اختلفوا في هذا، فكان جابر ﷺ يقول: الماء من الماء، فلما سمعت عائشة ﷺ بذلك قدّمت في البداية حديثاً مخالفاً له، ثم قالت: «لو زنى أحد ولم يخرج الماء هل ترجمونه؟ فلماذا لا يجب الغسل إذن؟»(١).

تقسيم السنّة:

إن تحديد نوعية السنّة الصادرة عن النبي ﷺ في توقيت خاص أو لمصلحة خاصة، وهل هي سنّة عادة أو سنّة عبادة، من أهم موضوعات الفقه وأدقِّها، فكل ما يصدر عن النبي ﷺ يُعبَّر عنه بالسنّة، وقد قسّمها العلماء قسمين:

١ ـ سنّة عبادة. ٢ ـ سنّة عادة.

سنّة عبادة: هي تلك الأفعال التي صدرت من النبي ﷺ تعبداً بنية الثواب.

وهي على قسمين:

المؤكدة: وهي ما واظب عليها النبي ﷺ دون الترك.

المندوبة: ما واظب عليها النبي ﷺ مع الترك أحياناً.

سنّة عادة: هي تلك الأفعال التي صدرت من النبي ﷺ باعتبار كونه إنساناً وبشراً، أو فعلها ﷺ لحاجة مؤقتة أو ذاتية، ولا يجب على الأمة اتباع الأفعال التي صدرت من النبي ﷺ عادة، إلا أن المحبّين والعُشّاق يعتقدون أن القيام بهذه الأفعال واتباع السنّة طلباً للبركة من ثمرات الحب ونتائجه. وذلك لأن «كلّ فعلٍ من الحبيب حبيب»(٢).

---

(١) ذكر الزركشي في كتابه قول عائشة: أخطأ جابر أن رسول الله ﷺ قال: إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل، أيوجب الرجم ولا يوجب الغسل؟ انظر: الإجابة للزركشي ص ١٥٨ وعين الإصابة للسيوطي ص ٢٩٧ مع سيرة عائشة ﷺ.

(٢) انظر: «الإحكام في تمييز الفتاوى والأحكام» للإمام القرافي (الناشر).

يتبيّن من الأحاديث أن عائشة رضي الله عنها قد رسخت في نفسها هذه الأصول فنرى أنها الوحيدة التي روت لنا حديث صلاة التراويح وند صلّاها النبي ﷺ وصلى معه الناس ثلاث ليالٍ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يحضر النبي ﷺ وخرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: «أما بعد فإنه لم يخفَ عليّ مكانكم، ولكني خشيت أن تُفترضَ عليكم فتَعجِزوا عنها»[1].

فيتّضح من هذا أن عائشة رضي الله عنها كانت تعرف أن ما واظب عليه النبي ﷺ من دون ترك فإنه يُصبح مؤكداً، وما يتركه أحياناً فلا يكون مؤكداً ولا يصل إلى درجة الوجوب.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يرى تقسيم السنّة إلى عبادة وعادة، بل إنه كان يقول إن كل ما فعله النبي ﷺ عبادةً أو عادة مثل قضاء الحاجات البشرية، والمقتضيات الإنسانية، أو فِعْلِ شيء لسبب أو مصلحة مؤقتة، كل ذلك عنده من عداد السنّة التي ينبغي اتباعها للمسلم، ولذلك رُوي أنه كان يتتبع أفعال النبي عليه الصلاة والسلام حتى في منازل السفر، فلو عرف أن النبي ﷺ توضأ في المكان الفلاني، كان يتوضأ فيه، ولو لم تكن عنده حاجة إلى الوضوء.

لكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وكذلك ابن عباس رضي الله عنهما كانا يقولان بذلك التقسيم، ولذلك لم تعتبر عائشة رضي الله عنها نزول النبي ﷺ في الأبطح سنّة، تقول رضي الله عنها: «نزول الأبطح ليس بسنّة، إنما نزله رسول الله ﷺ، لأنه كان أسمح لخروجه إذا خرج»[2].

---

(١) الحديث بالتفصيل أخرجه البخاري في صحيحه كتاب صلاة التراويح برقم ٢٠١٢، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة التراويح برقم ٧٦١، والنسائي في سننه كتاب قيام الليل برقم ١٦٠٤، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة برقم ١٣٧٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١٣١١، والبخاري في صحيحه=

اختلافها مع الأقران والمعاصرين:

لقد خالفت عائشة رضي الله عنها معاصريها وأقرانها في كثير من الأحكام الفقهية، وكانت موفَّقة في ذلك، بحيث كان رأيها أقرب إلى الصواب والسداد، وسار عليه العمل عند فقهاء الحجاز، والجدول التالي يُلقي الضوء على اختلافها مع الصحابة الآخرين في المسائل الفقهية، وقد انتقيناه من سنن الترمذي وغيره من كتب الأحاديث.

رأي عائشة رضي الله عنها	رأي الصحابة الآخرين
١ ـ لا ترى انتقاض الوضوء بتقبيل المرأة	ابن عمر: ينتقضُ
٢ ـ لا ترى انتقاض الوضوء بحمل الجنازة	أبو هريرة: ينتقضُ
٣ ـ لا يلزم المرأة نقض شعرها في غسل الجنابة	ابن عمر: يلزمها ذلك
٤ ـ ترى وجوب الغسل بالتقاء الختانين ولو لم يحدث إنزال	جابر: الماء من الماء
٥ ـ القرء هو الطهر	القرء هو الحيض عند الصحابة الآخرين
٦ ـ لا ترى وجوب الغسل بعد تغسيل الميت	أبو هريرة: يجب الغسل
٧ ـ لا ترى تمشيط أشعار الميت إذا كانت امرأة	أم عطية: ينبغي تمشيطها
٨ ـ لا ترى بطلان الصلاة بمرور المرأة	أبو هريرة: تبطل
٩ ـ ترى إقامة صلاة الفجر في الغلس	رافع بن خديج: تُصلَّى في الإسفار
١٠ ـ ترى التعجيل في صلاة العصر	أم سلمة: ينبغي أن تؤخر
١١ ـ ترى التعجيل في صلاة المغرب	أبو موسى الأشعري: ينبغي أن تؤخر
١٢ ـ ترى عدم بطلان الصوم إذا أصبح الصائم جنباً	أبو هريرة: يبطل
١٣ ـ ترى التعجيل في الإفطار	أبو موسى الأشعري: ينبغي أن يؤخر
١٤ ـ ترى جواز أكل لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام	علي، وابن عمر: لا يجوز
١٥ ـ النزول في وادي المحصب في الحج ليس بسنّة	ابن عمر: هو سنّة
١٦ ـ جواز التطيب بعد الحلق في الحج	ابن عمر: لا يجوز

= كتاب الحج برقم ١٧٦٥، والترمذي في سننه كتاب الحج برقم ٩٢٣، وابن ماجه في سننه كتاب المناسك برقم ٣٠٦٧.

١٧ ـ من أهدى الهدي إلى بيت الله الحرام فلا يحرم عليه ما يحرم على الحاج	ابن عباس: يحرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر هديه
١٨ ـ الحائض لا تنتظر في الحج طواف الوداع	ابن عمر: تنتظر
١٩ ـ ترى جواز لبس الثياب المعصفرة للنساء في الحج	عمر: يُكره لها ذلك
٢٠ ـ يكفي للنساء تقصير بعض الرأس في الحج	ابن الزبير: يلزم تقصير رُبع الرأس على الأقل
٢١ ـ لا ترى وجوب الزكاة في الحلي (في رواية)	الآخرون: تجب الزكاة
٢٢ ـ ترى وجوب الزكاة في أموال اليتامى والصغار	ابن مسعود: لا تجب
٢٣ ـ عِدّة الحامل المتوفى عنها زوجها وضع الحمل	ابن عباس: عدتها بأقصى الأجلين
٢٤ ـ تخيير الزوج زوجته لا يُعَدّ طلاقاً	زيد بن ثابت، وعلي: تقع طلقة واحدة
٢٥ ـ ترى ثبوت الحرمة برضاعة الكبير	بقية أمهات المؤمنين: لا تثبت[١]
٢٦ ـ لا ترى ثبوت الرضاعة بأقل من خمس رضعات	بعض الصحابة: تثبت برضعة واحدة[٢]

(١) وأصل الواقعة أن سالماً مولى أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم، فلما بلغ سالم أتت سهلة بنت سهيل إلى النبي ﷺ فقالت: إن سالماً قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا، وإنه يدخل علينا، وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه، ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة، فرجعت فقالت: إني قد أرضعته، فذهب الذي في نفس أبي حذيفة».

صحيح الإمام مسلم باب رضاعة الكبير برقم ١٤٥٣، يقول النووي: اختلف العلماء في هذه المسألة فقالت عائشة وداود: تثبت حرمة الرضاع برضاع البالغ كما تثبت برضاع الصبي، لهذا الحديث، وقال سائر العلماء من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار إلى الآن: لا يثبت إلا بإرضاع من له دون سنتين، إلا أبا حنيفة فقال: سنتين ونصف، وقال زفر: ثلاث سنين، وعن مالك رواية سنتين وأيام، واحتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وبالحديث الذي ذكره مسلم بعد هذا: «إنما الرضاعة من المجاعة» وبأحاديث مشهورة، وحملوا حديث سهلة على أنه مختص بها وبسالم، وقد روى مسلم عن أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ أنهن خالفن عائشة في هذا (شرح النووي لصحيح مسلم ١٠/٣٠، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٢هـ).

(٢) أورد النسائي في سننه أن علياً وابن مسعود كانا يقولان: «يحرم من الرضاع قليله وكثيره» (برقم ٣٣١١).

٢٧ ـ أيما عبد كاتب على مبلغ فأداه إلا حبة فهو عبد	الآخرون: إذا بقي عليه أقل من درهم فليس بعبد
٢٨ ـ تقطع اليد في سرقة قيمتها ثلاثة دراهم على الأقل	ابن عباس، وابن مسعود: لا قطع في أقل من عشرة دراهم(١)
٢٩ ـ لا طلاق ولا عتاق في الإغلاق	الأحناف: يعتق العبد ويقع الطلاق
٣٠ ـ المطلقة ثلاثاً تعتد في بيت زوجها ولا تخرج	فاطمة بنت قيس: يجوز خروجها من بيت زوجها
٣١ ـ لو خلّف الميت بنتين وبنت بنت واحدة وابن ابن واحد، فالثلثان للبنتين والباقي بين بنت البنت وابن الابن	ابن مسعود: الباقي لولد الولد فقط(٢) ولا نصيب فيه لبنت البنت

بالإضافة إلى عدد كبير من الآراء الفقهية والمسائل الفرعية التي تزخر بها كتب الأحاديث، ومعظمها موجود في موطأ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وينبني عليه فقه أهل المدينة.

❊ ❊ ❊

(١) قول ابن عباس في سنن الدارقطني ٣/ ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) سنن الدارمي برقم ٢٨٩٢.

البحث الرابع
علمها بالتوحيد أو العقيدة

كما أن الإسلام دين اليسر والسهولة غاية في السماحة، فكذلك عقائده التي ينبني عليها صرح هذا الدين وقاعدته كذلك كانت صافية نقية سمحة منسجمة مع طبيعة البشر بكل معانيها، لكن التعايش مع الديانات الأخرى والاختلاط مع الثقافات والحضارات المختلفة، وكذلك المجادلات الكلامية والمناقشات العقلية التي لا طائل من ورائها ـ كل ذلك ساعد على ظهور شتى الآراء ومختلف الأفكار والنظريات تجاه هذه العقيدة، وذلك بعد انقراض عصر الصحابة، وإذا أمعنا النظر في العصر النبوي نجد أن قول النبي ﷺ كان هو الحل الوحيد الفصل القاطع والحاسم لكل مشكلة يواجهها أحد في أمر دينه.

إذا كان هناك أحد اعتراه شك أو وقع في شبهة نحو قضية ما فإنه سرعان ما يراجع النبي ﷺ ويروي غليله من عنده، ولما انقرض العصر النبوي المبارك السعيد كان الصحابة هم المرجع الأساسي في كل ما يواجهه المسلمون من الوقائع والمستجدّات والمستحدثات، فإن وجدوا لها حلاً في آية صريحة أو حديث فبها ونعمت، وإلا فكانوا يجلؤون إلى الاجتهاد والقياس في ضوء الكتاب والسنّة.

وفي الأسطر الآتية نتناول ما ثبت عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من المرويات في باب العقيدة والتوحيد.

إثبات اليد ونحوها لله سبحانه وتعالى:

لقد كثر الجدل والنقاش والنزاع حول هذه المسألة العقدية في القرن

الثاني الهجري بعد وفاة عائشة رضي الله عنها بكثير، وذلك أن الكتاب والسنّة أثبتا لله تعالى اليد والرجل والعين، فهل المراد بها أعضاء حقيقية كما تقتضيه اللغة، أم تُحمل على المعنى المجازي، فاليد هل هي اليد الحقيقية أم يراد بها القوة والقدرة؟ وكذلك العين هل المراد بها الباصرة الحقيقية أم العلم؟ وهلم جراً، ورغم أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم لم يتطرقوا إلى تفاصيل هذه المسألة، إلا أن عقيدة السلف الصالح في هذا الباب هي إثبات هذه الصفات لله تعالى وإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل، والإيمان بمعانيها الحقيقية، وعدم الخوض في تفاصيلها، ولعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تميل إلى هذا المذهب، كما تدل عليه مقالتها في صحيح البخاري: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[1].

باري تعالى:

زعمت المعتزلة ومن نحا نحوهم استحالة رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأثبتها جمهور أهل السنّة والجماعة سلفاً وخلفاً، ليس فقط إمكانية الرؤية، وإنما وقوعها كذلك، كما أن مذهب أهل السنة استحالة رؤية الباري تعالى في الدنيا، أما في الآخرة فتتحقّق رؤيته تعالى وينظر إليه المسلمون كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر، إلا أن عائشة رضي الله عنها صرحت في أكثر من رواية وقالت لتلاميذها: «من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب»[2]، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣][3] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾

---

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

(٢) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٨٥٥، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن برقم ٣٠٦٨.

قلت: انظر «الجوهرة في قواعد العقائد» للشيخ طاهر الجزائري ط دار القلم بدمشق و«الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً» للعلّامة محمد الأمين الجكني الشنقيطي. (الناشر).

(٣) الرؤية شيء والإدراك شيء آخر (الناشر).

[الشورى: ٥١]. ولم تحصل المعتزلة إلى يومنا هذا على دليل أقوى من هذه الآية، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن النبي ﷺ تشرف برؤية الباري تعالى في المعراج، وكان يستدل بآيتي سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣] ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨][١] بينما تقول عائشة رضي الله عنها: إن المقصود في الآية أن الرسول ﷺ رأى جبريل[٢] ولم ير الله تعالى، وهذا ما يتضح لنا بعد التأمل في الآيات التي بعدها وهي: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [النجم: ٥، ٦].

ونظراً إلى هذه الروايات عن عائشة رضي الله عنها يزعم المعتزلة أنها من منكري رؤية الله تعالى، والواقع أنها أنكرت الرؤية في الدنيا فقط وليس في الآخرة، وهو الواضح جلياً إذا أنعمنا النظر في ألفاظ الحديث: «ومن حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب» فالمقصود من ذلك إنكار رؤية الله في المعراج لا في الآخرة، وبالتالي فلا علاقة لمقالة عائشة رضي الله عنها بعقيدة إنكار رؤية الله تعالى البتة.

علم الغيب:

معلوم من الدين بالضرورة أن الغيب لا يعلمه إلا الله، فهو تبارك وتعالى يليق بجلالة شأنه ويجدر بعظيم سلطانه أن يكون عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة قال تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] ويزعم البعض أن الاطلاع على سائر المغيَّبات من خصائص النبي ﷺ، وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها على هذه العقيدة بشدّة، فكانت تقول: «ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب» ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[٣] فنفيُ علم الغيب عن كل واحد يتضمن النفي عن النبي ﷺ كذلك.

---

(١) انظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان برقم ١٧٦، وسنن الترمذي كتاب التفسير برقم ٣٢٧٩/٣٢٨١.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير برقم ٤٨٥٥، وصحيح مسلم كتاب الإيمان ١٧٧، وسنن الترمذي كتاب التفسير برقم ٣٠٦٨، ٣٢٧٨.

(٣) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٨٥٥، والآية من سورة لقمان، الآية: ٣٤.

تقول الرُّبيِّع بنت معوِّذ بن عفراء: جاء النبي ﷺ فدخل حين بُني بي، فجلس على فراشي، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قُتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: «وفينا نبي يعلم ما في غد» فقال: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين»[(١)] فقوله ﷺ: «دعي هذه..» ينفي كل أنواع وأصناف علم الغيب عنه ﷺ مطلقاً، ويستثنى من هذا ما يُطلع الله تعالى أنبياءه عليه من أمور الغيب لحكمة لا يعلمها إلا هو.

الرسول ﷺ وكتمان ما أنزل الله:

من المستحيل أن يُسيء أحدٌ الظن بالرسول ﷺ إلى درجة أن يقول إنه ﷺ كتم شيئاً مما أنزل الله تعالى عليه، تقول عائشة رضي الله عنها: «من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فلا تصدّقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧][(٢)] كما أنها كانت تستدل على عدم كتمانه، بما أنزل الله تعالى من الآيات في قصة زيد، ومعروف أنه لا أحد يرضى أن يُعلن عن شيء من مواضع ضعفه على رؤوس الأشهاد، مع أنه يوجد في القرآن الكريم عدد من الآيات نبّه الله تعالى فيها الأنبياء على أخطائهم الاجتهادية، وكان زواج النبي ﷺ بزوجة ابنه المتبنَّى موضع نقد شديد وكراهة لدى جهلة العرب، وقد فصّل القرآن الكريم هذه الواقعة كل تفصيل، فتقول عائشة رضي الله عنها: «لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآيات على نفسه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولم يكتمها النبي ﷺ،

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح برقم ٥١٤٧، كتاب المغازي برقم ٤٠٠١، وسنن الترمذي كتاب النكاح برقم ١٠٩٠، وسنن ابن ماجه كتاب النكاح برقم ١٨٩٧.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٢٤١.

فدل ذلك على أن النبي ﷺ بلّغ أمته كل ما أنزل الله عليه من غير شطط أو نقص أو تقصير.

عصمة الأنبياء:

اختلفت عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما في قراءة آية من سورة يوسف، فقرأها ابن عباس رضي الله عنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفة، وأما عائشة رضي الله عنها فسألها عروة عن هذه الآية فقالت: «معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربّها» وكانت تقرأ: «كُذِّبوا» وقالت: «هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربّهم وصدّقوهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك»[1].

المعراج الروحي:

لقد اختلفت روايات الإسراء والمعراج هل أسري به ﷺ بروحه أم بجسده؟ وهل كان ذلك في النوم أم في اليقظة؟ أما القرآن الكريم فقد عبر عنه بالرؤيا حيث قال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] كما عبر عنه في موضع آخر برؤية القلب حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١] وفي رواية صحيح البخاري صرّح النبي ﷺ فقال: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان»[2] وفي رواية أخرى قال بعد ذكر تفاصيل المشاهدات والوقائع: «فاستيقظت».

وذكر ابن إسحاق أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول بالمعراج الروحي، ونصه: حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي ﷺ تقول: «ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن أُسري بروحه»[3] وقد اعترض القاضي عياض رحمه الله في

---

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٣٨٩، وكتاب التفسير برقم ٤٦٩٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق برقم ٣٢٠٧، وصحيح مسلم كتاب الإيمان برقم ١٦٤، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن برقم ٣٣٤٦.

(٣) أورده ابن هشام في سيرته «السيرة النبوية» ٢/ ٢٤٥، وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ١١٤.

كتابه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»[1] على هذه الرواية، ونقله عنه القسطلاني حرفياً فقال: وأما قول عائشة: «ما فقدت جسده» فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن حينئذٍ زوجة، ولا في سن من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت بعد، على الخلاف في الإسراء متى كان، . . . فإذا لم تشاهد ذلك عائشة دلّ على أنه حدّثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها، وغيرها يقول خلافها مما وقع نصاً في حديث أم هانىء وغيره، وأيضاً فليس حديث عائشة رضي الله عنها بالثابت، والأحاديث الأُخر أثبت، لسنا نعني حديث أم هانىء، وما ذكرت فيه خديجة، وأيضاً فقد روي في حديث عائشة: «ما فقدت» ولم يدخل بها النبي ﷺ إلا بالمدينة، وكل هذا يوهنه، بل الذي يدل عليه صحيح قولها: «إنه بجسده الشريف لإنكار رؤيته لربه رؤية عين، ولو كانت عندها مناماً لم تنكره، وحديثها هذا ليس بثابت عنها»[2].

وإن صحّ ما قاله القاضي عياض فيلزم منه ترك عدد كبير من تلك الأحاديث التي صحّحها جمهور المحدثين، وصحّحها القاضي نفسه، وكلها تتعلق بحوادث ما قبل ولادة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مثلاً أحاديث بدء الوحي، فإن معظمها مروية عن طريق عائشة رضي الله عنها ولم يروها أحد غيرها بذاك التفصيل الذي روته عائشة رضي الله عنها، بل إن مروياتها هي الأساس والمصدر الأصيل للاطلاع على تفاصيل هذه الوقائع، إذن تكون رواية بدء الوحي أكثر تضرراً بهذا النقد والاعتراض من رواية الإسراء والمعراج، لأنها لم تكن وُلدت عند بدء الوحي قطعاً، أما حادث المعراج فقد وقع بعد أعوام من ذلك، والأصل وكما صرّح به العلّامة الزرقاني، وابن دحية، وابن سريج أن هذه الرواية لم تثبت عن عائشة رضي الله عنها، لأن راوي الحديث هو محمد بن إسحاق وقد ضعفه بعض المحدثين، وهو يروي عن مجهول (شخص من آل أبي بكر)

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١/ ٧٣- ٢٧٢، ط: مكتبة الفارابي، مؤسسة علوم القرآن دمشق.

(٢) انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للعلّامة القسطلاني ٤/ ٦ ـ المقصد الخامس في ذكر الإسراء والمعراج. ط: المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٧هـ.

عن عائشة ﵄، فيوجد انقطاع بين شيخ ابن إسحاق، وعائشة ﵄، وعلى هذا فلا يُحتَج بهذه الرواية.

الصحابة عدول:

مذهب أهل السنّة والجماعة أن الصحابة كلهم عدول مطلقاً لظواهر الكتاب والسنّة وإجماع من يُعتَدّ به بالشهادة لهم بذلك، إلى أن يثبت عن أحد منهم شيء ينافي العدالة.

كان أهل مصر، والعراق، والشام يتلاعنون فيما بينهم، وكل فريق يطعن على الفريق الآخر من الصحابة، كما يسب بعضهم بعضاً في الحروب الأهلية التي صارت بعد استشهاد عثمان ﵁ وكان فيها علي ومعاوية ﵄، فلما سمعت عائشة ﵄ بذلك قالت: إن هذا الأمر ـ تقصد التلاعن والسبّ والشتم ـ مناقض لما أمر الله تعالى به في صحابة رسوله ﷺ، واستدلت على ذلك بآية قرآنية وقالت: «يا ابن أختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبّوهم»[1] واستنبطت ذلك بما ذكره الله تعالى في مدح المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

الترتيب في أمر الخلافة:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة ﵄ قالت: «قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[2] وعن ابن أبي مُليكة قال: سمعت عائشة وقد سُئلت من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: «أبو بكر، فقيل لها: ثم من بعد

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب التفسير برقم ٣٠٢٢.

(٢) صحيح مسلم فضائل أبي بكر برقم ٢٣٨٧، وبمعناه رواه البخاري في صحيحه كتاب المرضى برقم ٥٦٦٦.

أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح، ثم انتهت إلى هذا»[1].

سماع الموتى:

اختلفت أقوال الصحابة ﷺ في مسألة سماع الأموات، فذهب عمر، وابن عمر، وابن عباس ﷺ أجمعين إلى أن الموتى يسمعون، وذهبت عائشة ﷺ إلى أنهم لا يسمعون، واحتجت على ذلك بالآيات القرآنية: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] فدلّ على أنهم لا يسمعون بعد الموت إلا أن يُسَمّعوا شيئاً في بعض الأحوال الخاصة.

❋ ❋ ❋

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٣٨٥.

البحث الخامس
علمها بأسرار الشريعة

مما لا شك فيه أن كل ما جاء من الله ﷻ من الأحكام أنها تنبني على المصالح والحكم، وليس من الضروري أن يطّلع العبد على هذه المصالح، إلا أن الله ﷻ قد بيّن هذه المصالح رحمة بالعباد وشفقة عليهم، وشرح لهم في الكتاب العزيز مصالح الأحكام التي فرضت عليهم، وكذلك الرسول ﷺ ما سنّ للمؤمنين من سنن وشرع لهم من الفرائض والواجبات، فأحياناً بَيَّنَ مصالحها بنفسه، وأحياناً بطلب من أحد واستفسار منه، وكان كبار الصحابة وساداتهم يعرفون هذه الدرر الثمينة والجواهر العلمية الغالية أتم المعرفة.

وهذا الإمام العلّامة الشاه ولي الله الدهلوي[1] الذي ألّف كتابه «حُجة الله البالغة» في علم أسرار الشريعة، ردّ فيه على الذين يقولون: إن سلفنا الصالح لمّا لم يتعرضوا لموضوع علم أسرار الشريعة، ولم يولوه عناية واهتماماً فكيف تستطيعون؟

قلنا (القائل هو العلّامة الدهلوي): «لا يضر عدم تدوين السلف إياه بعدما مهّد النبي ﷺ أصوله وفروعه، واقتفى أثره فقهاء الصحابة كأميرَيْ

---

(١) هو الإمام المحدث الفقيه الرحّالة كوكب الديار الهندية شيخ الإسلام العالم المجتهد أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ولد في عام ١١١٤هـ، طلب العلم في بلده ثم رحل إلى الحجاز عام ١١٤٣هـ ورجع إلى الهند، نشر أعلام الحديث وأخفق لواءه وجدّد معالمه، وهو رئيس المحدثين ويُعَدّ من حفاظ القرن الثاني عشر، ومن أهم مؤلفاته: «حجة الله البالغة ـ في علم أسرار الدين، والفوز الكبير في أصول التفسير، ورسالة في اختلاف الأمة وغيرها» توفي عام ١١٧٦هـ (ترجمته في نزهة الخواطر).

المؤمنين عمر وعلي، وزيد وابن عباس وعائشة ﷺ وغيرهم ممن بحثوا عنه وأبرزوا وجوهاً منه»[1].

ولو لم أُتَّهم بتمجيد الأبطال والأعلام والحبّ المفرط لهم لوضعتُ اسم أم المؤمنين عائشة ﵂ في رأس القائمة التي عملها العلّامة الدهلوي لفقهاء الصحابة، وهذا لا يعني أنها كانت أوسع علماً وأكثر معرفة واطلاعاً ممن سبقها من أكابر الصحابة، بل الغرض من ذلك هو أنها كانت أكثر نشراً وإشاعة فيما بين الناس لهذه الخزائن العلمية المختومة والدرر المكنونة، وذخيرةُ الأحاديث والآثار خير دليل على هذه الدعوى.

سبق أن ذكرنا أن النساء في عهد النبي ﷺ كُنّ يشاركن الرجال في الصلاة في المساجد دون أي تردد، وتكون صفوفهن وراء صفوف الأطفال، وكان النبي ﷺ قد أوصى بعدم منع النساء من المساجد، فلما انقرض عهد النبوة المبارك، وكثرت الأموال والغنائم، ووُجد الاختلاط مع غير المسلمين، وشاهدت أم المؤمنين عائشة ﵂ هذه الأوضاع قالت: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما مُنعت نساء بني إسرائيل»[2].

هذه واقعة جزئية لكنها تدلّ على أن أحكام الشريعة الغراء في نظر أم المؤمنين ﵂ تنبني على حكم وأسباب، فإذا تغيّرت تلك الأسباب والحِكَم يتغيّر الحُكْم، تقول عائشة ﵂: «جاء أفلح أخو أبي القعيس يستأذن عليها بعدما نزل الحجاب. وكان أبو القعيس أبا عائشة من الرضاعة، قالت عائشة: «فقلت: والله لا آذن لأفلح حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فإن أبا القعيس ليس هو أرضعني، ولكن أرضعتني امرأته، قالت عائشة: «فلما دخل رسول الله ﷺ

(١) انظر: حجة الله البالغة مقدمة الكتاب تحت عنوان «السلف لم يدونوا كل شيء» ١/ ١٥ ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأذان برقم ٨٦٩، وصحيح مسلم كتاب الصلاة برقم ٤٤٥، وسنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ٥٦٩.

قلت: يا رسول الله إن أفلح أخا أبي القعيس جاءني يستأذن عليّ، فكرهت أن آذن له حتى أستأذنك، قالت: فقال النبي ﷺ: ائذني له فإنه عمك»[1] وقد تبين من هذا الحديث أنها كانت تبحث حتى عن المصالح العقلية في الأحكام.

وفيما يأتي نتناول تلك المسائل التي كشفت عائشة رضي الله عنها النقاب عن مصالحها وحكمها وأسرارها في الأحاديث، وبالرغم من أننا استوعبنا في ذكر هذه المسائل كل كتب الأحاديث وقمنا باستقصائها وتتبعها، لكن الكمال لله تعالى، ولذا فالتقصير وارد، ويمكن أن تكون هناك مسائل فاتتنا، ولم نطلع عليها.

الترتيب في نزول القرآن الكريم:

ينقسم القرآن الكريم من حيث أماكن النزول إلى قسمين:

١ ـ المكيّ: وهو ما نزل قبل الهجرة.

٢ ـ والمدني: وهو ما نزل بعد الهجرة.

وكلا الصنفين يختلف بعضهما عن بعض في الخصائص المعنوية، وهذه الخصائص وإن لم تظهر لعامّة الناس إلا أن الذين لهم براعة في معرفة اللغة العربية، واطلاع على مميزاتها ودقائق معانيها وأساليبها، فإنهم يقدرون على التمييز بين هذين الصنفين بمجرد سماع آيات السور، وأهم مميزات السور المكيّة، والمدنية كالتالي:

السور المكيّة	السور المدنية
١ ـ تكون غنية بالمشاعر والعواطف	١ ـ تكون في غاية من العمق والقوة والرسوخ
٢ ـ تستخدم فيها كلمات فخمة في قمة البلاغة والفصاحة	٢ ـ تتميز بكلمات أصولية وتعبيرات وأساليب تشريعية

(١) صحيح مسلم كتاب الرضاع برقم ١٤٤٥، وصحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٧٩٦، وكتاب النكاح برقم ٥٢٣٩، وكتاب الأدب برقم ٦١٥٦، وسنن النسائي كتاب النكاح برقم ٣٣١٨.

٣ ـ تحتوي على آيات المواعظ والنصائح والتوحيد وذكر القيامة وآيات الحشر والنشر، وذكر الأمم والعذاب، في معظم الأحيان	٣ ـ تحتوي على آيات الحدود والفرائض والأحكام
٤ ـ تراعى فيها الفواصل وتكون قصيرة على العموم	٤ ـ يقل فيها استخدام الفواصل والسجع، وإن كانت فالفواصل كبيرة وطويلة
٥ ـ لا تتناول المناظرات والمباحثات مع اليهود والنصارى	٥ ـ تكثر فيها المناظرات مع اليهود والنصارى
٦ ـ قلما يُطالب فيها بالأعمال والعبادات، وإنما يكون التركيز فيها على مباحث العقائد	٦ ـ يطالب فيها بالأعمال والعبادات
٧ ـ لا تتناول موضوعات الجهاد، وتقتصر على موضوع الدعوة والتبليغ والإرشاد والتلاطف في الكلام	٧ ـ يكون فيها أمر بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد مع الأمر بالدعوة والتبليغ والإرشاد

إن علماء ومحققي أوربة المستشرقين يفتخرون بهذا الاكتشاف العلمي ويعتزّون به لكنهم يجهلون أن حرم النبي ﷺ وحاملة أسرار النبوة قد كشفت القناع عن هذا السرّ، وأفشته بين الناس قبل ألف وأربعمئة سنة، فقد ورد في صحيح البخاري من قولها رضي الله عنها:

«إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ثم نزل الحرام والحلال، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة وأنا جارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[(١)].

والمقصود أن الإسلام جعل من أصوله أن لا يوسّع نطاق أحكامه وتعاليمه جملة واحدة، بل يختار في ذلك منهج التدرّج والتمهّل، وذلك لأن الله تعالى قد بعث هذا الدين في قوم من الأمّيين، فبدأ بذكر الجنة والنار بطريقة خطابية، وأسلوب رشيق جذّاب مؤثّر، ولما تأثروا بذلك انتقل بهم بعد

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن برقم ٤٩٩٣.

هذه المرحلة إلى إنزال الأحكام والحدود والفرائض، فنزلت آيات الأحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو طُولبوا بالامتناع عن الزنا والفواحش وشُرب الخمر وغيرها من العادات السيئة من أول يوم لما كان لهذا النداء من مُلبّ؟ ومعروف أن الفرق في اللغة، وطريقة الأداء والأسلوب ناجم عن الفرق في المعاني والمطالب، فلا يدّعي أحد أن لغة وأسلوب كتاب المواعظ والإرشاد تكون نفس لغة وأسلوب كتاب قوانين التعزيرات.

وسورة البقرة، والنساء التي تقول عائشة ﵂ إنهما نزلتا في المدينة تتناولان موضوع المناظرات مع اليهود والنصارى، لأنهم كانوا في المدينة، وبما أن الدعوة الإسلامية تكون قد اكتملت في المدينة المنوّرة، نزلت فيها الأحكام، وقلّت فيهما الفواصل بسبب استخدام أسلوب الأحكام والقوانين فيهما، وتقول ﵂: إن سورة القمر نزلت بمكة، وفيها ذكر موضوع القيامة، لأن تلك فترة بداية الإسلام، وفيها الإنكار على المشركين والرد عليهم، لأن المواجهة كانت معهم هناك. واستُخدمت فيها الفواصل الصغيرة لأنها تؤدي إلى إيجاد تأثير عميق في الأسلوب والبيان.

وخلاصة القول: إن الفوارق الموجودة بين السور المكيّة، والمدنية هي بالنظر إلى الاختلاف في الأوضاع والظروف، واختلاف الأوضاع هو الذي أدى إلى الفرق في اختيار الأسلوب وطريقة الأداء واختيار اللغة.

سر نجاح الدعوة الإسلامية في المدينة المنوّرة:

قد يظن البعض أن هذا السؤال لم يكن متوقعاً أن يطرحه أحد قبل القرن العشرين، والتاريخ لم يتطوّر إلى درجة أن يسعه إنشاء مثل هذه الأسئلة، واليوم إذا جلس كبار المؤلفين وأفاضل الكتّاب لكي يحلّوا هذه العقدة ويزيحوا الستار عنها فإنهم يحسبون أنهم يصنعون الأعاظم ويفعلون الأفاعيل، ولكنّ الواقع أن الشخص الذي حدثت أمامه هذه الوقائع وهو يشاهدها بأم عينيه، لم يكن جاهلاً بهذا السرّ الخفي، ولم تخفَ عليه هذه الحكمة.

ومما لا شك فيه أن اتساع نطاق دعوة الإسلام ونموّه وتطوّره في جوّ

مكوّن من التيارات المضادة، والهجمات الشرسة والضربات المعادية إنما هو معجزة ربانية بحتة، ولكن ليس من اللازم ظهور المعجزات من دون الأسباب أو الدوافع المؤدية إلى ظهورها، بل إن إيجاد هذه الأسباب والدوافع وتهيئتها وجمعها في وقت مناسب وملائم بفضل من الله تعالى كذلك يعتبر نوعاً من المعجزات التي لا تتيسّر ولا تتهيّأ لكل عمل يعمله الإنسان، وإلا لما فشلت حركة قط في هذه المعمورة، مع أننا نرى آلافاً من الحركات التي تبوء بالفشل ولا تتكلل بالنجاح لعدم توفّر الأسباب.

كانت قبائل المدينة قد شغلتها الحروب الأهلية فيما بينها قبل بزوغ شمس الإسلام، وراح ضحيتها معظم زعماء هذه القبائل، الذين كانوا أكبر عائق وأخطر حاجز في سبيل الدعوة، وذلك خوفاً منهم أن تتضرر بها مناصبهم وسيادتهم، وهذه الحروب قد أتعبت الأنصار وأرهقتهم إلى حد أنه لما طلع فجر الإسلام وجدوا فيه ضالتهم، وحصلوا على بغيتهم، وحسبوا أنه رحمة لهم، وبما أن طبقة الزعماء قد قضت عليها الحروب لم يعد أحد يتمكن من إحداث الحواجز في طريقها، وبهذا يكون قد مهّد الله ﷻ كل طرق لنموّ شجرة الإسلام وتطوّره من جميع الجوانب وسائر النواحي في المدينة المنوّرة.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كان يومُ بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سَرَاتهم وجُرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»[1].

الاغتسال يوم الجمعة:

الاغتسال يوم الجمعة واجب، وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها توضّح لنا سبب هذا الوجوب فتقول:

«كان الناس ينتابون يوم الجمعة من منازلهم والعوالي، فيأتون في الغبار

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب باب القسامة في الجاهلية برقم ٣٧٧٧، ٣٨٤٨، ٣٩٣٠.

يصيبهم الغبار والعرق فيخرج منهم العرق، فأتى رسولَ الله ﷺ إنسان منهم وهو عندي فقال النبيُّ ﷺ: «ولو تطهَّرْتم ليومكم هذا»[1].

تقصير الصَّلاة في السفر:

شُرع في الإسلام تقصير الصلاة في السفر، فتُصلَّى ذواتُ الأربع ركعتين، ويبدو ظاهراً أن سبب هذا التقصير وعلته هو التسهيل والتيسير، إلا أن عائشة رضي الله عنها تروي لنا سبباً آخر تقول: «فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعاً وتركت صلاة السفر على الأولى»[2].

النهي عن الصلاة بعد الفجر وبعد العصر:

روي في الأحاديث الصحيحة عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس وبعد العصر حتى تغرب»[3] وليس هناك سبب ظاهري لهذا المنع، لأن العبادة مأمور بها في كل الأوقات، وها هي عائشة رضي الله عنها تكشف الستار عن هذا الإشكال، وتوضّح لنا سبب المنع فتقول: «وهم عمر، إنما نهى رسول الله ﷺ أن يتحرى طلوع الشمس وغروبها»[4] يعني حتى لا يكون هناك اشتباه بعبادة الشمس أو لا يُظن التشابه مع المجوس في وقت العبادة.

الصلاة جلوساً:

روي عن النبي ﷺ أنه كان يصلّي النوافل جالساً في بعض الأحيان، فاستحبّ بعض الناس أن يصلّوا النوافل جالسين ولو من دون عُذر، علماً بأن

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ٩٠٢، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجمعة برقم ٨٤٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٩٣٥، وصحيح الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ٦٨٥، وكذلك سنن النسائي كتاب الصلاة برقم ٤٥٣.

(٣) انظر: صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة برقم ٥٨١، وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٨٢٦، وسنن الترمذي كتاب الصلاة برقم ١٨٣، وسنن النسائي كتاب المواقيت برقم ٥٦٢.

(٤) صحيح الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٨٣٣، وسنن النسائي كتاب المواقيت برقم ٥٧٠، ومسند الإمام أحمد ٦/ ١٢٤.

ثواب الصلاة قاعداً نصف ثواب الصلاة قائماً، وقد سُئلت عائشة ﵂: هل كان النبي ﷺ يصلّي وهو قاعد؟ قالت: «نعم بعد ما حطمه الناس»[(١)].

وفي رواية أخرى: «ما رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في شيء من صلاة الليل جالساً قط حتى دخل في السن. . . . الحديث»[(٢)] وفي رواية: «لما بدن رسول الله ﷺ وثقل كان أكثر صلاته جالساً»[(٣)] فدلّ أن النبي ﷺ قنع بنصف الأجر في حالة العُذر، فالذين ينظرون إلى قلة الأجر وكثرته يفضّلون الصلاة قائماً، لكن الذين ينظرون بنظر الحب والعشق فيؤثرون حب الحبيب واتباعه في كل أمر على كثرة الأجر والثواب، وبهذا فإنهم وإن لم ينالوا الأجر الكثير في صلاتهم لكنهم يعوِّضون ما نقص لهم من الأجر بثواب اتّباع الحبيب المصطفى ﷺ إن شاء الله تعالى.

سبب مشروعية صلاة المغرب ثلاث ركعات:

زيد في الصلاة بعد الهجرة وصارت الركعتان أربعاً، فلماذا تصلَّى المغرب ثلاث ركعات؟ تجيب عائشة ﵂ عن هذا السؤال فتقول: «قد فرضت الصلاة ركعتين ركعتين بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة زاد مع كل ركعتين ركعتين، إلا المغرب، فإنها وتر النهار. . الحديث»[(٤)].

سبب مشروعية صلاة الفجر ركعتين:

إن صلاة الفجر يكون فيها الاطمئنان أكثر، وتوقيتها أوسع فكان من المفترض أن يزاد في ركعاتها، لكن الشارع الحكيم اقتصر على مشروعيتها

---

(١) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٧٣٢، وسنن النسائي كتاب قيام الليل برقم ١٦٥٧، سنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ٩٥٦. (حطمه الناس) كَبِرَ فيهم.

(٢) سنن أبي داود كتاب الصلاة برقم ٩٥٣، ونحوه في صحيح البخاري كتاب الجمعة برقم ١١١٨، وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٧٣١، وسنن النسائي كتاب قيام الليل برقم ١٦٤٩، وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة برقم ١٢٢٧.

(٣) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ٧٣٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٤١.

بركعتين فقط، وهذه عائشة ﵂ توضح لنا سبب الاقتصار على الركعتين فتقول: «وصلاة الفجر لطول قراءتها»[1] فاهتمت الشريعة بالخشوع والخضوع في صلاة الفجر بدرجة خاصة، وكثرة القيام والقعود قد تُخل في هذا الخشوع فزيد في الكيفية بدل الكميّة، وذلك في شكل طول القراءة.

سبب صوم عاشوراء:

تقول عائشة ﵂: «إن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان، وقال رسول الله ﷺ: من شاء فليصمه ومن شاء أفطر»[2] كذا روي عن

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٤١.

(٢) صحيح البخاري كتاب الصوم برقم ١٨٩٣، وصحيح مسلم كتاب الصيام برقم ١١٢٥، وسنن الترمذي كتاب الصوم برقم ٧٥٣، وسنن أبي داود كتاب الصوم برقم ٢٤٤٢، وموطأ الإمام مالك كتاب الصيام برقم ٦٦٥، وسنن الدارمي كتاب الصوم برقم ١٧٦٣.

هذا وقد اختلفت رواية ابن عباس ﵄ عن رواية عائشة، ونص روايته: «قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوّهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه» (صحيح البخاري كتاب الصوم برقم ٢٠٠٤). كما روي عن أبي موسى الأشعري ﵁ (صحيح البخاري كتاب الصوم برقم ٢٠٠٥). أما حديث عائشة فقد رواه الإمام مالك في الموطأ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، وأبو داود والترمذي وابن ماجه في سننهم، وأحمد في مسنده. وتوجد رواية عن ابن عمر مثل رواية عائشة في سنن أبي داود (كتاب الصوم برقم ٢٤٤٣)، وسنن ابن ماجه (كتاب الصيام برقم ١٧٣٧). كذلك روى الطبراني في المعجم الكبير عن زيد ﵁ مثل رواية عائشة (٥/ ١٣٨ برقم ٤٨٧٦). وروي في سنن أبي داود وابن ماجه قوله ﷺ: «نخالف اليهود فإنهم يصومون العاشوراء ونحن نصوم اليوم التاسع».

ورواية عائشة تترجح على رواية ابن عباس ﵄ من ثلاثة وجوه:

١ ـ كثرة الروايات.

٢ ـ تأييد ابن عمر لرواية عائشة.

٣ ـ اقتضاء القياس، يعني لو صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء اتباعاً لليهود، فلم تكن هناك حاجة إلى مخالفتهم. =

ابن عمر رضي الله عنهما[1]، إلا أنه لم يصرّح بالسبب الذي من أجله كانوا يصومونه في الجاهلية، وعائشة رضي الله عنها هي التي بينت لنا سبب هذا الصوم في الجاهلية فقالت: «كانوا يصومون يوم عاشوراء قبل أن يفرض رمضان، كان يوم تُستَر فيه الكعبة»[2].

سبب عدم مواظبته ﷺ على صلاة التراويح في شهر رمضان:

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت عائشة رضي الله عنها أعلم أهل الأرض بصلاة الرسول ﷺ في الليل»[3] وتقول عائشة رضي الله عنها: «كانت صلاته ﷺ في شهر رمضان وغيره ثلاث عشرة ركعة بالليل منها ركعتا الفجر»[4] وذات مرة خرج رسول الله ﷺ في جوف الليل فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك، فاجتمع أكثر منهم فخرج رسول الله ﷺ في الليلة الثانية فصلّوا بصلاته، فاجتمع الناس يذكرون ذلك فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة فخرج فصلّوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يخرج إليهم الرسول ﷺ حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر

= وعلى كل فإنه يمكن التطبيق بين الروايتين بأن نقول: إن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء وكان ﷺ كذلك يصوم، واليهود كذلك كانوا يصومون نفس اليوم فلما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون، فصام رسول الله ﷺ حسب العادة السابقة وليس تقليداً لليهود، ولذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: حين صام النبي ﷺ يوم عاشوراء وأمرنا بصيامه قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «فإذا كان العام القابل صمنا اليوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفّي رسول الله ﷺ» (مسلم ١١٣٤، أبو داود ٢٤٤٥)، فظهر من القطعة الأخيرة من الحديث أن هذه الواقعة كانت في السنة العاشرة من الهجرة، مع أن أكثر الروايات تقول إنه ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء في السنة الأولى من الهجرة!! ومعنى صيام اليوم التاسع أن يصام التاسع والعاشر مع بعض.

(١) صحيح البخاري كتاب الصوم برقم ١٨٩٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٥٩٢.

(٣) نص قول ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة (صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٧٤٦).

(٤) صحيح الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٧٣٨.

أقبل على الناس ثم تشهد فقال: «أما بعد فإنه لم يخف عليّ شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها»[1] ولما زال خوف الفرضية وذلك بعد انقطاع الوحي بعد وفاة النبي ﷺ أداها الصحابة بالمواظبة والمداومة، فالذين ينظرون إلى أصل الحديث يقولون إنها مستحبة، لكن الذين اتبعوا الصحابة قالوا: إنها سنّة مؤكدة.

حقيقة مناسك الحج:

قد يستشكل بعض الجهلة أن مناسك الحج كلها ـ مثل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار ـ هذه الأعمال كلها ليس فيها فائدة ظاهرية، لكن عائشة ﵂ تفحم هؤلاء الجهلة فتقول: «إنما جعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عزّ وجلّ»[2] يعني أن الهدف الحقيقي ليس هذه الأعمال فحسب، بل إنها مواضع لذكر الله تعالى، كما نصّ القرآن الكريم إشارة على أن هذه المناسك كانت طريقة مسلوكة لأداء العبادة أيام زمن إبراهيم، والحج الذي هو تذكار لسنّة إبراهيم ﵇ فرض فيه الطريقة السابقة للعبادة، ويجب على كل مسلم مستطيع أن يقوم بأدائها مرة واحدة في عمره كله.

النزول في وادي المحصب:

المحصب اسم لواد عند مكة المكرّمة، نزل به النبي ﷺ في أيام الحج، ثم تبعه الخلفاء الراشدون بعده فنزلوا به، ويرى ابن عمر ﵄ أن النزول في وادي المحصب من سنن الحج[3]، لكن عائشة ﵂ كانت لا تعتبره سنّة ولا

---

(١) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٧٦١، وصحيح البخاري كتاب الأذان برقم ٧٢٩، وكتاب الجمعة برقم ٩٢٤، وكتاب صلاة التراويح برقم ٢٠١٢.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٦٤ برقم ٢٤٣٩٦، وسنن أبي داود كتاب الحج برقم ١٨٨٨، وصحيح ابن خزيمة كتاب الحج ٤/ ٢٧٩ برقم ٢٨٨٢، وسنن الدارمي برقم ١٨٥٣.

(٣) «كان يرى التحصيب سنة» صحيح مسلم كتاب الحج برقم ١٣١٠.

كانت تنزل هنا، وتقول: «إنما نزله رسول الله ﷺ لأنه كان منزلاً أسمح لخروجه»[١] ووافقها في هذه المسألة ابن عباس[٢] ورافع[٣] رضي الله عنهم أجمعين.

النهي عن ادخار لحوم الأضاحي فوق الثلاث:

كان النبي ﷺ قد نهى ذات مرة عن أكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فروي عن علي، وابن عمر، وعبد الله بن واقد رضي الله عنهم[٤] أن هذا المنع كان للأبد، لكن روي عن عائشة، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وسلمة بن الأكوع، وثوبان مولى رسول الله ﷺ وبريدة رضي الله عنهم أجمعين أن المنع كان حكماً مؤقتاً[٥]، ثم بينت لنا عائشة رضي الله عنها علة هذا المنع المؤقت، عن عابس بن ربيعة قال: «قلت لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ حرّم لحوم الأضاحي، بعد ثلاث؟ قالت: لا، ولكن لم يكن يضحّي منهم إلا قليل، ففعل ذلك ليطعم من ضحّى من لم يضحّ، ولقد رأيتنا نخبّىء الكراع من أضاحينا ثم نأكلها بعد عشر»[٦].

هذا وقد روى الإمام مسلم في صحيحه جزءاً من رواية عائشة هذه ونصها:

قالت عمرة: «سمعت عائشة تقول: دف أهل أبيات من أهل البادية حضرة الأضحى زمن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ادّخروا ثلاثاً ثم تصدقوا بما بقي، فلما كان بعد ذلك قالوا: يا رسول الله إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ويجمّلون منها الوَدَك، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال: إنما نهيتكم من أجل

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج برقم ١٣١١.
(٢) صحيح مسلم كتاب الحج برقم ١٣١٢.
(٣) صحيح مسلم كتاب الحج برقم ١٣١٣.
(٤) انظر أحاديثهم في صحيح الإمام مسلم كتاب الأضاحي بأرقام ١٩٦٩، ١٩٧٠، ١٩٧١.
(٥) انظر أحاديثهم في صحيح مسلم بأرقام ١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٧.
(٦) مسند الإمام أحمد ٦/ ١٠٢.

الدافة التي دفّت، فكلوا وادّخروا وتصدّقوا»[1].

وروي مثل هذا عن سلمة بن الأكوع ونصه: «من ضحّى منكم فلا يصحبن في بيته بعد ثالثة شيئاً، فلما كان في العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا عام أول؟ فقال: لا، إن ذاك عام كان الناس فيه بجهد، فأردت أن يفشو بينهم»[2].

الحطيم وبناء الكعبة المشرّفة:

يوجد مكان صغير في الجانب الشمالي من جدار الكعبة يلي الميزاب يسمّى الحطيم، وهو من البيت، فلا بد أن يُدخل في الطواف، ويُطاف بالبيت من وراء الحطيم، فلو دخل فيها أحدٌ في طوافه لم يُجْزِئه، لأنه من البيت، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه أنه ما دام هذا المكان ليس داخلاً في الكعبة فلماذا يُطاف من ورائه؟ ويمكن أن بعض الصحابة استشكلوا هذا الأمر، وعرضوه على النبي ﷺ، إلا أن ذخائر الحديث الشريف المتوافرة لدينا خالية عن اسم الذي استفسر عن هذه المسألة رسول الله ﷺ غير عائشة رضي الله عنها تقول رضي الله عنها: «سألت رسول الله ﷺ عن الجدار أمن البيت هو؟ قال: نعم، قلت: فلِم لم يُدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قَصُرَتْ بهم النفقة، قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليُدخلوا مَن شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا...»[3].

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمّم على قواعد إبراهيم»[4].

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الأضاحي برقم ١٩٧.

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب الأضاحي برقم ١٩٧٤.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب الحج باب جدار الكعبة وبابها برقم ١٣٣٣، وصحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٥٨٤، وكتاب التمني ٧٢٤٣، وسنن ابن ماجه كتاب المناسك برقم ٢٩٥٥.

(٤) صحيح الإمام مسلم كتاب الحج برقم ١٣٣٣.

لكن ثمة سؤال ينشأ وهو أن الرسول ﷺ إن كان يعرف أن الكعبة لم يتمّ بناؤها على قواعدها الأصلية، فكان واجباً عليه باعتبار كونه مجدّداً للشريعة الإبراهيمية أن يبنيها من جديد، كما قالت عائشة: «يا رسول الله أفلا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال رسول الله ﷺ: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت»[١] يعني أن عامة العرب كانوا حديثي العهد بالإسلام، فإنهم إن رأوا نقض الكعبة وبناءها من جديد، قد يدفعهم ذلك إلى إثارة الفتن والشغب، وفي الحديث دليل على جواز التأخير في تنفيذ عمل شرعي إذا اقتضت المصلحة ذلك، ولا يُلام صاحبه على التأخير، بشرط أن لا يطلب الشارع تنفيذه على الفور، ونظراً إلى رواية عائشة رضي الله عنها قام عبد الله بن الزبير (ابن أخت عائشة رضي الله عنها) أيام خلافته، ونقض الكعبة وبناها على قواعد إبراهيم وستر عليها الستور، وقال: إني سمعت عائشة تقول: «إن النبي ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوّي على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت لها باباً يدخل الناس به وباباً يخرجون منه، قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولا أخاف الناس»[٢].

فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: «إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسدّ الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه»[٣].

ولكن لما أخبره الثقات من الناس أن هذا البناء كان حسب رواية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: «وددت أني تركته، وما تحمّل»[٤] وفي

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب الحج برقم ١٣٣٣.

(٤) نفس المصدر.

رواية قال: «لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير»[1].

سبب الطواف بالبيت راكباً:

لقد طاف النبي ﷺ بالبيت راكباً في حجة الوداع، ففهم منه بعض الناس أن الطواف بالبيت راكباً سنّة، وهو مذهب بعض الأئمة من المجتهدين، وليس الأمر كما ظنوا، لأن طواف النبي ﷺ راكباً كان نظراً إلى مصلحة وحكمة وسبب، وقد صرح لنا ثلاثة من الصحابة بثلاثة وجوه وأسباب، فيقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ قدم مكة وهو يشتكي فطاف على راحلته، كلما أتى الركن استلم الركن بمحجن، فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين»[2] ويقول جابر رضي الله عنه: «طاف رسول الله ﷺ بالبيت في حجة الوداع على راحلته يستلم الحجر بمحجنه لأن يراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه»[3] وتقول عائشة رضي الله عنها: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره يستلم الركن كراهية أن يضرب عنه الناس»[4] والسبب الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما قد يُتَرَدَّدُ في قبوله، لأنه ﷺ لو كان مريضاً لعلمه الناس كلهم، ولم يختص هذا العلم بابن عباس رضي الله عنه، بل أعلن ذلك في عامة الناس، فدلّ أن كُلاً من هؤلاء الثلاثة علّلوا الواقعة حسب فهمهم واجتهادهم.

الكشف عن حقيقة الهجرة:

تعني الهجرة في هذه الأيام أن يترك الواحد موطنه ويغادر إلى المدينة المنوّرة أو إلى مكة المشرفة، حتى ولو كان بلد إقامته آمناً يسوده الاستقرار والأمن والسلامة، وقد سأل عطاء بن أبي رباح (أحد الأئمة التابعين) عائشة رضي الله عنها عن حقيقة الهجرة فقالت: «لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله

(١) نفس المصدر.

(٢) سنن أبي داود كتاب المناسك برقم ١٨٨١.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب الحج برقم ١٢٧٣.

(٤) صحيح الإمام مسلم كتاب الحج برقم ١٢٧٤.

الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية»[١].

وبهذا اتضح معنى قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لا هجرة بعد الفتح»[٢] لأن مكة صارت بعد الفتح بلداً آمناً، وسادها الأمان والاطمئنان، إلا إذا هاجر أحد بنية نيل جوار الرب أو جوار الرسول ﷺ، فينال ثواب النية.

دفن النبي ﷺ في الحجرة الشريفة:

لما توفي النبي ﷺ اختلف الصحابة في مدفنه ﷺ، وقد ورد في رواية أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «النبي يدفن حيث يموت»[٣] ولذلك دُفن ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث فاضت روحه إلى الملأ الأعلى، ويمكن عزو هذا القول إلى أبي بكر إلا أن هذا موضوع تاريخي لا بد من التثبت في ذلك، وأما السبب الحقيقي لدفنه ﷺ في الحجرة فتبيّنه لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: لعن الله اليهود، والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أو خُشي أن يُتخذ مسجداً»[٤] كما ثبت من ذلك سبب رصّ بنيان قبره ﷺ والحفاظ عليه بين الجدران المحكمة والسقف الراسخة.

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٩٠٠، وكتاب المغازي برقم ٤٣١٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٨٩٩.

(٣) أخرج الترمذي في سننه عن عائشة قالت: «لما قُبض رسول الله ﷺ اختلفوا في دفنه فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته، قال: ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يُحبّ أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب (كتاب الجنائز برقم ١٠٠٨).

(٤) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم ١٣٩٠، مسند الإمام أحمد ٦/١٢١.

البحث السادس

معرفتها بالطب والتاريخ والخطابة والشعر

يشهد تلاميذ أم المؤمنين عائشة ﵂ أنها كانت بارعة ولديها اطلاع كبير واسع في فن التاريخ، وكانت على ملكة من الأدب، وحظيت بقوة فائقة في الخطابة والشعر، ولها باع في الطب كذلك.

يقول هشام بن عروة: «ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا حرام ولا شعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة ﵂»[(١)].

الطب:

يقول عروة: «ما رأيت أحداً أعلم بالطب منها»[(٢)] ومعروف أن فن الطب لم يكن رائجاً عند العرب بكل أصوله وقواعده، وأكبر طبيب للعرب في ذلك الوقت كان الحارث بن كلدة، كما كان هناك أطبّاء صغار منتشرون في البلاد، وقد تعلّمت عائشة ﵂ فن الطب من هؤلاء الأطبّاء الذين كانوا يعالجون بالأعشاب وخواص الأشياء الطبيعية، وقد سألها عروة بن الزبير، وكان يتملكه العجب من إحاطة السيدة بكل هذه العلوم فيقول لها متعجباً: «يا أمتاه لا أعجب من فهمك، أقول زوجة رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول ابنة أبي بكر، وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ ومن أين هو؟ قال: فضربَتْ على منكبه وقالت: أيْ عُرَيّة: إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ترجمة عائشة ﵂ ١/ ٢٨، صفة الصفوة ٢/ ٣٢.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٨.

عمره أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له فمن ثم»[١].

وأرى أن معرفة أم المؤمنين عائشة ﵂ بالطب كانت مثل ما كانت تعالج النساء الكبيرات في السن الأطفال، وتحفظ بعض الأنعات والوصفات الطبية المجرّبة لبعض الأمراض والأسقام، لأن النساء كانت تشارك الرجال في صدر الإسلام في تحمل أعباء الجهاد في سبيل الله، وكان جهادهن يتناسب مع أنوثتهن، وكان في الأعم الأغلب مقتصراً على إعداد الطعام وسقي الماء وتمريض الجرحى وإخلاء القتلى، وأم المؤمنين عائشة ﵂ نفسها شاركت في غزوة أُحد فخرجت مع النساء تسقي الجرحى وتحمل قُرَبَ الماء على عاتقها لتفرغها في أفواه المجاهدين[٢]. وفي هذا دليل على أن نساء ذلك العصر كنّ يُلْممن بهذا الفن قدر الحاجة.

التاريخ:

كان أبو بكر الصديق ﵁ من أعلم الناس بأيام العرب وأنسابهم والطقوس والتقاليد التي كانت في الجاهلية، وأم المؤمنين عائشة ﵂ كانت ابنته، فبالطبع ورثت هذه الفنون والعلوم من أبيها الكريم، وقد سبق قول هشام بن عروة: «ما رأيت أحداً من الناس أعلم... بحديث العرب ولا النسب من عائشة» وكل ما وصلنا من المعلومات والاطلاع على أحوال الجاهلية ومعرفة طقوسهم وعاداتهم، وأخبارهم الاجتماعية، في كتب الحديث كلها مروية عن طريق عائشة ﵂.

مثلاً: الطرق المتبعة في النكاح والزواج عند العرب[٣]، وكيفية الطلاق

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٦/ ٦٧ برقم ٢٤٤٢٥، والحاكم مختصراً في المستدرك ٤/ ٢١٨ برقم ٧٤٢٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير برقم ٢٨٨٠، وكتاب المناقب برقم ٣٨١١، وكتاب المغازي برقم ٤٠٦٠، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجهاد والسير برقم ١٨١١.

(٣) أخرج البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النكاح في=

عندهم[١]، وكيفية الغناء واللهو في حفلات زواجهم[٢]، متى كان يوم صيامهم[٣]؟ أين كانت تنزل قريش في الحج[٤]؟ ماذا كانوا يقولون عند رؤيتهم

= الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيُصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسّها أبداً حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبها فإذا حملت ووضعت مرّ عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدتُ فهو ابنك يا فلان تسمّي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهُنّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جُمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به، ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم» (البخاري كتاب النكاح برقم ٥١٢٧ وأبو داود كتاب الطلاق برقم ٢٢٧٢).

(١) أخرج الترمذي عن عائشة ﵂ قالت: كان الناس والرجل يطلّق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذاك؟ قال: أطلّقك، فكلما همّت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها، فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ، فأخبرته فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٢٩) قالت عائشة: «فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلّق ومن لم يكن طلق» (كتاب الطلاق واللعان برقم ١١٩٢).

(٢) أخرج الطبراني في المعجم الصغير عن عائشة ﵂: «أن النبي ﷺ مرّ بنساء من الأنصار في عُرس لهن وهُنّ يغنّين...» (١/ ٢١٤ برقم ٣٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٤٣ برقم ٢٦١١٠.

(٤) عن عائشة ﵂ قالت: «كانت قريش ومن دان دينها يَقِفون بالمزدلفة... الحديث» (صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن برقم ٤٥٢٠، وصحيح مسلم كتاب الحج برقم ١٢١٩، وسنن الترمذي كتاب الحج برقم ٨٨٤، وسنن النسائي كتاب مناسك الحج برقم ٣٠١٢، وسنن أبي داود كتاب المناسك برقم ١٩١٠).

الميت[1]، كما أننا لم نسمع أخبار معارك «بعاث»[2] التي دارت فيما بين الأنصار إلا من فم عائشة رضي الله عنها، كذلك بعض تقاليد الأنصار في عباداتهم، وعاداتُهم فيها مثل عبادتهم لأصنام[3] المشلّل وغير ذلك مما لم نطلع عليه إلا عن طريق عائشة رضي الله عنها.

وهكذا أهم الوقائع التاريخية مثل بدء الوحي، وأحوال النبوة في مستهلّ أيامها، والأخبار التفصيلية عن أحداث الهجرة، وحديث الإفك بسائر تفاصيله كأننا نراه ونشاهده أمام أعيننا، كل ذلك لم يتلقه المسلمون إلا من فم عائشة رضي الله عنها، ومما يجدر بالذكر أن الأحاديث الموجودة في كتب الصحاح مختصرة لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة، لكن مرويات عائشة رضي الله عنها التي تتضمن سرد هذه الوقائع والأحداث احتوت على صفحتين أو ثلاث صفحات، وكذلك كيفية نزول القرآن الكريم وترتيبه، وطرق أداء الصلاة في الإسلام، وكيفية مرض موت النبي ﷺ من البداية إلى النهاية، وعدد أكفان الرسول ﷺ ونوعيتها، كل ذلك لم نطلع عليه إلا عن طريق عائشة رضي الله عنها.

فما سبق ذكره في هذا الإطار كان متعلقاً بالشؤون المنزلية والأمور الداخلية، ولم يقتصر علمها رضي الله عنها على هذا فقط، بل إنها صوّرت لنا غزوات النبي ﷺ تصويراً دقيقاً، فحكت لنا قصة غزوة بدر الكبرى وغزوة أُحد وغزوة الخندق، وشيئاً عن غزوة بني قريظة، وكذلك كيفية صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع، وبيعة النساء في فتح مكة، وأهم وقائع حجة الوداع، والمعلومات الدقيقة والمهمة المفصّلة عن سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، من

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أهل الجاهلية يقومون لها (الجنازة) يقولون إذا رأوها: كنت في أهلك ما أنت مرتين» (صحيح البخاري كتاب المناقب باب أيام الجاهلية برقم ٣٨٣٧).

(٢) أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتلت سَرَوَاتُهم وجُرحوا، قدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام» (كتاب المناقب باب القسامة في الجاهلية برقم ٣٨٤٧).

(٣) صحيح البخاري كتاب الحج باب وجوب الصفا، والمروة برقم ١٦٤٣.

ذكر عبادته وقيامه في الليل، واشتغاله بمهنة أهله، والتصوير الدقيق الكامل لأخلاقه الحسنة النبيلة الطيبة، كانت عائشة رضي الله عنها هي المصدر الأول والأساسي لسائر هذه المعلومات، كما أنها هي التي بينت لنا أشدّ ما لقيه النبي ﷺ في حياته المباركة.

وكذلك قصة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ودعوى فاطمة والأزواج المطهرّات بطلب توزيع ميراث النبي ﷺ، وحُزْن علي رضي الله عنه، وتفاصيل البيعة، كل ذلك تلقيناه عن طريقها رضي الله عنها.

كانت معرفتها بتاريخ الإسلام مبنية على ما شاهدته من الوقائع بأم عينيها، لكن ما هي مصادرها في معرفة أحوال الجاهلية؟ يظهر من رواية عروة أنها اكتسبت هذا الفضل العلمي من أبيها المبجّل، «ولا أعجب مِنْ عِلْمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر».

الأدب:

المراد بالأدب جمال الألفاظ وحُسن التعبير في الأحاديث العامة، واختيار أسلوب رشيق جذاب في مخاطبة الناس، فما من أحد سمع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أو قرأ كلامها إلا وبهرته فصاحتها وسحرته بلاغتها وأدهشته عارضتها.

يقول أحد تلاميذها، موسى بن طلحة: «ما رأيت أحداً أفصح من عائشة»(١). ويقول التابعي الأحنف بن قيس: «ما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن من في عائشة رضي الله عنها»(٢).

ورغم أن عدد مرويات عائشة رضي الله عنها وصل إلى الآلاف، إلا أن المحدّثين مُجمعون على أن الأحاديث المحفوظة بألفاظها الأصلية قليلة جداً، وعلى كلٍّ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٥، والترمذي في سننه كتاب المناقب برقم ٣٨٨٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٣، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١٨٢ برقم ٢٩٢.

(٢) المستدرك للحاكم ٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٢.

فإننا لو لمسنا في أيِّ رواية جملة واحدة صادرة من في عائشة رضي الله عنها لوجدنا أنها تنفخ روحاً جديدة في الحديث، ونلاحظ ذلك جلياً مثلاً في حديث بدء الوحي، حينما تذكر الرؤيا الصادقة، تقول: «فما رأى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[1] وتعبر عن المشقة التي تصيب النبي ﷺ عند نزول الوحي، قائلة: «حتى أُنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليتحدّر منه مثلُ الجُمان من العرق في يوم شاتٍ»[2]، كما تعبر عن اضطرابها وغياب النوم عن عينيها عندما افترى عليها المفترون حديث الإفك، فتقول: «وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم»[3]. والحديث الذي رواه البخاري حول أم زرع كل فقرة من فقراته نموذج رائع ومثالي للتشبيهات العربية، والاستعارات، والبديع والمعاني، وقد اعتنى أهل اللغة والأدب بعدة شروح لصفحة واحدة من هذا الحديث فقط وعلقوا عليه تعليقات وسوّدوا فيه صفحات[4].

وسوف نذكر لاحقاً في مبحث التعليم أنها كانت توصي تلاميذها بالعناية بالتلاوة الصحيحة للقرآن وحسن تجويده وصحة أدائه، والإقبال عليه دراسة وحفظاً.

الخطابة:

إن الخطابة وقوة البيان من الجواهر الفطرية والطبائع الحرة للعرب، فكانت هذه الملكة والموهبة متوافرة في الرجال والنساء على السواء، ولذلك نجد في تاريخ القرون الأولى من شروق فجر الإسلام، عندما كانت روح العربية حية في قلوب الناس وضمائرهم، كانت هناك خطيبات وأديبات رفيعات المستوى من ذوات المكانة السامية، بلغن القمة في الفصاحة والبيان،

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي برقم ٤، وكتاب تفسير القرآن برقم ٤٩٥٤، وكتاب التعبير برقم ٦٩٨٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب الشهادات برقم ٢٦٦١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) من أهم ما كتب في شرح حديث أم زرع كتاب «بغية الرائد بما في حديث أم زرع من الفوائد» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي. (الناشر).

وقد حفلت كتب الأدب والنقد بكثير من الصور والنماذج الأدبية الرفيعة لعدد ليس بالقليل من أولئك النساء في شتى العصور، وها هو أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٠٤هـ) قد ألف كتاباً جمع فيه نماذج عديدة من بلاغات النساء في صدر الإسلام، وصدّر كتابه بخطب عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، كما أن الإمام الطبري ذكر خطبها التي ألقتها أمام جموع وحشود من الناس في ساحات القتال عند معركة الجمل، كما نقل ابن عبد ربه خطبة لها في كتابه: «العِقْد الفريد». وهذا الأحنف بن قيس التابعي الجليل البصري (ويعتقد أنه سمع خطبتها في البصرة) يقول: «سمعت خطبة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب والخلفاء كلهم هلم طرّاً إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها»(١).

وأرى أن كلام الأحنف لا يخلو من المبالغة، كما أن التأثيرات الخارجية كذلك لها دخل في هذه الخطبة، لأن هذه خطبة امرأة، وفي ساحة القتال، فلا بد لها من التأثير العميق، وعلى كل فممّا لا شك فيه أنها كانت خطيبة مصقعة بلغت الغاية من الفصاحة والبلاغة والبيان.

يقول معاوية رضي الله عنه: «والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة رضي الله عنها»(٢).

وعن موسى بن طلحة قال: «ما رأيت أحداً أفصح من عائشة رضي الله عنها»(٣).

والخطيبة كما أنَّها تحتاج إلى لسان فصيح ذرب، وبيان أدهى من السحر وأمرّ من الصبر، كذلك هي في أمس الحاجة إلى صوت قوي يكون موضع التجلة والاحترام وإلى لهجة فخمة تسترعي انتباه السامعين، كانت عائشة رضي الله عنها تتمتع بهذه الصفات كلها على أكمل وجه.

روى الإمام الطبري في تاريخه: «فتكلمت عائشة، وكانت جَهْوَرية

(١) مستدرك الحاكم ٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٢.

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٣.

(٣) سبق تخريجه في الصفحة الماضية.

الصوت، يعلو صوتها كثيراً، كأنه صوت امرأة جليلة»[1] وخطبها التي ذكرناها عند ذكر وقعة الجمل تدلّنا على قوتها في البيان ووفور عاطفتها ورصانة أسلوبها ورسوخ كلماتها.

الشعر:

كان الشعر هو رأس مال العرب كله في مجال العلم قبل بزوغ شمس الإسلام، وكان له دور بارز ملموس في المجتمع العربي، يقوم الشاعر العربي وينفخ روحاً جديدة في الأقوام الميتة روحياً وفكرياً، ببلاغته وفصاحته وقوة حجته، كما أنه كان يستخدم هذا الجوهر الثمين فيرفع به أقواماً ويضع به آخرين، ولما كانت النساء شقائق الرجال فقد شاركنهم في هذا الصنف الأدبي العظيم، وشعرهن يباري شعر الرجال في جودته وسعة أغراضه وجزالته، وما دام المسلمون محتفظين بجوهر اللغة العربية قبل الإسلام وبعده بقرن كانت هناك مئات من الشاعرات والأديبات التي كان أدبهن الشعري زينة للشعر العربي.

ولدت عائشة رضي الله عنها في هذا العصر، وكانت بنت الصديق أعلم رجالات قريش بأيام العرب وأنسابها وأخبارها، وقد مر معنا تنويه عروة وإشادته بهذه الحقيقة عندما قال لعائشة رضي الله عنها: «وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، فقلت: وما يمنعها وهي ابنة علامة قريش»[2].

وروى الإمام البخاري في الأدب المفرد عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ بالحسن ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها، القصيدة فيها أربعون بيتاً، ودون ذلك»[3].

وسألها شريح: أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: «كان يتمثل بشيء من شعر عبد الله بن رواحة: «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ»»[4].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الأدب المفرد للبخاري ١/ ٢٩٩ برقم ٨٦٦.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٠٠ برقم ٨٦٧، وقد أخرجه الترمذي في سننه =

ومدح الشاعر الجاهلي أبو كبير الهذلي ابنه تأبط شراً بقصيدة فيها البيتان التاليان:

ومبرَّأُ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَداءِ مُغيلِ

فإذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرقَتْ كَبَرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ»

فمدحت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ بهذين البيتين وقالت: «لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، قالت: فقام النبي ﷺ وقبّل بين عينيّ وقال: جزاك الله يا عائشة خيراً ما سُررتِ مني كسروري منك»[(١)].

وقد حفلت كتب الأحاديث بكثير من الأشعار التي كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تستشهد بها.

ولما توفّي عبد الرحمن بن أبي بكر حُمل إلى مكة فدفن فيها، فلما قدمت عائشة مكة أتت قبر عبد الرحمن بن أبي بكر فقالت:

وكُنّا كَنَدْمَانَيْ جُذَيْمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حتّى قِيْلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي ومَالِكاً ... لِطُوْلِ اجتماعٍ لَمْ نَبِتْ ليلةً معا[(٢)]

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر، وبلال، وعامر بن فهيرة، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

= برقم ٢٨٤٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ونسب الشعر إلى طرفة بن العبد ٨/ ١٢٨، وكذلك النسائي نسبه إلى طرفة في السنن الكبرى ٦/ ٢٤٧ برقم ١٠٨٣٣، ١٠٨٣٤، وإلى ابن رواحة ٦/ ٢٤٨ برقم ١٠٨٣٥، وكذلك ابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٢٧٨ برقم ٢٦٠٦٠، ونسبه إلى طرفة، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٧، ونسبه إلى ابن رواحة، وكذلك أحمد في مسنده ٦/ ١٣٨ برقم ٢٥١١٥ و ٦/ ١٥٦ برقم ٢٥٢٧٠ و ٦/ ٢٢٢ برقم ٢٥٩٠٤.

(١) ذكره ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين ١/ ٤٩٠ وكذلك في روضة المحبين ٢٧٧، كما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم ١٠٥٥، والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٤١ برقم ٦٠١٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٦٠، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٢٩ برقم ١١٨١١.

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ في أَهْلِهِ   والمَوْتُ أَدْنَىٰ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمّى يرفع عقيرته ويقول:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً   بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وجَلِيْلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ   وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شامَةٌ وطَفِيْلُ[(١)]

وسألت عامراً فقال:

إِنِّي وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ   إِنَّ الجَبَانَ حَتْفُه مِنْ فَوْقِهِ[(٢)]

وقد رثى الشاعر القرشي كفار قريش وصناديدها الذين قتلوا في غزوة بدر.

فحفظت لنا السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعض أبيات تلك القصيدة:

«ومَاذَا بِالقَلِيْبِ قليبِ بَدْرٍ   مِنَ الشِّيْزَىٰ تُزَيَّنُ بِالسَّنَامِ
ومَاذا بِالقَلِيْبِ قَلِيْبِ بَدْرٍ   مِنَ القَيْنَاتِ والشُّرْبِ الكِرَامِ
تُحَيِّيْنا السَّلامةَ أُمُّ بَكْرٍ   وَهَلْ لِي بَعْدَ قَوْمِيَ مِنْ سَلام
يُحَدِّثُنَا الرَّسُوْلُ بِأَنْ سَنَحْيَا   وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ[(٣)]

تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أسلمت امرأة سوداء لبعض العرب، وكان لها حفش في المسجد، قالت: فكانت تأتينا فتحدّث عندنا، فإذ فرغت من حديثها قالت:

«وَيَومُ الوِشَاحِ مِنْ تَعَاجِيْبِ رَبِّنَا   أَلا إِنَّه مِنْ بَلْدَةِ الكُفْرِ أَنْجَانِي[(٤)]

وخرجت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يوم الخندق تقفو أثر الناس إذ مرّ سعد بن معاذ وهو يرتجز:

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج برقم ١٨٨٩، وكتاب المناقب برقم ٣٩٢٦، وكتاب المرضى برقم ٥٦٥٤/٥٦٧٧.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/٦٥ برقم ٢٤٤٠٥ و ٦/٢٢١ برقم ٢٥٨٩٨ و ٦/٢٣٩ برقم ٢٦٠٧٢، وابن حبان في صحيحه ١٢/٤١٣ برقم ٥٦٠٠.
(٣) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٩٢١.
(٤) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٨٣٥، وكذلك كتاب الصلاة برقم ٤٣٩.

«البثْ قليلاً يُدْرِكِ الهَيْجَا جَمَلْ　　مَا أَحْسَنَ المَوْتَ إذا حَانَ الأَجَلْ»[1]

وكانت نساء الأنصار يغنين في أعراسهن:

«وَأَهْدَى لَهَا أَكْبُشَا　　تَبَحَّجُ في المِرْبَدِ
وَزَوْجُكِ فِي النَّادِي　　ويَعْلَمُ ما فِي غَدِ»[2]

ولما هجا المشركون المسلمين ردّ عليهم المسلمون رداً عنيفاً، وهذه عائشة رضي الله عنها تروي لنا هذا الرد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنّبل، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: اهجهم، فهجاهم، فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحرّكه، فقال: والّذي بعثك بالحق لأفرينّهم بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخّص لك نسبي فأتاه حسّان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلّنّك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين».

وقال:

«وإنَّ سَنَامَ المَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ　　بنو بِنْتِ مَخْزُوْمٍ ووالدك العَبْدُ»

تقول عائشة رضي الله عنها: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسّان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحتَ عن الله ورسوله. وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسّان فشفى واشتفى، قال حسان:

«هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ　　وَعِنْدَ اللهِ في ذاكَ الجَزَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّداً بَرّاً حَنِيْفاً　　رَسُوْلَ اللهِ شِيْمَتُهُ الوَفَاءُ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٥/ ٤٩٨ برقم ٧٠٢٨، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٣٧، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٧٣ برقم ٣٦٧٩٦.

(٢) المعجم الصغير للطبراني ١/ ٢١٤ برقم ٣٤٣، والمعجم الأوسط ٣/ ٣٦٠ برقم ٣٤٠١، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٨٩ برقم ١٤٤٦٦.

فَــإنَّ أَبــي ووالــدَه وعِــرْضِــي لِعِرْضِ مُـحَـمَّـدٍ مِنْـكُـمْ وِقَـاءُ
ثَـكَـلْـتُ بُـنـيَّـتِـي إنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا تُـثِيْـرُ النَّـقْـعَ مِنْ كَـنَـفِـي كَـداءُ
يـبَـارِيْـنَ الأَعِـنَّـةَ مُـصْـعِـدَاتٍ عَـلـىٰ أَكْـتَـافِـهَـا الأَسَـلُ الـظِّـمَـاءُ
تَـظَـلُّ جِـيَـادُنـا مُـتَـمَـطِّـرَاتٍ تُـلَـطِّـمُـهُـنَّ بِـالـخُـمُـرِ الـنِّـسَـاءُ
فإنْ أَعْـرَضْـتُـمْـو عَـنَّا اعْـتَـمَـرْنَـا وكَـانَ الفَـتْـحُ وانْـكَـشَـفَ الغِـطَـاءُ
وإلا فَـاصْـبِـرُوْا لِـضِـرَابِ يَـوْم يُـعِـزُّ اللهُ فِـيْـهِ مَـنْ يَـشَـاءُ
وقَـالَ اللهُ قَـدْ أَرْسَـلْـتُ عَـبْـداً يَـقُـوْلُ الـحَـقَّ لَـيْـسَ بِـهِ خَـفَـاءُ
وَقَـالَ اللهُ قَـدْ يَـسَّـرْتُ جُـنْـداً هُـمُ الأَنْـصَـارُ عُـرْضَـتُـها الـلِّـقَـاءُ
لَـنَـا فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ مِـنْ مَـعَـدٍّ سِـبَـابٌ أو قِـتَـالٌ أو هِـجَـاءُ
فَـمَـنْ يَـهْـجُـو رَسُـوْلَ اللهِ مِـنْـكُـمْ وَيَـمْـدَحُـهُ وَيَـنْـصُـرُهُ سَـوَاءُ
وجِـبْـرِيْـلٌ رَسُـوْلُ اللهِ فِـيْـنَـا ورُوْحُ القُـدْسِ لَـيْـسَ لَـهُ كِفَـاءُ[١]

ولما اطلعت عائشة ﵂ على الأحوال السيئة والظروف الحرجة التي كانت تمرّ بها المدينة المنوّرة بعد استشهاد عثمان ﵁ تمثلت بقول الشاعر:

«وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سرَاتُهُمْ لأَنْقَذْتُهُمْ مِنَ الحِبَالِ أو الخَبَلْ»[٢]

ولما وصلت البصرة تمثلت بقول الشاعر:

«دَعِي بلادَ جموعِ الظُّلْمِ إذْ صَلَحَتْ فيها المياهُ وسِيْرِي سَيْرَ مَذْعُوْرِ»
تَخَيَّرِي النَّبْتَ فَارْعَي ثمَّ ظاهرة وبطن وادٍ من الضُّمَّادِ مَمْطُوْرِ»[٣]

كما أنها كانت تحفظ الأبيات التي ارتجز بها الأبطال في معركة الجمل، ومرة تذكرت ذلك المنظر وبكت بكاء شديداً:

يـا أُمَّـنـا يـا خـيـرَ أُمٍّ نَـعْـلَـمُ أَمَـا تَـرَيْـنَ كَـمْ شُـجَـاعٍ يُـكْـلَـمُ
وتُـخْـتَـلـىٰ هـامَـتُـهُ والـمِـعْـصَـمُ[٤]

---

(١) صحيح الإمام مسلم رحمه الله باب فضائل حسان بن ثابت ﵁ برقم ٢٤٨٩، ٢٤٩٠.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٧.
(٣) تاريخ الطبري ٣/ ١٠.
(٤) تاريخ الطبري٣/ ٤٧، وكذلك البداية والنهاية ٧/ ٢٤٤.

ونظراً إلى هذا الذوق العالي الرفيع للشعر لدى عائشة ﵂ كان الشعراء يعرضون عليها قصائدهم، وهذا حسان بن ثابت ﵁ الذي كان معلّم الشعراء في الأنصار دون منازع، رغم سخط عائشة ﵂ عليه لكونه خاض في الإفك، كان يدخل عليها وينشدها شعراً[(١)]، وكانت تكره أن يُسبّ عندها، بل كانت تمدحه، وتذكره بالخير. يقول عروة: ذهبت أسبّ حسان عند عائشة، فقالت: «لا تسبّه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[(٢)]، كما أنها كانت تذكر شعراء النبي ﷺ الآخرين مثل كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ﵃ أجمعين.

روى أبو هريرة ﵁ عن النبي ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً»[(٣)] وبما أن هذا الحديث فيه ذم للشعر فقال بعض الرواة: إن عائشة ﵂ لما سمعت بحديث أبي هريرة ﵁ قالت: يرحم الله أبا هريرة لم يحفظ الحديث، إنما قال رسول الله ﷺ: لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هُجيتُ به»[(٤)] وهي رواية الكلبي، وهو

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي برقم ٤١٤٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٥٣١، كتاب المغازي برقم ٤١٤٥، ٤١٤٦، كتاب الأدب برقم ٦١٥٠ صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٨٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب برقم ٦١٥٥، وصحيح مسلم كتاب الشعر برقم ٢٢٥٧، وابن حبان في صحيحه ١٣/ ٩٣ برقم ٥٧٧٧، والترمذي في سننه كتاب الأدب برقم ٢٨٥١، وأبو داود في سننه كتاب الأدب باب ما جاء في الشعر برقم ٥٠٠٩، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٦.

(٤) ذكره الإمام بدر الدين الزركشي عن أبي عروبة بسنده عن الكلبي عن أبي صالح عن أبي هريرة ﵁، (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٣٦) وعنه السيوطي في «عين الإصابة ص ٣٠٨».

قلت: وقد ذكر هذه الزيادة الإمام الطحاوي ﵀ في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٦ باختلاف يسير في الألفاظ من حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعاً، وكذلك عن الشعبي عن الرسول ﷺ مرسلاً، كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٢٠ وأبو يعلى في مسنده ٤/ ٤٧، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «في مسند أبي يعلى راوٍ لا يعرف، وأخرج الطحاوي، وابن عدي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . =

كذاب معروف، فلما عرف أن عائشة ﵂ استدركت على الصحابة، وكان لديه ذوق رفيع للشعر فانتهز هذه الفرصة، ونسب الحديث إلى عائشة ﵂، وقد صرّح المحدثون بأن هذا الحديث موضوع مختلق(١).

والأصل في هذا الباب أن إنشاد الشعر في واقع الأمر ليس بشر ولا بخير، وإنما هو صنف من الكلام، وحسن الكلام وقبحه لا يرجع إلى القوافي والأوزان الشعرية، وإنما يبتني على المعاني والمطالب التي يحتويها الكلام، فإن كان مضمون الكلام مشتملاً على الذكر والزهد وتقوى الله تعالى وسائر المواعظ دون إفراط فيها ولا مبالغة، فلا يكون الشعر قبيحاً، وإن كان عكس ذلك فهو إذن وصمة عار على جبين الأخلاق الحسنة والسلوك الطيب، وفساد اللّسان، وهذا الأمر لا يقتصر على الشعر، وإنما ينطبق على النثر كذلك.

وهذا ما رواه البخاري عن عائشة ﵂ في وصفها للشعر تقول ﵂: «الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ بالحسن ودع القبيح»(٢) ويروي عبد الله بن عمر ﵄ عن النبي ﷺ نفس هذا المعنى بشيء من التفصيل: «قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام»(٣) وتقول عائشة ﵂: إن أعظم الناس جُرماً إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها ورجل تنفى من أبيه»(٤).

❊ ❊ ❊

= الحديث» الكلبي واهي الحديث، وأبو صالح شيخه ليس السمّان المتفق على تخريج حديثه في الصحيح عن أبي هريرة، بل هذا آخر ضعيف، يقال له: باذان، فلم تثبت هذه الزيادة. (فتح الباري ١٠/٥٤٩، ط: دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ).

(١) قاله الشوكاني في كتاب «الموضوعات».

(٢) الأدب المفرد ١/٢٩٩ برقم ٨٦٦.

(٣) الأدب المفرد ١/٢٩٩ برقم ٨٦٥، وسنن الدارقطني ٤/١٥٦، ومسند الشافعي عن عروة عن النبي ﷺ ١/٣٦٦، وبسنده رواه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ١/٧١.

(٤) الأدب المفرد ١/٣٠٢ برقم ٨٧٤، وابن حبان في صحيحه ١٣/١٠٢ برقم ٥٧٨٥، وأبو المحاسن في معتصر المختصر ٢/٢٣٠، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣/٦٠٧ برقم ١١٧٨.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

دور عائشة في التعليم والإفتاء والإرشاد

إن الخدمة الحقيقية للعلم هي تبليغه إلى الآخرين واستخدامه في مجال تزكية النفوس وإصلاح الأمة، وإرشادها إلى الصراط المستقيم، ولذلك جاء أمر النبي ﷺ بكل صراحة ووضوح «فليبلّغ الشاهد الغائب» فهل قامت عائشة رضي الله عنها بأداء هذه الفريضة؟ وأدت مسؤولية التعليم الملقاة على كاهلها؟ سوف نتناول الرد على هذا السؤال في المباحث التالية: **التعليم، والإفتاء، والإرشاد.**

ومن هنا ندعو أولئك الذين يزعمون أن القيام بفريضة التعليم، وتبليغه ونشره اختص به صنف الرجال دون النساء أن يصحبونا لكي ينكشف عنهم الغبار ويتضح لديهم الواقع ويتجلى أمام أعينهم الدور البارز الملموس لهذا الصنف الرقيق الذي شبهه النبي ﷺ بالقوارير.

١" ـ التعليم:

من الحقائق التاريخية الثابتة أن صحابة رسول الله ﷺ قد انتشروا في مختلف أرجاء العالم وشتى البلدان بعد النبي ﷺ للقيام بواجب التعليم والدعوة والإرشاد، وكان بلد الله الحرام والطائف، والبحرين، واليمن، والشام، ومصر، والكوفة، والبصرة وغيرها من المدن الكبار مقراً لهؤلاء الطائفة المباركة من الصحابة.

وانتقلت دار الخلافة الإسلامية بعد مضي سبع وعشرين سنة من المدينة المنوّرة إلى الكوفة، ثم إلى دمشق، إلا أن هذه الحوادث وانتقال دار الخلافة من مكان إلى مكان لم يزلزل تلك الهيبة العلمية، والمعنوية، والروحية التي قد ترسخت في قلوب الناس تجاه المدينة المنوّرة، وكانت المدينة المنوّرة حينذاك محتضنة عدة مدارس علمية ودينية يشرف عليها كل من أبي هريرة،

وابن عباس، وزيد بن ثابت وغيرهم ﷺ، إلا أن أعظم مدرسة شهدتها المدينة المنوّرة في ذاك الوقت هي زاوية المسجد النبوي التي كانت قريبة من الحجرة النبوية وملاصقة لمسكن زوج النبي ﷺ، كانت هذه المدرسة مثابة للناس يقصدونها متعلمين ومستفتين، وأصبحت كعبة المحبين ومقصد المشتاقين ورَوح أرواح المؤمنين، ويمّم طلابُ العلم وشداةُ المعرفة وجوههم قبل هذه المدرسة، حتى غدت أول مدارس الإسلام، وأعظمها أثراً في تاريخ الفكر الإسلامي. ومعلّمة هذه المدرسة كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فالذين كانوا من محارمها وأقربائها من الرجال والنساء ضمتهم إليها وربّتهم في حجرها وعلمتهم، أما الآخرون فيدخلون وعليها الحجاب، ويجلسون بين يديها من وراء الحجاب في المسجد النبوي(١).

كان الناس يستفتونها ويسألونها عن مختلف القضايا وهي تجيبهم(٢)، فينالون بركة تلقّي السنّة النبوية الشريفة غضة ندية من فم أم المؤمنين السيّدة التي كانت ألصق الناس بحياة النبي ﷺ وأقربهم منه، ورُبّما كانت هي التي تثير سؤالاً ثم تبدأ في الإجابة عليه، ويستمع لها الناس بآذان صاغية وقلوب واعية، كما أنها كانت تولي عناية فائقة واهتماماً بالغاً بتصحيح لغة تلاميذها وتعويدهم على النطق الصحيح مع مراعاة القواعد اللغوية.

قال ابن أبي عتيق: تحدثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله عنها حديثاً. وكان القاسم رجلاً لحانة وكان لأم ولد، فقالت له عائشة: «مالك لا تحدث كما يتحدث ابن أخي هذا؟ أما إني قد علمت من أين أُتيت؟ هذا أدبته أمه وأنت أدبتك أمك»(٣) وكانت أم القاسم أمة.

كما أنها كانت تقوم بتربية وحضانة عدد من اليتامى والمساكين غير هؤلاء التلامذة، وما كانت تضنّ على أحد منهم بشيء من العلم، أما غير

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧١ برقم ٢٤٤٧٤.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧٣ برقم ٢٤٤٩٧.
(٣) صحيح الإمام مسلم باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام برقم ٥٦٠.

المحارم فكانت تحتجب عنهم وربما طلبت من أخواتها أو بنات أخواتها أن ترضعهم فتكون لهم جدة، ثم تأذن لهم بالدخول عليها، لأنها كانت ترى أن حرمة المصاهرة في الإرضاع تثبت مهما كان سنّ الرضيع، وتستدلّ على رأيها بحديث سالم مولى أبي حذيفة.

والذين لم تسنح لهم فرص الدخول على أم المؤمنين لكونهم من غير المحارم كانوا يتأسفون ويحزنون على عدم تمكنهم من الاستفادة الخاصة، يقول قبيصة: «كان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة»[(١)] وقد دخل الإمام إبراهيم النَّخَعي (إمام أهل العراق بالإجماع) على عائشة رضي الله عنها في صباه، فكان أقرانه يحسدونه على ذلك، عن أبي معشر عن إبراهيم النخعي: «أنه كان يدخل على عائشة، قال: قلت: وكيف كان يدخل عليها؟ قال: كان يخرج مع خاله الأسود، قال: وكان بينه وبين عائشة إخاء وودّ»[(٢)].

كان من عادتها رضي الله عنها أنها كانت تحج كل عام، حيث تكون نقطة تجمّع للمسلمين في مكان واحد وفي يوم واحد، فتضرب لها الخيام بين جبل حراء وثبير[(٣)]، ويقصدها طُلّاب العلم وعِطَاشُ المعرفة من مشارق الأرض ومغاربها لينالوا بركة تلقي السنّة النبوية غضة ندية من فم أم المؤمنين رضي الله عنها[(٤)]، ولم تكن رضي الله عنها تتحرج من إجابة المستفتين عن أي مسألة من مسائل الدين، ولو كانت تتعلق بالشؤون الخاصة، بل كانت تشجّع المستفتين الذين يأخذهم الحياء أحياناً من السؤال عن مثل هذه الشؤون، وعندما قال لها الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أستحييك، فقالت: «سل ولا تستحي فإنما أنا أمك»[(٥)].

---

(١) تهذيب التهذيب، ترجمة عائشة رضي الله عنها ١٢/ ٤٦٣.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٧٢ برقم ٢٥٤٣٤.
(٣) صحيح البخاري باب طواف النساء مع الرجال برقم ١٦١٨، والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٢٩٥.
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٦٨، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٤٠.
(٥) مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٧ برقم ٢٤٦٩٩.

وفي رواية: استأذنتُ على عائشة فأُذن لي، فقلت لها: يا أماه أو يا أم المؤمنين إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أستحييك، فقالت: «لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك فإنما أنا أمك»[1] والواقع أنها كانت تربّي تلامذتها مثل الأم، وتتجلى لنا هذه الصفة في تعليم وتربية عروة، والقاسم، وأبي سلمة، ومسروق، وعمرة، وصفية رضي الله عنهم، وكانت تتكفلهم وتنفق عليهم من مالها الخاص.

وكان بعض أقاربها يحسد بعض تلامذتها لما يرون من معاملتها الخاصة معهم، وهذا عبد الله بن الزبير الذي كان من أحب الناس إلى عائشة رضي الله عنها وابن أختها كان يقول للأسود بن يزيد: «أخبرني بما كانت تفضي إليك أم المؤمنين»[2] وكان تلاميذها أيضاً يوقرونها ويجلّونها، وهذه عَمرة ـ تلميذتها الخاصة ـ كانت أنصارية لكنها تنادي أم المؤمنين بالخالة، وقد تبنت عائشة رضي الله عنها مسروق[3] بن الأجدع التابعي الجليل، فكان إذا حدث عنها يقول: «حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرّأة»[4].

هذا وقد تخرّج من مدرسة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عدد كبير من سادة العلماء ومشاهير التابعين، ومسند الإمام أحمد بن حنبل يضمّ في طياته أكبر عدد من مروياتها رضي الله عنها، وحسب الإحصائية التي قمت بها أنها بلغت مئتي رواية، سواء رواها عنها الصحابي أو التابعي، الحرّ أو العبد، القريب أو البعيد، قد أفرد الإمام أبو داود الطيالسي رحمه الله (ت ٢٠٤هـ) مرويات تلامذتها على حدة في مسنده، ولكنه مختصر جداً، فلم يحتو على عدد كبير من

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الطهارة برقم ٤٣٩، وموطأ الإمام مالك كتاب الغسل.

(٢) مسند الإمام أبي داود الطيالسي ١/ ١٩٧ برقم ١٣٨٢.

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ٤/ ٦٧.

(٤) ذكره الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٢٤١ برقم ٢٦٠٨٦، والإمام البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٥٨ برقم ٤١٩٣، وأبو نعيم الأصبهاني في مسند أبي حنيفة ١/ ٥٤، والطبراني في المعجم الأوسط ٥/ ٣١٤ برقم ٥٤١١، وفي الكبير ٢٣/ ١٨١ برقم ٢٨٩، وإسحاق بن راهويه في مسنده ٣/ ٨١٣ برقم ١٤٥٢.

الأحاديث، وعدّ الإمام ابن سعد في الطبقات الكبرى تلامذتها وذكر أخبارهم، كما أن الحافظ ابن حجر العسقلاني قام بإحصاء الرواة عنها من أقاربها ومواليها والصحابة والتابعين، في كتابه تهذيب التهذيب.

أما الصحابة الذين رووا عنها فمنهم: أبو موسى الأشعري، أبو هريرة، عبد الله بن عمر، عبد الله بن عباس، عمرو بن العاص، زيد بن خالد الجهني، ربيعة بن عمرو الجُرَشي، سائب بن يزيد، الحارث بن عبد الله، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

وأما من الموالي فهم: أبو يونس، ذكوان، أبو عمرو، ابن فروخ، هؤلاء الذين ذكرهم ابن حجر في تهذيب التهذيب[1]. وأبو مُدِلّة مولى عائشة، ذكره الإمام الترمذي[2]، وأبو لبابة مروان ذكره ابن سعد في الطبقات[3]، وأبو يحيى وأبو يوسف ذكرهما الإمام أحمد في المسند[4]، وأشهر هؤلاء ذكوان، وأبو يونس.

كما ذكر في المسند عبد الله بن يزيد[5] رضيع عائشة رضي الله عنها هكذا ذكر في كتب أسماء الرجال، دون التطرق إلى تفاصيل أخبارهم.

أما من الأقارب: أختها أم كلثوم بنت أبي بكر، أخوها من الرضاعة عوف بن حارث، ابنا أخيها قاسم بن محمد، وعبد الله بن محمد، وابنتا أخيها حفصة بنت عبد الرحمن، وأسماء بنت عبد الرحمن، وابن حفيد أخيها عبد الله بن عتيق بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وابنا أختها عبد الله بن الزبير، والقاسم بن الزبير، وبنت أختها عائشة بنت طلحة، وحفيد ابن أختها عبّاد بن حبيب، وعباد بن حمزة، وكثير غيرهم من أولاد أقاربها الذين تربوا

(١) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٦٢.

(٢) سنن الترمذي باب في العفو والعافية رقم الحديث ٣٥٩٨.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٢٩٦.

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٥٨.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٢ برقم ٢٤٠٨٤٥.

في ظلّها، واستفادوا منها في مجال العلم والدعوة، ويوجد في الطبقات الكبرى لابن سعد تفاصيل عن هؤلاء كلهم.

أما من التابعين: فقد تخرج من مدرستها سادة علماء التابعين، وكل من اشتغل بالحديث في عصرها فإنه قد تشرف بالتلقي عنها، وقد انتقينا حوالي مئة وخمسين اسماً لأولئك التابعين من كتب المسانيد، ولو أردنا سرد جميع هذه الأسماء فإنه يحتاج إلى عدة صفحات، ولذلك نقتصر على ذكر أسماء النساء منهم فقط اللاتي تخرجن عالمات جليلات ساهمن في حفظ السنّة وروايتها ونقلها إلى الأجيال اللاحقة.

(أ)

١ ـ أسماء بنت عبد الرحمن.

(ب)

٢ ـ بريرة مولاة عائشة رضي الله عنها.

٣ ـ بُنانة مولاة عبد الرحمن.

٤ ـ بهية مولاة الصديق.

(ت)

٥ ـ تَبَالة بنت يزيد العبشمية.

(ج)

٦ ـ جسرة بنت دجاجة.

(ح)

٧ ـ حفصة بنت عبد الرحمن.

(خ)

٨ ـ خيرة أم الإمام الحسن البصري.

(ذ)

٩ ـ ذفرة بنت غالب.

(ر)

١٠ ـ رميثة.

(ز)

١١ ـ زينب بنت أبي سلمة.

١٢ ـ زينب بنت محمد.

١٣ ـ زينب بنت نصر.

(س)

١٤ ـ سائبة.

١٥ ـ سلمى البكرية.

١٦ ـ سمية البصرية.

(ش)

١٧ ـ شميسة العتكية.

(ص)

١٨ ـ صفية بنت الحارث.

١٩ ـ صفية بنت شيبة.

٢٠ ـ صفية بنت أبي عبيد.

٢١ ـ صفية بنت عطية.

(ع)

٢٢ ـ عائشة بنت طلحة.

٢٣ ـ عمرة بنت عبد الرحمن.

٢٤ ـ عمرة بنت قيس العدوية.

(ف)

٢٥ ـ فاطمة بنت أبي حبيش.

(ق)

٢٦ ـ قَمِير بنت عمرو الكوفية.

(ك)

٢٧ ـ كريمة بنت همّام.
٢٨ ـ كَلْثَم بنت عمرو صاحبة عائشة.

(م)

٢٩ ـ معاذة.
٣٠ ـ ميمونة بنت عبد الرحمن.

(هـ)

٣١ ـ هند.
٣٢ ـ هُنَيدة.

(الكنى)

٣٣ ـ أم بكر.
٣٤ ـ أم جحدر.
٣٥ ـ أم حميدة.
٣٦ ـ أم الدرداء.
٣٧ ـ أم ذرّة مولاة عائشة.
٣٨ ـ أم سالم.
٣٩ ـ أم سعيدة.
٤٠ ـ أم عاصم.
٤١ ـ أم علقمة.
٤٢ ـ أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق.
٤٣ ـ أم كلثوم بنت ثمامة.
٤٤ ـ أم كلثوم الليثية.
٤٥ ـ أم محمد.
٤٦ ـ أم عبد الله.
٤٧ ـ أم هلال.

ومن هؤلاء المستفيدين والمسترشدين من ضمتهم السيدة أم المؤمنين رضي الله عنها إليها وربّتهم في حجرها، وعلّمتهم وشرّفتهم بالتلقي منها، فصنع الله منهم على يدها حَفَظة الإسلام ونَقَلة السنّة النبوية إلى الأجيال اللاحقة بعد جيل الصحابة والتابعين، وكان هؤلاء أقرب إلى السيّدة من الآخرين، فيُعتبرون من حملة علومها ومعارفها بكل معنى الكلمة، وهم:

١ ـ **عروة بن الزبير**: أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه، أمه أسماء بنت أبي بكر، كان ابن أخت عائشة رضي الله عنها ومن أحب الناس إليها، تربّى في حضنها، من كبار علماء المدينة، ولد في آخر خلافة عمر رضي الله عنه سنة ٢٣هـ، تفقه على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحمل علمها وكثيراً من شمائلها، لا يدانيه فيها أحد من أقرانه، حتى كان يقول: لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربع حجج أو خمس حجج وأنا أقول: لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا وقد

وعيته[1]، توفي رضي الله عنه سنة أربع وتسعين ودفن يوم الجمعة.

٢ ـ **القاسم بن محمد بن أبي بكر**: ابن أخي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تربى في حجر عمته وتفقه عليها حتى أصبح الإمام القدوة في المدينة، أحد الفقهاء السبعة، وورث رحمه الله عن أم المؤمنين رواية السنّة، والحرص على الرواية بألفاظها، فكان يحدث الحديث بحروفه. كان عفيفاً كريماً، ورعاً، فقيهاً، ذا الحسب العتيق، وكان لغوامض الأحكام فائقاً، وإلى محاسن الأخلاق سابقاً، توفّي سنة ثمان ومئة وقيل: سنة سبع ومئة وقيل: سنة ست ومئة.

٣ ـ **أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه: توفّي أبوه وهو صغير، كان من أقران عروة بن الزبير، جمع بين الفقه والسنّة، من كبار محدّثي المدينة، روى عنه كبار المحدثين، أمثال عروة، والزهري، والشعبي، كان ثقة فقيهاً كثير الحديث توفي سنة أربع وتسعين من الهجرة.

٤ ـ **مسروق بن الأجدع بن مالك الكوفي**: العابد أبو عائشة، كان رحمه الله كوفياً، لكنه لم يشارك في الحروب الأهلية والمعارك الداخلية، ذكر الإمام الذهبي أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تبنّته[2]، وذكر الإمام ابن سعد عن مسروق بن الأجدع قال: «أتينا أم المؤمنين عائشة فقالت: خوضوا لابني عسلاً، ثم قالت: ذوقوه، فإن رابكم شيء فزيدوا فيه عسلاً...»[3].

ولما توفيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال مسروق: «لولا بعض الأمر لأقمت على أم المؤمنين مناحة»[4]. وقد أخرج البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده معظم مروياته عن عائشة رضي الله عنها.

كان رحمه الله يعدّ من فقهاء العراق، وكان على مكانة عالية من الزهد،

---

(١) تهذيب التهذيب ٧/ ١٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٦٧.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٧٩.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٨١.

يصلي فتتورم قدماه، كان قاضي الكوفة، لكنه لا يأخذ على القضاء رزقاً ولا جزاءً، قال الشعبي: كان مسروق أعلم بالفتوى من شُرَيْح، وكان شريح يستشير مسروقاً، مات سنة ثلاث وستين للهجرة.

أما من النساء فأول من ينبغي أن نستهل بذكرها هي:

١ ـ **السيدة عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارية المدنية،** كانت مثالاً رائعاً لتعليم وتربية أم المؤمنين رضي الله عنها، فقد نشأت وترعرعت في حجرها، وذكرها ابن المديني ففخم أمرها وقال: «عمرة أحد الثقات العلماء بعائشة الأثبات فيها»[(١)].

وقال ابن حبان: «كانت من أعلم الناس بحديث عائشة»[(٢)] وقال سفيان: «أثبت حديث عائشة حديث عمرة، والقاسم، وعروة»[(٣)] كانت أم المؤمنين تحبّها كثيراً، ونظراً إلى حب أم المؤمنين لها كان الناس كذلك يدارونها ويحترمونها، فكانت هي التي يتأخاها الناس وتستلم هدايا الناس لعائشة رضي الله عنها، فكانت تثيب الناس وتردّ عليهم[(٤)]، وكان أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ابنَ أخيها فكتب إليه عمر بن عبد العزيز أنِ انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه[(٥)].

كما أنها كانت تقوم بإصلاح الأخطاء الاجتهادية لابن أخيها[(٦)]، يقول الزهري: قال لي القاسم بن محمد: «أراك تحرص على العلم أفلا أدلّك على وعائه؟ قلت: بلى، قال: عليك بعمرة بنت عبد الرحمن، فإنها كانت في حجر عائشة، فأتيتها فوجدتها بحراً لا ينزف»[(٧)].

---

(١) تهذيب التهذيب ١٢/٤٦٦.

(٢) الثقات لابن حبان ٥/٢٨٨ رقم الترجمة ٤٨٨١.

(٣) تهذيب التهذيب ١٢/٤٦٦.

(٤) الأدب المفرد للإمام البخاري ١/٣٨٢ برقم ١١١٨.

(٥) تهذيب التهذيب ١٢/٤٦٦، وكذلك الطبقات الكبرى ٢/٣٨١.

(٦) موطأ الإمام مالك باب ما لا قطع فيه برقم ١٥٣١.

(٧) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي١/١١٢، وكذلك سير أعلام النبلاء ٤/٥٠٨ و ٥/٣٤٧.

٢ ـ **صفية بنت شيبة رحمها الله**: كانت من التابعيات المشهورات، وابنة صاحب مفتاح الكعبة، روى عنها المحدثون، ومروياتها موجودة في سائر كتب الأحاديث، وتذكر في كتب الأحاديث بـ «صفية بنت شيبة صاحبة عائشة»[١] ورثت عن عائشة ﵂ رواية السنّة، فكان الناس يسألونها، ويقصدونها طلباً لأحاديث عائشة ﵂، وفي سنن أبي داود ﵀: «خرجتُ مع عدي بن عدي الكندي حتى قدمنا مكة، فبعثني إلى صفية بنت شيبة وكانت قد حفظت من عائشة»[٢].

٣ ـ **كَلْثم بنت عمرو القرشية**: هي كذلك تلقب في كتب الرجال بصاحبة عائشة، وقد روت بعض الأحاديث.

٤ ـ **عائشة بنت طلحة**: أم عمران التيمية المدنية، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر، تربّت في حضن خالتها عائشة ﵂، قال ابن معين: «ثقة حجة، وقال العجلي: مدنية تابعية ثقة، وقال أبو زرعة الدمشقي: حدث عنها الناس لفضلها وأدبها»[٣].

٥ ـ **معاذة بنت عبد الله العدوية**: أم الصهباء البصرية، تتلمذت على أم المؤمنين عائشة ﵂، وروت معظم أحاديثها، وورثت عنها حبّها لكثرة العبادة، كانت من العابدات، يقال: إنها لم تتوسّد فراشاً بعد وفاة زوجها (أبي الصهباء) حتى ماتت.

روي عن شيخ من أهل البصرة قال: أتيتُ معاذة فقالت: إني اشتكيت بطني فوصف لي نبيذ الجر، فأتيتها منه بقدح، فوضَعَتْه، فقالت: اللهم إن كنتَ تعلم أن عائشة حدثتني أن النبي ﷺ نهى عن نبيذ الجر فاكفنيه بما شئت، قال: فانكفأ القدح وأهريق ما فيه، وأذهب الله تعالى ما كان بها[٤].

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٧٦ برقم ٢٦٤٠٣، والطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٣٣ و ٨/ ١٣٩.

(٢) سنن أبي داود كتاب الطلاق برقم ٢١٩٣.

(٣) انظر أقوال العلماء فيها في تهذيب التهذيب لابن حجر ١٢/ ٤٦٤.

(٤) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧٩.

٢" ـ الإفتاء:

ما سبق من الأدلة على فضل عائشة ﵂ وكمالها في مختلف المباحث وتحت عديد من العناوين يصوّر لنا بكل وضوح حياة عائشة ﵂ بعد وفاة النبي ﷺ، وبإمكاننا أن ندرك كيف أنها قضت بقية عمرها كمرجع أساسي للسائلين والمستفتين ومثابة للزوار والطالبين، وقدوة يقتدى بها في سائر المجالات والشؤون، لكن من حُسن حظّنا أن خزانة تراثنا الإسلامي غنية بتلك الشهادات المسجّلة القاطعة والحاسمة التي تؤكد لنا وتجعلنا نقطع بالقول إن عائشة ﵂ كانت مرجع الصحابة في كل شيء، وما أشكل عليهم شيء من الحديث أو الفقه إلا وجدوا عندها منه علماً، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ومشيختهم يسألونها ويستفتونها.

تقسيم ابن قيم علماء الصحابة المفتين:

هذا وقد صنّف المحدّثون علماءَ الصحابة إلى ثلاث طبقات، وذلك نظراً إلى قلة أو كثرة فتاواهم: قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وكانوا بين مكثر منها ومقل ومتوسط»:

المكثرون من الفتيا: والذين حُفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مئة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس ﵃. قال أبو محمد ابن حزم: ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم، قال: وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس ﵄ في عشرين كتاباً، وأبو بكر محمد المذكور أحد أئمة الإسلام في العلم والحديث.

المتوسطون في الفتيا: قال أبو محمد: والمتوسطون منهم فيما روي عنهم من الفتيا أبو بكر الصديق، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير ﵃... الخ.

المقلّون في الفتيا: والباقون منهم مقلّون في الفتيا، لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان والزيادة اليسيرة على ذلك.... وهم أبو الدرداء، وأبو اليَسَر، وأبو سلمة المخزومي، وأبو عبيدة بن الجراح، والحسن، والحسين ابنا علي، والنعمان بن بشير، وأبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو طلحة، وأبو ذر، وأم عطية، وصفية أم المؤمنين، وحفصة، وأم حبيبة رضي الله عنهم أجمعين....»[1].

عائشة تفتي في عهد الخلفاء الراشدين:

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد استقلت بالفتوى وحازت على هذا المنصب الجليل المبارك منذ وفاة النبي ﷺ، وأصبحت مرجع السائلين ومأوى المسترشدين وبقيت على هذا المنصب في زمن الخلفاء كلهم إلى أن وافاها الأجل.

يقول القاسم بن محمد أحد الفقهاء السبعة في المدينة المنوّرة:

«كانت عائشة قد استقلت بالفتوى في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان وهلمّ جرّاً إلى أن ماتت يرحمها الله».

وحتى عمر الفاروق رضي الله عنه الذي كان مجتهد الإسلام والدين لم يستغن عن هذه المشكاة النبوية: «كانت عائشة تفتي في عهد عمر، وعثمان إلى أن ماتت يرحمها الله، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ: عمر، وعثمان بعده، يرسلان إليها فيسألانها عن السنن»[2].

وكما هو معروف أن كل صحابي لم يكن مسموحاً له بالإفتاء في عهد عمر رضي الله عنه، بل كان ذلك الأمر إلى البعض من خاصّة أصحاب الرسول ﷺ، وهم الذين كانوا يفتون، وهذا يدلنا على مدى اعتماد عمر رضي الله عنه

---

(١) إعلام الموقعين للإمام ابن القيم رحمه الله ١/ ١٢، ١٣، ط: دار الجيل بيروت ١٩٧٣م.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧٥.

على عائشة أم المؤمنين والاعتراف بفضلها ومكانتها العلمية وسعة اطلاعها ومعرفتها.

وهذا الأمير معاوية رضي الله عنه كان والي دمشق، وكان إذا أشكل عليه شيء يرسل إلى أم المؤمنين يستفسرها عنه[1]، وفي بعض الأحيان يكتب إليها يستنصحها، أخرج الإمام الترمذي في سننه: «كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إليّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري عليّ، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام الله عليك أما بعد: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكّله الله إلى الناس، والسلام عليك»[2].

كانت المدينة المنوّرة مقرّ كبار الصحابة ومركزهم، وقد بقي في المدينة حتى خلافة الشيخين كل من عثمان، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي بن كعب، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، وأمثالهم من كبار الصحابة وعلماء الإفتاء رضي الله عنهم أجمعين، فلما تولّى عثمان رضي الله عنه الخلافة، توفّي معظم هؤلاء الكبار من الصحابة.

وبدأ عصر الشباب منهم، وكان على رأس قائمتهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة رضي الله عنهم أجمعين وكما مرّ معنا فإن عائشة رضي الله عنها قد حازت على منصب الافتاء منذ صغرها في زمن كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكان جلّة الصحابة يراجعونها في معضلات الأمور، أخرج الإمام الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكل علينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة

---

(١) «فأخبرته معاوية بن أبي سفيان (يقصد حديث استشهاد عثمان رضي الله عنه) فلم يرض بالذي أخبرته، فكتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إليّ به، فكتبت إليه به كتاباً» (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٨٦).

(٢) سنن الترمذي باب ما جاء في حفظ اللسان برقم ٢٤١٤.

إلا وجدنا عندها علماً»[١]، وأخرج الإمام ابن سعد: «يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ»[٢]، ويقول التابعي الجليل مسروق: «أي والذي نفسي بيده لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض»[٣].

حتى أمثال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهما الذين كانوا يدانونها في الاجتهاد والفقه كذلك يسألونها في بعض القضايا ويتأكدون منها فيها[٤]، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه الذي يعدّ من علماء الصحابة لم يكن في غنى عنها[٥].

كانت المدينة المنوّرة قلب بلاد الإسلام، فكان الناس يقصدونها من مشارق الأرض ومغاربها ليتشرفوا بزيارة النبي ﷺ فيأنسوا بجواره ويتبركوا بآثاره، وينالوا شرف زيارة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانوا يأتون من بلدان بعيدة وأجنبية، لا يكون عندهم اطلاع على الآداب والتقاليد التي لا بد من مراعاتها عند الدخول على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فكانوا يتعلّمون الآداب أول ما يصلون ويبدأون بالسلام.

يقول عبد الله بن أبي موسى: «أرسلني مدرك أو ابن مدرك إلى عائشة أسألها عن أشياء، فأتيتها فإذا هي تصلّي الضحى، فقلت أقعد حتى تفرغ، فقالوا: هيهات، فقلت لآذنتها: كيف أستأذن عليها؟ فقال: قل: السلام عليك ورحمة الله وبركاته»[٦].

وكانت توقر من كان يأتيها وتعاملهم معاملة الإكرام والاحترام، ويحول بينها وبينهم الحجاب[٧]، عن يزيد بن بابَنُوس قال: «ذهبت أنا وصاحب لي

---

(١) سنن الترمذي باب فضل عائشة برقم ٣٨٨٣.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧٥.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٢ برقم ٦٧٣٦، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٥.
(٤) صحيح البخاري كتاب الجنائز، وأبواب الوتر، وكذلك النسائي كتاب الزينة برقم ٥٣٠٦.
(٥) موطأ الإمام مالك باب الغسل.
(٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٢٥ برقم ٢٤٩٨٩.
(٧) انظر: صحيح البخاري باب طواف النساء مع الرجال برقم ١٦١٨، ومسند الإمام أحمد ٦/ ٢١٩ برقم ٢٥٨٨٣.

إلى عائشة فاستأذنا عليها فألقت لنا وسادة وجذبت إليها الحجاب»[1].

ولم تكن رضي الله عنها تتحرج في إجابة المستفتين عن أي مسألة من مسائل الدين، ولو كانت متعلقة بالشؤون الخاصة، بل إنها كانت تشجّع المستفتين الذين كانوا يستحيون من السؤال الخاص بهم، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ تطمئنهم وتقول لهم: «أنا أمك فلا تستحي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك»[2]. ولم يكن يفوتها الحج أي سنة، فلما حجت أقامت عند جبل ثبير[3]، فيقصدها هناك عدد كبير من السائلين والمستفتين، وقد تجلس في سقيفة زمزم[4]، ويأتيها طلاب العلم وشداة المعرفة يروون غليلهم العلمي وينهلون من المنهل الصافي، فيسألونها في كل صنف من المسائل وهي تجيبهم في ضوء الكتاب والسنّة. ولو اختلف أحد منهم في قضية أو أشكل عليهم أمر يراجعونها لحسم القضية، عن سعيد بن المسيّب قال: «إن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه أتى عائشة زوج النبي ﷺ فقال لها: لقد شقّ عليّ اختلاف أصحاب النبي ﷺ في أمر إني لأُعظِمُ أن أستقبلك به، فقالت: ما هو؟ ما كنتَ سائلاً عنه أمَّك فسلني عنه، فقال: «الرجل يصيب أهله ثم يكسل ولا يُنزل، فقالت: إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل، فقال أبو موسى الأشعري: لا أسأل عن هذا أحداً بعدك أبداً»[5].

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يفتي فيقول: لا وتر لمن أدرك الصبح، فانطلق رجال من المؤمنين إلى عائشة رضي الله عنها فقالت: «كان رسول الله ﷺ يصبح فيوتر»[6].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢١٩ برقم ٢٥٨٨٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٦٥ برقم ٢٦٣٣٢ و ٦/ ٩٧ برقم ٢٤٦٩٩.
(٣) صحيح البخاري باب طواف النساء مع الرجال برقم ١٦١٨.
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٥ برقم ٢٤٦٨٥ و ٦/ ٢١٩ برقم ٢٥٨٨٣.
(٥) أخرجه مالك في الموطأ باب الغسل برقم ١٠٤، والشافعي في مسنده ١/ ١٥٨، وعبد الرزاق في المصنف ١/ ٢٤٨ برقم ٩٥٤، وابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٠٠ برقم ٥٠٧.
(٦) مسند الإمام أحمد ٦/ ٤٨ برقم ٢٤٢٥٨، وأخرجه الترمذي باب ما جاء في تعجيل=

وكان عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما من أصحاب النبي ﷺ أحدهما يعجّل الإفطار والآخر يؤجّله فسُئلت عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقالت: أيهما يعجّل الإفطار ويعجّل الصلاة؟ قالوا: عبد الله بن مسعود، قالت: «كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ»(١).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يفتي أن من أهدى هدياً حَرُم عليه ما يَحرُم على الحاج حتى ينحر الهدي، فكتب زياد بن أبي سفيان إلى عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: من أهدى هدياً حرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر هديه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ليس كما قال ابن عباس، أنا فتلت قلائد هدي رسول الله ﷺ بيدي، ثم قلّدها رسول الله ﷺ بيديه ثم بعث بها مع أبي، فلم يحرم على رسول الله ﷺ شيء أحلّه الله حتى نحر الهدي(٢).

وفي سنن البيهقي قال الزهري: أول من كشف الغمّى عن الناس وبيّن لهم السنّة في ذلك عائشة رضي الله عنها، فلما بلغ الناس قول عائشة هذا أخذوا به وتركوا فتوى ابن عباس(٣).

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يفتي أن من أدركه الفجر جنباً فلا يَصُمْ، فانطلق عبد الرحمن إلى عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما وسألهما فقالت: كان النبي يصبح جنباً من غير طهر ثم يصوم، يقول عبد الرحمن: فانطلقنا حتى دخلنا على مروان فقال مروان: عزمت عليك إلا ذهبت إلى أبي هريرة فرددت عليه ما يقول،

= الإفطار برقم ٧٠٢، وأبو داود في سننه باب ما يستحب من تعجيل الفطر برقم ٢٣٥٤، والنسائي في سننه باب قدر ما بين السحور وبين صلاة الصبح برقم ٢١٦١، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٥٣.

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٤٢ برقم ٢٦١٠٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٤٦، باب فيمن فاته الوتر، وذكره الزركشي في «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» ص ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج برقم ١٦٩٦، ١٦٩٩، ١٧٠٠، ومسلم في صحيحه برقم ١٣٢١.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ٥/ ٢٣٤ برقم ٩٩٧١، وانظر لمزيد من التفصيل «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» للزركشي ص ٩٦، ٩٥.

قال: فجئنا أبا هريرة، فقال أبو هريرة: أهما قالتاه لك؟ قال: نعم، قال: هما أعلم[1].

يحرم على المحرم لُبسُ الخفين، فلو لم يجد المحرمُ النعالَ فيقطع أعلى الخفين حتى تصير نعالاً، فكان ابن عمر رضي الله عنهما يفتي بقطع رأس الخفين للمرأة المحرمة، ثم حدثته صفية بنت أبي عبيد أن عائشة رضي الله عنها حدثتها أن رسول الله ﷺ قد كان رخّص للنساء في الخفين، فترك ذلك[2].

وذات مرة تذاكر أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما عدة الحامل المتوفى عنها زوجها تضع بعد وفاة زوجها بأيام، فقال ابن عباس: عدتها آخر الأجلين، وقال أبو هريرة: عدتها وضع الحمل، فبعثوا إلى عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما فقالتا: «وضعت سُبيعة الأسلمية بعد وفاة زوجها بثلاثة أيام فذكر أمرُها لرسول الله ﷺ فأمرها فنكحت»[3].

اختلف أبو هريرة، وابن عمر رضي الله عنهما في ثواب اتباع الجنائز، فقال أبو هريرة: من تبع جنازة فله قيراط، فقال ابن عمر: أكثر أبو هريرة علينا، فصدّقت عائشة رضي الله عنها أبا هريرة وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقوله[4].

إن فتاوى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رغم إحاطتها بسائر القضايا التي لها اتصال بقواعد الدين وأصول الطهارة وشروط العبادات ونواقض الصلاة

---

(١) صحيح الإمام مسلم باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم ١١٠٩، وانظر: الإجابة للزركشي ص ١٢٤.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٤/ ٢٠١ برقم ٢٦٨٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٥٢ برقم ٨٨٥٨، وأبو داود في سننه ٢/ ١٦٦ برقم ١٨٣١، ومسند أحمد٢/ ٢٩ برقم ٤٨٣٦ و ٦/ ٣٥ برقم ٢٤١١٣، والإجابة ص ١١٨.

(٣) صحيح مسلم باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل برقم ١٤٨٠، وصحيح ابن حبان ١٠/ ١٣٢ برقم ٤٢٩٢، وسنن الترمذي برقم ١١٩٥، الدارمي برقم ٢٢٧٩، ومسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٤٩٣ برقم ١٠٧٨.

(٤) صحيح البخاري باب فضل اتباع الجنائز برقم ١٣٢٤، وصحيح الإمام مسلم كتاب الجنائز برقم ٩٤٥.

والصيام إلا أن معظمها يتعلق بأحكام النساء والعلاقات الزوجية، وأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام وفي خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين هو أسلوب التعليم، ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب، ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ﷺ ومأثوراته وأعماله. فهي التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سُئلت عنها.

وكما قال الإمام ابن حزم، والإمام ابن القيم رحمهما الله: إن فتاواها إذا جُمعت كانت مجلداً ضخماً كبيراً. وكيف لا وقد كان هناك حشد من الناس رجالاً ونساءً يقدمون إليها من العراق[1]، والشام[2]، ومصر[3] يستفتونها في أمور دينهم ويقتنعون بأجوبتها.

بل كان الناس يتقربون إلى أولئك الذين يخدمونها ويلازمونها، فقد كانت عائشة بنت طلحة رضي الله عنها واحدة من الملازمين لها والمتشرفين بخدمتها، تقول: كان الناس يأتونها من كل مصر، فكان الشيوخ ينتابوني لمكاني منها، وكان الشباب يتأخوني، فيهدون إليّ ويكتبون إليّ من الأمصار، فأقول لعائشة: يا خالة هذا كتاب فلان وهديته، فتقول لي عائشة: «أي بنية فأجيبيه وأثيبيه»[4].

ورغم كل هذا الفضل والاطلاع الواسع والمعرفة الجليلة لو عُرض عليها مسألة لم يكن عندها علم بها، أو وجدت أحداً غيرها هو أحسن إجابة عنها، فإنها تأمر المستفتي أن يذهب إليه، عن شريح بن هانىء قال: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت: «عليك بابن أبي طالب، فسله، فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ..»[5].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩٣ برقم ٢٤٦٦٧.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٧٣ برقم ٢٥٤٤٦ و ٦/ ٩٥ برقم ٢٤٦٨٥.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٥٨ برقم ٢٦٢٥٥.
(٤) الأدب المفرد للإمام البخاري ١/ ٣٨٢ برقم ١١١٨.
(٥) صحيح الإمام مسلم باب التوقيت في المسح على الخفين برقم ٢٧٦، وسنن البيهقي=

ومرة سُئلت عن الركعتين بعد العصر فقالت: «سل أم سلمة»[1]، كما سُئلت عن لبس الحرير فقالت: «سل عبد الله بن عمر»[2]

٣" - الإرشاد:

إن أيَّ دين أو مذهب لما يطرأ على أهله الجمود وتتوقف عجلة الحركة الدموية فيه بعد مرور فترة زمنية عليه فإنه يكون في حاجة إلى من ينهض ويقوم بتجديده وإحيائه مرة أخرى، أما إذا كان العهد قريباً ولم يمضِ عليه وقت طويل فإنه يحتاج إلى من يقوم بواجب الإرشاد والتوعية، ويبذل قصارى مجهوداته في استعادة ما ضاع من أحكامه وتعاليمه، ولا يتركه حتى تختفي معالمه من بين أعين الناس ويتناساه الناس، وهذا ما يسمّى بالإرشاد والتوعية.

وإن جهود أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نحو القيام بأداء هذه الفريضة ليست بأقل من جهود الصحابة الآخرين، فإنها سواء كانت في حجرتها الشريفة، أو بين أظهر الناس أو في مواسم الحج، لم تنس هذه الفريضة ولم تغفل عنها في أي لحظة وفي أي مكان.

كانت رضي الله عنها تحزن وتقلق من كل ما كان يحدث في زمن خلافة عثمان رضي الله عنه وما يحاك فيه من شبكات المؤامرات والمعاندات والتي كانت تنقض عرى الإسلام عروة عروة، ومشاركتها في معركة الجمل لم تكن إلا نتيجة ذلك.

ولما أكثر الناس في عثمان رضي الله عنه وسخطوا منه من أجل الفتنة التي أثارها العجم وأهل مصر حتى بدأ البعض منهم يلعنه ويسبّه ويشتمه، فأرسل

= الكبرى ١/ ٢٧٢ برقم ١٢٠٧، وشرح معاني الآثار للطحاوي ١/ ٨١ وفيه «فهو أعلم بذلك مني»، ومسند الإمام أحمد ١/ ٩٦ برقم ٧٤٨ و ١/ ١٤٦ برقم ١٢٤٤ و ١/ ١٤٩ برقم ١٢٧٦.

(١) صحيح البخاري كتاب الجمعة باب إذا كُلِّم وهو يصلّي فأشار بيده واستمع برقم ١٢٣٣.

(٢) أخرجه النسائي في سننه باب التشديد في لبس الحرير برقم ٥٣٠٦.

المخارق بن ثمامة ـ وكان من سادات البصرة ـ أخته أم كلثوم بنت ثمامة إلى عائشة رضي الله عنها وقال: «ادخلي على عائشة وسليها عن عثمان بن عفان فإن الناس قد أكثروا فيه عندنا، قالت: فدخلت عليها فقلت: بعض بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان، قالت: أما أنا فأشهد على أني رأيت عثمان في هذا البيت في ليلة قائظة ونبيّ الله ﷺ وجبريل يوحي إليه، والنبي ﷺ يضرب كف أو كتف ابن عفان بيده، اكتب عُثَم، فما كان الله ينزل تلك المنزلة من نبيه ﷺ إلا رجلاً عليه كريماً، فمن سب ابن عفان فعليه لعنة الله»[1]. وقد روى القصة الإمام أحمد بن حنبل في مسنده باختلاف يسير في الألفاظ وفيه: «قالت: لعن الله من لعنه، لا أحسبها إلا قالت ثلاث مرات، لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو مسند فخذه إلى عثمان وإني لأمسح العرق عن جبين رسول الله ﷺ وإن الوحي ينزل عليه، ولقد زوّجه ابنتيه إحداهما على إثر الأخرى وإنه ليقول اكتب عثمان، قالت: ما كان الله لينزل عبداً من نبيه تلك المنزلة إلا عبداً عليه كريماً»[2].

وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف بينه وبين أناس خصومة، فذكر لعائشة رضي الله عنها فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن النبي ﷺ قال: «من ظَلم قِيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين»[3].

وكان العرف في المدينة المنوّرة أنه إذا ولد الصبيان يؤتى بهم إلى عائشة رضي الله عنها تبركاً فتدعو لهم بالبركة، فأتيت بصبي فذهبت تضع وسادته فإذا تحت رأسه موسى، فسألتهم عن الموسى فقالوا: نجعلها من الجن، فأخذت الموس فرمت بها ونهتهم عنها وقالت: إن رسول الله ﷺ كان يكره الطيرة ويُبغضها[4].

---

(١) الأدب المفرد ١/٢٨٨، باب من دعا صاحبه فيَختصر وينقص من اسمه شيئاً برقم ٨٢٨، والطبراني في الأوسط ٤/١١٧ برقم ٣٧٥٨، باختلاف يسير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٢٦١ برقم ٢٦٢٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض برقم ٢٤٥٢، ٢٤٥٣، وكتاب بدء الخلق ٣١٩٥، ومسلم في صحيحه كتاب المساقاة برقم ١٦١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/٣١٤ برقم ٩١٢.

هذا وقد اختلط المسلمون مع العجم في عهد عمر الفاروق ﷺ، لكن قوته التنفيذية وسلطته القوية حالت دون تسرب سموم العجمية وجراثيمها إلى مجتمعات المسلمين، إلا أن عهد عثمان ﷺ لم يقدر على مقاومتها، وظل هذا الاختلاط يتركّز على مر الأيام إلى أن أخذت تلك السموم الطريق إلى المجتمعات الإسلامية، وبدأت تسمّم البيئة العربية، فسادت أنواع من الملاهي وصنوف من الأشياء المسلّية مجتمع المسلمين، وعم فيهم اللعب بالشطرنج والنردشير وشتى أنواع الترفيه مما تسبّب في تضييع الأوقات، فلما رأى ذلك صحابة رسول الله ﷺ أسرعوا إلى الزجر عنها، وبدأوا يردعون الناس عن هذه الأعمال، وقد بلغ عائشة ﷺ أن أهل بيت في دارها كانوا سكاناً فيه عندهم نَرْد فأرسلت إليهم «لئن لم تخرجوها لأخرجنّكم من داري» وأنكرت ذلك عليهم[1].

وكان ابن أبي السائب من أشهر الوعّاظ والقصّاص في المدينة، وكما هي عادة القصّاص فإنهم يَدْعون بأدعية مسجّعة ذات نغمات خاصة حتى يستجلبوا الناس ويسترعوا انتباههم، وكذلك كان يفعل ابن أبي السائب، فلما سمعت عائشة ﷺ عن ابن أبي السائب قالت له: «ثلاثاً لتبايعني عليهن أو لأناجزنّك؟ فقال: ما هن؟ بل أنا أبايعك يا أم المؤمنين، قالت: اجتنب السجع في الدعاء، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا لا يفعلون ذلك، وقص على الناس في كل جمعة مرة، فإن أبيت فثنتين فإن أبيت فثلاثاً، فلا تملّ الناس. ولا ألفينّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقطع عليهم حديثهم، ولكن اتركهم فإذا جرؤوك عليه وأمروك به فحدّثهم»[2].

وقد أمر الإسلام المطلقة أن تعتد في بيت زوجها، ولم يستثن من هذا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٣٥ برقم ١٢٧٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢١٧ برقم ٢٥٨٦٢، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٩١، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٢١ برقم ٢٩١٦٤ جزءاً منه، ونحوه إسحاق بن راهويه في مسنده ٣/ ٩٣٣ برقم ١٦٣٤.

الحكم إلا فاطمة بنت قيس ﷺ، حيث طلقها زوجها، وانتقلت إلى بيت آخر واعتدَّتْ هناك، فكانت فاطمة تستدل بقصتها على جواز انتقال المطلقة من بيت زوجها واعتدادها خارجه، فنقل عبد الرحمن بن الحكم ابنته من بيت زوجها استناداً إلى قصة فاطمة، فلما أُخبرت عائشة ﷺ بذلك أرسلت إلى مروان بن الحكم وهو أمير المدينة: «اتق الله وارْدُدْها إلى بيتها، فقال مروان: إن عبد الرحمن بن الحكم غلبني، وفي رواية: قال: أَوَ ما بلغكِ شأن فاطمة ابنة قيس؟ قالت: لا يضركَ أن لا تذكر حديث فاطمة، وأضافت قائلة: إن فاطمة كانت في مكان وحش فخيف على ناحيتها، فلذلك أرخص لها النبي ﷺ»[1].

ولما فتح المسلمون بلاد العجم تعرفوا على بعض الأسماء الحديثة والأصناف الجديدة من الخمور، ومنها كانت «بادق» أي «باده» وكانت الخمر في اللغة العربية تطلق على أصناف خاصة وأنواع متميزة، فتساءل الناس عن حكم هذه الأصناف الحديثة هل هي داخلة في معنى الخمر أم لا؟ فأعلنت عائشة في مجلسها تحريمها، تقول كريمة بنت هَمّام: «سمعت عائشة أم المؤمنين تقول: نُهيتم عن الدباء، نُهيتم عن الحنتم، نُهيتم عن المزفت، ثم أقبلت على النساء فقالت: إياكن والجرَّ الأخضر، وإن أسكركنّ ماءُ حُبّكنّ فلا تشربنه»[2].

وبطبيعة الحال كان معظم من يدخل عليها من صنف النساء، فيستفتينها في أمور دينهن فترشدهن أم المؤمنين عائشة ﷺ إلى الحق وتقدم لهن حلول مشاكلهن، وتطلب منهن أن يبلّغن أزواجهن بذلك. فذات مرة دخلت عليها نسوة من البصرة فقالت لهن: مُرن أزواجكن يغسلوا عنهم أثر البول والخلاء، فإنا نستحيي أن ننهاهم عن ذلك، وأن رسول الله ﷺ كان يفعله[3].

ومرة أتتها أم محبة فقالت لها: «يا أم المؤمنين أكنت تعرفين زيد بن

---

(١) الحديث كله أخرجه البخاري في صحيحه برقمَيْ ٥٣٢٢ و ٥٣٢٦، باب قصة فاطمة بنت قيس.

(٢) سنن النسائي باب ذكر الأخبار التي اعتلّ بها من أباح شراب السكر برقم ٥٦٨١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٥ برقم ٢٤٦٨٣ و ٦/ ٩٣ برقم ٢٤٦٦٧.

أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته جارية إلى عطائه بثمانمئة نسيئة، وإنه أراد بيعها فاشتريتها منه بستمئة نقداً، فقالت لها: بئس ما اشتريت وبئس ما اشترى، أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب»[(١)].

ودخلت نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت: أنتن اللاتي تدخلن الحمامات؟ قال رسول الله ﷺ: «ما من امرأة وضعت ثيابها خارج بيتها إلا هتكت ستر ما بينها وبين الله عزّ وجلّ»[(٢)]. وقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مأوى لمئات الآلاف من القلوب المسلمة، ولا سيما في موسم الحج حيث تحيط بها النسوة، وهي تمشي أمامهن مثل الإمام والقائد، وأثناء هذا المشي تقوم بأداء واجب الدعوة والإرشاد والإفتاء بكل دقة وبراعة. تقول ذفْرة: كنت أمشي مع عائشة في نسوة بين الصفا والمروة، فرأيت امرأة عليها خميصة فيها صلب، فقالت لها عائشة: انزعي هذا من ثوبك، فإن رسول الله ﷺ إذا رآه في ثوب قضبه[(٣)]. وكانت تمنع التحلي بالحُلي التي يطلع منها الصوت، وكذلك أصوات الجرس، تقول بُنانة مولاة عبد الرحمن بن حبان الأنصاري عن عائشة أم المؤمنين قالت: بينما هي عندها إذ دُخل عليها بجارية عليها جلاجل يصوِّتْن، فقالت: لا تدخلوها عليّ إلا أن تقطعوا جلاجلها، فسألتها بنانة عن ذلك فقالت: «سمعت رسول الله ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جرس ولا تصحب رفقة فيها جرس»[(٤)]. ودخلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة، وعلى حفصة خمار رقيق «فشقته عائشة وكستها خماراً كثيفاً»[(٥)]. وإن مكاتباً لأم المؤمنين دخل عليها ببقية مكاتبته، فقالت له: ادخل

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٥/ ٣٣٠ برقم ١٠٥٨٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ١٧٣ برقم ٢٥٤٤٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٢٥ برقم ٢٥٩٢٣ و ٦/ ١٤٠ برقم ٢٥١٣٤.

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٤٢ برقم ٢٦٠٩٤، وكذلك أخرجه أبو داود في سننه باب ما جاء في الجلاجل برقم ٤٢٣١، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٠ برقم ٤٧١٨.

(٥) موطأ الإمام مالك باب ما يكره للنساء لبسه من الثياب برقم ١٦٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٣٥ برقم ٣٠٨٢.

مرتك هذه، فعليك الجهاد في سبيل الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما خالط قلب امرىء مسلم رهج في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار»[1].

وذات مرة جاءها أخوها عبد الرحمن بن أبي بكر فأساء الوضوء فقالت له عائشة: يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب من النار»[2].

وذات مرة نزلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها على صفية أم طلحة الطلحات فرأت بنات لها يصلين بغير خمر قد حضن، فقالت عائشة: لا تصلّينَّ جارية منهن إلا في خمار، إن رسول الله ﷺ دخل عليّ وكانت في حجري جارية، فألقى عليّ حِقْوَهُ فقال: «شقّيه بين هذه وبين الفتاة التي في حجر أم سلمة، فإني لا أراها إلا قد حاضت»[3].

ويقول عروة: إن عائشة رضي الله عنها أتتها امرأة فقالت: إن ابنتي عروس مرضت فتمزَّق شعرها أفأصل فيه؟ فقالت: «لعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة»[4].

وفي تلاوة القرآن يظن بعض الناس أن السرعة دليل على عظم الثواب وزيادة في الأجر فكلما يكون التالي مُسرعاً يكون ثوابه أعظم وأزيد، فجاء شخص إلى عائشة رضي الله عنها وسألها أن ناساً يقرؤون القرآن في الليلة مرة أو مرتين؟ فقالت: «أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، فلا يمرّ بآية فيها تخوّف إلا دعا الله عزّ وجلّ واستعاذ، ولا يمرّ بآية فيها استبشار إلا دعا الله عزّ وجلّ ورغب إليه»[5]. وكان صحابة رسول الله ﷺ قافلين من سفر حج، وكان فيهم

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ٨٥ برقم ٢٤٥٩٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٥٨ برقم ٢٦٢٥٧.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٦ برقم ٢٤٦٩٠.

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ١١١ برقم ٢٤٧٤٧.

(٥) مسند الإمام أحمد ٦/ ٩٢ برقم ٢٤٦٥٣.

أسيد بن حضير ـ أحد كبار الصحابة وأجلّتهم ـ فلما وصلوا ذا الحليفة كان غلمان من الأنصار تلقوا أهليهم، فلقوا أسيد بن حضير فنعوا له امرأته فتقنع وجعل يبكي، فقالت له عائشة: «غفر الله لك أنت صاحب رسول الله ﷺ ولك من السابقة والقِدَم، مالك تبكي على امرأة؟»[(١)].

ومن المعروف أن الكعبة المشرّفة تكسى كل عام كساءً جديداً ويُنزَع عنها الكساء القديم، وكان من عادة متولّي الكعبة أنه كان يدفن الكساء القديم بعد نزعه منها لكي لا تصيبها يد نجسة، وإن شيبة بن عثمان هو الذي كان في يده مفتاح الكعبة، فدخل على عائشة ﵂ فقال: «يا أم المؤمنين إن ثياب الكعبة تجتمع علينا فتكثر، فنعمد إلى آبار فنحتفرها فنعمقها ثم ندفن ثياب الكعبة فيها كي لا يلبسها الجنب والحائض» فأدركت عائشة ﵂ بفهمها رُوح الشريعة ومقاصدها أن هذا التعظيم لثياب الكعبة أمر غير شرعي، لم يأمر به الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ويمكن أن يسبّب ذلك إفساد العقائد في الزمن التالي، فقالت له: «ما أحسنت ولبئس ما صنعت، إن ثياب الكعبة إذا نزعت منها لم يضرها أن يلبسها الجنب والحائض، ولكن بعها واجعل ثمنها في المساكين وفي سبيل الله»[(٢)]، ولعلّ تقطيع ثياب الكعبة بقطعات ثم بيعها صار بعد هذه الواقعة، وتمكن المسلمون من شرائها يتبركون بها وينظرون إليها بنظر الاحترام والإجلال، ولا شك أن فضل ذلك يرجع إلى عائشة ﵂ التي فتحت باب اقتناء هذه البركة والحصول عليها؛ جاء شخص (يُعتقَد أنه أبو هريرة ﵁) إلى المسجد النبوي بجانب حجرة عائشة ﵂ وبدأ يحدث الناس بصوت عالٍ حتى يُسمّعها، وكانت هي تصلّي، فلما فرغت من صلاتها مرّ بها عروة فقالت له: ألا يعجبك أبو فلان جاء وجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله ﷺ

---

(١) الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٢٨ برقم ٤٩٢٧، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٠٨، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٢، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٧٦ برقم ٣٦٨٠٣.

(٢) البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١٥٩ برقم ٩٥١٢، والفاكهي في أخبار مكة ٥/ ٢٣١ برقم ٢١٠، والزركشي في الإجابة ص ١٦١.

يسمعني ذلك وكنت أسبح؟ فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم»[1].

تقصد رضي الله عنها أنه لا بد من المطابقة بين القول والعمل، للذين يتدارسون الحديث النبوي، وإلا فلا يبقى له أي تأثير في قلوب المستمعين.

ذات مرة كانت عائشة رضي الله عنها في الخيمة بمنى أيام الحج وكان الناس يأتونها لزيارتها فدخل عليها شباب من قريش وهم يضحكون فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرّ على طنب فسطاط، فكادت عنقه أو عينه أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ومُحيت عنه بها خطيئة»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) البخاري في صحيحه كتاب المناقب برقم ٣٥٦٨، ومسلم في صحيحه كتاب الزهد برقم ٢٤٩٣، وأبو داود في سننه كتاب العلم برقم ٣٦٥٤.

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب البر والصلة والآداب برقم ٢٥٧٢.

الفصل الخامس

فضل عائشة ومنتها على نساء العالمين

بهذا الفصل نكون قد قطعنا آخر شوط من هذا الكتاب ووصلنا إلى نهاية مطافه، ولذا رأينا من المناسب أن يكون مسك ختام هذا السفر المختصر وخاتمته تلك الخدمات الجليلة والمآثر العظيمة التي قامت بها أم المؤمنين عائشة ﵂ لصالح أخواتها من بنات حوّاء.

وأكبر فضل وأعظم منّة منّت بها أم المؤمنين عائشة ﵂ على سائر صنف الأنوثة هو أنها أثبتت للعالم أن المرأة المسلمة رغم كونها وراء الحجاب فإنها قادرة على القيام بكل المسؤوليات والواجبات، سواء كانت في مجال الدعوة والإرشاد أو الوعظ والنصيحة والتعليم والتربية أو ميدان السياسة والاجتماع، وبالجملة فإن حياة أم المؤمنين ميزان صادق لتلك المكانة والمرتبة التي أنعم بها الإسلام على المرأة، ونموذج حيّ للدرجة العالية التي تبوّأتها المرأة في الشريعة الإسلامية، حيث رَفَعَتْها درجات فوق أرفع درجة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى، وجاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسعادة في معاملة المرأة، ووهبها منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية، ولو كان هناك من الصحابة من يصدق عليهم خطاب «مسيح الأمة المسلمة» واستأهلوا أن يكونوا «هارون» العهد المحمدي، فالحمد لله على أنه يوجد في الصحابيات من كانت «مريم» الدين المحمّدي.

كانت الصحابيات يعرضن قضاياهن على النبي ﷺ بواسطة أم المؤمنين ﵂ وهي تشفع لهن وتقف بجانبهن وتطالب بحقوقهن المشروعة الكاملة وتدافع عنهن، وإليها وحدها كانت تتطلع أبصار المستضعفات والمضطهدات، كما حدث مع زوجة عثمان بن مظعون ﵁ حيث دخلت على

أم المؤمنين وهي باذة الهيئة، فسألتها: ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، فدخل النبي ﷺ فذكرت عائشة ذلك له، فلقي رسول الله ﷺ عثمان فقال: «يا عثمان إن الرهبانية لم تُكتَب علينا، أفما لكَ فيّ أسوة؟ فوالله إني أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده»[1] يعني أُعطي كل ذي حق حقه، ومنه حق الزوجة.

وكانت حولاء رضي الله عنها من الصحابيات اللاتي لا تنام بالليل، فمرّت بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت للرسول ﷺ: هذه الحولاء، وزعموا أنها لا تنام بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «لا تنام بالليل؟ خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا»[2]. وإن امرأة سرقت في غزوة الفتح فأُتي بها رسولُ الله ﷺ ثم أمر فقُطعتْ يدها، فحسنت توبتها فتزوجت، وكانت تزور عائشة رضي الله عنها فيما بعد فترفع عائشة حاجتها إلى رسول الله ﷺ[3]، بينما قد لا ترضى غيرها أن تأتيها وتزورها. وجاءت صحابية إلى عائشة رضي الله عنها وقد ضربها زوجها وعليها خمار أخضر فشكت إليها وأرتها خضرةً بجلدها، فلما جاء رسول الله ﷺ ـ والنساء ينصر بعضهن بعضاً ـ قالت عائشة: ما رأيت مثلَ ما يَلقى المؤمنات، لَجِلدُها أشد خضرة من ثوبها، فلما سمع زوجها أنها قد أتت رسول الله ﷺ جاء ومعه ابنان له من غيرها، قالت: والله ما لي إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه، وأخذت هدبة من ثوبها، فقال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٢٦ برقم ٢٥٩٣٥، كما أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه ١/ ١٨٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣٠١، باب حق المرأة على الزوج، وكذلك في موارد الظمآن ١/ ٣١٣ برقم ١٢٨٨، ورواه عبد الرزاق في مصنفه ٦/ ٦٨ـ ١٦٧ برقم ١٠٣٧٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٢٤٧ برقم ٢٦١٣٧، كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الصلاة برقم ٧٨٤، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٤ برقم ٣٥٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧ برقم ٤٥١٣.

(٣) صحيح البخاري باب شهادة القاذف والسارق والزاني برقم ٢٦٤٨، وكتاب المغازي برقم ٤٣٠٤، وصحيح الإمام مسلم كتاب الحدود برقم ١٦٨٨، وسنن النسائي كتاب قطع السارق برقم ٤٩٠٣.

«كذبت والله يا رسول الله، إني لأنفضها نفض الأديم ولكنها ناشز تريد رفاعة. . الحديث»[1].

الدفاع عن حقوق المرأة:

وكانت أم المؤمنين ﵂ زعيمة المدافعين عن المرأة وحقوقها، فكانت تُنكر على كل من يتكلم بشيء ينال من كرامة المرأة أو يحطّ منزلتها، وعندما ذكر لها ما يقطع الصلاة من الكلب، والحمار، والمرأة قالت: «إن المرأة إذاً دابة سوء، بئس ما عدلتمونا بالحمار والكلب، ولقد رأيتني وأنا معترضة بين يدي رسول الله ﷺ اعتراض الجنازة وهو يصلّي»[2] وفي رواية: «فإذا أراد أن يسجد غمز رجليّ فضممتهما إليّ ثم يسجد»[3]، وفي هذا ردّ صريح على أولئك الفقهاء الذين يقولون بانتقاض الوضوء بمسّ المرأة، وقد ثار غضب أم المؤمنين ﵂ عندما سمعت حديث أبي هريرة ﵁ يرويه عن النبي ﷺ: «إنما الطِّيَرة في المرأة، والدابة، والدار» فطارت شقة منها في السماء وشقة منها في الأرض وقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول، ولكن كان نبي الله ﷺ يقول: «إنما كان أهل الجاهلية يتطيرون من ذلك»[4].

وهناك بعض الجوانب الفقهية والفروع والجزئيات التي اختلفت فيها آراء العلماء إلا أن عائشة ﵂ اختارت فيها الجانب الذي يكون أكثر سهولة ويُسراً للنساء، لأنها كانت أدرى بمثل هذه الحاجات من الرجال، ثم تخبرهن على ما تختاره من الكتاب والسنّة.

وبالتالي رجّح الفقهاء آراءها في معظم الأحوال، وهي المعوّل عليها والمفتى بها في أغلب البلدان الإسلامية، ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ كان ابن عمرو ﵄ يقول بوجوب نقض الضفائر للنساء عند

---

(١) صحيح البخاري كتاب اللباس باب الثياب الخضر برقم ٥٨٢٥.

(٢) مسند الطيالسي ١/ ٢٠٥ برقم ١٤٥٨.

(٣) سنن أبي داود باب من قال المرأة لا تقطع الصلاة برقم ٧١٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٥٠ برقم ٢٥٢٠٩.

الاغتسال، فلما بلغ عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمرو بن العاص يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن فقالت: «يا عجباً لابن عمرو، هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن، لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات»[١].

٢ ـ التحليق أو التقصير من واجبات الحج والعمرة، فما هو القدر الواجب في ذلك للنساء؟ كان ابن الزبير رضي الله عنهما يفتي المرأة المحرمة أن تأخذ من شعرها قدر أربع أصابع، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها بذلك قالت: «ألا تعجبون من ابن الزبير، يفتي المرأة المحرمة أن تأخذ من شعرها أربع أصابع وإنما يكفيها من ذلك التطريف»[٢].

٣ ـ يحرم على المحرم لبس الخفين إلا لمن لم يجد النعلين، فمن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين[٣]. فكان ابن عمر رضي الله عنهما يفتي بقطع الخفين للمرأة المحرمة، ثم حدثته صفية بنت أبي عبيد أن عائشة حدثتها أن رسول الله ﷺ قد كان رخّص للنساء في الخفين، فترك ذلك[٤].

٤ ـ يحرم على المحرم استخدام الطيب في حالة الإحرام، فاستنتج منه بعض الصحابة منع التطيب عند الإحرام، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: «كنا نخرج مع النبي ﷺ إلى مكة فنضمد جباهنا بالمسك المطيب عند الإحرام، فإذا عرقت إحدانا سال على وجهها، فيراه النبي ﷺ فلا ينهاها»[٥].

٥ ـ روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لا تنتقب المحرمة»[٦] (كانت

---

(١) صحيح الإمام مسلم باب حكم ضفائر المغتسِلة برقم ٣٣١.
(٢) ذكره الزركشي في الإجابة ص ١٥٥ نقلاً عن كتاب الإمام أحمد بن حنبل «المناسك الكبير».
(٣) سنن أبي داود باب ما يلبس المحرم برقم ١٨٢٣.
(٤) سنن أبي داود باب ما يلبس المحرم برقم ١٨٣١.
(٥) سنن أبي داود باب ما يلبس المحرم برقم ١٨٣٠.
(٦) سنن أبي داود ما يلبس المحرم برقم ١٨٢٥/١٨٢٦.

النساء والعرب ينتقبون اتقاءً من الحر الشديد) لكن مواظبة النساء على ذلك كان أمراً صعباً، فقالت عائشة رضي الله عنها: «كان الركبان يمرّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذَوْا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه»[1] فكانت النساء في القرن الأول يعملن بقول عائشة رضي الله عنها، تقول فاطمة بنت المنذر: «كنا نخمّر وجوهنا ونحن محرمات، ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما»[2].

٦ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قام رجل فقال: يا رسول الله ماذا تأمرنا أن نلبس من الثياب في الإحرام؟ فقال النبي ﷺ: «لا تلبسوا القميص ولا السراويلات ولا العمائم ولا البرانس، إلا أن يكون ليست له نعلان فليلبس الخفين، وليقطع أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا شيئاً مسّه زعفران ولا الورس»[3]. فاستدل بعض الصحابة بهذا الحديث على منع النساء من لبس الثياب المصبوغة بالزعفران، إلا أن ما يظهر بعد إمعان النظر في الحديث أن الخطاب يرجع إلى الرجال دون النساء، كما أن الحديث جواب لسؤال سأله رجل من النبي ﷺ، ولذلك نرى أن عائشة رضي الله عنها لبست الثياب المعصفرة وهي محرمة، بل إنها لا ترى بأساً بالحليّ والثوب الأسود والمورّد والخف للمرأة[4].

٧ ـ اختلف العلماء في زكاة حُليّ الذهب والفضة، فذهب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغير واحد من أهل العلم من الصحابة والتابعين إلى وجوب الزكاة، وهو اختيار الأحناف، بينما ذهب ابن عمر، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم إلى عدم وجوب الزكاة. وهو اختيار مالك، والشافعي، وأحمد، ومعروف أن الحلى من الأشياء التي لها صلة بالنساء في

---

(١) سنن أبي داود باب في المحرمة تغطّي وجهها برقم ١٨٣٣.
(٢) موطأ الإمام مالك باب تخمير المحرم وجهه برقم ٧٢٦.
(٣) صحيح البخاري باب ما لا يلبس المحرم من الثياب برقم ١٥٤٢ وبرقم ١٨٣٨.
(٤) صحيح البخاري ترجمة الباب في كتاب الحج.

الأغلب، فيكون رأي عائشة ﵂ هو المعوّل عليه في هذا الموضوع، إلا أنه لم يرد عنها نص صريح أو عمل ظاهر بصدد هذا الموضوع، ففي جانب روى الإمام مالك في الموطأ عن القاسم «أن عائشة ﵂ كانت تلي بنات أخيها يتامى في حِجْرها لهن الحلي، فلا تخرج من حليهن الزكاة»[1].

وفي جانب آخر روى الإمام أبو داود، والدارقطني عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: «دخلنا على عائشة زوج النبي ﷺ فقالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ فرأى في يدي فَتَخَات من وَرِق، فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقلت: صنعتهن أتزيّن لك يا رسول الله، قال: أتؤدين زكاتهن؟ قلت: لا، أو ما شاء الله، قال: هو حسبك من النار»[2] ومن المستحيل أنها لا تؤدي زكاتها

---

(١) موطأ الإمام مالك باب ما لا زكاة فيه من الحلي والتبر والعنبر برقم ٥٨٦، وانظر سنن الترمذي باب ما جاء في زكاة الحلي تحت حديث رقم ٦٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي برقم ١٥٦٥، والدارقطني في سننه باب زكاة الحلي ٢/ ١٠٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٣٩ برقم ٧٣٣٩.
هذا وقد روي الحديث من طريق محمد بن عطاء عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال الدارقطني عن محمد بن عطاء: هذا مجهول، لكن صرّح أبو داود أنه محمد بن عمرو بن عطاء، وهو مشهور، فلا يصح تجريح الدارقطني له، وقال الإمام الترمذي عن حديثه في زكاة الحلي: ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء، ولكن روى الدارقطني عن فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال: «في الحلي زكاة» (٢/ ١٠٧) وأخرج الترمذي أن امرأتين أتتا رسول الله ﷺ وفي أيديهما سواران من ذهب، فقال لهما: «أتؤديان زكاته؟ قالتا: لا، قال: فأديا زكاته» قال أبو عيسى: هذا حديث رواه المثنى عن عمرو بن شعيب نحو هذا، والمثنى وابن لهيعة يُضَعّفان في الحديث، (سنن الترمذي برقم ٦٣٧) إلا أنه توجد روايات أخرى تؤيد هذا المعنى.
وعلى كل فقد اختلف أهل العلم في ذلك من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، ودلائل كلا الفريقين موجودة ومبسوطة في كتب الفقه، وأكبر دليل على وجوب الزكاة في الحلي هو ورود الوعيد الشديد للّذين يكنزون الذهب والفضة ولا يؤدون زكاتهما، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ الآية وأخرج أبو داود في سننه عن أم سلمة ﵂ قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب فقلت: يا رسول الله أكنز هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكّي فليس بكنز» (باب الكنز ما هو وزكاة الحلي برقم ١٥٦٤) وقد اتضح معنى الكنز وتفسيره من هذا الحديث، كما فيه دلالة على أن الحلي وإن كانت للاستعمال فإنها إذا لم تؤد زكاتها فهي من الكنز، وتستوجب الوعيد الشديد الوارد في القرآن الكريم.

بعد سماع هذا الوعيد الشديد، ولذا أخرج الإمام الدارقطني في سننه عن عائشة ﵂ قولها: «لا بأس بلبس الحلي إذا أعطي زكاته»[1] وهذا يدل على أنها كانت ترى وجوب الزكاة في الحُلي، أما ما روي عنها أنها لم تكن تؤدي زكاة حلي بنات أخيها اللاتي كنّ في حجرها، فيمكن القول أنها لا ترى إيجاب الزكاة على الصغار كما هو مذهب كثير من الصحابة والتابعين.

لكن يَرِدُ عليه ما روي عنها في موطأ الإمام مالك أيضاً أنها كانت تخرج الزكاة عن أموال اليتامى الذين كانوا في حجرها، فيجاب عن هذا أنها لا ترى وجوب الزكاة في أموال الصغار بل تقول باستحباب الزكاة، لأن حُلي الصغار كانت موجودة بعينها ولم تحوّلها إلى العروض ولا أعطتها لمن يتّجر فيها حتى تزداد قيمتها بالتجارة والبيع والشراء، كما أن البنات كنّ في حاجة إليها، فكانت عائشة ترى من المناسب أن لا تنقص قيمتها بأداء الزكاة، وأما أموال اليتامى الذين كانوا في حجرها، فإنها قد سلّمتها إلى من يتّجر فيها فترى من المناسب أن تؤدى زكاتها.

٨ ـ لو أراد القاتل دفع الدية لأولياء المقتول فعليه أن يسترضي جميع الأولياء، الأول فالأول، تقول عائشة ﵂: على المقتتلين أن ينحجزوا الأول فالأول وإن كانت امرأة[2]. تعني أن المرأة إذا كانت أحد الأولياء فينبغي أنْ تكفّ أيضاً عن القود، فليس هذا خاصاً بالرجال فقط، وذلك لأن حق الوراثة ليس بخاص بالرجال.

٩ ـ أثبت الإسلام تقديره للمرأة ورعايته لحقوقها بإعطائها حق الميراث، خلافاً لما كان عليه عرب الجاهلية وكثير من الشعوب القديمة الذين كانوا يحرمونها منه، أما في الإسلام فقد تولّى القرآن الكريم بنفسه بيان معظم قضايا الميراث، بما فيها تفاصيل عن أسهم البنات، إلا أن هناك بعض القضايا

---

(١) سنن الدارقطني ١٠٧/٢ برقم ٥، باب ما أدي زكاة الحلي.

(٢) سنن أبي داود كتاب الديات باب عفو النساء برقم ٤٥٣٨، وسنن النسائي كتاب القسامة برقم ٤٧٨٨.

المستجدة في هذا الصدد قد دعت الحاجة إلى بذل مزيد من الجهود وإعمال الفكر لاستنباط الأحكام الشرعية مستمدة من الكتاب والسنّة، فلعبت عائشة ﵂ دوراً رائداً وملموساً في هذا المجال، ولم تأل جهداً في إثبات حقوق المرأة المسلمة.

ومن صور تقسيم الميراث: «إذا خلّف الميت ابنتين وابنة ابن وابن ابن فكيف يقسّم المال بينهم؟ كانت عائشة ﵂ تشرّك بين ابنتين وابنة ابن وابن ابن، فتعطي الابنتين الثلثين وما بقي فتشرّكهم، وكان عبد الله بن مسعود ﵁ لا يشرّك، يعطي الذكور دون الإناث»[1].

١٠ ـ كان النساء يقدمن إلى رسول الله ﷺ للاستفسار عن المسائل بعضها يكون من القضايا الدقيقة قد يصعب شرحها على عامة النساء، وكان ﷺ يمنعه الحياء عن التفصيل في سائر الجزئيات، فكانت عائشة ﵂ هي التي تُعين أخواتها على فهم هذه المسائل، وتجذبها إليها ثم تعلّمها[2]. وكان العرب يفتخرون بإطالة الذيول، وجرِّ الثوب خُيَلاء، فنهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: «من جرّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[3] فقالت عائشة ﵂: «فكيف يصنعُ النساء بذيولهن؟ قال: يرخين شبراً، فقالت: إذاً تنكشف أقدامهن؟ قال: فيرخينه ذراعاً، لا يزدن عليه»[4].

---

(١) سنن الدارمي كتاب الفرائض برقم ٢٨٩٣.

(٢) أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة ﵂ أن امرأة سألت النبي ﷺ عن الحيض كيف تغتسل منه، قال: تأخذين فرصة مُمسَّكة... قالت عائشة: «فعرفت الذي يريد رسول الله ﷺ فجذبتها إليّ فعلّمتها».
(صحيح البخاري كتاب الحيض برقم ٣١٥، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة برقم ٧٣٥٧، وسنن النسائي كتاب الغسل والتيمّم برقم ٤٢٧).

(٣) صحيح البخاري كتاب المناقب برقم ٣٦٦٥، وكتاب اللباس برقم ٥٧٨٣ و ٥٧٨٤، ومسلم في صحيحه باب تحريم جرّ الثوب خيلاء برقم ٢٠٨٥.

(٤) أخرجه الإمام الترمذي باب ما جاء في جرّ ذيول النساء برقم ١٧٣١، وفيه أن أم سلمة هي التي سألت وليست عائشة ﵂، وقد ورد في الروايات الأخرى أن عائشة هي التي سألت، ويمكن التطبيق بالجمع، كما أورده الهيثمي في موارد الظمآن=

١١ - أمر الإسلام بأن تُستأذن البنات عند نكاحهن، فقال النبي ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تُستأذن» إلا أن البكر يصعب عليها الإعراب عن رضاها ورغبتها بلسانها نظراً إلى حيائها الطبيعي والفطري، وقد أحسّت بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت للرسول ﷺ: «يا رسول الله إن البكر تستحي، قال: رضاها صمتها»[(١)].

١٢ - يزوج بعض أولياء الأمور بناتهنّ من دون رضاهنّ، وقد حدث ذلك في عصر النبي ﷺ، تقول عائشة رضي الله عنها: «إن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة، قالت: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها، فقالت: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أُعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء»[(٢)].

١٣ - من طلق زوجته طلقة أو طلقتين، تجب عليه نفقتها وسُكْناها إلى أن تنقضي عِدّتُها، وهذا بإجماع العلماء، لكن إذا طلقها ثلاثاً اختلف العلماء في وجوب النفقة والسكنى على الزوج؟ فقال بعض العلماء بعدم وجوب النفقة والسكنى عليه، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١] في سياق قوله تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ [الطلاق: ١] أي أن الحكمة من الأمر بعدم إخراج المطلقة المعتدة من بيت زوجها إلى بيت آخر هي أمل حصول الصلح بينهما بعد إزالة البغضاء والشحناء، لكن لما

= ١/ ٣٥٠ برقم ١٤٥١، ورواه الدارمي في سننه باب ذيول النساء برقم ٢٦٤٤، وأبو داود في سننه باب في قدر الذيل برقم ٤١١٧، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٤٩٤ برقم ٩٧٣٧، ٩٧٣٨، ٩٧٣٩، وابن ماجه في سننه باب ذيل المرأة كم يكون برقم ٣٥٨٠، وأحمد في مسنده ٦/ ١٢٣ برقم ٢٤٩٦٢ و ٦/ ٢٩٣ برقم ٢٦٥٥٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح برقم ٥١٣٧.

(٢) أخرجه النسائي في سننه باب البكر يزوّجها أبوها وهي كارهة برقم ٣٢٦٩، والدارقطني في سننه ٣/ ٢٣٢ كتاب النكاح، وابن ماجه في سننه باب من زوج ابنته وهي كارهة برقم ١٨٧٤، وعبد الرزاق في المصنف ٦/ ١٤٦ برقم ١٠٣٠٢.

طلّقها ثلاثاً لم يبق أي أمل في رجوعها، ولذا انعدمت علة السكنى في بيت الزوج، فعلم أن الحكم متعلق بالطلاق الرجعي لا البائن، لكن في هذا الاستدلال نظر، لأن الإقامة في بيت الزوج إلى انقضاء العدة بأمل إيجاد الصلح بينهما وترك الفرصة الكافية لإعادة الصفاء بين الزوجين بعد أن تهدأ أعصاب كل منهما، ويريان نتيجة الانفصال وآثاره السيئة على حياتهما فلعلهما يعودان عن الخصام والنزاع ويعود الهدوء والحبّ إلى جوّ الأسرة، ليس هذا هو السبب الكلي فقط، وإنما هناك حكم ومصالح أخرى غير ذلك، ومنها أن المرأة تنتظر لتبرئة الرحم من الحمل، ولا يمكنها أن تتزوج إلا بعد انقضاء عدتها لكي يتحقق أن رحمها خالٍ من أي حمل، ولا شك أن هذا الانتظار كان من أجل الزوج، وبالتالي فهو الذي يتحمل نفقتها وسكناها، وهذا هو الأمر الذي دفع عائشة رضي الله عنها إلى مخالفتها لاستدلال فاطمة بنت قيس بقصتها على جواز الانتقال من بيت الزوج، فقالت: «ما لفاطمة بنت قيس خير في أن تذكر هذا الحديث»[1] وفي رواية البخاري: «أما أنه ليس لها خير في ذكر هذا الحديث» وقالت: «إن فاطمة كانت في مكان وحش فخيف على ناحيتها فلذلك أرخص لها النبي ﷺ[2]»، ولما حدثت نفس الواقعة في عهد مروان أرسلت عائشة إلى مروان بن الحكم وهو أمير المدينة: اتق الله واردها إلى بيتها[3].

كما ورد في بعض الروايات أن فاطمة بنت قيس كانت امرأة فتنت الناس، إنها كانت لسنة، فوضعت على يدي ابن أم مكتوم الأعمى»[4].

١٤ ـ إن المتوفى عنها زوجها تمكث مدة أربعة أشهر وعشراً، ولا تخرج من بيتها، فاستنبط منه بعض العلماء أنها لو كانت مع زوجها تعتد حيث مات

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطلاق برقم ١٤٨١.

(٢) صحيح البخاري باب قصة فاطمة بنت قيس برقم ٥٣٢٦.

(٣) صحيح البخاري باب قصة فاطمة بنت قيس برقم ٥٣٢٢.

(٤) سنن أبي داود كتاب الطلاق برقم ٢٢٩٦، السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٣٣ برقم ١٥٢٧٠، المصنف لعبد الرزاق ٢/ ٢٨٤ برقم ٤١٧٤ و ٧/ ٢٦ برقم ١٢٠٣٨.

زوجها، فإن لم تكن معه فتعتد حيث يأتيها نعي زوجها، ويحرم عليها السفر في هذه الحالة، واحتجوا بما وردت الأحاديث في المنع من خروج المتوفى عنها زوجها من بيتها، وبلدها، ومن تلك الأحاديث: حديث فريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري قالت: خرج زوجي في طلب أعبد له فأدركهم بطرف القدوم فقتلوه، فأتاني نعيه وأنا في دار شاسعة من دور أهلي، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: «إنه أتاني نعي زوجي وأنا في دار شاسعة من دور أهلي لم يدع لي نفقة ولا مالاً، وليس المسكن لي، ولو تحولت إلى إخوتي وأهلي كان أرفق بي في بعض شأني، فقال: تحوّلي، فلما خرجت إلى المسجد أو الحجرة دعاني أو أمر بي فدعيت له، فقال: امكثي في البيت الذي أتاك فيه نعي زوجك حتى يبلغ الكتاب أجله، فاعتدت فيه أربعة أشهر وعشراً»[1] فاستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على منع الخروج من البيت، والمفروض أن يُثبتوا عدم جواز الانتقال إلى البيت إذا كانت خارجة وكذلك عدم العودة إلى البلد إذا كانت خارجها.

ولذلك نرى أم المؤمنين عائشة ﵂ لم تسلّم لهم بهذا الاستدلال، وأخرجت أختها أم كلثوم في عدتها حين قتل عنها طلحة بن عبيد الله، فأخرجتها إلى مكة[2]، ولما حدّث بهذا أيوب فقال: إنها نقلتها إلى بلادها[3]. والواقع أن هذا كان جواباً صحيحاً، لأننا لو تأملنا في ضوء الوقائع التاريخية لوجدنا أن أم المؤمنين عائشة ﵂ لو لم توضّح هذه المسألة لوقعت النساء في مشكلة وواجهت صعوبات كثيرة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٢٦ برقم ٢٨٣٣، والبيهقي في السنن الكبرى باب سكن المتوفى عنها زوجها ٧/ ٤٣٤ برقم ١٥٢٧٤، والنسائي في السنن الكبرى ٣/ ٣٩٣ برقم ٥٧٢٢، وابن أبي شيبة في المصنف ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٧/ ٢٩ برقم ١٢٠٥٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٨١، وابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٣٢، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٤٦٢.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤٦٢.

١٥ ـ كما هو معلوم إن الطلاق أبغض المباحات إلى الله تعالى، وآخر وسيلة يرجع إليها الإنسان في الحياة الزوجية، فكان ينبغي تقليل نسبة وقوعه، وتضييق نطاقه إلى أقصى حد ممكن، ولو خيّر الزوج زوجته بين البقاء والمفارقة فاختارت زوجها فماذا يكون الحكم؟ يرى بعض أهل العلم من الصحابة وقوع طلاق واحد، ولما بلغ ذلك عائشة ﵂ أنكرت هذه الفتوى بشدّة وقالت: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه أفكان طلاقاً[(١)]؟.

كما أن القول بوقوع الطلاق لا يأتي من الأخلاق في شيء، ففيه جرح لشعور الحب والإخلاص والوفاء الذي دفع الزوجة لاختيار زوجها، وكسر لخواطر صنف القوارير، وردّ الجميل بالسيء، ووصمة عار في المجتمع، ولذلك نرى أن جمهور الفقهاء والمحدثين اختاروا قول عائشة ﵂ وأفتوا به.

١٦ ـ لو أُكره أحد على تطليق زوجته وهُدّد بالقتل أو التعذيب لا يقع عليها الطلاق عند عائشة ﵂، تقول ﵂: «لا طلاق في إغلاق»[(٢)] وفي رواية: «لا طلاق في غلاق»[(٣)] وقد سلّم بهذا الأصل سائر الفقهاء والمحدثين، سوى الإمام أبي حنيفة ﵀، وفعلاً لو لم يكن هذا الأصل من أحكام ديننا الإسلامي الحنيف لصعب على المحصنات الغافلات ذوات الشرف والعزة التخلّص من أيدي الجبابرة والمتكبرين من السلاطين والأمراء.

١٧ ـ كان من ضمن أغلال الطقوس وسلاسل التقاليد والعادات التي أثقلت أعناق النساء في الجاهلية عدم تحديد عدد الطلاق، وكذلك عدم تحديد مدة الرجعة بعد الطلاق، فكان الرجل يطلّق أهله ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة، وإن طلقها مئة مرة أو أكثر، حتى قال رجل

---

(١) سنن الترمذي كتاب الطلاق واللعان برقم ١١٧٩، والبخاري في صحيحه كتاب الطلاق برقم ٥٢٦٢.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الطلاق برقم ٢٠٤٦، مستدرك الحاكم ٢/٢١٦ برقم ٢٨٠٢ و ٢٨٠٣، وسنن البيهقي الكبرى ٧/٣٥٧ برقم ١٤٨٧٤، وسنن الدارقطني ٤/٣٦.

(٣) سنن أبي داود كتاب الطلاق برقم ٢١٩٣.

لامرأته: والله لا أطلقك فتبينين مني ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذاك؟ قال: أطلقك، فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة رضي الله عنها فأخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩] قالت عائشة: «فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق ومن لم يكن طلق»[(١)].

١٨ ـ إن موسم الحج يدخل في بداية الشهر، وهذه الفترة بالذات تكون فترة انشغال معظم النساء بالعذر الشرعي، فإن مُنعن من أداء مناسك الحج إلى أن يطهرن ستتحوّل ساحات الحج، والعمرة إلى ساحة القيامة، وتضطر الآلاف من النساء لانتظار انقطاع الدم وحصول الطهارة أو أداء المناسك ناقصة، وكذلك أقاربهن وأولياء أمورهن سوف يضطرون للبقاء معهن، وكلتا الصورتين فيهما من المعاناة والمشكلات للنساء ما لا يمكنهن تحمّله. لكن عائشة رضي الله عنها قد حلّت هذه العقدة وكشفت هذه الغمة بنفسها حيث إنها سألت النبي ﷺ عن هذا الموضوع، فقال لها النبي ﷺ: «يا عائشة: افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري[(٢)]، وإن حدث هذا العذر قريباً من يوم النحر فيسقط عنها طواف الوداع، ولذلك نرى أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذا حجت ومعها نساء تخاف أن يحضن قدمتهن يوم النحر فأفضن، فإن حِضن بعد ذلك لم تنتظرهن فتنفر بهن وهنّ حُيّض إذا كُنّ قد أفضن»[(٣)] وقد خالفها في هذه المسألة من الصحابة زيد، وابن عمر، وعمر رضي الله عنهم، وقد

---

(١) سنن الترمذي كتاب الطلاق واللعان برقم ١١٩٢، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٠٧ برقم ٣١٠٦، وموطأ الإمام مالك ٢/ ٥٨٨ برقم ١٢٢٢، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٤٤ برقم ١٥٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحيض برقم ٣٠٥، وكتاب الحج برقم ١٦٥٠، ومسلم في صحيحه كتاب الحج برقم ١٢١١، ومالك في الموطأ كتاب الحج برقم ٩٤١، والدارمي في سننه كتاب المناسك برقم ١٨٤٦.

(٣) موطأ الإمام مالك كتاب الحج برقم ٩٤٤.

ثبت رجوع زيد، وابن عمر رضي الله عنهما إلى رأيها، أما عمر رضي الله عنه فثبت على رأيه ولم يرجع عنه، حتى إنه قد حبس امرأة قد حاضت في مكة إلى أن طهرت[١].

فلما بلغ ذلك عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان ذلك لا ينفعهن، ولو كان الذي يقولون لأصبح بمنى أكثر من ستة آلاف امرأة حائض كلهن قد أفاضت»[٢] ولا شك أن الرأي الذي يميل إليه كل واحد هو رأي عائشة رضي الله عنها وهو أحق وأجدر بالقبول. ولو لم تكن عائشة بمثابة المرجع والمصدر في مثل هذه المسائل فمن يكون؟

مكانة عائشة وفضلها في عالم النساء:

ها نحن الآن على وشك إكمال دراسة سيرة العبقرية الفذة أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها، وقد بدت لنا من خلال هذه الصفحات معالم حياتها المقدسة ووقائعها جملة وتفصيلاً: ولا شك أن كُلّنا عنده إلمام بأحوال وأخبار مئات نساء العالم العظيمات ذوات الشأن الرفيع والدرجات العالية، كما أن كتب التاريخ والسير سجّلت لنا تراجم نساء العالم اللاتي اشتهرن على السدة العالمية بخصائصهن، وذاع صيتهن في الأوساط العلمية والثقافية، ولكن هل قارنّا بين هذه وتلك؟

إنّ لدينا من قائمة النساء المعروفات غير المسلمات معظمهنَّ من أولئك اللاتي قمن عن طريق المصادفة بعمل يفوق مستوى طبيعتهن، وأصبح ذلك العمل هو السبب الرئيس والأصيل لكسبهن شهرة عظيمة، ونيلهن صيتاً ذائعاً، فنجد مثلاً امرأة نهضت فخطبت خطبة بليغة سحرت بها قلوب الناس، وحركت أوتار خاطرهم، ونفخت فيهم روحاً جديدة من الثورة والمقاومة، أو أفشلت مؤامرة عدو بتدابير خاصة، أو نالت الفوز، ورافقها النجاح في ضرب

---

(١) روى ابن المنذر بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: «طافت امرأة بالبيت يوم النحر ثم حاضت فأمر عمر بحبسها بمكة بعد أن سافر الناس حتى تطهر وتطوف» (شرح الزرقاني على الموطأ ٢/ ٥٠٢).

(٢) الزرقاني على الموطأ باب إفاضة الحائض.

العدوّ ونكايته، فهذه هي الأسباب المباشرة التي جعلتها تشتهر بين الناس، وينال اسمها بقاء سرمدياً وتاريخياً.

فهل من المعقول أن نقارن بين هذه الأعمال التي حصلت بطريقة المصادفة ولفترة مؤقتة، تلك الأعمال والمآثر التي كانت حصلت على وجه الدوام والاستمرار؟

إن لدينا نماذج من النساء الجميلات اللاتي كنّ ملكات الحسن والجمال وغاية في الروعة والبهاء، متوّجات بالتاج الملكي، متمكنات من العرش، لكن كيف كانت نهاية هؤلاء؟ لو تأملنا وأمعنا النظر في تراثنا التاريخي لوجدنا أن نهاية مطافهن كانت الفشل والتحسّر، لا غير، وتاريخ بلاد مصر، وإيران، والروم خير دليل على ما قلناه.

ألا تكون المقارنة بين حياة هذه وتلك التي كانت حياتها حياة نموذجية ناجحة مقدسة سوء أدب؟ بلى.

❁ ❁ ❁

وبصرف النظر عن هذه الجوانب العامة إذا تأملنا في حياة هذه العبقرية أم المؤمنين عائشة ﵂ من ناحية الدين والشرع والخلق والتبجيل والقدسية فيتجلّى لنا أنه لا يدانيها ولا يعدلها أي شهيرة من شهيرات عالم النساء في هذه الخصائص، بل لا نحسب أن امرأة بلغت شأوها من معاصريها أو بعدها في هذه الميزات، إن سجلّات التاريخ البشري عاجزة عن تقديم أي مثال للمرأة غير أم المؤمنين عائشة ﵂ التي قامت بأداء كل الواجبات العلمية، ونهضت بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه، ولعبت دوراً بارزاً ملموساً في الأمور السياسية والاجتماعية بالإضافة إلى المواظبة على الفرائض الدينية، والشرعية والحفاظ على الأخلاق النبيلة والسلوك الحسن القويم.

هذه هي شخصية أم المؤمنين ﵂ التي اتصفت بهذه الصفات العالية وقدمت أمام أكثر من مئة مليون امرأة أسوة حسنة لحياة مثالية كاملة، ورسمت

لكل من أتى بعدها أمثل الطرق وأنفعها، وذلك بمآثرها الخالدة، وعبادتها وخضوعها أمام الباري تعالى، والمُثُل الحيّة والأساليب العملية للأخلاق الرفيعة الفاضلة وتعليمات التزكية والزهد، وشرح الأحكام الدينية والأمور الشرعية شرحاً تفصيلياً، فلها المنّ والفضل من جميع النواحي الدينية والعلمية والاجتماعية على هذا العدد الهائل من صنف النساء.

وعلى هذا لا يوجد أحد في تاريخ النساء المسلمات من يستأهل أن يذكر بإزائها في المرتبة والشرف والمكانة العالية، سوى الأزواج المطهّرات وبنات النبيِّ ﷺ الطاهرات رضوان الله عليهن أجمعين.

وقد أجمع العلماء على أن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، والسيدة فاطمة الزهراء، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهن أجمعين هن خير نساء العالم وأفضلهن إطلاقاً، أما جمهور العلماء فيرون أن السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها هي في المرتبة الأولى، ثم تليها أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ثم تليها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إلا أن هذا الترتيب لا يستند إلى نص صريح أو حديث صحيح ثابت، بل مرجعه اجتهاد العلماء ووجهات نظرهم الخاصة، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة مناقب وفضائل هؤلاء العبقريات الثلاث. ولذلك اختار بعض العلماء التوقف في مسألة التفضيل بينهن، بينما خالف العلّامة ابن حزم رحمه الله في هذه المسألة كل العلماء وزعم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أفضل الناس بعد النبي ﷺ ليس في النساء فحسب بل في الرجال كذلك. وبرهن على دعواه بأدلة وحجج أوردها في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» مبحث فضائل الصحابة.

وأنا أميل في هذه المسألة إلى رأي شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم اللذين يقولان: إن جهات الفضل بينهما متفاوتة كما قاله ابن تيمية، قال في الفتح: وكأنه رأى التوقف، وقال ابن القيم: إن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله فذلك أمر لا يُطلع عليه، فإن عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح، وإن أريد كثرة العلم فعائشة لا محالة، أو شرف الأصل ففاطمة لا

محالة، وهي فضيلة لا يشاركها فيه غير أخواتها، أو شرف السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها»(١).

وبالرغم من أننا نعرف مكانة السيدة «مريم عليها السلام» وقدسيتها عن طريق الإسلام، لكن روايات الإنجيل عاجزة عن أن تميّزها بعمل ما، وكذلك زوجة فرعون «آسية» قد استحقت الفضيلة والشرف في الشريعة الإسلامية، إلا أن التوراة ساكتة عن إظهار شرفها وفضلها ومكانتها، ولذا فإننا نؤمن بشرفهما وفضلهما إجمالاً، لكن لسان التاريخ والوقائع ساكت عن التعبير عن أي مناقب لها، وعلى كل فمن أصدق قولاً وأعدل حكماً من لسان الوحي المعصوم الصادق المصدوق ﷺ: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(٢).

اللهم صل على محمد وعلى آله الأطهار وأصحابه الكرام وأزواجه المطهرات».

❁ ❁ ❁

---

(١) شرح الإمام العلّامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي على المواهب اللدنية للعلّامة القسطلاني ٣/٢٢٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٤١١، كتاب المناقب برقم ٣٧٦٩، كتاب الأطعمة برقم ٥٤١٨، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم ٢٤٣١، سنن الترمذي كتاب الأطعمة برقم ١٨٣٤، سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة برقم ٣٢٨٠.

المصادر والمراجع

١ ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة: للإمام بدر الدين الزركشي، ت: سعيد الأفغاني، ط: المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٥٨هـ.

٢ ـ الآحاد والمثاني: لأحمد بن عمرو بن الضحاك أبي بكر الشيباني، ت: د. باسم فيصل الجوابرة، ط: دار الراية، الرياض ١٤١١هـ.

٣ ـ الأحاديث المختارة: للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، ت: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة ١٤١٠هـ.

٤ ـ إحياء علوم الدين: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ.

٥ ـ الأخبار الطوال: لأبي حنيفة أحمد داود الدينوري، ت: عبد المنعم عامر، ط: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٠م.

٦ ـ أدب الإملاء والاستملاء: لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني، ت: ماكس فايسفايلر، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١هـ.

٧ ـ الأدب المفرد: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٩هـ.

٨ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير، ط: المطبعة الإسلامية بطهران.

٩ ـ الإصابة: للإمام أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، ت: البجاوي، ط: دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ.

١٠ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين: للإمام ابن قيم الجوزية، ط: دار الجيل، بيروت ١٩٧١م.

١١ ـ الأمالي: للحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي، ت: د. إبراهيم القيسي، ط: المكتبة الإسلامية، عمان ـ الأردن ١٤١٢هـ.

١٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: للإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، ت: علي محمد البجاوي، ط: دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ.
١٣ ـ البداية والنهاية: للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ط: مكتبة المعارف، بيروت.
١٤ ـ بلاغات النساء: لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني، ت: د. عبد الحميد الهنداوي، ط: دار الفضيلة، القاهرة.
١٥ ـ تاريخ الخلفاء: للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
١٦ ـ التاريخ الصغير: للإمام البخاري، ت: محمود إبراهيم زايد، ط: مكتبة التراث، القاهرة ١٣٧٩هـ.
١٧ ـ تاريخ الطبري: للإمام محمد بن جرير أبي جعفر الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ.
١٨ ـ التاريخ الكبير: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ت: السيد هاشم الندوي، ط: دار الفكر.
١٩ ـ تاريخ بغداد: لأحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠ ـ تذكرة الحفاظ: للإمام أبي عبد الله شمس الدين الذهبي، ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن ـ الهند ١٣٧٥هـ.
٢١ ـ الترغيب والترهيب: للإمام عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، ت: إبراهيم شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ.
٢٢ ـ تفسير القرطبي: للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر أبي عبد الله القرطبي، ت: أحمد عبد العليم البردوني، ط: دار الشعب، القاهرة ١٣٧٢هـ.
٢٣ ـ التمهيد: للإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبي عمر، ت: العلوي والبكري، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧هـ.
٢٤ ـ تهذيب التهذيب: للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار الفكر، بيروت ١٤٠٤هـ.
٢٥ ـ الجامع الصغير: للإمام جلال الدين السيوطي، ط: جدة المملكة العربية السعودية.

٢٦ ـ جامع معمر بن راشد الأزدي، ت: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ (منشور كملحق لكتاب المصنف للصنعاني ج١٠).
٢٧ ـ الجرح والتعديل: لعبد الرحمن بن أبي حاتم أبي محمد الرازي التميمي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٥٢م، الطبعة الأولى.
٢٨ ـ جزء خلق أفعال العباد: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ت: د. عبد الرحمن عميرة، ط: دار المعارف السعودية، الرياض ١٣٩٨هـ.
٢٩ ـ حجة الله البالغة: للإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشاه ولي الله الدهلوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.
٣٠ ـ حلية الأولياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
٣١ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين: للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢هـ.
٣٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.
٣٣ ـ الزهد: للإمام الهناد بن السري الكوفي، ت: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، ط: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت ١٤٠٦هـ.
٣٤ ـ سنن الإمام سعيد بن منصور، ت: د. سعد بن عبد الله آل حميد، ط: دار العصيمي، الرياض ١٤١٤هـ.
٣٥ ـ سنن الدارقطني، تحقيق عبد الله هاشم المدني، ط: دار المعرفة، بيروت.
٣٦ ـ سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، ترقيم: فواز أحمد زمرلي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٧ ـ السنن الكبرى: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت: عبد القادر عطا، ط: مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤هـ.
٣٨ ـ السنن الكبرى: للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.

٣٩ ـ سنن النسائي: لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، تحقيق وترقيم: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة رَحِمَهُ اللَّهُ، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤٠٦هـ.

٤٠ ـ سير أعلام النبلاء: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٤١ ـ السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي، ط: دار المعرفة، بيروت ١٤٠٠هـ.

٤٢ ـ السيرة النبوية: للإمام عبد الملك بن هشام أبي محمد المعروف بابن هشام، ت: طه عبد الرؤوف سعد، ط: دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ.

٤٣ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لعبد الحي ابن العماد الحنبلي، ط: القدسي بالقاهرة ١٣٥٠هـ.

٤٤ ـ شرح الإمام النووي لصحيح الإمام مسلم، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٢هـ.

٤٥ ـ شرح الزرقاني على الموطأ: لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.

٤٦ ـ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: للإمام القسطلاني، ط: المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٧هـ.

٤٧ ـ شرح معاني الآثار: للإمام أحمد بن محمد بن سلامة أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: زهري النجار، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٨ ـ شعب الإيمان: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: محمد زغلول، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ.

٤٩ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للعلامة القاضي عياض اليحصبي الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ، ت: جماعة من العلماء، ط: مكتبة الفارابي، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

٥٠ ـ الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية: للإمام أبي عيسى الترمذي، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤١٢هـ.

٥١ ـ صحيح الإمام ابن خزيمة: تحقيق: الدكتور مصطفى الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان.

٥٢ ـ صحيح الإمام محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٣ ـ صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق وترقيم: فؤاد عبد الباقي، ط: دار الدعوة إسطانبول.
٥٤ ـ صحيح البخاري: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مع فتح الباري، تحقيق وترقيم: فؤاد عبد الباقي، ط: المطبعة السلفية، القاهرة.
٥٥ ـ صفة الصفوة: لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبي الفرج، ت: محمود الفاخوري ود. رواس قلعجي، ط: دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.
٥٦ ـ طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي تاج الدين عبد الوهاب بن علي، ط: المطبعة الحسينية بمصر.
٥٧ ـ الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد أبي عبد الله البصري الزهري، ط: دار صادر، بيروت.
٥٨ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري: للعلامة بدر الدين العيني.
٥٩ ـ عين الإصابة فيما استدركته السيدة عائشة على الصحابة: تصحيح وتحقيق: العلامة السيد سليمان الندوي، ط: إدارة إسلاميات، لاهور ـ باكستان (مطبوع كملحق لكتاب سيرة السيدة عائشة رضي الله عنها) ١٤١٣هـ.
٦٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للعلامة الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.
٦١ ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث: للإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت: عبد الرحمن محمد عثمان، مطبعة العاصمة، القاهرة.
٦٢ ـ الفتن: لنعيم بن حماد أبي عبد الله المروزي، ت: سمير أمين الزهري، ط: مكتبة التوحيد، القاهرة ١٤١٢هـ.
٦٣ ـ فتوح البلدان: للبلاذري، ت: رضوان محمد رضوان، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.
٦٤ ـ الفردوس بمأثور الخطاب: للإمام أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي، تحقيق: سعيد بن بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٥ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، الطبعة الأولى بالمطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠هـ.
٦٦ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية ومعه التعليقات السنية على الفوائد البهية وكذلك طرب الأماثل بتراجم الأفاضل: للإمام محمد عبد الحي اللكنوي المتوفى ١٣٠٤هـ، ط: دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت.

٦٧ ـ القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ.

٦٨ ـ الكامل في التاريخ: لعز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير، ط: دار صادر، بيروت.

٦٩ ـ كتاب الآثار: للإمام يعقوب بن إبراهيم أبي يوسف الأنصاري، ت: أبو الوفاء، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٥٥هـ.

٧٠ ـ كتاب التعريفات: للإمام علي بن محمد بن علي الجرجاني، ط: دار الكتاب العربي.

٧١ ـ كتاب الثقات: لمحمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، ت: السيد شرف الدين أحمد، ط: دار الفكر ١٩٧٥م.

٧٢ ـ كتاب الخراج: للإمام يعقوب بن إبراهيم الأنصاري أبي يوسف، ط: المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٤٦هـ.

٧٣ ـ كتاب الزهد: لأحمد بن عمر بن أبي عاصم الشيباني، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط: دار الريان للتراث، القاهرة ١٤٠٨هـ.

٧٤ ـ كشف الخفاء: للإمام العجلوني، ط: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ.

٧٥ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: لحاجي خليفة وعبد الله جلبي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ.

٧٦ ـ الكفاية في علم الرواية: للإمام أحمد بن علي بن ثابت أبي بكر الخطيب البغدادي، ط: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٧٧ ـ لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ط: دار صادر، بيروت ١٩٥٥م.

٧٨ ـ لسان الميزان: للإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط: مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٧٩ ـ موطأ الإمام مالك برواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني، ت: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وزارة الأوقاف، القاهرة ـ مصر ١٤٠٧هـ.

٨٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط: دار الريان للتراث، القاهرة ١٤٠٧هـ.

٨١ ـ مختار الصحاح.

٨٢ ـ مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾: للإمام ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٣هـ.
٨٣ ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث: للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٤ ـ مسند الإمام أبي حنيفة: لأبي نعيم الأصبهاني، ت: نظر محمد الفاريابي، ط: مكتبة الكوثر، الرياض ١٤١٥هـ.
٨٥ ـ مسند الإمام أحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي التميمي، ت: حسين سليم أسد، ط: دار المأمون للتراث، دمشق.
٨٦ ـ مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ط: مؤسسة قرطبة بمصر (مطبوع في ست مجلدات).
٨٧ ـ مسند الإمام إسحاق بن راهويه، ت: د. عبد الغفور البلوشي، ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.
٨٨ ـ مسند الإمام سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي، ط: دار المعرفة، بيروت.
٨٩ ـ مسند الحميدي، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٠ ـ المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم: للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٩١ ـ مشكاة المصابيح: للإمام محمد بن خطيب التبريزي، ت: الشيخ ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥م.
٩٢ ـ مصباح الزجاجة: للشيخ أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، ت: محمد المنتقى الكشناوي، ط: دار العربية، بيروت ١٤٠٣هـ.
٩٣ ـ مصنف الإمام أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ.
٩٤ ـ المصنف: للإمام أبي عبد الله ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط: مكتبة الرشد، الرياض.
٩٥ ـ المصنوع في معرفة الموضوع: للإمام الملا علي القاري، ت: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ط: مكتبة الرشد، الرياض.

٩٦ ـ معتصر المختصر: للإمام أبي المحاسن يوسف بن عيسى الحنفي، ط: عالم الكتب، بيروت.
٩٧ ـ المعجم الأوسط: للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ط: دار الحرمين، القاهرة.
٩٨ ـ المعجم الكبير: للإمام سليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، ط: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
٩٩ ـ مكارم الأخلاق: للإمام أبي بكر القرشي، ط: مكتبة القرآن، القاهرة.
١٠٠ ـ المنار المنيف: للإمام ابن قيم الجوزية، ت: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
١٠١ ـ المنتقى: لعبد الله بن علي بن الجارود أبي محمد النيسابوري، ت: عبد الله عمر البارودي، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤٠٨هـ.
١٠٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٣ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: للإمام نور الدين علي بن أحمد المصري السمهودي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
عهد عثمان رضي الله عنه	١٦١
الفصل الثامن: نشوء الفتن ومعركة الجمل:	١٦٣
اعتناق عبد الله بن سبأ الإسلام	١٦٥
استشهاد الخليفة عثمان وبيعة علي رضي الله عنهما	١٦٧
عهد علي رضي الله عنه	١٦٨
الإصلاح وواجبات المرأة المسلمة	١٧٠
عائشة ترفع راية الإصلاح وتغادر إلى البصرة	١٧٢
قصة ماء الحوأب وعزم عائشة على الرجوع	١٧٣
أوضاع المسلمين في الكوفة	١٧٤
خطبة عائشة في البصرة	١٧٧
خطبة أخرى لعائشة	١٧٨
مكاتبة عائشة لأهل الكوفة	١٨١
معركة الجمل	١٨٣
مجهودات القعقاع للإصلاح بين الفريقين	١٨٤
تذكير علي طلحة والزبير رضي الله عنهم بمقالة الرسول ﷺ ورجوعهما عن المعركة وشهادة الزبير رضي الله عنه	١٨٥
عقر جمل عائشة لإيقاف المعركة	١٨٧
توديع علي عائشة وتشييعها بكل الإجلال والتوقير	١٨٨
تأسّف عائشة رضي الله عنها على خطئها الاجتهادي	١٨٩
الرد على القول بالجفاء في علاقة علي بعائشة	١٩٠
رد الإمام الزهري على الوليد بن عبد الملك	١٩٢
عائشة ترشد المستفتين إلى علي رضي الله عنهما	١٩٤
الفصل التاسع: أم المؤمنين في عهد معاوية رضي الله عنهما	١٩٦
رأي عائشة في الخوارج	١٩٧
واقعة دفن الحسن بن علي ريحانة رسول الله ﷺ	١٩٨
موقف عائشة رضي الله عنها	١٩٩
الفصل العاشر: وفاة عائشة رضي الله عنها	٢٠١

الباب الثاني

عائشة: شمائلها ومناقبها ومكانتها العلمية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة